

علم الله رسوله التواضع لئلا يزهو على خلقه، فأمره أن يقر فيقول: إني آدمي مثلكم، إلا أنني خصصت بالوحي وأكرمني الله به يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد لا شريك له { قَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ } أي يخاف المصير إليه وقيل: يأمل رؤية ربه فالرجاء يكون بمعنى الخوف والأمل جميعاً، قال الشاعر: ولا كل ما ترجو من الخير كائن ... ولا كل ما ترجو من الشر واقع فجمع بين المعنيين.

{ قَلْبِعَمَلٍ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } أي: لا يرأى بعمله. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنبأنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن سلمة هو ابن كهيل قال: سمعت جندبا يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من سمع سمع الله به ومن يرأى يرأى الله به" (1).

وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر"، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: "الرياء" (2). أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالح أنبأنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا أبي حدثنا شعيب قال: حدثنا الليث عن أبي الهاد عن عمرو بن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فأنا منه بريء هو للذي عمله" (3).

(1) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الرياء والسمعة: 11 / 335-336 ومسلم في البر والصلة باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى لا تضره، برقم (2642): 4 / 2034-2035، والمصنف في شرح السنة: 14 / 323. (2) أخرجه الإمام أحمد: 5 / 428،429. والمصنف في شرح السنة: 14 / 324، قال الهيثمي: "رجاله رجال الصحيح" وقال المنذري: "إسناده جيد" ورواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الزهد، وغيره. ومحمود بن لبيد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح له منه سماع فيما أرى، وقد خرج أبو بكر بن خزيمة حديث محمود المتقدم في "صحيحه" مع أنه لا يخرج فيه شيئاً من المراسيل. وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال: له صحبة. قال: وقال أبي: لا يعرف له صحبة. ورجح ابن عبد البر أن له صحبة. وقد رواه الطبراني بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج، وقيل: إن حديث محمود هو الصواب دون ذكر رافع فيه، والله أعلم". انظر: الترغيب والترهيب: 1 / 69، مجمع الزوائد: 1 / 102، وقارن ب: النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد ص (46).

(3) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله برقم (2985): 4 / 2289 بلفظ: "تركته وشركه"، ورواه ابن ماجه في الزهد، باب الرياء والسمعة، برقم (4202): 2 / 1405، وقال في الزوائد: "إسناده صحيح". وأخرجه المصنف في شرح السنة: 14 / 325، وانظر: الترغيب والترهيب: 1 / 69 وراجع تفسير ابن كثير: 3 / 109-111 فقد ساق جملة أحاديث في الرياء.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني حدثنا حميد بن زنجويه حدثنا حفص بن عمر حدثنا همام عن قتادة حدثنا سالم بن أبي الجعد الغطفاني عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال" (1).

وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني حدثنا أبو جعفر الرياني حدثنا حميد بن زنجويه حدثنا أبو الأسود حدثنا ابن لهيعة عن زياد عن سهل -هو ابن معاذ- عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ أول سورة الكهف وأخرها كانت له نورا من قدميه إلى رأسه (2) ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء" (3) (4).

(1) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي برقم (809): 1 / 555. والمصنف في شرح السنة: 4 / 469.
(2) في "أ": "من قرنه إلى قدميه".
(3) أخرجه الإمام أحمد في المسند: 3 / 439، قال الهيثمي: "رواه أحمد والطبراني وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف وقد يحسن حديثه". انظر: مجمع الزوائد: 7 / 52. وأخرجه المصنف في شرح السنة: 14 / 469-470.
(4) في آخر نسخة مكتبة الحرم المكي: "تم المصنف الأول من تفسير البغوي بحمد الله وعونه، وافق الفراغ منه بقدس الشريف، في مدرسة الصلاحية -عمرها الله تعالى- يوم الثالث عشر من شوال من شهور سنة خمس وعشرين وثمانمائة هجرية. كاتبه العبد الفقير إلى الله الغني: سليمان بن أحمد بن أحمد بن سليمان الحدادي القرشي حامدا لله تعالى ومصليا على نبيه محمد وآله وأصحابه وأزواجه. يتلوه النصف الثاني؛ أول سورة مريم غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين أجمعين. أمين". ثم يلي هذا سطر فيه تملك النسخة لراجي عفوره وغفرانه: محمد بن محمد الحريري عفا الله عنه.

(5/214)

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2)

سورة مريم مكية، وهي ثمان وتسعون آية (1)
بسم الله الرحمن الرحيم
{ كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) }
قوله عز وجل { كهيعص } قرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء، وضده ابن عامر، وحمزة، وبكسرهما: الكسائي وأبو بكر، والباقون بفتحهما.
ويظهر الدال عند الذال من "صاد ذكر" ابن كثير، ونافع، وعاصم [وبعقوب] (2)
والباقون بالإدغام (3).
قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو اسم من أسماء الله تعالى.
وقال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن.

وقيل: اسم للسورة. وقيل: هو قسم أقسم الله به.
ويروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله { كهيعص } قال: الكاف
من كريم وكبير، والهاء من هاد، والياء من رحيم، والعين من عليم، وعظيم،
والصاد من صادق.

(1) سورة مريم مكية بالإجماع، فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن الزبير
قال: نزلت سورة مريم بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها
قالت: نزلت سورة مريم بمكة. وأخرج الإمام أحمد وابن أبي حاتم، والبيهقي
في "الدلائل" عن أم سلمة: أن النجاشي قال لجعفر ابن أبي طالب: هل معك
مما جاء به -يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم- من الله شيء؟ قال: نعم،
فقرأ عليه صدرا من "كهيعص" فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت
أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلي عليهم. ثم قال النجاشي:
إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. انظر: "الدر المنثور":
476 / 5، "تفسير القرطبي": 11 / 72-73.

(2) ساقط من "ب".
(3) انظر: "زاد المسير" لابن الجوزي: 5 / 204-205 "البحر المحيط": 6 /
172.

(5/215)

إِذْ تَادِي رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا
وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي
عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا
(6)

وقال الكلبي: معناه: كافٍ لخلقه، هاد لعباده، يده فوق أيديهم، عالم ببريته،
صادق في وعده (1) { ذِكْرٌ } رفع بالمضمر، أي: هذا الذي نتلوه عليك ذكر
{ رَحْمَةً رَبِّكَ } [وفيه تقديم وتأخير] (2) معناه: ذكر ربك { عَبْدَهُ زَكْرِيَّا }
برحمته.

{ إِذْ تَادِي رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ
شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ
امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ
رَبِّ رَضِيًّا (6) }

{ إِذْ تَادِي } دعا { رَبَّهُ } في محرابه { نِدَاءً خَفِيًّا } دعا سرا من قومه في
جوف الليل. { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ } ضعف ورق { الْعَظْمُ مِنِّي } من الكبر.
قال قتادة: اشتكى سقوط الأضراس { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ } أي: ابيض شعر
الرأس { شَيْبًا } شمطا { وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا } يقول: عودتني الإجابة
فيما مضى ولم تخيبي.

وقيل: معناه لما دعوتني إلى الإيمان آمنت ولم أشق بترك الإيمان (3).
{ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ } و"الموالي": بنو العم. قال مجاهد: العصبه. وقال أبو
صالح: الكلالة. وقال الكلبي: الورثة (4) { مِنْ وَرَائِي } أي: من بعد موتي.
قرأ ابن كثير: { مِنْ وَرَائِي } بفتح الياء، والآخرين بإسكانها.

{ وَكَانَتْ أُمْرَاتِي عَاقِرًا } لا تلد { فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ } أعطني من عندك { وَلِيًّا } ابنا. { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } قرأ أبو عمرو والكسائي: بجزم الثاء فيهما، على جواب الدعاء، وقرأ الآخرون بالرفع على الحال والصفة، أي: وليا وارثا.

واختلفوا في هذا الإرث؛ قال الحسن: معناه يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة.

(1) انظر هذه الأقوال في: "الطبري" 16 / 41-45، "الدر المنثور" 5 / 477-478، "زاد المسير" 5 / 205-206 وتقدم الكلام على الحروف المقطعة في فواتح السور فيما سبق: 1 / 58-59، وراجع "تفسير الطبري": 1 / 205-224، "تفسير الواحدي" 1 / 25-26.

(2) ساقط من "أ".

(3) ساقط من "أ".

(4) هذه المعاني متقاربة، فالورثة هم العصبة، وبنو العم من الورثة، والكل من الأقارب.

(5/218)

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7)

وقيل: أراد ميراث النبوة والعلم.

وقيل: أراد إرث الحبورة، لأن زكريا كان رأس الأخبار (1).

قال الزجاج: والأولى أن يحمل على ميراث غير المال لأنه يبعد أن يشفق زكريا وهو نبي من الأنبياء أن يرثه بنو عمه ماله.

والمعنى: أنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه على ما كان شاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه وليا (2) صالحا يأمنه على أمته ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع الدين. وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما (3).

{ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا } أي برا تقيا مرضيا.

{ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) }

قوله عز وجل: { يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ } وفيه اختصار، معناه: فاستجاب الله دعاءه فقال: يا زكريا إنا نبشرك، { بِغُلَامٍ } بولد ذكر (4) { اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } قال قتادة والكلبى: لم يسم أحد قبله يحيى (5).

(1) انظر هذه الأقوال في: "تفسير القرطبي": 16 / 47-48، "زاد المسير": 5 / 207-208، "الدر المنثور": 5 / 480.

(2) في "ب": ولدا.

(3) وهذا الذي مال إليه المصنف -رحمه الله- هو ما رجحه ابن كثير وأيده من وجوه، فقال: (3 / 112): "وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في

الناس تصرفا سيئا، فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده، ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة، وأجل قدرا من أن يشفق على ما هذا حده، وأن يأنف من

ورائه عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحزر ميراثه دونهم. هذا وجه. والوجه الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا، ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهدي شيء في الدنيا. والوجه الثالث: أنه قد ثبت في "الصحيحين" من غير وجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نورث ما تركناه صدقة" وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث" وعلى هذا فتعين حمل قوله: (فهب لي من لدنك وليا يرثني) على ميراث النبوة، ولهذا قال: (ويرث من آل يعقوب)، كقوله: (وورث سليمان داود) أي في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل: أن الولد يرث أباه. فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها. وكل هذا يقرره ويثبتته ما صح في الحديث: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث" وعلى هذا فتعين حمل قوله: (فهب لي من لدنك وليا يرثني) على ميراث النبوة، ولهذا قال: (ويرث من آل يعقوب)، كقوله: (وورث سليمان داود) أي في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل: أن الولد يرث أباه. فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها. وكل هذا يقرره ويثبتته ما صح في الحديث: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة". ثم ساق -ابن كثير- بعض الآثار والروايات فيها ما يدل على أن الوراثة وراثة مال، وقال عنها: "وهذه مراسلات لا تعارض الصحاح" والله أعلم. وانظر: "مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب أي التنزيل" ص (209).

(4) زيادة من "ب".
(5) رجح الطبري هذا التأويل في "التفسير": 16 / 50. فإن اعترض معترض فقال: ما وجه المدحة باسم لم يسم به أحد قبله ونرى كثيرا من الأسماء لم يسبق إليها؟ فالجواب: أن وجه الفضيلة أن الله تعالى تولى تسميته، ولم يكل ذلك إلى أبويه، فسماه باسم لم يسبق إليه. انظر: "زاد المسير": 5 / 210-211.

(5/219)

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8)
قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّبٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) قَالَ
رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10)

وقال سعيد بن جببر وعطاء: لم نجعل له شيئا ومثلا كما قال الله تعالى: "هل تعلم له سميا" أي مثلا.

والمعنى: أنه لم يكن له مثل، لأنه لم يعص ولم يهجم بمعصية قط. وقيل: لم يكن له مثل في أمر النساء، لأنه كان سيذا وحصورا. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي لم تلد العواقر مثله ولدا.

وقيل: لم يرد الله به اجتماع الفضائل كلها ليحيى، إنما أراد بعضها، لأن الخليل والكليم كانا قبله، وهما أفضل منه.

{ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا }

(8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئُ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) { قَالَ رَبِّ أَنِّي { مِنْ أَيْنَ { يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا { أَي: وامراتي عاقرة (1) . { وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا { أَي: يبسا، قال قتادة: يريد نحول العظم، يقال: عتا الشيخ يعتو عتيا وعسيا: إذا انتهى سنه وكبر، وشيخ عات وعاس: إذا صار إلى حالة اليبس والجفاف. وقرأ حمزة والكسائي: عتيا وبكيا وصليا وجثيا بكسر أوائلهن، والباقون برفعها، وهما لغتان. { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئُ { يسير { وَقَدْ خَلَقْتُكَ { قرأ حمزة والكسائي " خلقناك " بالنون والألف على التعظيم، { مِنْ قَبْلُ { أَي من قبل يحيى { وَلَمْ يَكُ شَيْئًا { { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً { دلالة على حمل امرأتي { قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا { أَي: صحيحا سليما من غير ما بأس ولا خرس. قال مجاهد: أي لا يمنعك من الكلام مرض.

(1) وعلى هذا فـ "كانت": توكيد للكلام، كقوله تعالى: (كنتم خير أمة) (آل عمران-110) أي: أنتم خير أمة. وقيل معنى الآية: أنها كانت منذ كانت عاقرا، لم يحدث ذلك بها. ذكر هذين القولين ابن الأنباري واختار الأول منهما. انظر: "زاد المسير": 211 / 5.

(5/220)

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)

وقيل: ثلاث ليال سويا أي متتابعات، والأول أصح (1) . وفي القصة: أنه لم يقدر فيها أن يتكلم مع الناس فإذا أراد ذكر الله تعالى انطلق لسانه (2) . { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) {

(1) وهو أيضا ما رجحه الطبري: 52 / 16. وحكى القول الثاني عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية العوفي.. وانظر: "تفسير ابن كثير": 3 / 113. (2) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: حبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحدا، وهو في ذلك يسبح ويقرأ التوراة، فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم. انظر: "الدر المنثور": 5 / 483، "البحر المحيط": 6 / 176 وراجع فيما سبق: 2 / 36.

(5/221)

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13)

{ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَتَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) }

قوله عز وجل: { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ } وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون، إذ خرج عليهم زكريا متغيرا لونه فأنكروه، وقالوا: ما لك يا زكريا؟ { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ } فأوما إليهم، قال مجاهد: كتب لهم في الأرض، { أَنْ سَبِّحُوا } أي: صلوا لله (1) { بُكْرَةً } غدوة { وَعَشِيًّا } ومعناه: أنه كان يخرج على قومه بكرة وعشيا فبأمرهم بالصلاة، فلما كان وقت حمل امرأته ومنع الكلام حتى (2) خرج إليهم فأمرهم بالصلاة إشارة. قوله عز وجل: { يَا يَحْيَى } قيل: فيه حذف معناه: ووهبنا له يحيى وقلنا له: يا يحيى، { خُذِ الْكِتَابَ } يعني التوراة { بِقُوَّةٍ } بجد { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: النبوة { صَبِيًّا } وهو ابن ثلاث سنين.

وقيل: أراد بالحكم فهم الكتاب (3) فقرأ التوراة وهو صغير. وعن بعض السلف: من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتي الحكم صبيا (4) { وَحَتَانًا مِنْ لَدُنَّا } رحمة من عندنا، قال الحطبي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: تحنن علي هداك المليك ... فإن لكل مقام مقالا (5)

(1) ساقط من "أ".

(2) ساقط من "ب".

(3) وهو الراجح عند الطبري وغيره من العلماء.

(4) أخرجه ابن مردويه والبيهقي في "شعب الإيمان" عن ابن عباس مرفوعا. وأخرجه ابن أبي حاتم والديلمي موقوفا على ابن عباس أيضا انظر: "الدر المنثور": 5 / 485، "كشف الخفاء" للعجلوني: 2 / 86، كنز العمال برقم (2452).

(5) انظر: "ديوان الحطبي" ص (222)، "تفسير الطبري": 16 / 57، "البحر المحيط": 6 / 177.

(5/221)

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أهلكها مكانًا سرقيا (16)

أي: ترحم.

{ وَزَكَاةً } قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني بالزكاة الطاعة والإخلاص. وقال قتادة رضي الله عنه: هي العمل الصالح، وهو قول الضحاك. ومعنى الآية: وآتيناه رحمة من عندنا وتحننا على العباد، ليدعوهم إلى طاعة ربهم ويعمل عملا صالحا في إخلاص.

وقال الكلبي: يعني صدقة تصدق الله بها على أبويه.

{ وَكَانَ تَقِيًّا } مسلما ومخلصا مطيعا، وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولا هم بها (1).

{ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أهلكها مكانًا سرقيا)

{ 16 }
 { وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ } أي بارا لطيفا بهما محسنا إليهما. { وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا }
 و"الجبار": المتكبر، وقيل: "الجبار": الذي يضرب ويقتل على الغضب،
 و"العصي": العاصي. { وَسَلَامٌ عَلَيْهِ } أي: سلامة له، { يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ
 وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا } قال سفيان بن عيينة: أوحش 6/ب (2) ما يكون الإنسان في
 هذه الأحوال: يوم ولد فيخرج مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوما لم يكن
 عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر لم ير مثله. فخص يحيى بالسلامة
 في هذه المواطن (3). قوله عز وجل: { وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ } في القرآن
 { مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَّتْ } تنحت واعتزلت { مِنْ أَهْلِهَا } من قومها { مَكَانًا شَرْقِيًّا }
 أي: مكانا في الدار مما يلي المشرق، وكان يوما شاتيا شديد البرد، فجلست
 في مشرقه تفلي رأسها.
 وقيل: كانت طهرت من المحيض، فذهبت لتغتسل.

(1) أخرج الطبري في التفسير: 16 / 58، وأحمد في "الزهد" وعبد الرزاق،
 وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: كان سعيد بن
 المسيب يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من أحد يلقى الله يوم
 القيامة إلا ذا ذنب، إلا يحيى بن زكريا". وقال الحسن: قال النبي صلى الله
 عليه وسلم: "ما أذنب يحيى بن زكريا قط ولا هم بامرأة". وكلاهما مرسل:
 انظر: "الدر المنثور": 5 / 486-487، "تفسير ابن كثير": 3 / 114-115، فقد
 ساق هذه الروايات وغيرها وأشار إلى ضعفها.
 (2) 6/ب بداية الصفحة الأولى في المجلد الثاني لمخطوط الظاهرية.
 (3) أخرجه الطبري عن سفيان بن عيينة: 16 / 58-59.

(5/222)

فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ
 إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ
 غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20)

قال الحسن: ومن ثم اتخذت النصارى المشرق قبلة (1).
 { فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)
 قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ
 لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا }
 (20)

{ فَاتَّخَذَتْ } فضربت { مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا } قال ابن عباس رضي الله عنهما:
 سترًا.

وقيل: جلست وراء جدار. وقال مقاتل: وراء جبل.
 وقال عكرمة: إن مريم كانت تكون في المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت
 خالتها، حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي تغتسل من المحيض قد
 تجردت، إذ عرض لها جبريل في صورة شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر
 سوي الخلق، فذلك قوله:

{ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } يعني: جبريل عليه السلام { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا }

وقيل: المراد من الروح عيسى عليه السلام، جاء في صورة بشر فحملت به
والأول أصح فلما رأت مريم جبريل يقصد نحوها نادته من بعيد ف: { قَالَتْ إِنِّي
أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا } مؤمنا مطيعا.
فإن قيل إنما يستعاذ من الفاجر، فكيف قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت
تقيا؟

قيل: هذا كقول القائل: إن كنت مؤمنا فلا تظلمني. أي: ينبغي أن يكون إيمانك
مانعا من الظلم وكذلك هاهنا.

معناه: وينبغي أن تكون تقواك مانعا لك من الفجور (2). { قَالَ } لها جبريل:
{ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ } قرأ نافع وأهل البصرة: "ليهب لك" بالياء،
أي: ليهب لك ربك، وقرأ الآخرون: "لأهب لك" أسند الفعل إلى الرسول، وإن
كانت الهبة من الله تعالى، لأنه أرسل به.

{ غُلَامًا زَكِيًّا } ولدا صالحا طاهرا من الذنوب. { قَالَتْ } مريم { إِنِّي } من
ابن { يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسُّنِي بَشَرٌ } لم يقربني زوج { وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا }
فاجرة؟ تريد أن الولد يكون من نكاح أو سفاح، ولم يكن هنا واحد منهما.

(1) انظر هذه الأقوال وغيرها: الطبري 16 / 59-60، "الدر المنثور": 5 /
494، "زاد المسير": 6 / 216-217.

(2) انظر بتفصيل أوسع: "مسائل الرازي وأجوبتها عن غرائب آي التنزيل" ص
(210-211).

(5/223)

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا
مَّقْضِيًّا (21) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22)

{ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ } وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا
مَّقْضِيًّا (21) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) {
{ قَالَ } جبريل: { كَذَلِكَ } قيل: معناه كما قلت يا مريم ولكن، { قَالَ رَبُّكَ }
وقيل هكذا قال ربك، { هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ } أي: خلق ولد بلا أب، { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً }
علامة، { لِلنَّاسِ } ودلالة على قدرتنا، { وَرَحْمَةً مِنَّا } ونعمة لمن تبعه على
دينه، { وَكَانَ } ذلك، { أَمْرًا مَّقْضِيًّا } محكوما مفروغا عنه لا يرد ولا يبدل.
قوله عز وجل: { فَحَمَلَتْهُ } قيل: إن جبريل رفع درعها فنفخ في جيبه (1)
فحملت حين لبست.

وقيل: مد جيب درعها بأصبعه ثم نفخ في الجيب.

وقيل: نفخ في كم قميصها. وقيل: في فيها.

وقيل: نفخ جبريل عليه السلام نفخا من بعيد فوصل الريح إليها فحملت بعيسى
في الحال (2) { فَانْتَبَدَّتْ بِهِ } أي تنحت بالحمل وانفردت، { مَكَانًا قَصِيًّا }
بعيدا من أهلها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم، فرارا من
قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج.

واختلفوا في مدة حملها ووقت وضعها؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان
الحمل والولادة في ساعة واحدة.

وقيل: كان مدة حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء.

(1) في "ب": جيبها.
(2) قال الشيخ الشنقيطي في "أضواء البيان": (4 / 241). أشار الله تعالى إلى كيفية حمل مريم: أنه نفخ فيها، فوصل النفخ إلى فرجها، فوقع الحمل بسبب ذلك، كما قال: "ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا" (سورة التحريم-12) وقال: "والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا" (سورة الأنبياء-91). والذي عليه الجمهور من العلماء: أن المراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله تعالى: "إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا"، ولا ينافي ذلك إسناد الله جل وعلا النفخ المذكور لنفسه في قوله: "فنفخنا" لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيتته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ، فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ، ومن أجل كونه بإذنه ومشيتته وأمره تعالى، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل منه إلا بمشيئته جل وعلا - أسنده إلى نفسه. وقول من قال: إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط. بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوق الحمل.

(5/224)

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا (23)

وقيل: كان مدة حملها ثمانية أشهر، وكان ذلك آية أخرى لأنه لا يعيش ولد يولد لثمانية أشهر، وولد عيسى لهذه المدة وعاش.
وقيل: ولدت لسته أشهر.

وقال مقاتل بن سليمان: حملته مريم في ساعة، وصور في ساعة، ووضعت في ساعة حين زالت الشمس من يومها، وهي بنت عشر سنين (1) وكانت قد حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى (2).
{ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا (23) }

{ فَأَجَاءَهَا } أي أَلجأها وجاء بها، { الْمَخَاضُ } وهو وجع الولادة، { إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ } وكانت نخلة يابسة في الصحراء، في شدة الشتاء، لم يكن لها سعف.
وقيل: التجأت إليها لتستند إليها وتتمسك بها على وجع الولادة، { قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا } تمنى الموت استحياء من الناس وخوف الفضيحة، { وَكُنْتُ نَسِيًّا } قرأ حمزة وحفص { نَسِيًّا } بفتح النون، [والباقون بكسرهما] (3) وهما لغتان، مثل: الوتر والوتر، والجسر والجسر، وهو الشيء المنسي "و"النسي" في اللغة: كل ما ألقى ونسي ولم يذكر لحقارته.
{ مَنَسِيًّا } أي: متروكا قال قتادة: شيء لا يعرف ولا يذكر. قال عكرمة والضحاك ومجاهد: جيفة ملقاة. وقيل: تعني لم أخلق.

(1) ساقط من "أ".

(2) أوصل بعض المفسرين الأقوال في مدة حملها إلى سبعة أقوال، والظاهر من الآية المتبادر من التعقيب بحرف الفاء هو قول ابن عباس رضي الله عنه حيث قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت. واستغربه ابن كثير رحمه الله لأن الفاء وإن كانت للتعقيب، لكن تعقيب كل شيء بحسبه. ثم رجح رأي الجمهور فقال: "فالمشهور الظاهر، والله على كل شيء قدير، أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن، وإن كان منشؤه خارقاً للعادة. والسياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته، هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء، وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة، فإذا هي علقه فمصغة فعظام ثم تكسي العظام باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟ إن هذا جائز، فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية. كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصاراً، ويعقبها تكون الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة.. وليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين، فلا يجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لا سند لنا فيها. والله أعلم. انظر: "زاد المسير": 5 / 219، "ابن كثير": 3 / 117، "في ظلال القرآن" 4 / 2306-2307، طبعة دار الشروق، "أضواء البيان": 4 / 244.

(3) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(5/225)

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24)

{ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) }
 { فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا } قرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي وحفص: { مِنْ تَحْتِهَا } بكسر الميم والتاء، يعني جبريل عليه السلام، وكانت مريم على أكمة وجبريل وراء الأكمة تحتها فناداها.
 وقرأ الآخرون بفتح الميم والتاء، وأراد جبريل عليه السلام أيضاً، ناداها من سفح الجبل.
 وقيل: هو عيسى لما خرج من بطن أمه ناداها: { أَلَا تَحْزَنِي } وهو قول مجاهد والحسن (1) .
 والأول قول ابن عباس رضي الله عنهما والسدي وقتادة والضحاك وجماعة: أن المنادي كان جبريل لما سمع كلامها وعرف جزعها ناداها ألا تحزني.
 { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا } و"السري": النهر الصغير.
 وقيل: تحتك أي جعله الله تحت أمرك إن أمرته أن يجري جرى، وإن أمرته بالإمساك أمسك.
 قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضرب جبريل عليه السلام -ويقال: ضرب عيسى عليه الصلاة والسلام- برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب وجرى (2) .
 وقيل: كان هناك نهر يابس أجرى الله سبحانه وتعالى فيه الماء وحييت النخلة اليابسة، فأورقت وأثمرت وأرطبت.
 وقال الحسن: "تحتك سريراً" يعني: عيسى وكان والله عبداً سريراً، يعني: رقيقاً (3) .

(1) واختار التفسير ابن زيد وابن جرير الطبري في التفسير: (16 / 68) وذلك أنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل، فرده الذي هو أولى من رده على الذي هو أبعد منه، ألا ترى في سياق قوله: "فحملته فانتبذت به مكانا قصيا" يعني به: فحملت عيسى فانتبذت به، ثم قيل: "فناداها" نسفا على ذلك من ذكر عيسى والخبر عنه، ولعلة أخرى، وهي قوله: "فأشارت إليه" ولم تشر إليه إن شاء الله إلا وقد علمت أنه ناطق في حالة تلك، وللذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها: "أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرى" وما أخبر الله عنه أنه قال لها: أشيري للقوم إليه، ولو كان ذلك قولاً من جبرائيل، لكان خليفاً أن يكون في ظاهر الخبر، مبيناً أن عيسى سينطق، ويحتج عنها للقوم، وأمر منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله.

(2) انظر: "تفسير الخازن": 4 / 197.

(3) ورجح الطبري: (16 / 71) القول الأول فقال: "وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قيل من قال: عني به الجدول، وذلك أنه أعلمها ما قد أعطاه الله من الماء الذي جعله الذي جعله عندها، وقال لها: "وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي" من هذا الرطب، "واشربي" من هذا الماء "وقري عيناً" بولدك. و"السري" معروف من كلام العرب أنه النهر الصغير." وقد رويت أحاديث مرفوعة في ذلك لا يصح منها شيء، وإن كان هو الأقرب إلى الصواب من قول من قال أن المراد بالسري "عيسى" عليه السلام، وإن كان من معاني "السري": الرفيع مكانة. انظر: "الكافي الشاف" ص (105-106)، "تفسير ابن كثير": 3 / 118، "مجمع الزوائد": 7 / 54-55، "أضواء البيان" للشنقيطي: 4 / 248-249.

(5/226)

وَهَزِّي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا (25)

{ وَهَزِّي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا (25) }

(5/227)

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)

{ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26) }

{ وَهَزِّي إِلَيْكَ } يعني قيل لمريم: حركي { بِجِذْعِ النَّخْلَةِ } تقول العرب: هزه وهزه به، كما يقول: حز رأسه وحز برأسه، وأمّدد الحبل وأمّدد به، { تُسَاقِطُ عَلَيْكَ } القراءة المعروفة بفتح التاء والقاف وتشديد السين، أي: تنساقط، فأدغمت إحدى التاءين في السين أي: تسقط عليك النخلة رطباً، وخفف حمزة السين وحذف التاء التي أدغمها غيره.

وقرأ حفص بضم التاء وكسر القاف خفيف على وزن تفاعل. وتساقط بمعنى أسقط، والتأنيث لأجل النخلة.
 وقرأ يعقوب: "يساقط" بالياء مشددة ردة إلى الجذع.
 { رُطْبًا جَنِيًّا } مجنيا. وقيل: الجني هو الذي بلغ الغاية، وجاء أوان اجتنائه. قال الربيع بن خثيم: ما للنفساء عندي خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل (1). قوله سبحانه وتعالى: { فَكَلِمِي وَأَشْرَبِي } أي: فكلي يا مريم من الرطب، واشربي من ماء (2) النهر { وَقَرِّي عَيْنًا } أي: طيبي نفسا. وقيل: قري عينك بولدك عيسى. يقال: أقر الله عينك 7/أ أي: صادف فؤادك ما يرضيك، فتقر عينك من النظر إلى غيره. وقيل: أقر الله عينه: يعني أنامها، يقال: قر يقر إذا سكن.
 وقيل: إن العين إذا بكت من السرور فالدمع بارد، وإذا بكت من الحزن فالدمع يكون حارا، فمن هذا قيل: أقر الله عينه وأسخن الله عينه.
 { فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا } أي: تري، فدخل عليه نون التأكيد فكسرت الياء لالتقاء الساكنين.
 معناه: فإذا ترين من البشر أحدا فيسألك عن ولدك { فَقُولِي إِنِّي تَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا } أي: صمتا وكذلك كان يقرأ ابن مسعود رضي الله عنه. والصوم في اللغة الإمساك عن الطعام والشراب (3) والكلام (4).

- (1) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، انظر: "الدر المنثور": 5 / 505.
 (2) ساقط من "أ".
 (3) ساقط من "أ".
 (4) انظر: "لسان العرب": 12 / 350-351.

(5/227)

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28)

قال السدي: كان في بني إسرائيل من أراد أن يجتهد صام عن الكلام، كما يصوم عن الطعام، فلا يتكلم حتى يمسي.
 وقيل: إن الله تعالى أمرها أن تقول هذا إشارة.
 وقيل أمرها أن تقول هذا القدر نطقا، ثم تمسك عن الكلام بعده.
 { فَلِنْ أَلَكُمُ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا } يقال: كانت تكلم الملائكة، ولا تكلم الإنس.
 { فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) }
 { فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ } قيل: إنها ولدتها، ثم حملته في الحال إلى قومها.
 وقال الكلبي: حمل يوسف النجار مريم وابنها عيسى [عليهما السلام] (1) إلى غار، ومكثت أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها (2) ثم حملته مريم عليها السلام إلى قومها. فكلمها عيسى عليه السلام في الطريق فقال: يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه، فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا، وكانوا أهل بيت صالحين (3) { قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا }

عظيما منكرا، قال أبو عبيدة: كل أمر فائق من عجب أو عمل فهو فري.
قال النبي صلى الله عليه وسلم في عمر: "فلم أر عبقريا يفري فريه" (4) أي:
يعمل عمله. { يَا أُخْتِ هَارُونَ } يريد يا شبيهة هارون، قال قتادة وغيره: كان
هارون رجلا صالحا عابدا في بني إسرائيل. روي أنه اتبع جنازته يوم مات
أربعون ألفا كلهم يسمى "هارون" من بني إسرائيل سوى سائر الناس
[شبهوها به على] (5) معنى إنا ظننا أنك مثله في الصلاح. وليس المراد منه
الأخوة في النسب، كما قال الله تعالى: "إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين"
(الإسراء: 27) أي أشباههم.
أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد أخبرنا محمد بن
عيسى أخبرنا إبراهيم بن محمد بن محمد بن سفيان حدثنا مسلم بن الحجاج
حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير

(1) ساقط من "أ".

(2) عزاه السيوطي في الدر: (5 / 506) لسعيد بن منصور وابن عساكر عن
ابن عباس، دون أن يذكر يوسف النجار. وتقدم أن الكلبي ضعيف.

(3) انظر: "البحر المحيط": 6 / 187.

(4) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: 6 / 629-

630، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل عمر رضي الله عنه، برقم)

(2393): 4 / 1862.

(5) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(5/228)

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)

حدثنا ابن إدريس عن أبيه عن سماك بن حرب عن علقمة بن وائل عن المغيرة
بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرأون: { يَا أُخْتِ
هَارُونَ } وموسى قبل عيسى بكذا وكذا! فلما قدمت على رسول الله صلى
الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال: "إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين
قبلهم" (1).

وقال الكلبي: كان هارون أخا مريم من أبيها، وكان أمثل رجل في بني
إسرائيل.

وقال السدي: إنما عنوا به هارون أخا موسى، لأنها كانت من نسله كما يقال
للتميمي: يا أخا تميم.

وقيل: كان هارون رجلا (2) فاسقا في بني إسرائيل عظيم الفسق فشبهوها به
(3).

{ مَا كَانَ أَبُوكَ } عمران { أَمْرًا سَوَاءً } قال ابن عباس رضي الله عنهما:

زانيا، { وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ } حنة { بَغِيًّا } أي زانية، فمن أين لك هذا الولد؟

{ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) }

{ فَأَشَارَتْ } مريم { إِلَيْهِ } أي إلى عيسى عليه السلام: أن كلموه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لما لم تكن لها حجة أشارت إليه ليكون كلامه
حجة لها (4).

وفي القصة: لما أشارت إليه غضب القوم، وقالوا مع ما فعلت تسخرين بنا؟ (5)
 { قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا } أي: من هو في المهد، وهو حجرها.
 وقيل: هو المهد بعينه، و"كان" بمعنى: هو. وقال أبو عبيدة: "كان" صلة، أي: كيف نكلم صبيا في المهد. وقد يجيء "كان" حشوا في الكلام لا معنى له كقوله "هل كنت إلا بشرا رسولا" (الإسراء:93) أي: هل أنا (6) ؟ قال السدي: فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم. وقيل: لما أشارت إليه ترك الثدي واتكأ على يساره، وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه:

(1) أخرجه مسلم في الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، برقم (2135): 3 / 1685، والمصنف في شرح السنة: 12 / 328.

(2) ساقط من "أ".

(3) انظر في ذه الأقوال: "تفسير الطبري": 16 / 77-78، "الدر المثور": 5 / 507-508، زاد المسير": 5 / 227. قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك ما جاء به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكرناه، وأنها نسبت إلى رجل من قومها".

(4) انظر "تفسير الخازن": 4 / 198.

(5) انظر "البحر المحيط": 6 / 187.

(6) انظر في هذا كله: "تفسير الطبري": 16 / 79، "البحر المحيط": 6 / 187، "زاد المسير": 5 / 228.

(5/229)

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا سَفِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)

{ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا سَفِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) } وقال وهب: أتاه زكريا عند مناظرتها اليهود، فقال لعيسى: انطق بحجتك إن كنت أمرت بها، فقال عند ذلك عيسى عليه السلام وهو ابن أربعين يوما -وقال مقاتل: بل هو يوم ولد-: إني عبد الله أقر على نفسه بالعبودية لله عز وجل أول ما تكلم لئلا يتخذ إلهها (1) { آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا } قيل: معناه سيؤتيني الكتاب ويجعلني نبيا.

وقيل: هذا إخبار عما كتب له في اللوح المحفوظ، كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: متي كنت نبيا؟ قال: "كنت نبيا وأدم بين الروح والجسد" (2).

وقال الأكثرون أوتي الإنجيل وهو صغير طفل، وكان يعقل عقل الرجال. وعن الحسن: أنه قال: ألهم التوراة وهو في بطن أمه (3). { وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ } أي نفاعا حيث ما توجهت. وقال مجاهد: معلما للخير. وقال

عطاء: أدعو إلى الله وإلى توحيده وعبادته. وقيل: مباركا على من تبعني.
 { وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزُّكَاةِ } أي: أمرني بهما.
 فإن قيل: لم يكن لعيسى مال فكيف يؤمر بالزكاة؟
 قيل: معناه بالزكاة لو كان لي مال وقيل: بالاستكثار من الخير.
 { مَا دُمْتُ حَيًّا } { وَبَرًّا بِوَالِدَتِي } أي وجعلني برا بوالدتي، { وَلَمْ يَجْعَلْنِي
 جَبَّارًا شَقِيًّا } أي عاصيا لربه. قيل: "الشقي": الذي يذنب ولا يتوب.
 { وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ } أي: السلامة عند الولادة من طعن الشيطان.
 { وَيَوْمَ أُمُوتُ }

- (1) انظر: "زاد المسير": 228 / 5، "البحر المحيط": 187 / 6.
 (2) صححه الحاكم في "المستدرک": 609 / 2، وأخرجه الإمام أحمد في
 المسند: 379 / 5، والبخاري في تاريخه: 374 / 7.
 (3) والصواب في ذلك أنه سبحانه وتعالى عبر في الآية بالفعل الماضي عن
 المستقبل تنزيلا لتحقيق وقوعه منزلة الوقوع بالفعل، ولهذا نظائر كثيرة في
 القرآن، فيكون التأويل الأول هو الراجح وما عداه فهو ضعيف. انظر: "أضواء
 البيان": 274-273 / 4.

(5/230)

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ
 مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي
 وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)

أي عند الموت من الشرك، { وَيَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا } من الأهوال. ولما كلمهم
 عيسى بهذا علموا براءة مريم، ثم سكت عيسى عليه السلام، فلم يتكلم بعد
 ذلك حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان.
 { ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ } (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ
 مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي
 وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) {

{ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } قال الزجاج: أي ذلك الذي قال إني عبد الله عيسى
 ابن مريم [1] { قَوْلَ الْحَقِّ } قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: { قَوْلَ الْحَقِّ }
 بنصب اللام وهو نصب على المصدر، أي: قال قول الحق، { الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ }
 { أي: يختلفون، فقائل يقول: هو ابن الله، وقائل يقول: هو الله، وقائل يقول:
 هو ساحر كذاب.

وقرأ الآخرون برفع اللام، يعني: هو قول الحق، أي هذا الكلام هو قول الحق،
 أضاف القول إلى الحق، كما قال: "حق اليقين"، و"وعد الصدق".
 وقيل: هو نعت لعيسى ابن مريم، يعني ذلك عيسى ابن مريم كلمة الله الحق
 هو الله { الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ } ويشيكون ويختلفون ويقولون غير الحق. ثم نفى
 عن نفسه الولد فقال: { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ } أي: ما كان من صفته
 اتخاذ الولد. وقيل: اللام منقولة أي ما كان الله ليتخذ من ولد، { سُبْحَانَهُ إِذَا

قَصَى أَمْرًا { إذا أراد أن يحدث أمرًا { فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } { وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ } قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو: { أَنَّ اللَّهَ } بفتح الألف، يرجع إلى قوله: { وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ } وبأن الله ربي وربكم، وقرأ أهل الشام والكوفة ويعقوب بكسر الألف على الاستئناف 7/ب { فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } { فَاحْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ } يعني: النصارى سموا أحزاباً لأنهم تجزبوا ثلاث فرق في أمر عيسى: النسطورية والملكانية واليعقوبية. { قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ } يعني يوم القيامة.

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(5/231)

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38)
 { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38) }

(5/232)

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39)

{ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) }
 { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ } أي ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم (1) السمع والبصر! أخبر أنهم يسمعون ويبصرون في الآخرة ما لم يسمعوا ولم يبصروا في الدنيا.

قال الكلبي: لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر حين (2) يقول اللهم تعالى لعيسى: "أأنت قلت للناس" الآية (مريم-116). { يَوْمَ يَأْتُوتَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } أي: في خطأ بين. قوله عز وجل { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ } فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وذبح الموت.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمرو بن حفص بن غياث أخبرنا أبي أنبأنا الأعمش، أخبرنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد: يا أهل الجنة فيشرفون (3) وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي يا أهل النار فيشرفون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ: { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } (4).

ورواه أبو عيسى عن أحمد بن منيع، عن النضر بن إسماعيل عن الأعمش بهذا الإسناد، وزاد: "فلولا أن الله تعالى قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحاً ولولا أن الله تعالى قضى لأهل النار الحياة والبقاء لماتوا ترحاً" (5).

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا معاذ بن أسد أخبرنا عبد الله أخبرنا عمر بن محمد بن زيد عن

- (1) في "ب": لا ينفع.
- (2) ساقط من "أ".
- (3) في "ب": فيشرئبون.
- (4) أخرجه البخاري في التفسير، باب "وأندرهم يوم الحسرة": 8 / 428، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون.. برقم (2849): 4 / 2188، والمصنف في شرح السنة: 15 / 198.
- (5) سنن الترمذي، كتاب التفسير باب سورة مريم: 8 / 602-603، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(5/232)

إِنَّا تَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ
إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41)

أبيه أنه حدثه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا صار أهل الجنة إلى (1) الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار. ثم يذبح ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم (2).
أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل أحد الجنة إلا رأى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ولا يدخل النار أحد إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة" (3).
أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أخبرنا الحسين بن الحسن أخبرنا ابن المبارك أخبرنا يحيى بن عبد الله (4)
قال: سمعت أبي قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من أحد يموت إلا ندم"، قالوا: فما ندمه يا رسول الله؟ قال: "إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع" (5).
قوله عز وجل: { وَهُمْ فِي عَقَلَةٍ } أي: عما يفعل بهم في الآخرة { وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } لا يصدقون.

{ إِنَّا تَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ
إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) }

قوله عز وجل: { إِنَّا تَحْنُ تَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا } أي: نميت سكان الأرض ونهلكهم جميعا، ويبقى الرب وحده فيرثهم، { وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } فنجزهم بأعمالهم. قوله عز وجل: { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } "الصديق": الكثير الصدق القائم عليه. وقيل: من صدق الله في وحدانيته وصدق أنبياءه ورسوله وصدق بالبعث،

(1) ساقط من "أ".

(2) أخرجه البخاري في الرقاق باب صفة الجنة والنار: 11 / 415 ومسلم في

الجنة، الموضوع السابق: 4 / 2189. والمصنف في شرح السنة: 5 / 199.

(3) أخرجه البخاري في الرقاق باب صفة الجنة والنار: 11 / 418 والمصنف

في شرح السنة: 15 / 200.

(4) في "أ" عبد الله. والذي أثبتناه ما جاء في شرح السنة، وكذلك أبو الحسن

عبد الحميد بن محمد الداودي هكذا جاء في المخطوط والذي أثبتناه في شرح

السنة.

(5) أخرجه الترمذي في الزهد باب ما جاء في ذهاب البصر: 7 / 84، وقال:

"هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه ويحيى بن عبيد الله قد تكلم فيه شعبة".

قال ابن حجر في "التقريب" ص (594): "متروك وأفحش الحاكم فرماه

بالوضع". وأخرجه المصنف في شرح السنة: 15 / 117-118.

(5/233)

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا
تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ
الْهَيْتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لئن لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)

وقام (1) بالأوامر فعمل بها، فهو الصديق. و"النبى": العالى في الرتبة بإرسال
الله تعالى إياه.

{ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) }
يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) }
يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) } يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) } قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ
الْهَيْتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لئن لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) }

{ إِذْ قَالَ } إبراهيم { لأبيه } أزر وهو يعبد الأصنام { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا
يَسْمَعُ } صوتا { وَلَا يُبْصِرُ } شيئا { وَلَا يُغْنِي عَنْكَ } أي لا يكفيك { شَيْئًا }
{ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ } بالله والمعرفة { مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي }
على ديني { أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } مستقيما. { يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ } لا
تطعه فيما يزبن لك من الكفر والشرك { إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا }
عاصيا "كان" بمعنى الحال أي: هو كذلك. { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ } أي أعلم { أَنْ
يَمَسَّكَ } يصيبك { عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ } أي: إن أقمت على الكفر { فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } قريبا في النار. { قَالَ } أبوه مجيبا له: { أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ
الْهَيْتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لئن لَمْ تَنْتَه } لئن لم تسكت وترجع عن عيبك ألهتنا وشمك
إياها، { لَأَرْجُمَنَّكَ } قال الكلبي ومقاتل والضحاك: لأشتمنك ولأبعدنك عني
بالقول القبيح (2).

قال ابن عباس لأضربنك. وقال عكرمة: لأقتلنك بالحجارة.

{ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا } قال الكلبي: اجنبي طويلا. وقال مجاهد وعكرمة: حيناً.

وقال سعيد بن جبير: دهرا وأصل "الحين": المكث، ومنه يقال: فمكثت حيناً
"والملوان": الليل والنهار.

(1) ساقط من "أ".

(2) وهو ما مال إليه الطبري، ولم يذكر غيره. 16 / 90-91.

(5/234)

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ
وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49)

وقال قتادة وعطاء: سالما وقال ابن عباس: اعتزلي سالما لا تصيبك مني
معة، يقال: فلان ملي بامر كذا: إذا كان كافيا (1).

{ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا
اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49)

{ قَالَ } إبراهيم { سَلَامٌ عَلَيْكَ } أي سلمت مني لا أصيبك بمكروه، وذلك أنه
لم يؤمر بقتاله على كفره.

وقيل: هذا سلام هجران ومفارقة. وقيل: سلام بر ولطف وهو جواب الحليم
للسفيه. قال الله تعالى: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" (الفرقان: 63).
قوله تعالى: { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي } قيل: إنه لما أعياه أمره ووعدته أن يراجع
الله فيه، فيسأله أن يرزقه التوحيد ويغفر له. معناه: سأسأل الله تعالى لك
توبة تنال بها المغفرة.

{ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } برا لطيفا. قال الكلبي: عالما يستجيب لي إذا دعوته.
قَالَ مجاهد: عودني الإجابة لدعائي. { وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ }
أي: أعتزل ما تعبدون من دون الله. قال مقاتل: كان اعتزاله إياهم أنه فارقهم
من "كوثي" فهاجر منها إلى الأرض المقدسة، { وَأَدْعُوا رَبِّي } أي: أعبد ربي {
عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا } أي: عسى أن لا أشقى بدعائه وعبادته، كما
تشقون أنتم بعبادة الأصنام.

وقيل: عسى أن يجيبي إذا دعوته ولا يخيني. { فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ } فذهب مهاجرا { وَهَبْنَا لَهُ } بعد الهجرة { إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } أنسنا
وحشنته [من فراقهم] (2) وأقررنا عينه، بأولاد كرام على

(1) ساق الطبري هذه الأقوال، ثم قال: (16 / 92): "وأولى القولين بتأويل
الآية عندي قول من قال: معنى ذلك: واهجرني سويا، سليما من عقوبتي، لأنه
عقوب قوله: (لئن لم تنته لأرجمنك) وذلك وعيد منه له إن لم ينته عن ذكر
آلهته بالسوء أن يرحمه بالقول السيئ، والذي هو أولى بأن يتبع ذلك التقدم إليه
بالانتهاه عنه قبل أن تناله العقوبة، فأما الأمر بطول هجره فلا وجه له".
(2) ساقط من "ب".

وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ
مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51)

الله عز وجل { وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا } يعني: إسحاق ويعقوب.
{ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ
مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) }

وَتَادَيْتَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52)

{ وَتَادَيْتَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) }
{ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا } قال الكلبي: المال والولد، وهو قول الأكثرين،
قالوا: ما يسط لهم في الدنيا من سعة الرزق. وقيل: الكتاب والنبوة.
{ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } 8/أ يعني ثناء حسنا رفيعا في كل أهل
الأديان، فكلهم يتولونهم، ويشنون عليهم. قوله عز وجل { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ
مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا } غير مرأء أخلص العبادة والطاعة لله عز وجل (1)
وقرأ أهل الكوفة " مخلصا " بفتح اللام أي: مختارا اختاره الله عز وجل وقيل:
أخلصه الله من الدنس. { وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا } { وَتَادَيْتَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ
الْأَيْمَنِ } يعني: يمين موسى (2) والطور: جبل بين مصر ومدين. ويقال:
اسمه "الزبير" وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار فنودي "يا موسى إني أنا
الله رب العالمين" (القصص:30) .
{ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا } أي "مناجيا، فالنجي المناجي، كما يقال: جليس ونديم.
قال ابن عباس: معناه: قربه فكلمه، ومعنى التقريب: إسماعه كلامه.

(1) هذا التفسير لقراءة "مخلصا" بكسر اللام ثم قال المصنف "وقرأ أهل
الكوفة.. بفتح اللام.. فكأن الأصل أنه قدم القراءة بكسر اللام وفسر الآية
عليها أولا.

(2) نقل ابن الجوزي في "زاد المسير": (5 / 239) عن ابن الأنباري قال:
"إنما خاطب الله العرب بما يستعملون في لغتهم، ومن كلامهم: عن يمين
القبلة وشمالها، يعنون: مما يلي يمين المستقبل لها وشماله، فنقلوا الوصف
إلى ذلك اتساعا عند انكشاف المعنى، لأن الوادي لا يد له فيكون له يمين.
وقال المفسرون: جاء النداء عن يمين موسى، فلهذا قال: "الأيمن" ولم يرد به
يمين الجبل".

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) وَادَّكُرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) وَادَّكُرَ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56)

وقيل: رفعه على الحجب حتى سمع صرير القلم (1) .
{ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) وَادَّكُرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) وَادَّكُرَ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) }
{ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا } وذلك حين دعا موسى فقال:
"واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي" (طه: 29-30) فأجاب الله دعاءه وأرسل هارون، ولذلك سماه هبة له (2) . قوله عز وجل: { وَادَّكُرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ } وهو إسماعيل بن إبراهيم جد النبي صلى الله عليه وسلم { إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ } قال مجاهد: لم يعد شيئا إلا وفى به.
وقال مقاتل: وعد رجلا أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه الرجل، فأقام إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع إليه الرجل.

وقال الكلبي: انتظره حتى حال عليه الحول (3) .
{ وَكَانَ رَسُولًا } إلى جرهم { نَبِيًّا } مخبرا عن الله عز وجل. { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ } أي: قومه وقيل: أهله وجميع أمته { بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ } قال ابن عباس: يريد التي افترضها الله تعالى عليهم، وهي الحنيفة التي افترضت علينا، { وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا } قائما بطاعته. قيل: رضيه الله عز وجل لنبوته ورسالته. قوله عز وجل { وَادَّكُرَ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ } وهو جد أبي نوح واسمه "أخنوخ" سمي إدريس لكثرة درسه الكتب، وكان خياطا وهو أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب، ولبس المخيط، وكانوا من قبله يلبسون الجلود، وأول من اتخذ السلاح، وقاتل الكفار وأول من نظر في علم

(1) انظر: "تفسير القرطبي": 16 / 94-95، "تفسير ابن كثير" 3 / 125-126.

(2) قال الطبري: (16 / 95) يقول: ووهبنا لموسى رحمة منا أخاه هارون "نبيا" يقول: أيدناه بنبوته وأعناه بها. وعن ابن عباس قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

(3) انظر: الطبري: 16 / 96، ابن كثير: 3 / 1126؛ ففيهما جملة آثار. وقال ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها. يعني ما التزم عباده بنذر قط إلا قام بها ووفأها حقها.

(5/237)

وَرَفَعْنَاهُ مَكَاتًا عَلِيًّا (57)

النجوم (1) والحساب، { إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا }
{ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاتًا عَلِيًّا (57) }
{ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاتًا عَلِيًّا } قيل: يعني الجنة. وقيل: هي الرفعة بعلو الرتبة في الدنيا.

وقيل: هو أنه رفع إلى السماء الرابعة (2) .
 روى أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج (3) .
 وكان سبب رفع إدريس [إلى السماء] (4) على ما قاله كعب وغيره: أنه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال: يا رب أنا مشيت يوماً فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد! اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها (5) فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لم يعرف فقال (6) يا رب ما الذي قضيت فيه؟ فقال: إن عبدي إدريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبت، فقال: رب اجعل بيني وبينه خلة، فأذن له حتى أتى إدريس فكان يسأله إدريس فقال له: إني أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي فأزداد شكراً وعبادة، فقال الملك: لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، وأنا مكلمه فرفعه إلى السماء ووضعته عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال لي حاجة إليك؛ صدق لي من بني آدم تشفع بي إليك لتؤخر أجله، قال: ليس ذلك إلي ولكن إن أحببت أعلمته أجله فيقدم لنفسه قال: نعم فنظر في ديوانه فقال: إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً، قال: وكيف؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس قال فإني أتيتك وتركته هناك قال: فانطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء فرجع الملك فوجده ميتاً (7) .

(1) زيادة من "ب".

(2) ساقط من "أ".

(3) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري: 7 / 201-202، ومسلم: 1 / 149-151. وقد تقدم تخريجه في سورة الإسراء.

(4) ما بين المعكوفين ساقط من "أ".

(5) يعني به الملك الموكل بالشمس.

(6) أي: الملك الموكل بها.

(7) ساق هذه الرواية القرطبي في التفسير: 11 / 118، وابن الجوزي في "زاد المسير": (5 / 243) وقال: وهذا المعنى مروى عن ابن عباس وكعب في آخرين. وعقب ابن كثير على هذه الروايات وأمثالها بأن فيها غرابة ونكارة، وهي من أخبار كعب الأخبار من الإسرائيليات. انظر: تفسير ابن كثير: 3 / 127.

(5/238)

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَاجْتَبَيْتَنَا إِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)

واختلفوا في أنه حي في السماء أم ميت؟ فقال قوم: هو ميت وقال قوم: هو حي (1) وقالوا: أربعة من الأنبياء في الأحياء اثنان في الأرض: الخضر وإلياس واثنان في السماء: إدريس وعيسى.
 وقال وهب: كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل

الأرض في زمانه فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن ربه عز وجل في زيارته، فأذن له فأتاه في صورة بني آدم وكان إدريس يصوم الدهر فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل معه، ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس، فقال له الليلة الثالثة: إني أريد أن أعلم من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت استأذنت ربي أن أصحبك، قال: فلي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: تقبض روحي، فأوحى الله إليه أن اقبض روحه فقبض روحه وردها الله إليه بعد ساعة، قال له ملك الموت: ما في سؤالك من قبض الروح؟ قال لأذوق كرب الموت وغمه لأكون أشد استعدادا له، ثم قال إدريس له: إن لي إليك حاجة أخرى، قال: وما هي؟ قال: ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة والنار، فأذن الله في رفعه، فلما قرب من النار قال لي حاجة أخرى، قال: وما تريد؟ قال: تسأل مالكا حتى يفتح لي أبوابها فأردها ففعل، ثم قال: فما أريتنى النار فأرني الجنة. فذهب به إلى الجنة فاستفتح فأوحى الله إليه أن اقبض روحه، فقبض روحه وردها الله إليه بعد ساعة، قال له ملك الموت: ما في ففتحت أبوابها فأدخله الجنة، ثم قال ملك الموت: اخرج لتعود إلى مقرك، فتعلق بشجرة وقال: لا أخرج منها، فبعث الله ملكا حكيمًا بينهما فقال له الملك: ما لك لا تخرج؟ قال: لأن الله تعالى قال: "كل نفس ذائقة الموت" (آل عمران: 185) وقد ذقته، وقال: "وإن منكم إلا واردها" (مريم: 71)، وقد وردتها، وقال: "وما هم منها بمخرجين" (الحجر: 48) فلست أخرج، فأوحى الله إلى ملك الموت بإذني دخل الجنة وبأمري لا يخرج فهو حي هناك، ذلك قوله

تعالى: { وَرَقَعْنَا لَكَ عُيُنَهُكَ } (2) .
{ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ حَرَّوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58) }
{ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ } أي: إدريس ونوحا { وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ } أي: ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، يريد إبراهيم؛ لأنه ولد من سام بن نوح { وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ } يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب.

(1) القول الأول هو الذي يتفق مع الروايات، والثاني مروى عن مجاهد قال: إدريس رفع ولم يمض، كما رفع عيسى. فإن أراد: أنه لم يمض إلى الآن ففي هذا نظر، وإن أراد أنه رفع حيا إلى السماء ثم قبض هناك، فلا ينافي ما تقدم عن كعب الأحمار، والله أعلم. انظر: "البداية والنهاية" لابن كثير: 1 / 100.
(2) انظر: "الدر المنثور": 5 / 519-523، "زاد المسير": 5 / 241-242.
وهذا الخبر من الإسرائيليات وقد أشار إلى ذلك ابن كثير رحمه الله.

(5/239)

فَحَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا) (59)

قوله: { وَإِسْرَائِيلَ } أي: ومن ذرية إسرائيل وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

قوله: { وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَاجْتَبَيْتَنَا } هؤلاء كانوا ممن أُرشدنا واصطفينا { إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } "سجدا": جمع ساجد "وبكيا": جمع باك أخبر الله أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله يسجدوا وبكوا. { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا } (59)

قوله عز وجل: { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ } 8/ب أي: من بعد النبيين المذكورين خلف وهم قوم سوء، "والخلف" -بالفتح-الصالح، وبالجزم الطالح (1).

قال السدي: أراد بهم اليهود ومن لحق بهم. وقال مجاهد وقتادة: هم في هذه الأمة (2).

(1) وهو قول ابن الأعرابي واستشهدوا له بقول لييد: ذهب الذين يعاشر في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجر ومنه قيل للردى من الكلام: خلف. ومنه المثل السائر: "سكت ألفا ونطق خلفا". فخلف في الذم بالإسكان وخلف بالفتح في المدح هذا هو المستعمل المشهور. قال صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له". (رواه البيهقي، وقال الإمام أحمد: لا بأس به). وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر، قال حسان بن ثابت: لنا القدم الأولى إليك وخلف ... لأولنا في طاعة الله تاب

وقال آخر: إنا وجدنا خلفا بئس الخلف ... أغلق عنا بابه ثم حلف لا يدخل البواب إلا من عرف ... عبدا إذا ما ناء بالحمل وقف انظر: "تفسير القرطبي": 7 / 310-311، وراجع فيما سبق، تفسير سورة الأعراف، الآية (169).

(2) انظر: "تفسير القرطبي": 11 / 122، "زاد المسير": 5 / 245، وساق السيوط جملة روايات في ذلك: 5 / 526. وكونهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ليس بوجه -عند الشيخ الشنقيطي- لأن قوله تعالى: "فخلف من بعدهم" صيغة تدل على الوقوع في الزمن الماضي، ولا يمكن صرفها إلى المستقبل إلا بدليل يجب الرجوع إليه كما ترى والظاهر أنهم اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين خلفوا أنبياءهم وصالحهم قبل نزول الآية فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات. وعلى كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يدخلون في الذم والوعيد المذكور في هذه الآية واتباع الشهوات المذكور في الآية عام في اتباع كل مشتهى يشغل عن ذكر الله وعن الصلاة. انظر: "أضواء البيان" 4 / 308.

(5/240)

{ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ } تركوا الصلاة المفروضة (1).

وقال ابن مسعود وإبراهيم: أخروها عن وقتها. وقال سعيد بن المسيب: هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر، ولا العصر حتى تغرب الشمس (2).

{ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ } أي المعاصي وشرب الخمر، يعني آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله. وقال مجاهد: هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزوا بعضهم

على بعض في الأسواق والأزقة.
{ قَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا } قال وهب: "الغي" نهر في جهنم بعيد قعره خبيث
طعمه.

وقال ابن عباس: "الغي" واد في جهنم وإن أودية (3) جهنم لتستعيز من حره
أعد للزاني المصر عليه ولشارب الخمر المدمن عليها ولأكل الربا الذي لا ينزع
عنه ولأهل العقوق ولشاهد الزور (4) .
وقال عطاء: "الغي": واد في جهنم يسيل قبحا ودما.
وقال كعب: هو واد في جهنم أبعدا قعرا، وأشدّها حرا في بئر تسمى "الهيم"
كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فيسعر بها جهنم (5) .
أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أخبرنا محمد بن أحمد الحارثي أخبرنا
محمد بن يعقوب الكسائي أخبرنا عبد الله بن محمود أخبرنا إبراهيم بن عبد
الله الخلال وأخبرنا عبد الله بن المبارك عن هشيم بن بشير أخبرنا زكريا بن
أبي مريم الخزاعي قال: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: "إن ما بين شفير
جهنم إلى قعرها مسيرة سبعين خريفا من حجر يهوي أو قال صخرة تهوي
عظمها كعشر عشروات عظام سمان فقال له مولى لعبد الرحمن بن خالد بن
الوليد: هل تحت ذلك شيء يا أبا أمامة؟

- (1) وهو مروى عن محمد بن كعب القرظي واختاره الزجاج. انظر: الطبري:
16 / 98، زاد المسير: 5 / 245، الدر المنثور: 5 / 526.
- (2) وهو مروى عن القاسم بن مخيمرة، وعمر بن عبد العزيز والنخعي
ومجاهد. هذا وكل ما روي عن السلف -رحمه الله- في تأويل الآية داخل في
معناها، لأن تأخيرها عن وقتها، وعدم إقامتها في الجماعة، والإخلال بشروطها،
وجحد وجوبها، وتعطيل المساجد منها -وهذه كلها أقوال في تفسير الآية- كل
ذلك إضاعة لها وإن كانت أنواع الإضاعة تتفاوت. انظر: "تفسير القرظي" 11 /
122-125، "أضواء البيان": 4 / 308.
- (3) ساقط من "أ".
- (4) انظر: القرظي: 11 / 125.
- (5) انظر القرظي: نفسه.

(5/241)

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60)
جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَا
يَسْمَعُونَ فِيهَا لُعْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62)

- قال: نعم غي وأثام (1) .
وقال الضحاك: غيا وخسرانا. وقيل: هلاك. وقيل: عذابا (2) .
وقوله: { قَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا } ليس معناه يرون فقط، بل معناه الاجتماع
والملازمة (3) مع الرؤية.
{ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60)
جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَا
يَسْمَعُونَ فِيهَا لُعْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) }

{ إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا } . { جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْعَيْبِ { ولم يروها { إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا { يعني: آتيا مفعول بمعنى فاعل.

وقيل: لم يقل آتيا لأن كل من أتاك فقد أتته والعرب لا تفرق بين قول القائل: أتت علي خمسون سنة وبين قوله: أتيت علي خمسين سنة ويقول: وصل إلي الخير ووصلت إلي الخير.

وقال ابن جرير: "وعده" أي: موعده وهو الجنة "مأتيا" يأتيه أولياؤه [أهل الجنة] (4) وأهل طاعته (5). { لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا { في الجنة { لَعُؤًا { باطلا وفحشا وفضولا من الكلام.

وقال مقاتل: هو اليمين الكاذبة.

{ إِلا سَلَامًا { استثناء من غير جنسه يعني: بل يسمعون فيها سلاما أي: قولا يسلمون منه "والسلام" اسم جامع للخير لأنه يتضمن السلامة.

(1) أخرج نحوه عن أبي أمامة مرفوعا: الطبري في التفسير: 16 / 100، وزاد السيوطي نسبه لابن مردويه والبيهقي في "البعث" والطبراني. قال الهيثمي في "المجمع": (10 / 389): "وفيه ضعفاء وقد وثقهم ابن حبان وقال يخطئون". وقال ابن كثير: (3 / 129): "هذا حديث غريب ورفعه منكر".

(2) قال الطبري: (16 / 10): "وكل هذه الأقوال متقاربات المعاني وذلك أن من ورد البئرين التين ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم والوادي الذي ذكره ابن مسعود في جهنم فدخل ذلك فقد لاقى خسرا وشرا حسبه به شرا". (3) في "ب" الملامسة.

(4) زيادة من "ب" وليست في الطبري.

(5) عبارة الطبري في التفسير: (16 / 101): "إن الله كان" ووعده في هذا الموضوع: موعوده وهو الجنة "مأتيا" يأتيه أولياؤه وأهل طاعته الذين يدخلهموها الله. وقال بعض نحوي الكوفة: خرج الخير على أن الوعد هو المأتي ومعناه: أنه هو الذي يأتي. ولم يقل: وكان وعده آتيا لأن كل ما أتاك فأتت تأتيه وقال: ألا ترى أنك تقول: أتيت علي خمسين سنة وأتت علي خمسون سنة وكل ذلك صواب..".

(5/242)

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63) وَمَا نَنْتَهِزُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64)

معناه: إن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤثمهم إنما يسمعون ما يسلمهم.

وقيل: هو تسليم بعضهم على بعض وتسليم الملائكة عليهم.

وقيل: هو تسليم الله عليهم.

{ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا } قال أهل التفسير: ليس في الجنة ليل يعرف به البكرة والعشي بل هم في نور أبدا ولكنهم يأتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار.

وقيل: إنهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب ووقت الليل بإرخاء الحجب.

وقيل: المراد منه رفاهية العيش وسعة الرزق من غير تضيق.

وكان الحسن البصري يقول: كانت (1) العرب لا تعرف من العيش أفضل من الرزق بالبكرة والعشي فوصف الله عز وجل جنته بذلك (2) .
 { تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63) وَمَا تَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) }
 { تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا } أي: نعطي وننزل. وقيل: يورث عباده المؤمنين المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا { مَنْ كَانَ تَقِيًّا } أي: المتقين من عباده. قوله عز وجل: { وَمَا تَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ } أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا خلاد بن يحيى أخبرنا عمر بن ذر قال: سمعت أبي يحدث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا" فنزلت: { وَمَا تَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا } الآية. قال: كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم" (3) .
 وقال عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي: احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح فقال: أخبركم غدا ولم يقل: إن شاء الله حتى شق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت إليك" فقال له جبريل: إني كنت أشوق ولكنني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست

(1) ساقط من "ب".

(2) انظر هذه الأقوال وجملة آثار في ذلك في: "الدر المنثور": 5 / 528-

529، "تفسير ابن كثير": 3 / 120-121.

(3) أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم باب "وما تنزل إلا بأمر ربك" 8 /

428-429، وفي التوحيد، باب "ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين": 13 /

440، والمصنف في شرح السنة: 13 / 325.

(5/243)

احتبست فأنزل الله: { وَمَا تَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ } وانزل: "والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى" (1) .
 { لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ } أي: له علم ما بين أيدينا. واختلفوا فيه: فقال سعيد بن جبير وقتادة ومقاتل: { مَا بَيْنَ أَيْدِينَا } من أمر الآخرة والثواب والعقاب { وَمَا خَلَقْنَا } ما مضى من الدنيا { وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ } ما يكون من هذا الوقت إلى قيام الساعة (2) .
 وقيل { مَا بَيْنَ أَيْدِينَا } ما بقي من الدنيا { وَمَا خَلَقْنَا } ما مضى منها { وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ } أي: ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة.
 وقيل: { مَا بَيْنَ أَيْدِينَا } ما بقي من الدنيا { وَمَا خَلَقْنَا } ما مضى منها { وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ } مدة حياتنا.
 وقيل: { مَا بَيْنَ أَيْدِينَا } بعد أن نموت { وَمَا خَلَقْنَا } قبل أن نخلق { وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ } مدة الحياة (3) .
 وقيل: { مَا بَيْنَ أَيْدِينَا } الأرض إذا أردنا النزول إليها { وَمَا خَلَقْنَا } السماء إذا

نزلنا منها { وَمَا بَيَّنَّ ذَلِكَ } الهواء يريد: أن ذلك كله لله عز وجل فلا نقدر على شيء إلا بأمره. { وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا } أي: ناسيا يقول: ما نسيك ربك أي: ما تركك والناسي التارك.

- (1) أخرجه الطبري: 16 / 103-104، وابن إسحاق: 1 / 300-301 (سيرة ابن هشام) وعزاه ابن حجر في الكافي الشاف ص (107) لأبي نعيم في الدلائل، وقال: وذكره الثعلبي عن عكرمة والضحاك. وانظر: الدر المنثور: 5 / 530، تفسير القرطبي: 11 / 128، أسباب النزول للواحي ص (348).
(2) انظر: الدر المنثور: 5 / 531.
(3) انظر: زاد المسير: 5 / 531.

(5/244)

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

{ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } (65)
{ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ } أي: اصبر على أمره ونهيه { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } قال ابن عباس رضي الله عنهما: مثلًا (1). وقال الكلبي: هل تعلم أحدا يسمى "الله" غيره (2) ؟

- (1) انظر: الطبري: 16 / 106، الدر المنثور: 5 / 531.
(2) انظر: زاد المسير: 5 / 251.

(5/244)

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوَفَ أُخْرَجَ حَيًّا (66) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) قَوْرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69)

{ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوَفَ أُخْرَجَ حَيًّا } (66) { أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } (67) { قَوْرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا } (68) { ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا } (69)

قوله عز وجل: { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ } يعني: أبي بن خلف الجمحي كان منكرا للبعث (1) قال: { أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوَفَ أُخْرَجَ حَيًّا } قاله استهزاء وتكديبا للبعث. قال الله عز وجل { أَوْ لَا يَذْكُرُ } أي يتذكر ويتفكر (2) وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب " يذكر " خفيف { الْإِنْسَانُ } يعني: أبي بن خلف { أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } أي: لا يتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه فيستدل به على الإعادة ثم أقسم بنفسه فقال: { قَوْرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ } لنجمعنهم في المعاد

يعني: المشركين المنكرين للبعث { وَالشَّيَاطِينَ } مع الشياطين وذلك أنه يحشر كل كافر مع شيطانه في سلسلة { ثُمَّ لَنُخَضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ } قيل في جهنم 1/9 { جَنَّتًا } قال ابن عباس رضي الله عنه: جماعات جمع جنوة. وقال الحسن والضحاك: جمع "جات" أي: جاثين على الركب. قال السيدي: فائمين على الركب لضيق المكان. { ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ } لنخرجن { مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ } أي: من كل أمة وأهل دين من الكفار { أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا } عتوا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني جرأة. وقال مجاهد: فجورا، يريد: الأعتى فالأعتى. وقال الكلبي: قائدهم ورأسهم في الشر يريد أنه يقدم في إدخال من هو أكبر جرما وأشد كفرا. في بعض الآثار: أنهم يحشرون جميعا حول جهنم مسلسلين مغلولين ثم يقدم الأکفر فالأكفر. ورفع { أَيُّهُمْ } على معنى: الذي يقال لهم: أيهم أشد على الرحمن عتيا.

(1) انظر: أسباب النزول للواحي ص (348)، والقرطبي: 11 / 131، وقال المهدوي: نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه وهو قول ابن عباس وعن ابن جريح أنها نزلت في العاص بن وائل. انظر: الدر المنثور: 5 / 532، القرطبي: 11 / 131.

(2) هذا تفسير لقراءة "يذكر" بالتشديد بدليل ما بعده وكأن المصنف رحمه الله يرجح أو يقدم هذه القراءة ثم فسر الآية على القراءة بالتخفيف فيما بعد.

(5/245)

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71)

وقيل: على الاستئناف ثم لنيز عن [يعمل في موضع "من كل شيعة"] (1). { ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71) } { ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا } أي: أحق بدخول النار يقال: صلي يصلي صليا، مثل: لقي يلقي لقا وصلّى يصلي صليا، مثل: مضى يمضي مضيا إذا دخل النار وقاسى حرها. قوله عز وجل: { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } وما منكم إلا واردها وقيل: القسم فيه مضمّر، أي: والله ما منكم من أحد إلا واردها، والورود هو موافاة المكان.

واختلفوا في معنى الورود هاهنا، وفيما تنصرف إليه الكناية في قوله: { وَارِدُهَا } قال ابن عباس رضي الله عنهما وهو قول الأكثرين؛ معنى الورود هاهنا هو الدخول والكناية راجعة إلى النار وقالوا: النار يدخلها البر والفاجر ثم ينجي الله المتقين (2) فيخرجهم منها.

والدليل على أن الورود هو الدخول: قول الله عز وجل حكاية عن فرعون: "يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار" (هود:98).

وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار أن نافع بن الأزرق ماري ابن عباس رضي الله عنهما في الورود فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الدخول. وقال

نافع: ليس الورود الدخول، فتلا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون" (الأنبياء: 98) أدخلها هؤلاء أم لا؟ ثم قال: يا نافع أما والله أنت وأنا سنردها وأنا أرجو أن يخرجني الله منها وما أرى الله عز وجل أن يخرجك منها بتكذيبك (3) . وقال قوم: ليس المراد من الورود الدخول، وقالوا النار لا يدخلها مؤمن أبدا لقوله تعالى: "إن الذين سبقوا لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيستها" (الأنبياء: 101-102) وقالوا: كل من دخلها لا يخرج منها. والمراد من قوله: { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } الحضور والرؤية،

(1) جاءت العبارة في "ب" هكذا: تعمل ثم لنزاعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا في موضع من كل شيعة.

(2) في "ب" الذين اتقوا.

(3) أخرجه الطبري: 16 / 111، وهناد في الزهد: 1 / 213، والمروزي في زوائد الزهد ص (499) والبيهقي في البعث وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وسنده حسن. وانظر: الدر المنثور: 5 / 535، ابن كثير: 3 / 133.

(5/246)

ثُمَّ تُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72)

لا الدخول كما قال الله تعالى: "ولما ورد ماء مدين" (القصص: 23) أراد به الحضور (1) .

وقال عكرمة: الآية في الكفار فإنهم يدخلونها ولا يخرجون منها (2) . وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } يعني: القيامة (3) والكناية راجعة إليها.

والأول أصح وعليه أهل السنة أنهم جميعا يدخلون النار ثم يخرج الله عز وجل منها أهل الإيمان بدليل قوله تعالى:

{ ثُمَّ تُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) }
{ ثُمَّ تُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا } أي اتقوا الشرك وهم المؤمنون. والنجاة إنما تكون مما دخلت فيه (4) .

وقرأ الكسائي ويعقوب: "ننجي" بالتخفيف. والآخرون: بالتشديد. والدليل على هذا: ما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا عبد الرحيم بن منيب أخبرنا سفيان عن الزهري عن

(1) وهو قول عبيد بن عمير. انظر: زاد المسير: 5 / 256.

(2) انظر: الطبري: 16 / 111، وهو مروى أيضا عن ابن عباس.

(3) اختلفت الرواية عن ابن مسعود رضي الله عنه في الآية فنقل عنه هذا ونقل أنه فسرها بدخول النار وفسرها ثالثة بالمرور على الصراط. انظر:

الطبري: 16 / 111، فتح القدير للشوكاني: 3 / 346، تفسير الخازن: 4 / 207.

(4) اختلف المفسرون في تفسير الورود ورجوع الضمير على ما رأيت وهذا

الذي رجه المصنف رحمه الله وقال: إنه مذهب أهل السنة، رده أبو حيان والطبري وغيرهما. وأصول الأقوال في ذلك: 1- أن الخطاب للكافرين وعلى هذا فهم الذين يدخلون النار. 2- الخطاب عام في حق المؤمنين والكافرين واختلفوا في تفسير ورود على أقوال خمسة: أحدها: الدخول الثاني: المرور عليها، الثالث: الحضور، الرابع: أن ورود المسلمين عليها هو مرورهم على الصراط وورود المشركين: دخولهم النار، والخامس: أن ورود المؤمنين إليها: ما يصيبهم من الحمى في الدنيا. انظر: زاد المسير: (5 / 254-257). وأرجح هذه الأقوال: ما ذهب إليه الطبري رحمه الله حيث قال: (16 / 112): "يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون فينجيهم الله ويهوي فيها الكفار، وورودهموها هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم فجاج مسلم ومكذس فيها" .. ثم ساق الأحاديث... وهو أيضا ما رجه صاحب شرح العقيدة الطحاوية فقال: ص (478) "والأظهر الأقوى: أنه المرور على الصراط". وانظر: تفسير ابن كثير: 3 / 132-134، البحر المحيط: 6 / 209-210.

(5/247)

سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم" (1) .
وأراد بالقسم قوله: { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا }
أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا مسلم بن إبراهيم أخبرنا هشام أخبرنا قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير" (2) وقال أبان عن قتادة: "من إيمان" مكان "خير".
أخبرنا أبو المظفر محمد بن إسماعيل بن علي الشجاعى أخبرنا أبو نصر النعمان بن محمد بن محمود الجرجاني أخبرنا أبو عثمان عمرو بن عبد الله البصري أخبرنا محمد بن عبد الوهاب أخبرنا محمد بن الفضل أبو النعمان أخبرنا سلام بن مسكين أخبرنا أبو الظلال عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أن رجلا في النار ينادي ألف سنة يا حنان يا منان فيقول الله عز وجل لجبريل: اذهب فأنتني بعدي هذا قال: فذهب جبريل فوجد أهل النار منكبين يبكون قال: فرجع فأخبر ربه عز وجل قال اذهب فإنه في موضع كذا وكذا قال: فجاء به قال: يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ قال: يا رب بشر مكان وشر مقيل قال، ردوا عبدي قال: ما كنت أرجو أن تعيدني إليها إذ أخرجتني منها قال الله تعالى لملائكته دعوا عبدي" (3) .
وأما قوله عز وجل: "لا يسمعون حسيبها" (الأنبياء: 102) قيل: إن الله عز وجل أخبر عن وقت كونهم في الجنة أنهم لا يسمعون حسيبها فيجوز أن يكونوا قد سمعوا ذلك قبل دخولهم الجنة لأنه لم يقل: لم يسمعوا حسيبها ويجوز أن لا يسمعوا حسيبها عند دخولهم إياها لأن الله عز وجل يجعلها عليهم بردا وسلاما.

- (1) أخرجه البخاري في الأيمان والندور باب قول الله تعالى: "وأقسموا بالله جهد أيمانهم" 11 / 541، ومسلم في البر والصلة والآداب باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه برقم (2632): 4 / 2028، والمصنف في شرح السنة: 5 / 451.
- (2) أخرجه البخاري في الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصه: 1 / 103، ومسلم في الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (193): 1 / 182، والمصنف في شرح السنة: 15 / 191.
- (3) أخرجه الإمام أحمد في المسند: 3 / 230، والمصنف في شرح السنة: 15 / 193-194. وفيه أبو ظلال واسمه: هلال القسملبي البصري ضعفه ابن معين وأبو داود والنسائي. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابعه عليه الثقات (التهذيب: 11 / 75-76).

(5/248)

وقال خالد بن معدان: يقول أهل الجنة ألم يعدنا ربنا أن نرد النار؟ فيقال بلى ولكنكم مررتم بها وهي خامدة (1).
وفي الحديث: تقول النار للمؤمن: "جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي" (2).
وروي عن مجاهد في قوله عز وجل: { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا } قال: من حم من المسلمين فقد وردها (3).
وفي الخبر: "الحمى كير من جهنم وهي حظ المؤمن من النار" (4).
أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا محمد بن المثنى أخبرنا يحيى عن هشام أخبرني أبي عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء" (5).
{ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا } أي: كان ورودكم جهنم حتما لازما { مَقْضِيًّا } قضاه الله عليكم.
{ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا } أي اتقوا الشرك وقرأ الكسائي "ننجي" بالتخفيف والباقون بالتشديد { وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا } جميعا. وقيل: جاثين على الركب وفيه دليل على أن الكل دخلوها ثم أخرج الله منها المتقين وترك فيها الظالمين وهم المشركون.
أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي

- (1) رواه ابن إسحاق وأبو عبيد في "الغريب" وابن المبارك في الزهد عن خالد بن معدان. انظر: الكافي الشاف ص (107).
- (2) رواه أبو نعيم في الحلية: 9 / 329، والخطيب في تاريخ بغداد: 5 / 194، 9 / 233، والطبراني في الكبير وابن عدي في الكامل والحكيم الترمذي في نوادر الأصول. وفي سنده: سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد: 10 / 360، كشف الخفاء: 1 / 373-374.
- (3) رواه الطبري: 16 / 111.
- (4) أخرجه الإمام أحمد: 5 / 252، والطحاوي في مشكل الآثار: 3 / 68،

وصحه الألباني في "سلسلة الأحاديث الصحيحة": 4 / 437-438. وانظر:
الكافي الشاف ص (107).
(5) أخرجه البخاري في الطب باب الحمى من فيح جهنم: 10 / 174، ومسلم
في السلام باب لكل داء دواء برقم (2210): 4 / 1732، والمصنف في شرح
السنة: 12 / 153.

(5/249)

أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟
قال: "هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحب" قالوا: لا يا رسول
الله قال: "فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحب" قالوا: لا قال: فإنكم
ترونها كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه فمنهم
من يتبع الشمس ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت وتبقى هذه
الامة فيها منافقوها فيأتيهم الله عز وجل فيقول: أنا ربكم فيقولون: هذا مكاننا
حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول: 9/ أنا ربكم
فيقولون: أنت ربنا فيدعوهم ويضرب الصراط بين ظهراي جهنم فأكون أول
من يجوز (1) من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل وكلام الرسل يومئذ
اللهم سلم سلم وفي جهنم كلاب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك
السعدان؟ قالوا: نعم قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر
عظمتها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من
يجردل ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة
أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود وحرم الله
على النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار فكل ابن آدم تأكله النار إلا
أثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا (2) فيصب عليهم ماء الحياة
فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل (3) ثم يفرغ الله من القضاء بين
العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه
قبل النار فيقول: يا رب اصرف وجهي عن النار قد قشبتني ريحها وأحرقني
ذكاؤها (4) فيقول: هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا
وعزتك. فيعطي الله ما شاء الله من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار
فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكنت ما شاء الله أن يسكت ثم قال: يا
رب قدمني عند باب الجنة فيقول الله تبارك وتعالى: أليس قد أعطيت العهود
والميثاق أن لا تسأل غير الذي كنت سألت فيقول: يا رب لا أكون أشقى خلقك
فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا
أسألك غير ذلك فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة فإذا
بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فسكت ما شاء الله أن
يسكت فيقول يا رب أدخلني الجنة فيقول الله تعالى: ويلك يا ابن آدم ما
أغدرك أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذي أعطيت؟
فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك فيضحك الله منه ثم يأذن له في دخول
الجنة فيقول: تمن فيتمنى حتى إذا انقطع أمنيه قال الله تعالى: تمن كذا وكذا
أقبل يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأماني قال الله تعالى: لك ومثله معه. قال
أبو سعيد لأبي هريرة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله
تعالى لك ذلك وعشرة أمثاله" قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله صلى

الله عليه وسلم إلا قوله: لك ذلك ومثله معه. قال أبو سعيد إنني سمعته يقول: "ذلك لك وعشرة أمثاله" (5).

ورواه محمد بن إسماعيل عن محمود بن غيلان أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عطاء بن يزيد عن أبي هريرة بمعناه وقال: فيأتيهم الله عز وجل في غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا أتانا ربنا عرفناه فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه (6).

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن حماد أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يعذب أناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حمما ثم تدركهم الرحمة قال: فيخرون فيطرحون على أبواب الجنة قال: فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينتون كما تثبت القثاء في حمالة السيل ثم يدخلون الجنة" (7).

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي أخبرنا أبو سعيد الهيثم بن كليب أخبرنا أبو عيسى الترمذي أخبرنا هناد بن السري أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة السلماني عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار رجل يخرج منها زحفا فيقال له: انطلق فادخل الجنة قال فيذهب ليدخل الجنة فيجد الناس قد أخذوا المنازل فيرجع فيقول: يا رب قد أخذ الناس المنازل فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم فيقال له: تمن فيتمنى فيقال له: فإن لك الذي تمنيته وعشرة أضعاف الدنيا قال فيقول: أتسخر بي وأنت الملك؟ قال: فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه" (8).

(1) ساقط من "أ".

(2) احترقوا.

(3) "الحبة" هي بزر البقول والعشب تثبت في البراري وجوانب السيول وجمعها "حب" و"حميل السيل": ما جاء به السيل من الطين أو غثاء.

(4) "قشبي ربحها وأحرقني ذكاؤها" معناها: سمني وأذاني وأهلكني لهبها وشدة وهجها.

(5) أخرجه البخاري في التوحيد باب قول الله تعالى: "وجوه يومئذ ناضرة" 13 / 419-420 ومسلم في الإيمان باب معرفة طريق الرؤية برقم (182): 1 / 163-167، والمصنف في شرح السنة: 15 / 173.

(6) أخرجه البخاري في الرقاق باب الصراط جسر جهنم: 11 / 444-445.

(7) أخرجه الترمذي في صفة جهنم باب ما جاء أن للنار نفسين وما ذكر من يخرج من النار من أهل التوحيد: 7 / 4324 - 4325، وقال: "هذا حديث حسن صحيح" والإمام أحمد: 3 / 77، والمصنف في شرح السنة: 15 / 191-192.

(8) رواية الترمذي هذه أخرجها في صفة جهنم باب ما جاء أن للنار نفسين: 7 / 221-223 وقال: "هذا حديث حسن صحيح" والحديث أخرجه أيضا:

البخاري في الرقاق باب صفة الجنة والنار: 11 / 418-419 والمصنف في شرح السنة: 15 / 188-189.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِئِيًّا (74)

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن حماد أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم مبشر عن حفصة أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدرا والحديبية" قال: قلت يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا } قال: أفلم تسمعيه يقول: { ثُمَّ نُجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَدَّرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا } (1).
{ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِئِيًّا (74) }

قوله عز وجل: { وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } واصلحات { قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } يعني: النصر بن الحارث وذويه من قريش { لِلَّذِينَ آمَنُوا } يعني فقراء (2) أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون حرير ثيابهم فقالوا للمؤمنين: { أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا } منزلا ومسكنا [وهو موضع الإقامة].

وقرأ ابن كثير: "مقاما" بضم الميم أي إقامة] (3).
{ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا } أي مجلسيا ومثله النادي فأجابهم الله تعالى فقال: { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا } أي متاعا وأمواالا. وقال مقاتل: لباسا وثيابا { وَرِئِيًّا } قرأ أكثر القراء بالهمز أي: منظرًا من "الرؤية" وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ونافع غير ورش: "وربا" مشددا بغير همز وله تفسيران: أحدهما هو الأول بطرح الهمز والثاني: من الري الذي هو ضد العطش ومعناه: الارتواء من النعمة فإن المتنعم يظهر فيه ارتواء النعمة والفقير يظهر عليه ذبول الفقر.

(1) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ذكر البعث: 2 / 1431 والإمام أحمد في المسند: 6 / 285 وهناد في الزهد: 1 / 328 وابن جرير في التفسير: 16 / 112 وابن أبي عاصم في السنة: 2 / 414 وأخرجه من طريق أخرى الإمام مسلم في فضائل الصحابة بنحوه برقم (2496): 4 / 1942 والإمام أحمد في المسند: 6 / 420 وأخرجها المصنف في شرح السنة: 14 / 193.
(2) في "أ" نفرا من.
(3) ساقط من "أ".

(5/252)

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّعَاةَ فَسَبِّعْلُمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76)

{ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76) }

(5/253)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78)

{ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) }

{ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا } هذا أمر بمعنى الخبر معناه: يدعه في طغيانه وبمهله في كفره { حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ } وهو الأسر والقتل في الدنيا { وَإِمَّا السَّاعَةَ } يعني: القيامة فيدخلون النار { فَسَيَعْلَمُونَ } عند ذلك { مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا } منزلا { وَأَضْعَفُ جُنْدًا } أقل ناصرًا أهم أم المؤمنون؟ لأنهم في النار والمؤمنون في الجنة وهذا رد عليهم في قوله { أَيُّ الْقَرَيْقِينَ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ تَدْيًا } قوله عز وجل: { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى } أي إيمانًا وإيقانًا على يقينهم 10/1 { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ } الأذكار والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها { خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا } عاقبة ومرجعًا. قوله عز وجل: { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا } أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمرو بن حفص أخبرنا أبي أخبرنا الأعمش بن مسلم عن مسروق حدثنا خباب قال: كنت قينا فعملت للعاص بن وائل فاجتمع مالي عنده فأتيته أتقاضاه فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: أما والله حتى تموت ثم تبعث فلا قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم قال: فإنه سيكون لي ثم مال وولد فأقضيك فأنزل الله عز وجل: { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا } (1). قوله عز وجل: { أَطَّلَعَ الْغَيْبَ } قال ابن عباس: أنظر في اللوح المحفوظ؟ وقال مجاهد: أعلم علم الغيب حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟

(1) أخرجه البخاري في التفسير سورة مريم باب "كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا" 8 / 430-431 وانظر: أسباب النزول للواحي ص (349).

(5/253)

كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَتَرَاهُ مَا يَقُولُ وَبِأَيْتِنَا قَرَدًا (80) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرَهُمْ آرًا (83)

{ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } يعني قال لا إله إلا الله وقال قتادة: يعني عملا صالحا قدمه. وقال الكلبي: أَعهد إليه أن يدخل الجنة؟
 { كَلَّا سَتَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَيُنَمُّدُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَتَرْتُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرَهُمْ آرًا (83) }

{ كَلَّا } رد عليه يعني: لم يفعل ذلك { سَتَكُنُّبُ } سنحفظ عليه { مَا يَقُولُ } [فنجازيه به في الآخرة. وقيل: نأمر به الملائكة حتى يكتبوا ما يقول] (1).
 { وَنَمُّدُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا } أي: نزيده عذابا فوق العذاب. وقيل: نطيل مدة عذابه. { وَتَرْتُهُ مَا يَقُولُ } أي ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إياه وإبطال ملكه وقوله ما يقول لأنه زعم أن له مالا وولدا "في الآخرة" (2) أي لا نعطيهِ ونعطي غيره فيكون الإرث راجعا إلى ما تحت القول لا إلى نفس القول.
 وقيل: معنى قوله: { وَتَرْتُهُ مَا يَقُولُ } أي: نحفظ ما يقول حتى نجازيه به.
 { وَيَأْتِينَا فَرْدًا } يوم القيامة بلا مال ولا ولد. قوله عز وجل: { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً } يعني: مشركي قريش اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها { لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا } أي منعة حتى يكونوا لهم شفعاء يمنعونهم من العذاب. { كَلَّا } أي ليس الأمر كما زعموا { سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ } أي تحدد الأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرؤون منهم كما أخبر الله تعالى "تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون" (القصص:63).

{ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا } أي أعداء لهم وكانوا أولياءهم في الدنيا.
 وقيل: أعوانا عليهم يكذبونهم وبلعنونهم. قوله عز وجل: { أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ } أي سلطناهم عليهم وذلك حين قال لإبليس:
 "واستفز من استطعت منهم بصوتك" الآية (الإسراء-64) { تَوْرَهُمْ آرًا }

(1) ساقط من "أ".

(2) ساقط من "أ".

(5/254)

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا (84) يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَتَسْوِقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا (86) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)

تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية "والأز" "والهز": التحريك أي:

تحركهم وتحثهم على المعاصي.
 { فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا (84) يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَتَسْوِقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا (86) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87) }

{ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ } أي لا تعجل بطلب عقوبتهم { إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا } قال

الكلبي: يعني الليالي والأيام والشهور والأعوام.

وقيل: الأنفاس التي يتنفسون بها في الدنيا إلى الأجل الذي أجل لعذابهم. قوله

عز وجل { يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا } أي: اذكر لهم يا محمد

اليوم الذي يجمع فيه من اتقى الله في الدنيا بطاعته إلى الرحمن إلى جنته وفداً أي: جماعات جمع "وافد" مثل: راكب وركب وصاحب وصاحب. وقال ابن عباس: ركبانا. وقال أبو هريرة: على الإبل. وقال علي بن أبي طالب: ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نوق رجالها الذهب ونجائب سرجها يواقيت إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت (1). { وَتَسْؤِقُ الْمُجْرِمِينَ } الكافرين { إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَزِدًا } أي مشاة. وقيل: عطاشاً قد تقطعت أعناقهم من العطش. "والورد" جماعة يردون الماء ولا يرد احد الماء إلا بعد عطش. { لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } يعني لا إله إلا الله. وقيل: معناه لا يشفع الشافعون إلا لمن اتخذ عند الرحمن عهداً يعني: المؤمنين كقوله: "لا يشفعون إلا لمن ارتضى" (الأنبياء: 28).

(1) قال الحافظ ابن حجر في "الكافي الشاف" ص (108): "رواه ابن أبي شيبه وعبد الله بن أحمد في زيادات المسند والطبري وابن أبي حاتم من رواية عبد الرحمن بن إسحاق بن النعمان بن سعد بن علي نحوه. وأخرجه ابن أبي داود في كتاب البعث من هذا الوجه مرفوعاً. ورواه ابن عدي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً أيضاً". وانظر: "تفسير ابن كثير": 3 / 138-139، ففيه جملة روايات في ذلك.

(5/255)

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْسَقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90)

وقيل: لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله أي لا يشفع إلا المؤمن (1). { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْسَقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) } يعني اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله.

وقرأ حمزة والكسائي " ولدا " بضم الواو وسكون اللام ها هنا وفي الزخرف وسورة نوح ووافق ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب في سورة نوح والباقون بفتح الواو واللام. وهما لغتان مثل: العرب والعرب والعجم والعجم. { لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا } قال ابن عباس منكرًا. وقال قتادة ومجاهد: عظيماً. وقال مقاتل: لقد قلتم قولاً عظيماً. "والإد" في كلام العرب: أعظم الدواهي (2). { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ } قرأ نافع " يكاد " بالياء ها هنا وفي حم عسق لتقدم الفعل وقرأ الباقر بالتاء لتانيث السموات { يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ } ها هنا وفي "حمعسق" بالنون من الانفطار أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب ووافق ابن عامر وحمزة ها هنا لقوله تعالى: "إذا السماء انفطرت" (الانفطار: 1) و"السماء منفطر" (المزمل: 18) وقرأ الباقر بالتاء من التفطر ومعناها واحد يقال: انفطر الشيء وتفطر أي تشقق.

{ وَتَنْسَقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا } أي: تنكسر كسراً. وقيل: { وَتَنْسَقُ الْأَرْضُ } أي: تنخسف بهم "والانفطار" في السماء: أن

تسقط عليهم { وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا } أي تنطبق عليهم.

(1) وهذه الأوجه كلها حق وكل واحد منها يشهد له آيات كريمة وأحاديث شريفة فالمجرمون لا يملكون الشفاعة أي: لا يستحقون أن يشفع فيهم شافع يخلصهم مما هم فيه من الهول والعذاب وبالأحرى أن المجرمين لا يشفعون في غيرهم لأنهم إذا كانوا لا يستحقون أن يشفع فيهم غيرهم لكفرهم فشفاعتهم في غيرهم ممنوعة من باب أولى. وكذلك: لا يملك الشفاعة إلا المؤمنون الذين اتخذوا عند الله تعالى عهدا بشهادة التوحيد وبالعمل الصالح -وما في معنى هذا- فإنهم يشفع بعضهم في بعض كما قال تعالى: "يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا" وقد بين في مواضع أخر أن المعبودات التي يعبدونها من دون الله لا تملك الشفاعة وأن من شهد بالحق يملكها بإذن الله له في ذلك وهو قوله تعالى: "ولا يملك الذين يدعون من دون الله الشفاعة إلا من شهد الحق". انظر: "أضواء البيان": 4 / 494-495, وراجع: ابن كثير: 3 / 139 القرطبي: 11 / 154.

(2) والعرب تقول لكل عظيم: "إد" و"إمر". وفي "الإد" ثلاث لغات: "إد" بكسر الألف و"أد" بفتح الألف و"أد" بفتح الألف ومدها انظر: تفسير الطبري: 16 / 129.

(5/256)

أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)

{ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95) }

(5/257)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96)

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) }
{ أَنْ دَعَوْا } أي من أجل أن جعلوا { لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا } قال ابن عباس وكعب: فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا: اتخذ الله وليا (1).
ثم نفى الله عن نفسه الولد فقال: { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا } أي ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به. { إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ } أي إلا آتية يوم القيامة { عَبْدًا } ذليلا خاضعا يعني: أن الخلق كلهم عبيده. { لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا } أي: عد أنفاسهم وأيامهم وأثارهم فلا يخفى عليه شيء. { وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا } وحيدا ليس معه من الدنيا

شيء. قوله عز وجل: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } أي: محبة. قال مجاهد: يحبهم الله ويحبهم إلى عباده المؤمنين.

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا أحب الله العبد قال لجبرائيل: قد أحببت فلانا فأحبه فيحبه جبرائيل ثم ينادي في أهل السماء: إن الله عز وجل قد أحب فلانا فأحبه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض العبد".

(1) انظر: تفسير الطبري: 16 / 130 فقد روى أثرنا مطولا عن ابن عباس وآخر عن كعب وقد جمع بينهما المصنف هنا باختصار.

(5/257)

قَائِمًا يَسْرَتَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا (98)

قال مالك: لا أحسبه إلا قال في البغض مثل ذلك (1) .
قال هرم بن حيان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه حتى يرزقه مودتهم (2) .
{ قَائِمًا يَسْرَتَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا (98) }
قوله عز وجل: { قَائِمًا يَسْرَتَاهُ بِلِسَانِكَ } أي سهلنا القرآن بلسانك يا محمد { لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ } يعني المؤمنين { وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا } شدادا في الخصومة جمع "الألد".
وقال الحسن: صما عن الحق (3) .
قال مجاهد: 10/ب "الألد": الظالم الذي لا يستقيم (4) .
قال أبو عبيدة: "الألد" الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ } هل ترى وقيل هل تجد { مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا } أي صوتا "والركز": الصوت الخفي (5) قال الحسن: بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا أثر (6) .

(1) أخرجه مالك في الموطأ كتاب الشعر باب المتحابين في الله: 2 / 953
والبخاري في الأدب باب المقة (المحبة) من الله: 10 / 461 ومسلم في البر والصلة والأدب باب إذا أحب الله عبدا حبه إلى عباده برقم (4237): (4 / 2030) والمصنف في شرح السنة: 13 / 55. وانظر فتح الباري: 10 / 462-463.

(2) انظر: تفسير الطبري: 16 / 133.

(3) أخرجه الطبري: 16 / 134.

(4) الطبري: 16 / 133-134.

- (5) كما قال الشاعر لبيد بن ربيعة العامري: فتوجست ذكر الأنيس فراعها ...
عن ظهر غيب والأنيس سقامها
انظر: تفسير الطبري: 16 / 135.
(6) أخرجه عبد بن حميد بنحوه. انظر: الدر المنثور: 5 / 547.

(5/258)

طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2)

سورة طه مكية (1)
بسم الله الرحمن الرحيم
{ طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) }
أخبرنا عبد الواحد المليحي (2) أخبرنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر
الرياني، أخبرنا حميد بن زنجوية، أخبرنا ابن أبي أويس، حدثني أبي عن أبي بكر
الهدلي، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
"أعطيت السورة التي ذكرت فيها البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه
والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي
ذكرت فيها البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلة" (3).
{ طه } قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء، وبكسرهما حمزة والكسائي
وأبو بكر، والباقون بفتحهما.

- (1) مكية كلها في قول الجميع، فقد أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس
قال: نزلت سورة طه بمكة. وأخرجه أيضا ابن مردويه عن ابن الزبير. انظر:
الدر المنثور: 5 / 548، زاد المسير: 5 / 268، تفسير القرطبي: 11 / 163.
(2) جاء هذا الحديث في نسخة "ب" عقب الآية الأولى.
(3) عزاه السيوطي في "الدر المنثور": 5 / 548 لابن مردويه، وفيه أبو بكر
الهدلي، قال عنه ابن حجر: إخباري متروك الحديث. وأخرجه مطولا عن معقل
بن يسار: البيهقي في السنن: 10 / 9، والحاكم في المستدرک: 1 / 561،
568، و2 / 259، وابن السني في عمل اليوم والليلة ص: (322). وفيه عبيد
الله بن أبي حميد وهو متروك. وانظر: فيض القدير للمناوي: 1 / 564.

(5/259)

- قيل: هو قسم (1). وقيل: اسم من أسماء الله تعالى (2).
وقال مجاهد، والحسن، وعطاء، والضحاك: معناه يا رجل.
وقال قتادة: هو يا رجل بالسريانية.
وقال الكلبي: هو يا إنسان بلغة عك (3).
وقال مقاتل بن حيان: معناه طأ الأرض بقدميك، يريد: في التهجد (4).
وقال محمد بن كعب القرظي: أقسم الله عز وجل بطوله وهدايته (5).
قال سعيد بن جبیر: الطاء افتتاح اسمه الطاهر، والهاء افتتاح اسمه هاد (6).
وقال الكلبي: لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة

اجتهد في العبادة حتى كان يراوح بين قدميه في الصلاة لطول قيامه، وكان يصلي الليل كله، فأنزل الله هذه الآية (7) وأمره أن يخفف على

(1) رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. انظر: زاد المسير: 5 / 205، 270.

(2) الطبري 16 / 36، البحر المحيط: 6 / 224، زاد المسير: 5 / 270.

(3) انظر: الطبري: 16 / 135 - 136، زاد المسير: 5 / 270، البحر المحيط: 6 / 224. وهذا القول رجحه الطبري لأنها كلمة معروفة في قبيلة عك، وأن معناها فيهم: يا رجل وأنشدت لمتمم بن نويرة: هتفت بطله في القتال فلم يجب ... فخفت عليه أن يكون موثلاً

(4) نقله عنه أيضا: ابن الجوزي في زاد المسير: 5 / 270. وروى عن عبد بن حميد في تفسيره، عن الربيع بن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى: "طه"، يعني طأ الأرض بقدميك يا محمد. وروى ابن مردويه من طريق قيس بن الربيع عن علي: لما نزل "يا أيها المزمّل" قام الليل كله حتى ورمّت قدماه، فجعل يرفع رجلا ويضع الأخرى فهبط عليه جبريل فقال: طه طأ الأرض بقدميك يا محمد. وأخرجه البزار من وجه آخر عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: الكافي الشاف لابن حجر ص (108)، ابن كثير: 3 / 142.

(5) وهذا القول قريب المعنى من قول ابن عباس الذي رواه علي بن أبي طلحة. انظر: زاد المسير: 5 / 270.

(6) وأخرج البزار عن علي نحوه: قال الهيثمي: 7 / 56: "وفيه يزيد بن بلال، وقال البخاري: فيه نظر، وكيسان أبو عمرو: وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين. وبقيّة رجاله رجال الصحيح".

(7) انظر: زاد المسير: 5 / 269 - 270. وقارن بأضواء البيان: 4 / 400 فقد ضعف هذا القول. وتقدم أن الطبري رجح أن المراد بها: يا رجل ولم يعهد هذا النداء في الكتاب الكريم، ولذلك رجح أبو حيان في البحر المحيط: (6 / 224) "أن "طه" من الحروف المقطعة نحو "يس" و"الر" وما أشبهها". وقال الشيخ الشنقيطي في "أضواء البيان": (4 / 399): وأظهر الأقوال فيه أنه من الحروف المقطعة في أوائل السور، وبدل لذلك أن الطاء والهاء المذكورتين في فاتحة هذه السورة جاءتا في مواضع آخر لا نزاع فيها في أنهما من الحروف المقطعة. أما الطاء ففي فاتحة الشعراء "طسم" وفاتحة النمل "طس" وفاتحة القصص. وأما الهاء ففي فاتحة مريم في قوله تعالى: "كهيعص" . . . وخير ما يفسر به القرآن القرآن".

(5/262)

إِلَّا تَذَكَّرَةً لِمَنْ يَحْشَى (3) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4)
الَّذِينَ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6)

نفسه فقال: { مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } وقيل: لما رأى المشركون اجتهاده في العبادة قالوا ما أنزل عليك القرآن يا محمد إلا لشقائك، فنزلت { مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } (1) أي لتتعنى وتتعب، وأصل الشقاء في اللغة العناء.

{ إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) }

{ إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى } [أي لكن أنزلناه عظة لمن يخشى. وقيل: تقديره ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى] (2) . { تَنْزِيلًا } بدل من قوله "تذكرة" { مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ } أي: من الله الذي خلق الأرض، { وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا } يعني: العالية الرفيعة، وهي جمع العليا كقوله: كبرى وكبير، وصغرى وصغير. { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } . { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا } يعني الهواء، { وَمَا تَحْتَ الثَّرَى } والثرى هو: التراب الندي. قال الضحاك: يعني ما وراء الثرى من شيء. وقال ابن عباس: إن الأرضين على ظهر النون، والنون على بحر، ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش، والبحر على صخرة خضراء، خضرة السماء منها، وهي الصخرة التي ذكر الله في قصة لقمان "فتكن في صخرة" والصخرة على قرن ثور، والثور على الثرى، وما تحت الثرى لا يعلمه إلا الله عز وجل، وذلك الثور فاتح فاه فإذا جعل الله عز وجل البحار بحرا واحدا سألت في جوف ذلك الثور، فإذا وقعت في جوفه يبست (3) .

(1) انظر: تفسير الطبري: 16 / 137، أسباب النزول للواحدي ص (351) - القرطبي: 11 / 167.

(2) ساقط من "ب".

(3) ذكر هذه الرواية القرطبي: 11 / 169 - 170. وهذه الرواية من الإسرائيليات التي لا يعول عليها في تفسير كتاب الله تعالى، ولو صحت نسبتها لابن عباس رضي الله عنهما، لأن صحة نسبتها إليه لا تعني صحتها في واقع الأمر لأنها متلقاة من الإسرائيليات. وانظر ما كتبه الحافظ ابن كثير رحمه الله في التفسير: 4 / 401 - 402.

(5/263)

وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9)

{ وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) }

{ وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ } [أي: تعلن به] (1) { فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } قال الحسن: "السر": ما أسر الرجل إلى غيره، "وأخفى" من ذلك: ما أسر من نفسه.

وعن ابن عباس، وسعيد بن جبير: "السر" ما أسر في نفسك "وأخفى" من السر: ما يلقى الله عز وجل في قلبك من بعد، ولا تعلم أنك ستحدث به نفسك،

لأنك تعلم ما تسر به اليوم ولا تعلم ما تسر به غدا، والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسر به غدا.
وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: "السر": ما أسر ابن آدم في نفسه، "وأخفى" ما خفي عليه مما هو فاعله قبل أن يعلمه.
وقال مجاهد: "السر" العمل الذي تسرون من الناس، "وأخفى": الوسوسة.
وقيل: "السر": هو العزيمة ["وأخفى": ما يخطر على القلب ولم يعزم عليه.
وقال زيد بن أسلم: "يعلم السر" (2) وأخفى: أي يعلم أسرار العباد، وأخفى سره من عباده، فلا يعلمه أحد (3). ثم وحد نفسه، فقال: { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } قوله عز وجل: { وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى } أي: قد أتاك، استفهام بمعنى التقرير.

(1) ساقط من "أ".

(2) ساقط من "أ".

(3) انظر هذه الأقوال في: الطبري: 16 / 139 - 141 ، زاد المسير: 5 / 271. قال الطبري: والصواب من القول في ذلك قول من قال: معناه يعلم السر وأخفى من السر، لأن ذلك هو الظاهر من الكلام، ولو كان معنى ذلك ما تأوله ابن زيد لكان الكلام: وأخفى الله سره، لأن أخفى فعل واقع متعد؛ إذ كان بمعنى "فعل" - على ما تأوله ابن زيد - وفي انفراد "أخفى" من مفعوله - والذي يعمل فيه لو كان بمعنى فعل - الدليل الواضح على أنه بمعنى "أفعل"، وأن تأويل الكلام: فإنه يعلم السر وأخفى منه، فإذا كان ذلك تأويله فالصواب من القول في معنى أخفى من السر، أن يقال: هو ما علم الله مما أخفى عن العباد ولم يعلموه، مما هو كائن ولما يكن، لأن ما ظهر وكان فغير سر، وأن ما لم يكن وهو غير كائن، فلا شيء، وأن لم يكن وهو كائن: فهو أخفى من السر، لأن ذلك لا يعلمه إلا الله ثم من أعلمه ذلك من عباده.

(5/264)

إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11)

{ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) }
{ إِذْ رَأَى نَارًا } وذلك إن موسى استأذن شعبيا في الرجوع من مدين إلى مصر لزيارة والدته وأخته، فأذن له فخرج بأهله وماله، وكانت أيام الشتاء، وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام، وامراته في سقمها، لا تدري أليلا أم نهارا. فسار في البرية غير عارف بطرقها، فألجأ المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد، وأخذ امرأته الطلق، فقدح زنده فلم يوره.

وقيل: إن موسى كان رجلا غيورا فكان يصحب الرفقة بالليل ويفارقهم بالنهار، لئلا ترى امرأته، فأخطأ مرة الطريق في ليلة مظلمة شاتية، لما أراد الله عز وجل من كرامته، فجعل يقدح الزند فلا يوري، فأبصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور، { فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا } (1) أقيموا، قرأ حمزة بضم

الهاء هاهنا وفي القصص، { إِنِّي آتِسْتُ } أي: أبصرت، { تَارًا لَعَلِّي آتَيْكُمْ مِنْهَا يَقْبَسُ } شعلة من نار، والقيس قطعة من النار تأخذها في طرف عمود من معظم النار، { أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى } أي: أجد عند النار من يدلني على الطريق. { فَلَمَّا آتَاهَا } رأى شجرة خضراء من أسفلها [إلى أعلاها، أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوا ما يكون، فلا ضوء النار يغير] (2) خضرة الشجرة، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار.
قال ابن مسعود: كانت الشجرة سمرة خضراء.
وقال قتادة، ومقاتل، والكلبي: كانت من العوسج.
وقال وهب: كانت من العليق.
وقيل: كانت شجرة العناب، روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما (3).
قال أهل التفسير: لم يكن الذي رآه موسى نارا بل كان نورا، ذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه نارا.
وقال أكثر المفسرين: إنه نور الرب عز وجل، وهو قول ابن عباس، وعكرمة، وغيرهما.

(1) انظر: الطبري: 16 / 142 - 143، القرطبي: 11 / 171، البحر المحيط: 6 / 230.

(2) ساقط من "أ".

(3) انظر: الطبري: 16 / 143، البحر المحيط: 6 / 230، القرطبي: 11 / 171. وهذه الأقوال في الشجرة مما لم يرد نص عن النبي صلى الله عليه وسلم في تعيينها، وقد أعرض الحافظ ابن كثير عنها فلم يذكر شيئا منها في تفسير الآية.

(5/265)

إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ تَعْلِيكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)

وقال سعيد بن جبير: هي النار بعينها، وهي إحدى حجب الله تعالى، يدل عليه: ما روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (1).
وفي القصة أن موسى أخذ شيئا من الحشيش اليابس وقصد الشجرة وكان كلما دنا نأت منه النار، وإذا نأى دنت، فوقف متحيرا، وسمع تسبيح الملائكة، وألقيت عليه السكينة (2).

{ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ تَعْلِيكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) }
{ نُودِي يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } قرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو، "أني" بفتح الألف، على معنى: نودي بأني. وقرأ الآخرون بكسر الألف، أي: نودي، ف قيل: إني أنا ربك.

قال وهب نودي من الشجرة، ف قيل: يا موسى، فأجاب سريعا لا يدري من دعاه، فقال: إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ 11/أ قال: أنا فوقك ومعك، وأمامك وخلفك، وأقرب إليك من نفسك، فعلم أن ذلك لا ينبغي إلا لله، فأيقن به (3).

قوله عز وجل: { فَاخْلَعْ تَعْلِيكَ } وكان السبب فيه ما روى عن ابن مسعود

مرفوعا في قوله: { فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ } قال: كانتا من جلد حمار ميت. ويروى غير مديوغ (4) .

وقال عكرمة ومجاهد: أمر بخلع النعلين ليباشر بقدمه تراب الأرض المقدسة، فينالها بركتها لأنها قدست مرتين، فخلعهما موسى وألقاهما من وراء الوادي (5) .

(1) أخرجه مسلم في الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام. . برقم (179): 1 / 161 - 162.

(2) انظر: البحر المحيط: 6 / 230.

(3) عزاه السيوطي: 5 / 554 - 555 للإمام أحمد في الزهد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(4) أخرجه الترمذي في اللباس، باب ما جاء في لبس الصوف: 5 / 410 وقال: "هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج، وحميد هو ابن علي الأعرج، منكر الحديث". ورواه الحاكم في المستدرک: 2 / 379 وصححه على شرط البخاري، فتعقبه الذهبي بقوله: "بل ليس على شرط البخاري، وإنما غره أن في الإسناد حميد بن قيس كذا وهو خطأ إنما هو حميد الأعرج الكوفي ابن علي، أو ابن عمار، أحد المتروكين، فظنه المكي الصادق".

(5) قال الطبري مرجحا: "وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: أمر الله - تعالى ذكره - بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان واديا مقدسا، وإنما قلنا ذلك أولى التأولين بالصواب لأنه لا دلالة في ظاهر التنزيل على أنه أمر بخلعهما من أجل أنهما من جلد حمار، ولا لنجاستهما، ولا خير بذلك ممن يلزم بقوله الحجة. وإن في قوله: "إنك بالوادي المقدس" بعقبه دليلا واضحا على أنه إنما أمره بخلعهما لما ذكرنا". انظر: الطبري: 16 / 144. وانظر المعنى نفسه عند أبي حيان: 16 / 231. ونقل الحافظ ابن كثير: (3 / 144) عن سعيد بن جبير أنه - عليه السلام - أمر بخلع نعليه كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة. وأبدى الشيخ الشنقيطي: (4 / 292) حكمة أخرى فقال: وأظهر الأقوال - والله تعالى أعلم -: أن الله أمره بخلع نعليه من قدميه ليعلمه التواضع لربه حين ناداه، فإن نداء الله لعبده أمر عظيم يستوجب من العبد كمال التواضع والخشوع. والله تعالى أعلم.

(5/266)

{ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ } أي المطهر، { طَوَّى } وطوى اسم الوادي، وقرأ أهل الكوفة والشام: "طوى" بالتنوين هاهنا وفي سورة النازعات، وقرأ الآخرون بلا تنوين لأنه معدول عن "طاو" فلما كان معدولا عن وجهه كان مصروفا عن إعرابه، مثل عمر، وزفر، وقال الضحاك: "طوى" : واد مستدير عميق مثل الطوى في استدارته.

(5/267)

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ
الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)
(15)

{ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ
الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)
{ (15)

{ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ } اصطفتك برسالاتي، قرأ حمزة: " وأنا " مشددة النون،
" اخترناك " على التعظيم. { فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } إليك :: { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي } ولا تعبد غيري، { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } قال مجاهد: أقم
الصلاة لتذكرني فيها، وقال مجاهد: إذا تركت الصلاة ثم ذكرتها، فأقمها.
أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحين أخبرنا أبو عمرو بكر بن محمد المزني،
أخبرنا أبو بكر بن محمد بن عبد الله الحفيد، أخبرنا الحسين بن الفضل البجلي،
أخبرنا عفان، أخبرنا قتادة عن أنس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم " من
نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك " (1) ثم قال: سمعته يقول
بعد ذلك: { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا } قيل معناه
إن الساعة آتية أخفيها. و "أكاد " صلة. وأكثر المفسرين قالوا: معناه: أكاد
أخفيها من نفسي، وكذلك في مصحف أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود:
أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق.
وفي بعض القراءات: فكيف أظهرها لكم. وذكر ذلك على عادة العرب إذا
بالغوا في كتمان الشيء يقولون: كتمت سر من نفسي، أي: أخفيته غاية
الإخفاء، والله عز اسمه لا يخفي عليه شيء.

(1) أخرجه البخاري في المواقيت، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكر. . : 2 /
70 ومسلم في المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها
برقم (684) 1 / 477، والمصنف في شرح السنة: 2 / 241.

(5/267)

فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا
مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفَى بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ
أُخْرَى (18)

وقال الأخفش: أكاد: أي أريد، ومعنى الآية: أن الساعة آتية أريد أخفيها.
والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف، لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة
كانوا على حذر منها كل وقت.
وقرأ الحسن بفتح الألف أي أظهرها، يقال: خفيت الشيء: إذا أظهرته،
وأخفيته: إذا سترته.

قوله تعالى: { لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى } أي بما تعمل من خير وشر.
{ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا
مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفَى بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ
أُخْرَى (18) }

{ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا } فلا يصرفنك عن الإيمان بالساعة، { مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ } مراده خالف أمر الله { فَتَرَدَى } أي: فتهلك. قوله عز وجل: { وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى } سؤال تقرير، والحكمة في هذا السؤال: تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنه معجزة عظيمة. وهذا على عادة العرب، يقول الرجل لغيره: هل تعرف هذا؟ وهو لا يشك أنه يعرفه، ويريد أن ينضم إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه. { قَالَ هِيَ عَصَايَ } قيل: وكانت لها شعبتان، وفي أسفلها سنان، ولها محجن. قال مقاتل: اسمها نبعة. { أَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا } أعتد عليها إذا مشيت وإذا أعبيت وعند الوثبة، { وَأَهْشَىٰ بِهَا عَلَىٰ عَنَمِي } أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم. وقرأ عكرمة " وأهس " بالسین غير المعجمة، أي: أزر بها الغنم، و"الهس": زجر الغنم.

{ وَلِيَّ فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى } حاجات ومنافع أخرى، جمع "مأربة" بفتح الراء وضمها، ولم يقل: " آخر " لراءوس الآي. وأراد بالمأرب: ما يستعمل فيه العصا في السفر، وكان يحمل بها الزاد ويشد بها الحبل (1) فيستقي الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ويحارب بها السباع، ويستظل بها إذا قعد

(1) في "ب" الدلو.

(5/268)

قَالَ أَلْفَهَا يَا مُوسَى (19) قَالَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20)

وغير ذلك.

وروى عن ابن عباس: أن موسى كان يحمل عليها زاده وسقاهه، فجعلت متماشيه وتحدثه، وكان يضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل يومه، ويركزها فيخرج الماء، فإذا رفعها ذهب الماء، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فتغنصت غصن الشجرة وأورقت وأثمرت، وإذا أراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتها كالدلو حتى يستقي، وكانت تضيء بالليل بمنزلة السراج، وإذا ظهر له عدو كانت تحارب وتناضل عنه (1).

{ قَالَ أَلْفَهَا يَا مُوسَى (19) قَالَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) }

{ قَالَ } الله تعالى: { أَلْفَهَا يَا مُوسَى } أنبذها، قال وهب: ظن موسى أنه يقول ارفضها. { قَالَهَا } على وجه الرفض (2) ثم حانت منه نظرة، { فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ } صفراء من أعظم ما يكون من الحيات، { تَسْعَى } تمشي بسرعة على بطنها وقال في موضع آخر: "كانها جان" (النمل -10) وهي الحية الصغيرة الخفيفة الجسم، وقال في موضع: "ثعبان"، وهو أكبر ما يكون من الحيات.

فأما الحية: فإنها تجمع الصغير والكبير والذكر والأنثى. وقيل: "الجان": عبارة عن ابتداء حالها، فإنها كانت حية على قدر العصا، ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعباناً، "والثعبان": عبارة عن انتهاء حالها.

وقيل: إنها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان.

قال محمد بن إسحاق: نظر موسى فإذا العصا حية من أعظم ما يكون من الحيات صارت شعبتها شدقين لها، والمحجن عنقا وعرفا، تهتز كالنيازك،

وعيناها تتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الإبل، فتلقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها، ويسمع لأسنانها صريف عظيم. فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً وهرب، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودي: أن يا موسى أقبل وارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف (3).

- (1) قال الحافظ ابن كثير: (3 / 146): "وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأقوال الخارقة للعادة. والظاهر: أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً. ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية."
(2) في "ب": الأرض.
(3) انظر التعليق السابق.

(5/269)

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاصْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ
تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ
إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25)

{ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاصْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ
تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ
إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) }
{ قَالَ خُذْهَا } بيمينك، { وَلَا تَحْفَ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } هيئتها الأولى، أي:
نردها عصا كما كانت، وكان على موسى مدرعة من صوف قد خلها بعيديان،
فلما قال الله تعالى: خذها، لف طرف المدرعة على يده، فأمره الله تعالى أن
يكشف يده فكشف.

وذكر بعضهم: أنه لما لف كم المدرعة على يده قال له ملك: رأيت لو أذن الله
بما تحاذره أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا ولكني ضعيف، ومن ضعف
خلقت، فكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فإذا هي عصا كما كانت، ويده
في شعبتها في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ (1).

قال المفسرون: أراد الله عز وجل أن يري موسى ما أعطاه من الآية التي لا
يقدر عليها مخلوق لئلا 11/ب يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون.

وقوله: { سِيرَتَهَا الْأُولَى } نصب بحذف "إلى"، يريد: إلى سيرتها الأولى. قوله
تعالى: { وَاصْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ } أي: إبطك، قال مجاهد: تحت عضدك،
وجناح الإنسان عضده إلى أصل إبطه. { تَخْرُجُ بَيْضَاءَ } نيرة مشرقة، { مِنْ
غَيْرِ سُوءٍ } من غير عيب والسوء هاهنا بمعنى البرص. قال ابن عباس: كان
ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر، { آيَةً أُخْرَى }
أي: دلالة أخرى على صدقك سوى العصا. { لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى } ولم
يقل الكبير لرءوس الآي. وقيل: فيه إضمار، معناه: لنريك من آياتنا الكبرى،
دليله قول ابن عباس: كانت يد موسى أكبر آياته. قال تعالى: { اذْهَبْ إِلَى
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } أي: جاوز الحد في العصيان والتمرد، فادعه إلى عبادتي. {
قَالَ } موسى: { رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي } وسعه للحق، قال ابن عباس: يريد

حتى لا أخاف غيرك، وذلك أن موسى كان يخاف فرعون خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده، وكان يضيق صدرا بما كلف من مقاومة فرعون وحده، فسأل الله أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم أن أحدا لا يقدر على مضرتة إلا بإذن الله، وإذا علم ذلك لم يخف فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده.

(1) انظر التعليق السابق.

(5/270)

وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32)

{ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) }

{ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي } أي: سهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون. { وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي } وذلك أن موسى كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره، فلطم فرعون لطمه وأخذ بلحيته، فقال فرعون لآسية امرأته: إن هذا عدوي وأراد أن يقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا يعقل ولا يميز. وفي رواية أن أم موسى لما فطمته ردتها، فنشأ موسى في حجر فرعون وامراته آسية يرببانه، واتخاذاه ولدا، فبينما هو يلعب يوما بين يدي فرعون وبيده قضيب يلعب به إذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون، فغضب فرعون وتطير بضربه، حتى هم بقتله، فقالت آسية: أيها الملك إنه صغير لا يعقل فجربه إن شئت، وجاءت بطشتين: في أحدهما الجمر، وفي الآخر الجواهر، فوضعتهما بين يدي موسى فأراد أن يأخذ الجواهر، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعهما على النار فأخذ جمرة فوضعهما في فمه فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة (1). { يَفْقَهُوا قَوْلِي } يقول: احلل العقدة كي يفقهوا كلامي. { وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا } معنا وظهيراً، { مِنْ أَهْلِي } والوزير من يوازرك ويعينك ويتحمل عنك بعض ثقل عملك، ثم بين من هو فقال: { هَارُونَ أَخِي } وكان هارون أكبر من موسى بأربع سنين، وكان أفصح منه لساناً وأجمل وأوسم، وأبيض اللون، وكان موسى آدم أقرنى جعداً. { اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي } قوبه ظهري. { وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي } أي: في النبوة وتبليغ الرسالة، وقرأ ابن عامر "أشدد" بفتح الألف "وأشركه" بضمها على الجواب، حكاية عن موسى، أي: أفعل ذلك، وقرأ الآخرون على الدعاء.

(1) جزء من حديث "الفتون" عن ابن عباس موقوفاً عليه، رواه الطبري في التفسير: 16 / 164 - 167، وعزاه الهيثمي لأبي يعلى، وقال: "رجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد، والقاسم بن أبي أيوب وهما ثقتان". وقال ابن كثير: "رواه النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر ابن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيرهما، كلهم من حديث يزيد بن هارون، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما

مما أبيض نقله من الإسرائيليات عن كعب الأخبار أو غيره. والله أعلم، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول ذلك أيضا". انظر: مجمع الزوائد: 7 / 66، وتفسير ابن كثير: 3 / 154، وتفسير النسائي: 1 / 646 - 747.

(5/271)

كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَتَذُكِّرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) وَلَقَدْ مَتْنَا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37)

والمسألة، عطفًا على ما تقدم من قوله: { قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي }
{ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَتَذُكِّرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) وَلَقَدْ مَتْنَا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) }

(5/272)

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (38) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَيْثُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِيُضَعَّ عَلَيَّ عَيْنِي (39)

{ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (38) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَيْثُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِيُضَعَّ عَلَيَّ عَيْنِي (39) }

{ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا } قال الكلبي: نصلي لك كثيرا. { وَتَذُكِّرَكَ كَثِيرًا } نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمك. { إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا } خبيرًا عليما. { قَالَ } الله تعالى: { قَدْ أُوتِيتَ } أعطيت، { سُؤْلِكَ } جميع ما سألته، { يَا مُوسَى } { وَلَقَدْ مَتْنَا عَلَيْكَ } أنعمنا عليك، { مَرَّةً أُخْرَى } يعني قبل هذه المرة وهي: { إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ } وحي الإلهام، { مَا يُوحَىٰ } ما يلهم. ثم فسر ذلك الإلهام وعدد نعمه عليه: { أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ } أي: ألهمناها أن اجعليه في التابوت، { فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ } يعني نهر النيل، { فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ } يعني شاطئ النهر، لفظه أمر ومعناه خبر، مجازه: حتى يلقيه اليم بالساحل: { يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ } يعني فرعون. فاتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنًا محلوجًا ووضعت فيه موسى، وقيرت رأسه وخصاصه -يعني شقوقه -ثم ألقتة في النيل، وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فبينما فرعون جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ بتابوت يحيى به الماء، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبي من أصبح الناس وجهًا، فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك، فذلك قوله تعالى: { وَالْقَيْثُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي } قال ابن عباس: أحبه وحببه إلى خلقه: قال عكرمة: ما رآه أحد إلا أحبه. قال قتادة: ملاحظة كانت في عيني موسى، ما رآه أحد إلا عشقه.

{ وَلِئْتَصَعَ عَلَى عَيْنِي } يعني لترى بمرآي ومنظر مني، قرأ أبو جعفر "ولتصنع "

(5/272)

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي
أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40)

بالحزم
{ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي
أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40) }
{ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ } واسمها مريم، متعرفة خبره، { فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن
يَكْفُلُهُ } ؟ أي على امرأة ترضعه وتضمه إليها؛ وذلك أنه كان لا يقبل ثدي
امرأة، فلما قالت ذلك لهم أخته قالوا: نعم، فجاءت بالأم فقبل ثديها، فذلك
قوله تعالى:

{ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا } بلقائك، { وَلَا تَحْزَنَ } أي: لأن يذهب
عنها الحزن.

{ وَقَتَلْتَ نَفْسًا } قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قتل قبطيا كافرا. قال
كعب الأحبار: كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة، { فَتَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ } أي من
غم القتل وكربه، { وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا } قال ابن عباس رضي الله عنه: اختبرناك
اختبارا. وقال الضحاك ومقاتل: ابتليناك ابتلاء. وقال مجاهد: أخلصناك إخلاصا.
وعن ابن عباس في رواية سعيد بن جبیر: أن الفتون وقوعه في محنة بعد محنة
خلصه الله منها، أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح الأطفال،
ثم إلقاءه في البحر في التابوت، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم أخذه
بلحية فرعون حتى هم بقتله، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة، ثم قتله القبطي،
 وخروجه إلى مدين خائفا. فكان ابن عباس يقص القصة على سعيد بن جبیر،
 فعلى هذا معنى: { وَفَتَنَّاكَ } خلصناك من تلك المحن، كما يفتن الذهب بالنار
 فيخلص من كل خبث فيه (1) "والفتون": مصدر.

{ فَلَبِثْتَ } فمكثت، أي: فخرجت من مصر فلبثت، { سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ }
يعني ترعى الأغنام عشر سنين، ومدين بلدة شعيب عليه السلام على ثمان
مراحل من مصر، هرب إليها موسى. وقال وهب: لبث عند شعيب عليه
السلام ثمانيا وعشرين سنة، عشر سنين منها مهر ابنته "صفيرا" بنت شعيب،
 وثمان عشرة سنة أقام عنده حتى ولد له.
{ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ } قال مقاتل: على موعد ولم يكن هذا الموعد
مع موسى وإنما

(1) انظر التعليق السابق.

(5/273)

وَاصْطَلَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ يَايَاتِي وَلَا تَبَيِّنَا فِي ذِكْرِي (42)
اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)

كان موعدا في تقدير الله، قال محمد بن كعب: جئت على القدر الذي قدرت أنك تجيء.

وقال عبد الرحمن بن كيسان: علي رأس أربعين سنة، وهو القدر الذي يوحى فيه إلى الأنبياء، وهذا معنى قول أكثر المفسرين، أي على الموعد الذي وعده الله وقدره أنه يوحى إليه بالرسالة، وهو أربعون سنة.

{ وَاصْطَلَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ يَايَاتِي وَلَا تَبَيِّنَا فِي ذِكْرِي (42)
اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) }

قوله عز وجل: { وَاصْطَلَعْتُكَ لِنَفْسِي } أي اخترتك واصطفيتك لوحى ورسالتى، يعني لتصرف على إرادتي 12/أ ومحبتى، وذلك أن قيامه بأداء الرسالة [تصرف على] (1) إرادة الله ومحبتة.

قال الزجاج: اخترتك لأمرى وجعلتك القائم بحجتي والمخاطب بيني وبين خلقي، كاني الذي أقمت (2) بك عليهم الحجة وخاطبتهم. { اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ يَايَاتِي } بدلائي، وقال ابن عباس: يعني الآيات التسع التي بعث بها موسى { وَلَا تَبَيِّنَا } لا تضعفا، وقال السدي: لا تفترا. وقال محمد بن كعب: لا تقصرا { فِي ذِكْرِي } { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } قرأ أبو عمرو، وأهل الحجاز: "لنفسى أذهب"، "وذكرى أذهب"، و"إن قومي اتخذوا" (الفرقان -30)، "من بعدي اسمه" (الصف -6) بفتح الياء فيهن، ووافقهم أبو بكر: "من بعدي اسمه"، وقرأ الباقر بإسكانها. { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا } يقول: دارياه وارفقا معه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تعنفا في قولكما. وقال السدي وعكرمة: كنياه فقولا يا أبا العباس، وقيل: يا أبا الوليد. وقال مقاتل: يعني القول اللين: "هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى" (النارعات -18،19). وقيل: أمر باللطافة في القول لما له من حق التربية.

(1) في "ب" تصرفه إلى.

(2) في "ب" احتججت.

(5/274)

وقال السدي: القول اللين: أن موسى أتاه ووعدته على قبول الإيمان شابا لا يهرم، وملكا لا ينزع منه إلا بالموت، وتبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وإذا مات دخل الجنة، فأعجبه ذلك وكان لا يقطع أمرا دون هامان، وكان غائبا فلما قدم أخبره بالذي دعاه إليه موسى، وقال أردت أن أقبل منه، فقال له هامان: كنت أرى أن لك عقلا ورأيا، أنت رب، تريد أن تكون مربوبا؟ وأنت تعبد تريد أن تعبد؟ فقلبه عن رأيه (1). وكان هارون يومئذ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتي هارون وأوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، فتلقاها إلى مرحلة، وأخبره بما أوحى إليه (2). { لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } أي: يتعظ ويخاف فيسلم.

فإن قيل: كيف قال: { لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ } وقد سبق علمه أنه لا يتذكر ولا يسلم؟
قيل: معناه اذهبا على رجاء منكما وطمع، وقضاء الله وراء أمركما.
وقال الحسين بن الفضل: هو ينصرف إلى غير فرعون، مجازه: لعله يتذكر
متذكر، ويخشى خاش إذا رأى بري وألطافي بمن خلقته وأنعمت عليه ثم ادعى
الربوبية.

وقال أبو بكر محمد بن عمر الوراق: "لعل" من الله واجب (3) ولقد تذكر
فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية، وذلك حين ألجمه الغرق، قال:
أمنت أنه لا إله إلا الذي أمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين.
وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ هذه الآية: { فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَيْتَا } فبكى يحيى،
وقال: إلهي هذا رفئك (4) بمن يقول أنا الإله، فكيف رفئك (5) بمن يقول
أنت الإله؟! (6) .

- (1) انظر في هذه الأقوال ونسبتها: الطبري: 16 / 169، الدر المنثور: 5 / 580، زاد المسير: 5 / 287 - 288. وأقرب هذه الأقوال في تفسير القول اللين؛ أن الله تعالى أمرهما أن يقولوا كلاما لطيفا سهلا رقيقا، ليس فيه ما يغضب وينفر. وقد بين الله جل وعلا المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله: "اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل له لئلا يفتخركم، وأهديك إلى ربك فتخشى". وهذا غاية لين الكلام ولطافته ورقته. وهو قول مقاتل، كما تقدم.
انظر: تفسير ابن كثير 3 / 154، أضواء البيان: 5 / 413.
(2) انظر: زاد المسير: 5 / 289.
(3) تفسير القرطبي: 11 / 201. وانظر: الاتقان للسيوطي: 2 / 275 - 276
فيه معاني حرف "لعل" في القرآن الكريم.
(4) في "ب": برك.
(5) في "ب": برك.
(6) تفسير القرطبي: 11 / 201.

(5/275)

قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا
أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا
تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ
إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49)
قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)

{ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعَى (45) }
{ قَالَا } يعني موسى وهارون: { رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا } قال ابن
عباس رضي الله عنهما: يعجل علينا بالقتل والعقوبة، يقال: فرط عليه فلان إذا
عجل بمكروه، وفرط منه أمر أي بدر وسبق، { أَوْ أَنْ يَطَّعَى } أي يجاوز الحد
في الإساءة إلينا.

{ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ
فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ
اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) قَالَ

فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)

{ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى { قال ابن عباس: أسمع دعائكما فأجيبه، وأرى ما يراد بكما فأمنعه، لست بغافل عنكما، فلا تهتما. { قَاتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ { أرسلنا إليك، { فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ { أي: خل عنهم وأطلقهم من أعمالك، { وَلَا تُعَذِّبْهُمْ { لا تتعبهم في العمل. وكان فرعون يستعملهم في الأعمال الشاقة، { قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ { قال فرعون: وما هي؟ فأخرج يده، لها شعاع كشعاع الشمس، { وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى { ليس المراد منه التحية، إنما معناه سلم من عذاب الله من أسلم. { إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى { إنما يعذب الله من كذب بما جئنا به وأعرض عنه. { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى { من إلهكما الذي أرسلكما؟ . { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى { قال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه، وهدهاه لما يصلحه. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته، لم يجعل خلق الإنسان كخلق البهائم، ولا خلق البهائم كخلق الإنسان، ثم هداه إلى منفعته من المطعم والمشرب والمنكح. وقال الضحاك: "أعطى كل شيء خلقه: يعني اليد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع.

(5/276)

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)

وقال سعيد بن جبیر: { أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ { يعني زوج، للإنسان المرأة، وللبعير الناقة، وللحمار الأتان، وللفرس الرمكة. { ثُمَّ هَدَى { أي: ألهمه كيف يأتي الذكر الأنثى (1) . { قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) }

(1) انظر هذه الأقوال في: الطبري: 16 / 171 - 172، الدر المنثور: 5 / 581 - 582. وقد اختار الطبري أن المعنى: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه في الصورة والهيئة، كالذكور من بني آدم، أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجا، وكالذكور من البهائم أعطاهم نظير خلقها، وفي صورتها وهيئتها من الإناث أزواجا، فلم يعط الإنسان خلاف خلقه، فيزوجه بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الجن، ثم هداهم للمأثى الذي منه النسل والنما كيف يأتيه، ولسائر منفعته من المطاعم والمشارب وغير ذلك. . لأنه سبحانه لا يعطى المعطى لنفسه، بل إنما يعطى ما هو غيره، لأن العطية تقتضي المعطى والعطية والمعطى، ولا تكون العطية هي المعطى، وإذا لم تكن هي هو، وكانت غيره، وكانت صورة كل خلق بعض أجزائه، كان معلوما أنه إذا قيل: أعطى الإنسان صورته إنما يعني أنه أعطى بعض المعاني التي به مع غيره دعي إنسانا. وإن كان هذا الذي اختاره الطبري رحمه الله لا ينفي إرادة بعض المعاني الأخرى التي تدل عليها الآية كما في قول الضحاك. والله أعلم.

قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ
تَبَاتٍ شَتَّى (53)

{ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ
تَبَاتٍ شَتَّى (53) }

{ قَالَ } فرعون: { فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى } ومعنى "البال": الحال، أي: ما
حال القرون الماضية والأمم الخالية، مثل قوم نوح وعاد وشمود فيما تدعونني
إليه (1) فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث؟ . { قَالَ } موسى: { عَلِمَهَا عِنْدَ
رَبِّي } أي: أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها.
وقيل: إنما رد موسى علم ذلك إلى الله لأنه لم يعلم ذلك، فإن التوراة أنزلت
بعد هلاك فرعون وقومه.

{ فِي كِتَابٍ } يعني: في اللوح المحفوظ، { لَا يَضِلُّ رَبِّي } أي: لا يخطئ.
وقيل: لا يضل (2) عنه شيء ولا يغيب عن شيء، { وَلَا يَنْسَى } [أي: لا
يخطيء] (3) ما كان من أمرهم حتى يجازيهم بأعمالهم. وقيل: لا ينسى أي: لا
يترك، فينتقم من الكافر ويجازي المؤمن. { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا } قرأ
أهل الكوفة: { مَهْدًا } ها هنا، وفي الزخرف، فيكون مصدرًا، أي: فرشًا، وقرأ
الآخرون: "مهادا"، كقوله تعالى: "ألم نجعل الأرض مهادا" (النبأ: 16) ، أي:
فراشًا وهو اسم لما يفرش، كالبساط: اسم لما يبسط.

(1) في "ب" تدعواني إليه.

(2) في "ب": لا يغيب.

(3) ساقط من "أ".

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) مِنْهَا حَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا
نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55)

{ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا } [السلك: إدخال الشيء في الشيء، والمعنى: أدخل
في الأرض لأجلكم طرقًا تسلكونها] (1) قال ابن عباس: سهل لكم فيها طرقًا
تسلكونها.

{ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } يعني: المطر.

تم الإخبار عن موسى، ثم أخبر الله عن نفسه بقوله: { فَأَخْرَجْنَا بِهِ } بذلك
الماء { أَزْوَاجًا } أصنافًا، { مِنْ تَبَاتٍ شَتَّى } مختلف الألوان والطعوم والمنافع
من بين أبيض وأحمر وأخضر وأصفر، فكل صنف منها زوج، فمنها للناس ومنها
للدواب.

{ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) مِنْهَا حَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا

نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) { كَلُّوا وَارْعَوْا } [أي وارتعوا] (2) { أَنْعَامَكُمْ } تقول العرب: رعيت الغنم فرعت، أي: أسيموا أنعامكم ترعى.
 { إِنَّ فِي ذَلِكَ } الذي ذكرت، { لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى } لذوي العقول، واحدها: "نهية" سميت نهية لأنها تنهى صاحبها عن القبائح والمعاصي .
 قال الضحاك: { لَأُولِي النُّهَى } الذين ينتهون عما حرم عليهم.
 قال قتادة: لذوي الورع. { مِنْهَا } أي من الأرض، { خَلَقْنَاكُمْ } يعني أباكم آدم.
 وقال 12/ب عطاء الخراساني (3) إن الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق الله من التراب ومن النطفة (4) فذلك قوله تعالى: { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ } أي:

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(2) ساقط من "أ".

(3) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر. انظر: الدر المنثور: 5 / 584. قال الشيخ الشنقيطي في "أضواء البيان": (5 / 524) وهذا القول خلاف التحقيق، لأن القرآن يدل على أن مرحلة النطفة بعد مرحلة التراب بمهلة؛ فهي غير مقارنة لها، بدليل الترتيب بينهما بـ "ثم" في قوله تعالى: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة".
 (4) قال الطبري: (16 / 175): من الأرض خلقناكم أيها الناس، فأنشأناكم أجساما ناطقة، وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم فنصيركم ترابا، كما كنتم قبل إنشائنا لكم، بشرا سويا.

(5/278)

وَلَقَدْ أَرْبَنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكُ يَا مُوسَى (57) فَلَنَاتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الرِّيبَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى (59)

عند الموت والدفن، { وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } يوم البعث.
 { وَلَقَدْ أَرْبَنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكُ يَا مُوسَى (57) فَلَنَاتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الرِّيبَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى (59) }

قوله عز وجل: { وَلَقَدْ أَرْبَنَاهُ } يعني فرعون، { آيَاتِنَا كُلَّهَا } يعني: الآيات التسع التي أعطها الله موسى، { فَكَذَّبَ } بها وزعم أنها سحر، { وَأَبَى } أن يسلم. { قَالَ } يعني فرعون { أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا } يعني: مصر، { بِسِحْرِكُ يَا مُوسَى } أي: تريد أن تغلب على ديارنا فيكون لك الملك وتخرجنا منها. { فَلَنَاتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا } أي: فاضرب بيننا أجلا وميقاتا، { لَا نُخْلِفُهُ } [قرأ أبو جعفر "لا نخلفه" بجزم، لا نجاوزه] (1) { نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى } قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب: "سوى" بضم السين، وقرأ الآخرون بكسرها، وهما لغتان مثل: عدى وعدى وطوى وطوى.

قال مقاتل وقتادة: مكانا عدلا بيننا وبينك.
 وعن ابن عباس: نصفاً، ومعناه: تستوي مسافة الفريقين إليه.
 قال مجاهد: منصفاً. وقال الكلبي: يعني سوى هذا المكان. { قَالَ مَوْعِدُكُمْ
 يَوْمَ الرِّبَّةِ } قال مجاهد، وقتادة، ومقاتل، والسدي: كان يوم عيد لهم، يتزينون
 فيه، ويجمعون في كل سنة. وقيل: هو يوم النيروز.
 وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: يوم عاشوراء (2).
 { وَأَنْ يُخَسِّرَ النَّاسُ صُحَى } أي: وقت الضحوة نهاراً جهاراً، ليكون أبعد من
 الريبة.

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(2) انظر هذه الأقوال في: الطبري: 16 / 177، الدر المنثور: 5 / 584 -
 585.

(5/279)

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ
 اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (61) فَيَتَّزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ
 وَأَسْرُوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
 بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكُمُ الْمُثْلَى (63)

{ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا
 عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (61) فَيَتَّزِعُوا أَمْرَهُمْ
 بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ
 أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكُمُ الْمُثْلَى (63) }

{ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ } مكره وحيلته وسحرته، { ثُمَّ أَتَى } الميعاد.
 { قَالَ لَهُمْ مُوسَى } يعني: للسحرة الذين جمعهم فرعون، وكانوا اثنين
 وسبعين ساحراً، مع كل واحد جبل وعصا.
 وقيل: كانوا أربعمائة. وقيل كعب: كانوا اثني عشر ألفاً. وقيل أكثر من ذلك.
 { وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ } قرأ حمزة والكسائي
 وحفص: { فَيُسْحِتَكُمْ } بضم الياء وكسر الحاء، وقرأ الباقون بفتح الياء والحاء
 وهما لغتان (1). قال مقاتل والكلبي: فيهلككم. وقال قتادة: فيستأصلكم،
 { وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى } { فَيَتَّزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ } أي: تناظروا وتشاوروا،
 يعني السحرة في أمر موسى سرا من فرعون.
 قال الكلبي: قالوا سرا: إن غلبنا موسى اتبعناه.
 وقال محمد بن إسحاق: لما قال لهم موسى: لا تفتروا على الله كذباً، قال
 بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر.
 { وَأَسْرُوا النَّجْوَى } أي المناجاة، يكون مصدرها واسما، ثم { قَالُوا } وأسر
 بعضهم إلى بعض يتناجون: { إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ } يعني موسى وهارون.
 قرأ ابن كثير وحفص: { إِنَّ } بتخفيف النون، { هَذَانِ } أي ما هذان إلا
 ساحران، كقوله: "إن نطنك لمن الكاذبين" (الشعراء: 186)، أي ما نطنك إلا
 من الكاذبين، ويشدد ابن كثير النون من "هذان".
 وقرأ أبو عمرو "إن" بتشديد النون "هذين" بالياء على الأصل.

وقرأ الآخرون: "إن" بتشديد النون، "هذان" بالألف، واختلفوا فيه:

(1) وعلى الأولى من "أسحت" رباعيا، والثانية من "سحت" ثلاثيا.

(5/280)

فروى هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: أنه خطأ من الكاتب (1). وقال قوم: هذه لغة الحارث بن كعب، وختعم، وكنانة، فإنهم يجعلون الاثنين في الرفع والنصب والخفض بالألف، يقولون: أتاني الزيدان [ورأيت الزيدان] (2) ومررت بالزيدان، [فلا يتركون] (3) ألف التثنية في شيء منها (4) وكذلك يجعلون كل ياء ساكنة انفتح ما قبلها ألفا، كما في التثنية، يقولون: كسرت يدها وركبت علاه، يعني يديه وعليه. وقال شاعرهم (5) تزود مني بين أذناه ضربة ... دعته إلى هابي التراب عقيم
يريد بين أذنيه.

وقال آخر (6) إن أباه وأبا أباه ... قد بلغا في المجد غايتها

(1) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى": 15 / 252 - 256: " وهذا الكلام ممتنع لوجوه: منها: تعدد المصاحف واجتماع جماعة على كل مصحف، ثم وصول كل مصحف إلى بلد كبير فيه كثير من الصحابة والتابعين + يقرءون القرآن، ويعتبرون ذلك بحفظهم، والإنسان إذا نسخ مصحفا غلط في بعضه عرف غلظه بمخالفة حفظة القرآن وسائر المصاحف، فلو قدر أنه كتب كاتب مصحفا ثم نسخ سائر الناس منه من غير اعتبار للأول والثاني أمكن وقوع + الغلط في هذا، وهنا كل مصحف إنما كتبه جماعة، ووقف عليه خلق عظيم ممن يحصل التواتر بأقل منهم، ولو قدر أن الصحيفة كان فيها لحن فقد كتب منها جماعة لا يكتبون إلا بلسان قريش، ولم يكن لحننا، فامتنعوا أن يكتبوه بلسان قريش، فكيف يتفقون كلهم على أن يكتبوا: "إن هذان" وهم يعلمون أن ذلك لحن لا يجوز في شيء من لغاتهم، كما زعم بعضهم؟! ... وأيضا: فإن القراء إنما قرأوا بما سمعوه من غيرهم، والمسلمون كانوا + يقرءون سورة "طه" على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وهي من أول ما نزل من القرآن، وهي مكية باتفاق الناس. . فالصحابة لا بد أن + قرءوا هذا الحرف، ومن الممتنع أن يكونوا كلهم + قرءوه بالياء كأبي عمرو، فإنه لو كان كذلك لم يقرأها أحد إلا بالياء فعلم أنهم أو غالبهم كانوا + يقرءونها بالألف كما قرأها الجمهور. . فهذا مما يعلم به قطعاً أن عامة الصحابة إنما + قرءوها بالألف كما قرأ الجمهور، وكما هو مكتوب. . . وانظر فيما سبق تعليقا: 2 / 309 - 310 والمراجع المشار إليها هناك، وراجع: زاد المسير: 5 / 251 - 252.

(2) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(3) ساقط من: "أ".

(4) وهذه اللغة وافقتها لغة قريش. وانظر بالتفصيل والشواهد الشعرية في: تفسير الطبري: 16 / 180 - 181، والبحر المحيط: 6 / 255، زاد المسير لابن الجوزي: 5 / 298، التبيان في إعراب القرآن للعكبري: 2 / 895، شرح الكافية الشافية لابن مالك الطائي: 1 / 188 - 190.

(5) تفسير القرطبي: 11 / 217.
(6) ينسب هذا الرجز إلى أبي النجم العجلي (الفضل بن قدامة) كما ينسب إلى رؤية بن العجاج، وأنشده أبو زيد في "نوادير اللغة". عن المفضل الضبي قال: أنشدني أبو الغول لبعض أهل اليمن. . . انظر: شرح الكافية الشافية، لابن مالك: 1 / 184 مع التعليق.

(5/281)

وقيل: تقدير الآية: إنه هذان، فحذف الهاء (1).
وذهب جماعة إلى أن حرف "أن" هاهنا، بمعنى نعم، أي نعم هذان (2) روى أن أعرابيا سأل ابن الزبير شيئا فحرمه، فقال: لعن الله ناقة حملتني إليك، فقال ابن الزبير: إن وصاحبها، أي نعم.
وقال الشاعر (3) بكرت عليّ عواذلي ... يلحيني وألومهنه
ويقلن شيب قد علا ... ك وقد كبرت فقلت إنه
أي: نعم.
{ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ } مصر (4) { يَسْخِرُهُمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمْ الْمُثَلَّى } قال ابن عباس: يعني بسراة قومكم وأشرافكم، يقال: هؤلاء طريقة قومهم أي أشرافهم (5) و { الْمُثَلَّى } تأنيث "الأمثل"، وهو الأفضل، حديث الشعبي عن علي، قال: يصرفان وجوه الناس إليهما (6).
قال قتادة: طريقتهما المثلى يومئذ بنو إسرائيل كانوا أكثر القوم عددا وأموالا فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بهم لأنفسهم (7).
وقيل: { بِطَرِيقَتِكُمْ الْمُثَلَّى } أي بسنتكم ودينكم الذي أنتم عليه (8) و { الْمُثَلَّى } نعت الطريقة، تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى، يعني: على الهدى المستقيم.

(1) انظر: التبيان في إعراب القرآن، للعكبري: 2 / 895، البحر المحيط، 6 / 255.
(2) قال أبو حيان: (6 / 255): ثبت ذلك في اللغة، فتحمل الآية عليه، و"هذان لساحران" مبتدأ وخبر وانظر زاد المسير: 5 / 399.
(3) هو عبد الله بن قيس الرقيات. انظر: القرطبي: 11 / 218.
(4) ساقط من "ب".
(5) الطبري: 16 / 183.
(6) الطبري: 16 / 183.
(7) الطبري: 16 / 183.
(8) رواه الطبري عن ابن زيد: (16 / 183)، وقال: وإن كان له وجه يحتمل الكلام، فإن تأويل أهل التأويل خلافه، فلا أستجيز لذلك القول به.

(5/282)

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64)

{ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) }

(5/283)

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67)

{ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) }

{ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ } قرأ أبو عمرو: " فاجمعوا " بوصل الألف وفتح الميم، من الجمع، أي لا تدعوا شيئاً من كيدكم إلا جئتم به، بدليل قوله: " فجمع كيده "، وقرأ الآخرون بقطع الألف وكسر الميم. فقد قيل: معناه الجمع أيضاً، تقول العرب: أجمعت الشيء وجمعته بمعنى واحد.

والصحيح أن معناه العزم والإحكام، أي: أعزموا كلكم على كيده مجتمعين له، ولا تختلفوا فيختل أمركم.

{ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا } أي جميعاً، قاله مقاتل والكلبي، وقال قوم: أي مصطفىين مجتمعين ليكون أشد لهيبتكم، وقال أبو عبيدة: الصف المجمع، ويسمى المصلي صفًا. معناه: ثم اتتوا المكان الموعود.

{ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى } أي: فاز من غلب. { قَالُوا } يعني السحرة، { يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ } عصاك، { وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى } عصاه. { قَالَ } موسى: { بَلْ أَلْقُوا } أنتم أولاً { فَإِذَا حِبَالُهُمْ } وفيه إضمار، أي فألقوا فإذا حبالهم { وَعِصِيُّهُمْ } جمع العصا، { يُخَيَّلُ إِلَيْهِ } قرأ ابن عامر ويعقوب " تخيل " بالتاء رداً إلى الحبال والعصي، وقرأ الآخرون بالياء ردوه إلى الكيد والسحر، { مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى }

وفي القصة أنهم لما ألقوا الحبال والعصي أخذوا أعين الناس، فرأى موسى والقوم كأن الأرض امتلأت حيات، وكانت قد أخذت ميلاً من كل جانب ورأوا أنها تسعى (1). { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } أي وجد، وقيل: أضمر في نفسه خوفاً، واختلفوا في خوفه: قيل: خوف طبع البشرية، وذلك أنه ظن أنها تقصده.

وقال مقاتل: خاف على القوم أن يلتبس عليهم الأمر فيشكوا في أمره فلا يتبعوه.

(1) ذكره الطبري: عن وهب بن منبه: 16 / 186.

(5/283)

قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفَافًا صَاعًا وَمَا صَنَعُوا إِلَّا مَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأَلْقَى السَّحْرَهُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدِّنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي

عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَا قَطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْتَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا قَافِضٍ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)

{ قُلْنَا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) قَالَتِ السَّحْرَةُ سُجَّدًا قَالُوا أَمَّا يَرْبُّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ أَمْنُكُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْرَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَا قَطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْتَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا قَافِضٍ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) { قُلْنَا } لموسى: { لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى } أي: الغالب، يعني: لك الغلبة والظفر. { وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ } يعني العصا، { تَلْقَفْ } تلتقم وتبتلع، { مَا صَنَعُوا } قرأ ابن عامر "تلقف" برفع الفاء هاهنا، وقرأ الآخرون بالجزم على جواب الأمر، { إِنَّمَا صَنَعُوا } إن الذي صنعوا، { كَيْدٌ سَاحِرٍ } أي حيلة سحر، هكذا قرأ حمزة والكسائي: بكسر السين بلا ألف (1)، وقرأ الآخرون: "ساحر" لأن إضافة الكيد 13/أ إلى الفاعل أولى من إضافته إلى الفعل، وإن كان ذلك لا يمتنع في العربية، { وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } { مِنْ الْأَرْضِ } قال ابن عباس: لا يسعد حيث كان. وقيل: معناه حيث احتال. { قَالَتِ السَّحْرَةُ سُجَّدًا قَالُوا أَمَّا يَرْبُّ هَارُونَ وَمُوسَى } قَالَ أَمْنُكُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْرَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ { لرئيسكم ومعلمكم، { الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَا قَطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ } أي: على جذوع النخل (2) { وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْتَا أَشَدَّ عَذَابًا } ؛ أنا على إيمانكم به، أو رب موسى على ترك الإيمان به؟ { وَأَبْقَى } أي: أدام. { قَالُوا } يعني السحرة: { لَنْ نُؤْتِيَكَ } لن نختارك، { عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتَاتِ }

(1) وهذا إشارة إلى أن المصنف رحمه الله فسر الآية أولا على قراءة "كيد ساحر" بدليل ما بعده .

(2) كما قال الشاعر (سويد بن أبي كاهل اليشكري): هم صلبوا العبدى في جذع نخلة ... بنات فلا عطست شيبان إلا بأجدعا
يعني: على جذع نخلة. وإنما قيل: "في جذوع" لأن المصلوب على الخشبة يرفع في طولها، ثم يصير عليها، فيقال: صلب عليها. انظر تفسير الطبري: 16 / 188 .

(5/284)

إِنَّا أَمَّا يَرْبُّنَا لِيَعْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73)

يعني الدلالات، قال مقاتل: يعني اليد البيضاء (1) والعصا. وقيل: كان استبدلالهم أنهم قالوا لو كان هذا سحرا فأين حبالنا وعصينا. وقيل: { مِنَ الْبَيْتَاتِ } يعني من التبيين والعلم. حكى عن القاسم بن أبي بزة أنه قال: إنهم لما ألقوا سجدا ما رفعوا رءوسهم

حتى رأوا الجنة والنار، ورأوا ثواب أهلها، ورأوا منازلهم في الجنة، فعند ذلك قالوا: لن نُؤثرك على ما جاءنا من البينات، { وَالَّذِي قَطَرْنَا } أي: لن نُؤثرك على الله الذي فطرنا، وقيل: هو قسم، { قَافُضٌ مَا أَنْتَ قَاضٍ } أي: فاصنع ما أنت صانع، { إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } أي: أمرك وسلطانك في الدنيا وسيزول عن قريب.

{ إِنَّا أَمَّا بِرَبِّنَا لِيَعْفَرَ لَنَا خَطَايَاَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } (73)

{ إِنَّا أَمَّا بِرَبِّنَا لِيَعْفَرَ لَنَا خَطَايَاَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ } فإن قيل: كيف قالوا هذا، وقد جاءوا مختارين يخلفون بعزة فرعون أن لهم الغلبة؟ قيل: روي عن الحسن أنه قال: كان فرعون يكره قوما على تعلم السحر لكيلا يذهب أصله، وقد كان أكرههم في الابتداء.

وقال مقاتل: كانت السحرة اثنين وسبعين، اثنان من القبط وسبعون من بني إسرائيل، كان فرعون أكره الذين هم من بني إسرائيل على تعلم السحر، فذلك قولهم: { وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ }

وقال عبد العزيز بن أبان: قالت السحرة لفرعون: أرنا موسى إذا نام، فأراهم موسى نائما وعصاه تجرسه، فقالوا لفرعون إن هذا ليس بساحر، إن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى عليهم إلا أن يتعلموا، فذلك قوله تعالى: { وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ }

{ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } قال محمد بن إسحاق: خير منك ثوابا، وأبقى عقابا. وقال محمد بن كعب: خير منك ثوابا (2) إن أطيع، وأبقى منك عذابا إن عصى، وهذا جواب لقوله: "ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى".

(1) ساقط من "ب".

(2) ساقط من "أ".

(5/285)

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)

{ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76) }

(5/286)

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى (77)

{ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى (77) }

{ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا } قيل: هذا ابتداء كلام من الله تعالى . وقيل: من تمام قول السحرة { مُجْرِمًا } أي: مشركا، يعني: مات على الشرك، { قَائِنٌ لَهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا } فيستريح، { وَلَا يَحْيَا } حياة ينتفع بها. { وَمَنْ يَأْتِهِ } قرأ أبو عمرو ساكنة الهاء ويختلسها أبو + جعفر، وقالون ويعقوب، وقرأ الآخرون بالإشباع، { مُؤْمِنًا } مات على الإيمان، { قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ قَوْلًا لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى } الرفيعة، و { الْعُلَى } جمع، و "العليا" تأنث الأعلى.

{ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى } أي: تطهر من الذنوب. وقال الكلبي: أعطى زكاة نفسه وقال لا إله إلا الله.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد السمسار، أخبرنا أبو أحمد حمزة بن محمد بن عباس الدهقان، أخبرنا أحمد بن عبد الجبار العطاردي، أخبرنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرّي في أفق من أفاق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعمًا" (1) قوله عز وجل: { وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي } أي: سر بهم ليلا من أرض مصر، { فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ } أي اجعل لهم طريقا في البحر بالضرب بالعصا، { يَبَسًا } يابساً ليس فيه ماء ولا طين، وذلك أن الله أيبس لهم الطريق في البحر، { لَا تَخَافُ دَرَكًا } قرأ حمزة

(1) أخرجه أبو داود في الحروف: 6 / 8 ، والترمذي في المناقب، مناقب أبي بكر رضي الله عنه: 10 / 141 ، 142، وقال: "هذا حديث حسن"، ابن ماجه في المقدمة، باب فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم (96) 1 / 37، والإمام أحمد في المسند: 3 / 27، وأشار إليه الدارمي في الرقاق، باب في غرف الجنة: 2 / 336. والمصنف في شرح السنة: 14 / 99، وفيه عطية العوفي، وقد تابعه أبو الوداك عند الإمام أحمد: 3 / 26.

(5/286)

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا عَشِيَهِمْ (78) وَأَصْلٌ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81)

"لا تخف" بالجزم على النهي، والباقون بالألف والرفع على النفي، لقوله تعالى: { وَلَا تَحْشَى } قيل: لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك ولا تخشى أن يغرقك البحر أمامك.

{ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا عَشِيَهِمْ (78) وَأَصْلٌ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81) }

{ فَأَتَبَعَهُمْ } فلاحقهم، { فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ } وقيل: معناه أمر فرعون جنوده أن يتبعوا موسى وقومه، والباء فيه زائدة وكان هو فيهم، { فَعَشِيَهُمْ } أصابهم، { مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ } وهو الغرق. [وقيل: غشيهم علاهم وسترهم بعض ماء اليم لا كله] (1) .

وقيل: غشيهم من اليم ما غشيهم قوم موسى فغرقهم هم ، ونجا موسى وقومه. { وَأَصَلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } أي: ما أرشدهم، وهذا تكذيب لفرعون في قوله: "وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد" (غافر: 29) . . قوله عز وجل: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ } فرعون، { وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى } { كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } قرأ حمزة والكسائي: "أنجيتكم"، و "واعدتك"، و "رزقتكم" بالتاء على التوحيد، وقرأ الآخرون بالنون والالف على التعظيم، ولم يختلفوا في { وَنَزَلْنَا } لأنه مكتوب بالالف.
{ وَلَا تَطَّعُوا فِيهِ } قال ابن عباس: لا تظلموا (2) . قال الكلبي: لا تكفروا النعمة فتكونوا طاغين.
وقيل: لا تنفقوا في معصيتي.

(1) زيادة من "ب".

(2) لم يذكر الطبري غير هذا القول، وأعرض من سائر الأقوال التي لا يساعد عليها السياق.

(5/287)

وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82) وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أُتْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85)

وقيل: لا تدخروا، ثم ادخروا فتدود، { فَيَجَلَّ } قرأ الأعمش، والكسائي: "فيحل" بضم الحاء "ومن يحلل" بضم اللام، أي: ينزل، وقرأ الآخرون بكسرهما أي: يجب، { عَلَيَّكُمْ عَصِيٍّ وَمَنْ يَخْلِلْ عَلَيْهِ عَصِيٍّ فَقَدْ هَوَى } هلك وتردى في النار.

{ وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82) وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أُتْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) }
{ وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ } قال ابن عباس: تاب من الشرك، { وَآمَنَ } ووجد الله وصدقه، { وَعَمِلَ صَالِحًا } أدى الفرائض، { ثُمَّ اهْتَدَى } قال عطاء عن ابن عباس: علم أن ذلك توفيق من الله.

وقال قتادة وسفيان الثوري: يعني لزم الإسلام حتى مات عليه.

قال الشعبي، ومقاتل، والكلبي: علم أن لذلك ثوابا.

وقال زيد بن أسلم: تعلم العلم ليتهدي به كيف يعمل.

قال الضحاك: استقام. وقال سعيد بن جبير: أقام على السنة والجماعة (1) .
{ وَمَا أَعْجَلَكَ } أي: وما حملك على العجلة، { عَنْ قَوْمِكَ } وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلا حتى يذهبوا معه إلى الطور، ليأخذوا التوراة، فسار

بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقاً إلى ربه عز وجل، وخلف السبعين، وأمرهم أن يتبعوه إلى الجبل، فقال الله تعالى له: { وَهِيَ أَعْجَلُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى } { قَالَ } مجيباً لربه تعالى: { هُمْ أَوْلَاءِ عَلَيَّ أَتْرَى } أي: هم بالقرب مني يأتون من بعدي، { وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى } لتزداد رضا. { قَالَ قَائِلًا قَدْ قَتَلْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ } أي: أبتلينا الذين خلفتهم مع هارون، وكانوا ستمائة ألف، فافتننوا بالعجل غير اثني عشر ألفاً { مِنْ بَعْدِكَ } أي: من بعد انطلاقك إلى الجبل .

(1) ذكر الطبري هذه الأقوال في التفسير: 16 / 194 - 195 واختار أن معنى قوله تعالى: "ثم اهتدى": يقول: ثم لزم ذلك فاستقام ولم يصنع شيئاً منه، من أجل أن الاهتداء هو الاستقامة على هدى، ولا معنى للاستقامة عليه إلا وقد جمعه الإيمان والعمل الصالح والتوبة، فمن فعل ذلك وثبت عليه، فلا شك في اهتدائه.

(5/288)

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَقْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْرَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)

{ وَأَصْلُهُمُ السَّامِرِيُّ } أي: دعاهم وصرفهم إلى 13/ب عبادة العجل وأضافه إلى السامري لأنهم ضلوا بسببه.

{ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَقْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْرَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) }

{ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا } حزينا. { قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا } { أَقْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ } مدة مفارقتي إياكم، { أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ } ن أي: أردتم أن تفعلوا فعلا يجب عليكم به الغضب من ربكم، { فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي } { قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا } قرأ نافع، وأبو جعفر، وعاصم: "بملكنا" بفتح الميم، وقرأ حمزة والكسائي بضمها، وقرأ الآخرون بكسرها، أي: ونحن نملك أمرنا. وقيل: باختيارنا، ومن قرأ بالضم فمعناه بقدرتنا وسلطاننا، وذلك أن المرء إذا وقع في البلية والفتنة لم يملك نفسه.

{ وَلَكِنَّا حُمَلْنَا } قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر، ويعقوب: "حملنا" بفتح الحاء، وتخفيف الميم. وقرأ الآخرون بضم الحاء وتشديد الميم، أي: جعلونا نحملها وكلفنا حملها، { أَوْرَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ } من حلي قوم فرعون، سماها أوزارا لأنهم أخذوها على وجه العارية فلم يردوها. وذلك أن بني إسرائيل كانوا قد استعاروا حليا من القبط، وكان ذلك معهم حين خرجوا من مصر.

وقيل: إن الله تعالى لما أغرق فرعون نبذ البحر حليهم فأخذوها، وكانت غنيمة،

ولم تكن الغنيمة حلالا لهم في ذلك الزمان، فسمها أوزارا لذلك.
{ فَقَدَفْتَاهَا } قيل: إن السامري قال لهم احفروا حفيرة فألقوها فيها حتى
يرجع موسى.
قال السدي (1) قال لهم هارون إن تلك غنيمة لا تحل، فاحفروا حفيرة فألقوها
فيها حتى يرجع

(1) ساقط من "أ".

(5/289)

موسى، فبرى رأيه فيها، ففعلوا (1). قوله: { فَقَدَفْتَاهَا } أي: طرحناها في
الحفرة. { فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ } ما معه من الحلي فيها، وقال سعيد بن
جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أوقد هارون نارا وقال: اقدفوا فيها ما
معكم، فألقوه فيها، ثم ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل
(2).
قال قتادة: كان قد أخذ قبضة من ذلك التراب في عمامته.

(1) انظر: الطبري: 16 / 200.

(2) انظر: الطبري: 16 / 201.

(5/290)

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَتَسَبَّى (88) أَقْلًا
يَرَوْنَ أَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا تَفْعًا (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ
مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90)
قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91)

{ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَتَسَبَّى (88)
أَقْلًا يَرَوْنَ أَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا تَفْعًا (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ
هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي
(90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) }
تركه موسى هاهنا، وذهب يطلبه. وقيل: أخطأ الطريق وضل (1). قال الله
تعالى: { أَقْلًا يَرَوْنَ أَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا } أي: لا يرون أن العجل لا يكلمهم
ولا يجيبهم إذا دعوه، { وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا تَفْعًا } وقيل: إن هارون مر على
السامري وهو يصوغ العجل فقال له: ما هذا؟ قال: أصنع ما ينفع ولا يضر فادع
لي، فقال هارون: اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه، فألقى التراب في
فم العجل وقال كن عجلا يخور فكان كذلك بدعوة هارون (2).
والحقيقة أن ذلك كان فتنة ابتلى الله بها بني إسرائيل. { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ
مِنْ قَبْلُ } من قبل رجوع موسى، { يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ } ابتليتكم بالعجل،
{ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي } على ديني في عبادة الله، { وَأَطِيعُوا أَمْرِي }

في ترك عبادة العجل. { قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ } أي لن نزال، { عَلَيَّهِ } على عبادته،
{ عَاكِفِينَ } مقيمين، { حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى } فاعتزلهم هارون في اثني
عشر ألفا من الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى

(1) انظر: الطبري: 201 / 16.

(2) انظر فيما سبق: 271 / 5 تخريج حديث "الفتون": وراجع تفسير ابن
كثير: 3 / 163.

(5/290)

قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ
يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي
نَفْسِي (96)

وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل، قال للسبعين الذين معه:

{ قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93)
قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي
نَفْسِي (96) }

{ قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا } أشركوا. { أَلَّا تَتَّبِعَنِ } أي: أن
تتبعني و " لا " صلة أي تتبع أمري ووصيتي، يعني: هلا قاتلتهم وقد علمت أنني
لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم.

وقيل: " أن لا تتبعني " أي: ما منعك من اللحوق بي وإخباري بضلالتهم، فتكون
مفارقتك إياهم زجوا لهم عما أتوه، { أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي } أي خالفت أمري.
{ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي } أي بشعر رأسي وكان قد أخذ
ذوائبه، { إِنِّي خَشِيتُ } لو أنكرت عليهم لصاروا حزينين يقتل بعضهم بعضا،
{ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } أي خشيت إن فارقتهم واتبعتك صاروا
أحزابا يتقاتلون، فتقول أنت فرقت بين بني إسرائيل (1) { وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي }
ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك اخلفني في قومي، وأصلح أي أرفق بهم (2)
ثم أقبل موسى على السامري { قَالَ فَمَا خَطْبُكَ } ما أمرك وشأنك؟ وما
الذي حملك على ما صنعت؟ { يَا سَامِرِيُّ } { قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ }
رأيت ما لم يروا وعرفت ما لم يعرفوا.

(1) ذكر الطبري في التفسير: (16 / 204) أقوالا أخر زيادة على ما ذكر
المصنف ورجح ما نسبته إلى ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن موسى عدل
أخاه هارون على تركه اتباع أمره بمن اتبعه من أهل الإيمان، فقال له هارون:
إني خشيت أن تقول: فرقت بين جماعتهم، فتركت بعضهم ورائي، وجئت

بعضهم. وانظر زاد المسير: 5 / 316.
(2) انظر: الطبري: 16 / 204، الدر المنثور: 6 / 596.

(5/291)

قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلَقَهُ
وَإِنظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا)
(97)

قرأ حمزة والكسائي: " ما لم تبصروا " بالتاء على الخطاب، وقرأ الآخرون
بالباء على الخبر.
{ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ } أي من تراب أثر فرس جبريل، { فَبَدَّدْتُهَا }
أي ألقيتها في فم العجل.
وقال بعضهم: إنما خار لهذا لأن التراب كان مأخوذاً من تحت حافر فرس
جبريل.

فإن قيل: كيف عرفه ورأى جبريل من بين سائر الناس؟ .
قيل: لأن أمه لما ولدته في السنة التي يقتل فيها البنون وضعت في الكهف
حذراً عليه، فبعث الله جبريل ليريه لما قضى على يديه من الفتنة (1) .
{ وَكَذَلِكَ سَأَلْتُ } أي زينت (2) { لِي تَقْسِي }
{ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلَقَهُ
وَإِنظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا)
{ (97

{ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ } أي: ما دمت حياً، { أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ }
أي: لا تخالط أحداً، ولا يخالطك أحد، وأمر موسى بني إسرائيل أن لا يخالطوه،
ولا يقربوه.

قال ابن عباس: لا مساس لك ولولدك، و "المساس" من المماسمة، معناه: لا
يمس بعضنا بعضاً، فصار السامري يهيم في البرية مع الوحوش والسباع، لا
يمس أحداً ولا يمسه أحد، عاقبه الله بذلك، وكان إذا لقي أحداً يقول: "لا
مساس"، أي: لا تقربني ولا تمسني.

وقيل: كان إذا مس أحداً أو مسه أحد حما جميعاً حتى أن بقاياهم اليوم يقولون
ذلك، وإذا مس أحد من غيرهم أحداً منهم حما جميعاً في الوقت (3) .
{ وَإِنَّ لَكَ } يا سامري، { مَوْعِدًا } لعذابك، { لَنْ نُخْلَقَهُ } قرأ ابن كثير وأبو
عمرو ويعقوب: { لَنْ نُخْلَقَهُ } بكسر اللام أي لن تغيب عنه، ولا مذهب لك
عنه، بل توافيه يوم القيامة، وقرأ الآخرون بفتح اللام أي لن تكذبه ولن يخلفك
الله، ومعناه: أن الله تعالى يكافئك على فعلك

(1) روى الطبري: 16 / 204 - 205 عن ابن جريج قال: لما قتل فرعون
الوالدان قالت أم السامري: لو نحيته عني حتى لا أراه، ولا أدري قتله، فجعلته
في غار، فأتى جبريل، فجعل كف نفسه في فيه، فجعل يرضعه العسل واللبن،
فلم يزل يختلف إليه حتى عرفه، فمن ثم معرفته إياه حين قال: "فقبضت
قبضة من أثر الرسول". وانظر القرطبي: 11 / 239 - 240.

- (2) ساقط من "أ".
(3) انظر: القرطبي: 11 / 241، زاد المسير: 5 / 319.

(5/292)

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98)

ولا تفوته (1) .
{ وَأَنْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ } بزعمك، { الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا } أي ظلمت ودمت عليه مقيماً تعبده، والعرب تقول: ظلمت أفعل كذا بمعنى ظلمت، ومسئ بمعنى مسست.
{ لَنْحَرِّقَنَّهُ } بالنار، قرأ أبو جعفر بالتخفيف من الإحراق، { ثُمَّ لَنْسِفَنَّهُ } لنذريه، { فِي الْيَمِّ } في البحر، { تَسْقًا } روي أن موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم، لأنه كان قد صار لحماً ودماً (2) ثم حرقه بالنار، ثم ذراه في اليم، قرأ ابن محيصن: "لنحرقنه" بفتح النون وضم الراء لنبردته بالمبرد، ومنه قيل للمبرد المحرق. وقال السدي: أخذ موسى العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في اليم.
{ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98) }

- (1) ذكره الطبري: القولين: 16 / 206 - 207 وقال: والقول عندي أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، لأنه لا شك أن الله موف وعده لخلقه يحشرهم لموقف الحساب، وأن الخلق موافون ذلك اليوم، فلا الله مخلفهم ذلك، ولا هم مخلفوه بالتخلف عنه، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب في ذلك.
(2) انظر: الدر المنثور 5 / 597، القرطبي: 11 / 242 - 243.

(5/293)

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (101)

{ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (101) }

{ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا } وسع علمه كل شيء. { كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ } من الأمور، { وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا } يعني القرآن. { مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ } أي: عن القرآن، فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه، { فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا } حملاً ثقيلاً من الإثم. { خَالِدِينَ فِيهِ } مقيمين في عذاب الوزر، { وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا } 14/أ أي بنس ما حملوا على أنفسهم من الإثم كفرًا بالقرآن.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشِّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109)

{ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) }

{ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } قرأ أبو عمرو "نفخ" بالنون وفتحها وضم الفاء لقوله: "ونحشر"، وقرأ الآخرون بالياء وضمها وفتح الفاء على غير تسمية الفاعل، { وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ } المشركين، { يَوْمَئِذٍ زُرْقًا } والزرقة: هي الخضرة: في سواد العين، فيحشرون زرق العيون سود الوجوه. وقيل: { زُرْقًا } (1) أي عميا. وقيل: عطاشا. { يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ } أي يتشاورون بينهم ويتكلمون خفية، { إِنْ لَبِثْتُمْ } أي ما مكثتم في الدنيا، { إِلَّا عَشْرًا } أي عشر ليال. وقيل: في القبور. وقيل: بين النفختين، وهو أربعون سنة؛ لأن العذاب يرفع عنهم بين النفختين. استقصوا مدة لبثهم لهول ما عاينوا (2). قال الله تعالى: { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ } أي يتسارون (3) بينهم، { إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً } أوفاهم عقلا وأعدلهم قولا { إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا } قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة. وقيل: نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم. قوله عز وجل: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا } قال ابن عباس: سأل رجل من ثقيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ فأنزل الله هذه الآية (4). والنسف هو القلع، أي: يقلعها من أصلها ويجعلها هباء منثورا.

{ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشِّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) }

{ فَيَذَرُهَا } أي: فيدع أماكن الجبال من الأرض، { قَاعًا صَفْصَفًا } أي: أرضا ملساء مستوية لا نبات فيها، و"القاع": ما انبسط من الأرض، و"الصفصف": الأملس.

(1) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أن رجلا أتاه فقال: رأيت قوله: "ونحشر المجرمين يومئذ زرقا" وأخرى عميا؟ قال: إن يوم القيامة فيه حالات: يكونون في حال زرقا وفي حال عميا. الدر المنثور: 5 / 598. وانظر: تفسير الطبري: 16 / 210.

(2) ذكر هذه الأقوال صاحب زاد المسير: 5 / 321. وذكر ابن جرير أنه اللبث في الدنيا، الطبري 16 / 211.

(3) في "ب" يتشاورون.

(4) انظر: روح المعاني: 16 / 261.

{ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا } قال مجاهد: انخفاضا وارتفاعا.
وقال الحسن: "العوج": ما انخفض من الأرض، و "الامت": ما نشز من
الروابي، أي: لا ترى واديا ولا رابية.
قال قتادة: لا ترى فيها صدعا ولا أكمة (1) . { يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ } أي
صوت الداعي الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، وهو إسرافيل، وذلك أنه يضع
الصور في فيه، ويقول: آيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم
المتفرقة هلموا إلى عرض الرحمن (2) .
{ لَا عِوَجَ لَهُ } أي: لدعائه، وهو من المقلوب، أي: لا عوج لهم عن دعاء
الداعي، لا يزيغون عنه يمينا وشمالا ولا يقدرّون عليه بل يتبعونه سراعا.
{ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ } أي: سكنت وذلت وخضعت، ووصف الأصوات
بالخشوع والمراد أهلها، { فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا } يعني صوت وطء الأقدام إلى
المحشر، و "الهمس": الصوت الخفي كصوت أخفاف الإبل في المشي. وقال
مجاهد: هو تخافت الكلام وخفض الصوت.
وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: تحريك الشفاه من غير نطق (3) . {
يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ } يعني: لا تنفع الشفاعة أحدا من الناس، { إِلَّا مَنْ أَذِنَ
لَهُ الرَّحْمَنُ }

(1) ساق الطبري الأقوال في معنى "عوجا ولا أمتا" ، وقال: (16 / 213):
"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بالعوج: الميل، وذلك أن
ذلك هو المعروف من كلام العرب. فإن قال قائل: وهل في الأرض اليوم من
عوج؟ فيقال: لا ترى فيها يومئذ عوجا. قيل: إن معنى ذلك: ليس فيها أودية
وموانع تمنع الناظر أو السائر فيها عن الأخذ على الاستقامة كما يحتاج اليوم
من أخذ في بعض سبلها إلى الأخذ يمينا، وأحيانا شمالا، لما فيها من الجبال
والأودية والبحار. وأما الأمت فإنه عند العرب: الانثناء والضعف. مسموع منهم،
فالأوجب إذا كان ذلك معنى "الامت" عندهم أن يكون أصوب الأقوال في
تأويله: ولا ارتفاع ولا انخفاض".
(2) انظر: روح المعاني 16 / 264، أضواء البيان: 4 / 516.
(3) انظر تفصيلا في نسبة هذه الأقوال: ابن كثير 3 / 166 - 167، والطبري:
16 / 214 - 215، زاد المسير: 16 / 264، والبحر المحيط: 6 / 280.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ
الْقَيُّومِ وَقَدْ حَابَّ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112)

يعني إلا من أذن له أن يشفع، { وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } يعني: ورضى قوله، قال ابن
عباس، يعني: قال لا إله إلا الله (1) وهذا يدل على أنه لا يشفع غير المؤمن.
{ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ

لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ جَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } الكناية راجعة إلى الذين يتبعون الداعي، أي يعلم الله { مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } مَا قَدَّمُوا { وَمَا خَلْفَهُمْ } وما خلفوا من أمر الدنيا. وقيل: { مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } مِنَ الْآخِرَةِ { وَمَا خَلْفَهُمْ } من الأعمال. { وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } قيل: الكناية ترجع إلى "ما" أي: هو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهم لا يعلمونه. وقيل: الكناية راجعة إلى الله لأن عباده لا يحيطون به علما. { وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ } ذلت (2) وخضعت، ومنه قيل للأسير: عان. وقال طلق بن حبيب: هو السجود على الجبهة للحي القيوم، { وَقَدْ جَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا } قال ابن عباس: خسر من أشرك بالله، والظلم هو الشرك. { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ } قرأ ابن كثير "فلا يخف" مجزوما على النهي جوابا لقوله تعالى: { وَمَنْ يَعْمَلْ } وقرأ الآخرون { فَلَا يَخَافُ } مرفوعا على الخبر، { ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } قال ابن عباس: لا يخاف أن يزداد على في سيئاته، لا ينقص من حسناته. وقال الحسن: لا ينقص من ثواب حسناته ولا يحمل عليه ذنب مسيء (3). وقال الضحاك: لا يؤخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل حسنة عملها (4) وأصل الهضم: النقص والكسر، ومنه هضم الطعام.

(1) انظر: روح المعاني: 16 / 265، البحر المحيط: 6 / 280.

(2) زيادة من "ب".

(3) ذكره القولين ابن جرير 16 / 218، وأخرج السيوطي قول ابن عباس عن

ابن المنذر وابن أبي حاتم، الدر المنثور: 5 / 601.

(4) انظر: زاد المسير: 5 / 324.

(5/296)

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113)

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) }

(5/297)

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْصَلَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَنَسِيٍّ وَلَمْ تَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115)

{ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْصَلَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَنَسِيٍّ وَلَمْ تَجِدْ لَهُ عَزْمًا } (115)

{ وَكَذَلِكَ } أي كما بينا في هذه السورة، { أَنْزَلْنَاهُ } يعني أنزلنا هذا الكتاب، { قُرْآنًا عَرَبِيًّا } يعني: بلسان العرب، { وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ } أي صرفنا القول فيه بذكر الوعيد، { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } أي يجتنبون الشرك، { أَوْ يُحَدِّثْ لَهُمْ زِكْرًا } أي يجدد لهم القرآن عبرة وعظة فيعتبروا ويتعظوا بذكر عقاب الله للآمم الخالية. { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ } جل الله عن إحداد الملحدين وعماد يقوله المشركون، { وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ } أراد النبي صلى الله عليه وسلم، كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادر فيقرأ معه، قبل أن يفرغ جبريل مما يريد من التلاوة، ومخافة الانفلات والنسيان، فنهاه الله عن ذلك (1) وقال: { وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ } أي لا تعجل بقراءته { مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ } أي من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ، نظيره قوله تعالى: " لا تحرك به لسانك لتعجل به " (سورة القيامة: 16) وقرأ يعقوب: " نقضي " بالنون وفتحها وكسر الصاد، وفتح الياء: " وحيه " بالنصب.

قال مجاهد وقتادة: معناه لا تقرئه أصحابك، ولا تمله عليهم حتى يتبين لك معانيه (2).

{ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } يعني بالقرآن ومعانيه. وقيل: علما إلى ما علمت. وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: اللهم رب زدني علما وإيمانا ويقينا (3) . قوله تعالى: { وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ } يعني: أمرناه وأوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدك وتركوا الإيمان بي، وهم الذين ذكرهم الله في قوله تعالى: "لعلهم يتقون"، { فَتَنَسَى } فترك الأمر، والمعنى أنهم نقضوا العهد، فإن آدم أيضا عهدنا إليه فنسي، { وَلَمْ تَجِدْ لَهُ عَزْمًا } قال الحسن لم نجد له صبرا عما نهى عنه. وقال عطية العوفي: حفظا

(1) انظر: الدر المنثور 5 / 602، وقاله صاحب أضواء البيان 4 / 519.

(2) انظر: زاد المسير 5 / 326.

(3) عزاه السيوطي في الدر المنثور لسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن مسعود 5 / 605.

(5/297)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117)

لما أمر به.

وقال ابن قتيبة: رأيا معزوما حيث أطاع عدوه إبليس الذي حسده وأبى أن يسجد له. و "العزم" في اللغة: هو توطين النفس على الفعل.

قال أبو أمامة الباهلي: لو وزن حلم آدم بحلم جميع ولده لرجح حلمه (1) وقد قال الله: "ولم نجد له عزيمة".

فإن قيل: أتقولون إن آدم كان ناسيا لأمر الله حين أكل من الشجرة؟ .

قيل: يجوز أن يكون نسي أمره، ولم يكن النسيان في ذلك الوقت مرفوعا عن الإنسان، بل كان مؤاخذا به، وإنما رفع عنا (2) .

وقيل: نسي عقوبة الله ووطن أنه نهى تنزيها.

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ

هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) { قوله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى { أن يسجد. { فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرَوْجِكَ { حواء، { فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى { يعني: تتعب وتنصب، ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك. قال السدي: يعني الحرث والزرع والحصيد والطحن والخبيز. وعن سعيد 14/ب قال أهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يحرث عليه، ويمسح العرق عن جبينه، فذلك [شقاؤه (3) . ولم يقل: "فتشقياً" رجوعاً به إلى آدم، لأن تعبه أكثر فإن الرجل [(4) هو الساعي على زوجته.

- (1) ذكر بعض هذه الأقوال الطبري: (16 / 221 - 222) وقال: "وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه، ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء، لأنه لا يجزع جازع إلا من خور قلبه وضعفه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه الله تبارك وتعالى، وهو قوله: "ولم نجد له عزماً" فيكون تأويله: ولم نجد له عزماً قلب على الوفاء لله بعهد، ولا على حفظ ما عهد إليه".
- (2) انظر تفصيلاً لهذا في أضواء البيان 4 / 520 - 522.
- (3) انظر: زاد المسير 5 / 328.
- (4) ساقط من "أ".

(5/298)

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)

وقيل: لأجل رعوس الآي.

{ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) }

{ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا } أي في الجنة { وَلَا تَعْرَى } { وَأَنَّكَ } قرأ نافع وأبو بكر بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون بالفتح نسقا على قوله: { أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا } { وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ } لا تعطش، { فِيهَا وَلَا تَصْحَى } يعني: لا تبرز للشمس فيؤذيك حرها. وقال عكرمة: لا تصيبك الشمس وأذاها (1) لأنه ليس في الجنة شمس، وأهلها في ظل ممدود. { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ } يعني علي شجرة إن أكلت منها بقيت مخلداً، { وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى } لا يبید ولا يفنى . { فَأَكَلَا } يعني آدم وحواء عليهما السلام، { مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ } بأكل الشجرة، { فَغَوَى } يعني فعل ما لم يكن له فعله. وقيل: أخطأ طريق الجنة (2) وضل حيث طلب الخلد بأكل ما نهى عن أكله، فخاب ولم ينل

مراده.
قال ابن الأعرابي: أي فسد عليه عيشه، وصار من العز إلى الذل، ومن الراحة إلى التعب.
قال ابن قتيبة: يجوز أن يقال عصى آدم، ولا يجوز أن يقال: آدم عاص؛ لأنه إنما يقال عاص لمن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخيط ثوبه يقال: خاط ثوبه، ولا يقال هو خياط حتى يعاود ذلك ويعتاده (3).
حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي، أخبرنا أبو معاذ الشاه بن عبد الرحمن المزني، أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري ببغداد، أخبرنا يونس بن عبد الأعلى الصدفي، أخبرنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، عن طاوس سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "احتج آدم وموسى: فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال آدم: يا موسى اصطفاك

- (1) عزاه السيوطي لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة: 605 / 5.
(2) في "ب" الحق.
(3) انظر: زاد المسير 5 / 329 - 330، القرطبي: 11 / 255 - 257.

(5/299)

ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)

الله بكلامه وخط لك التوراة بيده، أفتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى" (1).
ورواه عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة وزاد: "قال آدم يا موسى بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاما، قال آدم: فهل وجدت فيها: وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى" (2).
{ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) }
{ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ } اختاره واصطفاه، { فَتَابَ عَلَيْهِ } بالعفو، { وَهَدَى } هداه إلى التوبة حين قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا. { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ } يعني الكتاب والرسول، { فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } روى سعيد بن جبر عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله في الدنيا من الضلالة، ووقاه الله يوم القيامة سوء الحساب، وذلك بأن الله يقول: { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } (3).
وقال الشعبي عن ابن عباس: أجاز الله تعالى تابع القرآن من أن يضل في الدنيا ويشقى في الآخرة، وقرأ هذه الآية (4). { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي }

يعني: القرآن، فلم يؤمن به ولم يتبعه، { فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا }

- (1) أخرجه البخاري في القدر، باب حجاج آدم وموسى عند الله: 11 / 505،
ومسلم في القدر، باب حجاج آدم موسى عليهما السلام برقم (2652): 4 /
4042، والمصنف في شرح السنة: 1 / 124.
- (2) أخرجه البخاري في القدر، باب حجاج آدم وموسى عند الله: 11 / 505،
ومسلم في القدر، باب حجاج آدم موسى عليهما السلام برقم (2652): 4 /
4042، والمصنف في شرح السنة: 1 / 124.
- (3) أخرجه الطبري: 16 / 255، وعزاه السيوطي في "الدر": (5 / 607)
لابن أبي شيبة والطبراني وأبي نعيم في الحلية وابن مردويه عن ابن عباس.
- (4) عزاه السيوطي في "الدر": (5 / 607) للفريابي وسعيد بن منصور وابن
أبي شيبة وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم
وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس.

(5/300)

قَالَ رَبِّ لِمَ حَسَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125)

ضيقا، روى عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري أنهم قالوا: هو
عذاب القبر. قال أبو سعيد: يضغط حتى تختلف أضلاعه (1).
وفي بعض المسانيد مرفوعا. "يلتئم عليه القبر حتى تختلف أضلاعه فلا يزال
يعذب حتى يبعث" (2).
وقال الحسن: هو الزقوم والضريع والغسلين في النار.
وقال عكرمة: هو الحرام. وقال الضحاك: هو الكسب الخبيث.
وعن ابن عباس قال: الشقاء. وروى عنه أنه قال: كل مال أعطى العبد قل أم
كثر فلم يتق فيه فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة، وإن أقواما أعرضوا عن
الحق وكانوا أولي سعة من الدنيا أكثرين، فكانت معيشتهم ضنكا، وذلك أنهم
يروون أن الله ليس بمخلف عليهم فاشتدت عليهم معاشتهم من سوء ظنهم
بالله.
قال سعيد بن جبيرة: يسليه القناعة حتى لا يشيع (3).
{ وَتَحْسُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } قال ابن عباس: أعمى البصر. وقال مجاهد
أعمى عن الحجة.
{ قَالَ رَبِّ لِمَ حَسَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) }

- (1) أخرجه الطبري: 16 / 227 - 228، وانظر الدر المنثور 5 / 607 - 609.
(2) قطعة من حديث أبي هريرة المطول في سؤال الميت في قبره، أخرجه
ابن أبي شيبة في المصنف: 3 / 383، والطبري: 13 / 215، 16 / 227 -
228، وصححه ابن حبان ص (197 - 198) من موارد الظمان، والحاكم في
المستدرک: 1 / 379، وهناد في الزهد: 1 / 420 - 422، 442 ورواه
مختصرا: الإمام أحمد في المسند: 2 / 364. وله متابعات وشواهد، انظرها
في التعليق على الزهد لهناد: 1 / 421 - 423.

(3) انظر في هذه الأقوال ونسبتها: الطبري: 16 / 225 - 228، الدر المنثور: 5 / 607 - 609، زاد المسير: 5 / 330 - 332.

(5/301)

قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَّتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِكَ تَجْزِي مَنْ
أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127)

{ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَّتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِكَ تَجْزِي مَنْ
أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127) }
{ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } بالعين أو بصيرا بالحجة.
{ قَالَ كَذَلِكَ } أي كما { أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَّتَهَا } فتركتها وأعرضت عنها،
{ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } تترك في النار. قال قتادة: نسوا من الخير ولم ينسوا
من العذاب. { وَكَذَلِكَ } أي وكما جزينا من أعرض عن القرآن كذلك { تَجْزِي
مَنْ أَسْرَفَ } أشرك،

(5/301)

أَقْلَمَ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ (128) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى
(129) قَاصِرٌ عَلَيَّ مَا يَفُولُونَ وَيَسْبُحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
عُرُوبِهَا وَمِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130)

{ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ } مما يعذبهم به في الدنيا والقبر،
{ وَأَبْقَى } وأدوم.
{ أَقْلَمَ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ (128) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى
(129) قَاصِرٌ عَلَيَّ مَا يَفُولُونَ وَيَسْبُحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
عُرُوبِهَا وَمِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130) }
{ أَقْلَمَ يَهْدِ لَهُمْ } يبين لهم القرآن، يعني: كفار مكة، { كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ
الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ } ديارهم ومنازلهم إذا سافروا. والخطاب
لقريش كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلكين من أصحاب الحجر
وتمود وقريات لوط.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ } لذوي العقول. { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ
رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى } فيه تقديم وتأخير، تقديره: ولولا كلمة سبقت
من ربك لكان لزاما وأجل مسمى، والكلمة الحكم بتأخير العذاب عنهم، أي
ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة لكان لزاما، أي
لكان العذاب لازما لهم كما لزم القرون الماضية الكافرة. { قَاصِرٌ عَلَيَّ مَا
يَفُولُونَ } نسختها آية القتال (1) { وَيَسْبُحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ } ، أي صل بأمر ربك.
وقيل: صل لله بالحمد له والثناء عليه، { قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ } يعني صلاة
الصبح، { وَقَبْلَ عُرُوبِهَا } صلاة العصر، { وَمِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ } ساعاتها واحدها

إني، { فَسَبِّحْ } يعني صلاة المغرب والعشاء. قال ابن عباس: يريد أول الليل، { وَأَطْرَافَ النَّهَارِ } يعني صلاة الظهر، وسمى وقت الظهر أطراف النهار لأن وقته عند الزوال، وهو طرف النصف الأول انتهاءً وطرف النصف الآخر ابتداءً. وقيل: المراد من أناء الليل صلاة العشاء، ومن أطراف النهار صلاة الظهر والمغرب، لأن الظهر في

(1) انظر فيما سبق: 3 / 32 تعليق (1).

(5/302)

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ
وَرِزْقٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (131)

آخر الطرف الأول من النهار، وفي أول الطرف الآخر، فهو في طرفين منه والطرف الثالث غروب الشمس، وعند ذلك يصلي المغرب. { لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ } أي ترضى 15/أ ثوابه في المعاد، وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم "ترضى" بضم التاء أي تعطى ثوابه. وقيل: { تَرْضَىٰ } أي يرضاك الله تعالى، كما قال: "وكان عند ربه مرضياً" (مريم: 55) وقيل: معنى الآية لعلك ترضى بالشفاعة، كما قال: "ولسوف يعطيك ربك فترضى" (الضحى: 5). أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الخطيب الحميدي، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الشيباني إملاء، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله السعدي، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: "إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا"، ثم قرأ { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } (1). { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (131) }

قوله تعالى: { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } قال أبو رافع: نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فبعثني إلى يهودي فقال لي: "قل له إن رسول الله يقول لك بعني كذا وكذا من الدقيق وأسلفني إلى هلال رجب" فأتيته فقلت له ذلك فقال: والله لا أبيع ولا أسلفه إلا برهن، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فقال: "والله لئن باعني وأسلفني لقضيته وإني لأمين في السماء وأمين في الأرض، اذهب بدرعي الحديد إليه" فنزلت هذه الآية: { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } (2) لا تنظر، { إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ } أعطينا، { أَزْوَاجًا } أصنافاً، { مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } أي زينتها وبهجتها، وقرأ يعقوب زهرة بفتح الهاء وقرأ العامة بجزمها، { لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ } أي لنجعل ذلك فتنة لهم بأن أزيد لهم النعمة فيزيدوا كفراً وطغياناً، { وَرِزْقٌ رَبِّكَ } في المعاد، يعني: الجنة، { خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ } قال أبي بن كعب: من لم يتعز

(1) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر: 2 / 33،

ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما برقم: (633): 1 / 439، والمصنف في شرح السنة: 2 / 224. (2) أخرجه إسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار والطبري والطبراني وفيه موسى بن عبيدة الزبيري وهو متروك، الكافي الشاف ص (109) والواحد في أسباب النزول: ص (352)، وانظر القرطبي: 11 / 263 فقد أيد بطلان هذه الرواية.

(5/303)

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّهِ أَوْلَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْرَى (134)

بغز الله تقطعت نفسه حسرات، ومن يتبع بصره فيما في أيد الناس بطل حزنه، ومن ظن أن نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه.

{ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّهِ أَوْلَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْرَى (134) }
{ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ } أي قومك. وقيل: من كان على دينك، كقوله تعالى: "وكان يأمر أهله بالصلاة" (مريم: 55)، { وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا } أي اصبر على الصلاة، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

{ لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا } لا نكلفك أن ترزق أحدا من خلقنا، ولا أن ترزق نفسك وإنما نكلفك عملا { نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ } الخاتمة الجميلة المحمودة، { لِلتَّقْوَى } أي لأهل التقوى. قال ابن عباس: الذين صدقوك واتبعوك واتفقوني. وفي بعض المسانيد أن النبي صلى الله عليه وسلم: "كان إذا أصاب أهله ضرر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية (1). قوله تعالى: { وَقَالُوا } يعني المشركين، لَوْلَا يَأْتِينَا بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّهِ { أي الآية المقترحة فإنه كان قد أتاهم بآيات كثيرة، { أَوْلَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ } قرأ أهل المدينة والبصرة وحفص عن عاصم: " تأتهم " لتأنيث البيئ، وقرأ الآخرون بالياء لتقدم الفعل، ولأن البيئ هي البيان فرد إلى المعنى، { بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى } أي بيان ما فيها، وهو القرآن أقوى دلالة وأوضح آية.

وقيل: أو لم يأتهم بيان ما في الصحف الأولى: التوراة، والإنجيل، وغيرها من أنباء الأمم أنهم اقترحوا الآيات، فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها، كيف عجلنا لهم العذاب والهلاك، فما يؤمنهم إن أتتهم الآية أن يكون حالهم كحال أولئك. { وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ } من قبل إرسال الرسول وإنزال القرآن { لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا }

(1) رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات، مجمع الزوائد: 7 / 67.

قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135)

هلا { أَرْسَلْتِ إِلَيْنَا رَسُولًا } يدعوننا، أي: لقالوا يوم القيامة، { فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَذَلَّ وَتَحْزَى } بالعذاب، والذل، والهوان، والخزي، والافتصاح.
 { قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135) }
 { قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ } منتظر دوائر الزمان، وذلك أن المشركين قالوا نترصد بمحمد حوادث الدهر، فإذا مات تخلصنا، قال الله تعالى: { فَتَرَبَّصُوا } فانتظروا، { فَسَتَعْلَمُونَ } إذا جاء أمر الله وقامت القيامة، { مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ } المستقيم، { وَمَنِ اهْتَدَى } من الضلالة نحن أم أنتم؟.

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3)

سورة الأنبياء

مكية بسم الله الرحمن الرحيم
 { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3) }
 { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ } قيل اللام بمعنى من، أي اقترب من الناس حسابهم، أي وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم، يعني يوم القيامة، نزلت في منكري البعث، { وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ } عن التأهب له. { مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ } يعني ما يحدث الله من تنزيل شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم به.

قال مقاتل: يحدث الله الأمر [بعد الأمر] (1) قيل: الذكر المحدث ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى ما القرآن، وأضافه إلى الرب عز وجل لأنه قال بأمر الرب، { إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ } أي استمعوه لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون. { لَاهِيَةً } ساهية غافلة، { قُلُوبُهُمْ } معرضة عن ذكر الله، وقوله { لَاهِيَةً } نعت تقدم الاسم، ومن حق النعت أن يتبع الاسم في الإعراب، وإذا تقدم النعت الاسم فله حالتان: فصل

(1) زيادة من (ب).

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) بَلْ قَالُوا
أَصْغَاتُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ (5) مَا
آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6)

ووصل، فحالته في الفصل النصب كقوله تعالى: { خشعا أبصارهم } (القمر: 7) ، { ودانية عليهم ظلالها } (الإنسان: 11) ، و { لاهية قلوبهم } وفي
الوصل حالة ما قبله من الإعراب كقوله، { أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها
{ (النساء: 75) ؛ { وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } أي أشركوا، قوله:
{ وَأَسْرُوا } فعل تقدم الجمع وكان حقه وأسر، قال الكسائي: فيه تقديم
وتأخير، أراد: والذين ظلموا أسروا النجوى.
وقيل: حمل "الذين" رفع على الابتداء، معناه: وأسروا النجوى، ثم قال: وهم
الذين ظلموا.

وقيل: رفع على البدل من الضمير في أسروا. قال المبرد: هذا كقولك إن
الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله، على البدل مما في انطلقوا ثم بين سرهم
الذي تناجوا به فقال: { هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ } أنكروا إرسال البشر وطلبوا
إرسال الملائكة.
{ أَفَتَأْتُونَ } أي تحضرون السحر وتقبلونه، { وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ } تعلمون أنه
سحر.

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) بَلْ قَالُوا
أَصْغَاتُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ (5) مَا
آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6)
قل لهم يا محمد، { رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } قرأ حمزة
والكسائي وحفص: "قال ربي"، على الخبر عن محمد صلى الله عليه وسلم، {
يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } أي لا يخفي عليه شيء، { وَهُوَ السَّمِيعُ }
لأقوالهم، { الْعَلِيمُ } بأفعالهم. { بَلْ قَالُوا أَصْغَاتُ أَحْلَامٍ } أباطيلها [وأقوابلها]
(1) وأهاويلها رآها في النوم، { بَلْ افْتَرَاهُ } اختلقه، { بَلْ هُوَ شَاعِرٌ } يعني أن
المشركين اقتسموا القول 15/ب فيه وفيما يقوله، قال بعضهم: أصغات أحلام،
وقال بعضهم: بل هو فرية، وقال بعضهم: بل مجهد شاعر وما جاءكم به شعر.
{ فَلْيَأْتِنَا } محمد { بآيَةٍ } إن كان صادقا { كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ } من الرسل
بالآيات. قال الله تعالى مجيبا لهم: { مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ } قبل مشركي مكة،
{ مِنْ قَرْيَةٍ } أي من أهل

(1) زيادة من (ب).

(5/310)

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا بُحِيحًا إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7)
{ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ } (8) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ
الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ
ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10)

قربة أتتهم الآيات، { أَهْلَكْتَاهَا } أهلكتاهم بالتكذيب، { أَقَهُمْ يُؤْمِنُونَ } ؟، إن جاءتهم آية، معناه: أن أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم أفيؤمن هؤلاء؟ .
 { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا بُحِيحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) }
 قوله عز وجل: { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا بُحِيحِي إِلَيْهِمْ } هذا جواب لقولهم: { هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } يعني: إننا لم نرسل الملائكة إلى الأولين إنما أرسلنا رجالا نوحى إليهم، { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ } يعني: أهل التوراة والإنجيل، يريد علماء أهل الكتاب، فإنهم لا ينكرون أن أرسل كانوا بشرا، وإن أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأمر المشركين بمسالتهم لأنهم إلى تصديق من لم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم أقرب منهم إلى تصديق من آمن به.
 وقال ابن زيد: أراد بالذكر القرآن (1) أراد: فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن، { إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } { وَمَا جَعَلْنَاهُمْ } أي الرسل، { جَسَدًا } ولم يقل أجساداً لأنه اسم الجنس، { لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ } هذا رد لقولهم { ما لهذا الرسول يأكل الطعام } (الفرقان: 7) ، يقول لم نجعل الرسل ملائكة بل جعلناهم بشرا يأكلون الطعام، { وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ } في الدنيا. { ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ } الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم، { فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ } أي أنجينا المؤمنين الذين صدقوهم، { وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ } أي المشركين المكذبين، وكل مشرك مسرف على نفسه. { لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا } يا معشر قريش، { فِيهِ ذِكْرُكُمْ } أي شرفكم، كما قال: { وَإِنَّ لَكَ لِقَوْمَكُ } (الزخرف: 44) ، وهو شرف لمن آمن به.
 قال مجاهد: فيه حديثكم. وقال الحسن: فيه ذكركم أي ذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم، { أَفَلَا تَعْقِلُونَ }

(1) انظر: الطبري: 5 / 17.

(5/311)

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ بَاسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا رَآتُ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16)

{ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ بَاسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا رَآتُ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) }

{ وَكَمْ قَصَمْنَا } أهلكتنا، والقصم: الكسر، { مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً } أي كافرة، يعني أهلها، { وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا } أي: أحدثنا بعد هلاك أهلها، { قَوْمًا }

أَخْرَبَ { فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْتَا } أي [رأوا] (1) عذابنا بحاسة البصر، { إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ } أي يسرعون هاربين. { لَا تَرْكُضُوا } أي قيل لهم لا تركضوا لا تهربوا، { وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ } أي نعمتم به، { وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ } قال ابن عباس: عن قتل نبيكم. وقال قتادة: من دنياكم شيئا، نزلت هذه الآية في أهل حصورا، وهي قرية باليمن وكان أهلها العرب، فبعث الله إليهم نبيا يدعوهم إلى الله فكذبوه وقتلوه، فسلط الله عليهم بختنصر، حتى قتلهم وسباهم (2) فلما استمر فيهم القتل ندموا وهربوا وانهزموا، فقالت الملائكة لهم استهزاء: لا تركضوا وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم لعلكم تسألون.

قال قتادة: لعلكم تسألون شيئا من دنياكم، فتعطون من شئتم وتمنعون من شئتم، فإنكم أهل ثروة ونعمة، يقولون ذلك استهزاء بهم، فاتبعهم بختنصر وأخذتهم السيوف، ونادى مناد في جو السماء: يا ثارات الأنبياء، فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم. { قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } . { قَمَا رَأَيْتَ تِلْكَ دَعَاؤُهُمْ } أي تلك الكلمة وهي قولهم يا ويلنا، دعاؤهم يدعون بها ويرددونها.

{ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا } بالسيوف كما يحصد الزرع، { حَامِدِينَ } ميتين. قوله عز وجل: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِاعْبِينَ } أي عبثا وباطلا.

(1) زيادة من (ب).

(2) انظر: الطبري: 9 / 17.

(5/312)

لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَاتَّخَذْتَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا قَاعِلِينَ (17) بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ قَبْدَمَعُهُ قَادًا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20)

{ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَاتَّخَذْتَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا قَاعِلِينَ (17) بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ قَبْدَمَعُهُ قَادًا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20) }

{ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ } اختلفوا في اللهو، قال ابن عباس في رواية عطاء: اللهو المرأة، وهو قول الحسن وقاتادة، وقال في رواية الكلبي: اللهو الولد، وهو قول السدي، وهو في المرأة أظهر لأن الوطاء يسمى لها في اللغة، والمرأة محل الوطاء { لَاتَّخَذْتَاهُ مِنْ لَدُنَّا } أي من عندنا من الحور العين لا من عندكم من أهل الأرض. وقيل: معناه لو كان جائزا ذلك في صفته لم يتخذ بحيث يظهر لهم ويستتر ذلك حتى لا يطلعوا عليه.

وتأويل الآية أن النصراني لما قالوا في المسيح وأمه ما قالوا رد الله عليهم بهذا وقال: { لَاتَّخَذْتَاهُ مِنْ لَدُنَّا } لأنكم تعلمون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده، لا عند غيره { إِنَّ كُنَّا قَاعِلِينَ } قال قتادة ومقاتل وابن جريج: { إِنَّ } للنفي،

أي: ما كنا فاعلين. وقيل: { إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ } للشرط أي إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخاذنا من لدنا، ولكننا لم نفعله لأنه لا يليق بالربوبية. { بَلْ } أي دع ذلك الذي قالوا فإنه كذب وباطل، { تَقْدِفُ } نرمي ونسلط، { بِالْحَقِّ } بالإيمان، { عَلَى الْبَاطِلِ } على الكفر، وقيل: الحق قول الله، أنه لا ولد له، والباطل قولهم اتخذ الله ولدا، { قَبِدْمَعُهُ } فيهلكه، وأصل الدماغ: شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، { قَادًا هُوَ زَاهِقٌ } ذاهب، والمعنى: أنا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يضمحل ويذهب، ثم أوعدهم على كذبهم فقال: { وَلَكُمْ الْوَيْلُ } يا معشر الكفار، { مِمَّا تَصِفُونَ } الله بما لا يليق به من الصاحبة والولد. وقال مجاهد: مما تكذبون. { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } عبيدا وملكا، { وَمَنْ عِنْدَهُ } يعني الملائكة، { لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها، { وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ } لا يعيون، يقال: حسر واستحسر إذا تعب وأعيا. وقال السدي: لا يتعظمون (1) عن العبادة. { يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ } لا يضعفون ولا يسأمون، قال كعب الأحبار: التسبيح

(1) في "ب" لا ينقطعون.

(5/313)

أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24)

لهم كالنفس لبني آدم.
 { أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24) }
 { أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً } استفهام بمعنى الجحد، أي لم يتخذوا، { مِنَ الْأَرْضِ } يعني الأصنام من الخشب والحجارة، وهما من الأرض، { هُمْ يُنشِرُونَ } يحيون الأموات، ولا يستحق الإلهية إلا من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم والإنعام بأبلغ وجوه النعم. { لَوْ كَانَ فِيهِمَا } أي في السماء والأرض، { آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ } أي غير الله { لَفَسَدَتَا } لخربتا وهلك من فيهما بوجود التمانع بين الآلهة لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجر على النظام، ثم نزه نفسه فقال:
 { فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } أي عما يصفه به المشركون من الشريك والولد. { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } ويحكم على خلقه لأنه الرب { وَهُمْ يُسْأَلُونَ } أي الخلق يسألون، عن أفعالهم وأعمالهم (1) لأنهم عبيد 16/أ { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً } استفهام إنكار وتوبيخ، { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } أي حجتكم على ذلك، ثم قال مستأنفا، { هَذَا } يعني القرآن. { ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ } فيه خبر من معي على ديني ومن يتبعني إلي يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية. { وَذِكْرٌ } خير، { مَنْ قَبْلِي } من الأمم السالفة ما فعل بهم في الدنيا وما يفعل بهم في الآخرة. وعن ابن عباس في

رواية عطاء: ذكر من معي: القرآن، وذكر من قبلي: التوراة والإنجيل، ومعناه:
راجعوا القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب هل تجدون فيها أن الله اتخذ
ولدا، { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ }

(1) في "ب": وأقوالهم.

(5/314)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)
وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ
وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ
ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ
تَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)
وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ
وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ
ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ
تَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ (29) }

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ } قرأ حمزة والكسائي وحفص
عن عاصم نوحى إليه بالنون وكسر الحاء على التعظيم، ليقوله { وَمَا أَرْسَلْنَا }
وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء على الفعل المجهول، { أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ } وحدون . قوله عز وجل: { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا } نزلت في
خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، { سُبْحَانَهُ } نزه نفسه عما قالوا، { بَلْ
عِبَادٌ } أي هم عباد، يعني الملائكة، { مُكْرَمُونَ } { لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ } لا
يتقدمونه بالقول ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به، { وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } معناه
أنهم لا يخالفونه قولا ولا عملا. { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } أي ما عملوا
وما هم عاملون. وقيل: ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم { وَلَا
يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى } قال ابن عباس: أي لمن قال لا إله إلا الله، وقال
مجاهد: أي لمن رضي عنه (1) { وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } خائفون لا
يأمنون مكره. { وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ } قال قتادة: عنى به إبليس
حين دعا إلى عبادة نفسه وأمر بطاعة نفسه، فإن أحدا من الملائكة لم يقل
إني إله من دون الله { فَذَلِكَ تَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ } الواضعين
الإلهية والعبادة في غير موضعها.

(1) ذكر القولين الطبري: 17 / 16 - 17.

(5/315)

أَوْلَمَ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ
الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ
وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31)

{ أَوْلَمَ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ
الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ
وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) }

{ أَوْلَمَ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا } قرأ ابن كثير " لم ير " [بغير واو] (1) وكذلك هو في
مصاحفهم، معناه: ألم يعلم الذين كفروا، { أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا }
قال ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وقتادة: كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين
{ فَفَتَقْنَاهُمَا } فصلنا بينهما بالهواء، والرتق في اللغة: السد، والفتق: الشق.
قال كعب: خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض، ثم خلق ريحا
فوسطها (2) ففتحها بها.

قال مجاهد والسدي: كانت السموات مرتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع
سماوات، وكذلك الأرض كانتا مرتقة طبقة واحدة فجعلها سبع أرضين.
قال عكرمة وعطية: كانت السماء رتقا لا تمطر والأرض رتقا لا تنبت، ففتق
السماء بالمطر والأرض بالنبات. وإنما قال: { رَتْقًا } على التوحيد وهو من
نعت السموات والأرض لأنه مصدر وضع موضع الإيتم، مثل الزور والصوم
ونحوهما. { وَجَعَلْنَا } [وخلقنا] (3) { مِنَ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا } أي: وأحيينا
بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء حي أي من الحيوان ويدخل فيه النبات
والشجر، يعني أنه سبب لحياة كل شيء والمفسرون يقولون: [يعني] (4) أن
كل شيء حي فهو مخلوق من الماء. كقوله تعالى: { وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ
مَاءٍ } (النور: 45)، قال أبو العالية: يعني النطفة، فإن قيل: قد خلق الله بعض
ما هو حي من غير الماء؟ قيل: هذا على وجه التكثير، يعني أن أكثر الأحياء في
الأرض مخلوقة من الماء أو بقاءه بالماء، { أَفَلَا يُؤْمِنُونَ }
{ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا } جبالا ثوابت، { أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ } : [يعني كي لا
تميد بهم] (5) { وَجَعَلْنَا فِيهَا } في الرواسي: { فِجَاجًا } طرقا ومسالك،
والفج: الطريق الواسع

(1) زيادة من "ب".

(2) في "ب" بوسطها.

(3) ساقط من "ب".

(4) زيادة من "ب".

(5) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(5/316)

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْعًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

بين الجبلين، أي جعلنا بين الجبال طرقا حتى يهتدوا إلى مقاصدهم، { سُبُلًا }
تفسير للفج، { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ }

{ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْعًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33) }
{ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْعًا مَحْفُوظًا } من أن تسقط، دليله قوله تعالى:
{ وبمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه } (الحج: 65) ، وقيل: محفوظا
من الشياطين بالشهب، دليله قوله تعالى: { وحفظناها من كل شيطان رجيم
} (الحجر: 17) ، { وَهُمْ } يعني الكفار، { عَنْ آيَاتِهَا } ما خلق الله فيها من
الشمس والقمر والنجوم وغيرها، { مُعْرِضُونَ } لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون
بها. { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }
يجرون ويسيروا بسرعة كالسباح في الماء، وإنما قال: { يَسْبَحُونَ } ولم يقل
يسبح على ما يقال لما لا يعقل، لأنه ذكر عنها فعل العقلاء من الجري والسبح،
فذكر على ما يعقل.
والفلك: مدار النجوم الذي يضمها، والفلك في كلام العرب: كل شيء مستدير،
وجمعه أفلاك، ومنه فلك المغزل.
وقال الحسن: الفلك طاحونة كهيئة فلجة المغزل: يريد أن الذي يجري فيه
النجوم مستدير كاستدارة الطاحونة.
وقال بعضهم: الفلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب، فكل كوكب يجري في
السماء الذي قدر فيه، وهو معنى قول قتادة.
وقال الكلبي (1) الفلك استدارة السماء.
وقال آخرون: الفلك موج مكفوف دون السماء يجري فيه الشمس والقمر
والنجوم (2) .

(1) في "ب" الضحاك.

(2) ذكر بعض هذه الأقوال وغيرها الطبري: 17 / 23، ثم قال: والصواب من
القول في ذلك أن يقال: كما قال الله عز وجل (كل في فلك يسبحون) وجائز
أن يكون ذلك الفلك كما قال مجاهد كحديد الرحي، وكما ذكر عن الحسن
كطاحونة الرحي، وجائز أن يكون موجا مكفوفاً، وأن يكون قطب السماء،
وذلك أن الفلك في كلام العرب هو كل شيء دائر، فجمعه أفلاك، وقد ذكرت
قول الراجز:

باتت تناجي الفلك الدوارا

وإن كان كل ما دار في كلامها، ولم يكن في كتاب الله، ولا في خبر عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم، ولا عمن يقطع بقوله العذر، دليل يدل على أي ذلك
هو من أي كان الواجب أن نقول فيه ما قاله، ونسكت عما لا علم لنا به. فإذا
كان الصواب في ذلك من القول عندنا ما ذكرنا، فتأويل الكلام: والشمس
والقمر، كل ذلك في دائر يسبحون.

(5/317)

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
الْمَوْتِ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالسَّرِّ وَالْحَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35)

{ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ
ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالسَّرِّ وَالْحَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) }

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَهْدَا الَّذِي يَذُكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذُكُرُ
الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ (36) خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ
(37)

{ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَهْدَا الَّذِي يَذُكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذُكُرُ
الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ (36) خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ
(37) }

قوله عز وجل: { وَمَا جَعَلْنَا لِنَبَشِّرَ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ } دوام البقاء في الدنيا،
{ أَفَأَنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ } أي أفهم الخالديون إن مت؟ نزلت هذه الآية حين
قالوا تنربص بمحمد ريب المنون (1). { كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ وَتَبْلُوكُمْ }
نختبركم { بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ } بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر،
وقيل: بما تحبون وما تكرهون، { فِتْنَةً } ابتلاءً لننظر كيف شكركم فيما تحبون،
وصبركم فيما تكرهون، { وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } { وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
يَتَّخِذُونَكَ } [ما يتخذونك] (2) { إِلَّا هُزُوعًا } [سخرياً] (3) قال السدي: نزلت
في أبي جهل مر به النبي صلى الله عليه وسلم فضحك، وقال: هذا نبي بني
عبد مناف (4) { أَهْدَا الَّذِي } أي يقول بعضهم لبعض أهذا الذي، { يَذُكُرُ
آلِهَتَكُمْ } أي يعيها، يقال: فلان يذكر فلانا أي يعيها، وفلان يذكر الله أي يعظمه
ويجله، { وَهُمْ يَذُكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ } وذلك أنهم كانوا يقولون لا نعرف
الرحمن إلا مسيلمه، { وَهُمْ } الثانية صلة. قوله عز وجل: { خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ
عَجَلٍ } اختلفوا فيه، فقال قوم: معناه أن بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع،
كما قال: { وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } 16/ب (الإسراء: 11).

(1) ذكره صاحب زاد المسير: 5 / 350.

(2) ساقط من "ب".

(3) ساقط من "ب".

(4) عزاه السيوطي في الدر المنثور: 5 / 630 لابن أبي حاتم.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا
يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (39)

قال سعيد بن جبير والسدي: لما دخلت الروح في رأس آدم وعينه نظر إلى
ثمار الجنة فلما دخلت جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى
رجليه عجلًا إلى ثمار الجنة، فوقع فقيل: "خلق الإنسان من عجل"، والمراد
بالإنسان آدم وأورث أولاده العجلة، والعرب تقول للذي يكثر منه الشيء:
خلقت منه، كما تقول العرب: خلقت في لعب، وخلقت من غضب، يراد
المبالغة في وصفه بذلك، يدل على هذا قوله تعالى: "وكان الإنسان عجولاً".
وقال قوم: معناه خلق الإنسان يعني آدم من تعجيل في خلق الله إياه، لأن

خلقه كان بعد [خلق] (1) كل شيء في آخر النهار يوم الجمعة، فأسرع في خلقه قبل مغيب الشمس.

قال مجاهد: فلما أحيى الروح رأسه قال يا رب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس. وقيل: بسرعة وتعجيل على غير ترتيب خلق سائر الآدميين من النطفة والعلقة والمضغة وغيرها (2).

وقال قوم: من عجل، أي: من طين، قال الشاعر: والنع في الصخرة الصماء منبتة... والنخل ينبت بين الماء والعجل (3)

{ سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ } [نزل هذا في المشركين] (4) كانوا يستعجلون العذاب ويقولون: أمطر علينا حجارة من السماء، وقيل: نزلت في النضر بن الحارث (5) فقال تعالى: { سَأْرِيكُمْ آيَاتِي } أي مواعيدي فلا تستعجلون، أي فلا تطلبوا العذاب من قبل وقته، فإراهم يوم بدر، وقيل: كانوا يستعجلون القيامة.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39) }
{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } فقال تعالى: { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ } لا يدفعون { عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ } قيل: ولا عن ظهورهم السياط،

(1) زيادة من "ب".

(2) أورد هذه الأقوال الطبري: 17 / 26 - 27 ثم قال: والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا الذين ذكرناه عن من قال معناه: خلق الإنسان من عجل في خلقه: أي على عجل وسرعة في ذلك، وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه بودر بخلقه مغيب الشمس في آخر ساعة من نهار يوم الجمعة، وفي ذلك الوقت نفخ فيه الروح. وإنما قلنا أولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بالصواب، لدلالة قوله تعالى: (سأريكم آياتي فلا تستعجلون) على ذلك. وأن أبا كريب حدثنا قال: حدثنا ابن إدريس، قال: أخبرنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن في الجمعة لساعة يقللها، قال: لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا آتاه الله إياه" فقال عبد الله بن سلام: قد علمت أي ساعة هي، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، قال الله: (خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون).

(3) البيت لبعض الحميرين، والعجل بلغتهم: الطين.

(4) في "ب": (هذا في جواب قول المشركين).

(5) ذكر القول صاحب زاد المسير: 5 / 351.

(5/319)

بَلْ تَأْتِيهِمْ بَعَثَةٌ فَتُنَهِئُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40) وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41) قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْهَا يُصْحَبُونَ (43) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْعَالِيُونَ (44)

{ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } يمنعون من العذاب، وجواب لو في قوله: { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ } محذوف معناه: ولو علموا لما أقاموا على كفرهم، ولما استعجلوا، ولا قالوا: متى هذا الوعد؟ .

{ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَبْطِعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ } (40) وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41) قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43) بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَإِبَاءَهُمْ جَنَّتِ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنفُضُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْعَالِيُونَ } (44) { بَلْ تَأْتِيهِمْ } يعني الساعة { بَغْتَةً } فجأة، { فَتَبْهَتُهُمْ } أي تحيرهم، يقال: فلان مبهوت أي متحير، { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ } يمهلون. { وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ } نزل، { بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } أي جزاء استهزائهم. { قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ } يحفظكم، { بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ } إن أنزل بكم عذابه، وقال ابن عباس: من يمنعكم من عذاب الرحمن، { بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ } عن القرآن ومواعظ الله، { مُعْرِضُونَ } { أَمْ لَهُمْ } أم: صلة فيه، وفي أمثاله { آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا } فيه تقديم وتأخير، تقديره: أم لهم آلهة من دُونِنَا تمنعهم، ثم وصف الآلهة بالضعف، فقال تعالى: { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ } منع أنفسهم، فكيف ينصرون عابديهم، { وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ } قال ابن عباس: يمنعون. وقال عطية: عنه يجارون، تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان، أي مجير منه. وقال مجاهد: ينصرون. وقال قتادة: ولا يصحون من الله بخير. { بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ } الكفار، { وَإِبَاءَهُمْ } في الدنيا أي أمهلتناهم. وقيل: أعطيناهاهم النعمة، { جَنَّتِ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ } أي امتد بهم الزمان فاعثروا. { أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنفُضُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } يعني ما ننقص من أطراف المشركين ونزيد

(5/320)

في أطراف المؤمنين، يريد ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وفتح ديار الشرك أرضا فأرضا، { أَفَهُمُ الْعَالِيُونَ } أم نحن.

(5/321)

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (45) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ تَفْجَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَتَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46) وَتَصَعُّ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)

{ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ } (45) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ تَفْجَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَتَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } (46) وَتَصَعُّ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ

خَرَدَلٍ أَتَيْتَابِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47) { قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ } أي أخوفكم بالقرآن، { وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ } قرأ ابن عامر بالتاء وضمها وكسر الميم، "الصم" نصب، جعل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وقرأ الآخرون بالياء وفتحها وفتح الميم، "الصم" رفع، { إِذَا مَا يُنذَرُونَ } يخوفون. { وَلَئِنْ مَسَّئُهُمْ } أصابتهم { تَفْحَةٌ } قال ابن عباس رضي الله عنهما طرف. وقيل: قليل. قال ابن جريج: نصيب، من قولهم نفع فلان لفلان من ماله أي أعطاه حظاً منه. وقيل: ضربة من قولهم نفحت الدابة برجلها إذا ضربت، { مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَتَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } أي بإهلاكنا إنا كنا مشركين، دعوا على أنفسهم بالويل بعدما أقروا بالشرك. { وَتَصْعَقُ الْمَوَازِينُ الْقِسْطُ } أي ذوات القسط، والقسط: العدل، { لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا } لا ينقص من ثواب حسنة ولا يزداد على سيئاته، وفي الأخبار: إن الميزان له لسان وكفتان (1).

روى أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب، فغشي عليه، ثم أفاق فقال: يا إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسناً؟ فقال: يا داود إني [إذا] (2) رضيت على عبدي ملأتها بتمرة (3)

{ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرَدَلٍ } قرأ أهل المدينة { مِثْقَالَ } برفع اللام هاهنا وفي سورة

- (1) أخرج اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة: 6 / 1173 عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: ذكر الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان. ويدل على ذلك أحاديث كثيرة: وانظر: شرح الطحاوية صفحة: (480 - 484)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني: 2 / 184 - 186.
- (2) ساقط من "أ".
- (3) ذكره القرطبي في التذكرة، انظر: لوامع الأنوار البهية: 2 / 184.

(5/321)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (50) وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51)

لقمان، أي وإن وقع مثقال حبة، ونصبها الآخرون على معنى: وإن كان ذلك الشيء مثقال حبة أي زنة حبة من خردل، { آتَيْنَا بِهَا } أحضرناها لنجازي بها. { وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } قال السدي: محصين، والحسب معناه: العد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عالمن حافظين، لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه. { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (50) وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) }

قوله عز وجل: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ } يعني الكتاب المفرق بين الحق والباطل، وهو التوراة. وقال ابن زيد: الفرقان النصر على الأعداء،

كما قال الله تعالى: { وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان } (الأنفال: 41) ،
يعني يوم بدر، لأنه قال { وَصِيَاءً } أدخل الواو فيه أي آتينا موسى النصر
والصياء وهو التوراة.

ومن قال: المراد بالفرقان التوراة، قال: الواو في قوله: { وَصِيَاءً } زائدة
مقحمة، معناها: آتينا التوراة صياء، وقيل: هو صفة أخرى للتوراة، { وَذِكْرًا }
تذكيرا، { لِلْمُتَّقِينَ } { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ } أي يخافونه ولم يروه، {
وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ } خائفون. { وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ } يعني
القرآن وهو ذكر لمن تذكر به، مبارك يتبرك به ويطلب منه الخير، { أَقَاتُكُمْ } يا
أهل مكة، { لَهُ مُنْكَرُونَ } جاحدون (1) وهذا استفهام توبيخ وتعبير. قوله عز
وجل: { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ } قال القرطبي: أي صلاحه، { مِنْ قَبْلِ }
أي من قبل موسى وهارون، وقال المفسرون: رشده، أي هداة 17/1 من قبل
أي من قبل البلوغ، وهو حين خرج من السرب وهو صغير، يريد هديناه صغيرا
كما قال تعالى ليحيي عليه السلام: { وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَ صَبِيًّا } (مريم: 12) ،
{ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ } أنه أهل للهداية والنبوة.

(1) ساقط من "ب".

(5/322)

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا لَهَا غَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا
أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
الَّذِي قَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ دَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ
أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ (57)

{ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا لَهَا غَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا
أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
الَّذِي قَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ دَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ
أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ (57) }

{ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ } أي الصور، يعني الأصنام { الَّتِي أَنْتُمْ
لَهَا عَاكِفُونَ } أي على عبادتها مقيمون. { قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا غَابِدِينَ }
فاقتدينا بهم. { قَالَ } إبراهيم، { لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }
خطأ بين عبادتكم إياها. { قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ } يعنون أجاد
أنت فيما تقول أم [انت من اللاعبين؟] (1) . { قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ الَّذِي قَطَرَهُنَّ } خلقهن، { وَأَنَا عَلَىٰ دَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } أي على
أنه الإله الذي لا يستحق العبادة غيره. وقيل: من الشاهدين على أنه خالق
السموات والأرض. { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } لأمكرن بها، { بَعْدَ أَنْ تُولُوا
مُدْبِرِينَ } أي بعد أن تدبروا منطلقين إلى عيدكم.

قال مجاهد وقتادة: إنما قال إبراهيم هذا سرا من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل
واحد فأفشاه عليه، وقال: إنا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم.
قال السدي: كان لهم في كل سنة مجمع وعيد وكانوا إذا رجعوا من عيدهم

دخلوا على الأصنام فسجدوا لها، ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له: يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجيك ديننا، فخرج معهم إبراهيم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه، وقال إنني

(1) في "ب" لاعب".

(5/323)

سقيم، يقول أشتكي رجلي فلما مضوا نادى في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس، { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهن في بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه، والأصنام بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاما فوضعه بين يدي الآلهة، وقالوا: إذا رجعنا وقد بركت الآلهة في طعامنا أكلنا، فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام، قال لهم: على طريق الاستهزاء ألا تأكلون؟، فلما لم تجبه قال: ما لكم لا تنطقون؟. فراغ عليهم ضربا باليمين، وجعل يكسره في يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس في عنقه ثم خرج (1) فذلك قوله عز وجل.

(1) أخرجه الطبري: 38 / 17، وانظر الدر المنثور: 5 / 636 - 637.

(5/324)

فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَا إِلَهِنَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا قَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61)

{ فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَا إِلَهِنَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا قَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) }

جديد، وهو الهشيم مثل خفيف وخفاف، وقرأ الآخرون بضمه، مثل الحطام والرفات، { إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ } فإنه لم يكسره ووضع الفأس في عنقه، وقيل ربطه بيده وكانت اثنتين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد ورساص وشبّة وخشب وحجر، وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر في عينيه ياقوتتان تتقدان. قوله تعالى: { لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } قيل: معناه لعلهم يرجعون إلى دينه وإلى ما يدعوهم إليه إذا علموا ضعف الآلهة وعجزها، وقيل: لعلهم إليه يرجعون فيسألونه، فلما رجع القوم من عيدهم إلى بيت الهتهم وراوا أصنامهم جُدَادًا. { قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَا إِلَهِنَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ } أي من المجرمين. { قَالُوا } يعني الذين سمعوا قول إبراهيم: { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } ، { سَمِعْنَا قَتَى يَذُكُرُهُمْ } يعيبيهم ويسبهم، { يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ } هو الذي نطن صنع هذا، فبلغ ذلك نمرود الجبار

وأشرف قومه. { قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ } قال نمرود: يقول جيئوا به ظاهراً بمرأى من الناس، { لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ } عليه أنه الذي فعله، كرهوا أن يأخذوه بغير بينة، قال الحسن وقتادة والسدي، وقال

(5/324)

قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا قَائِبًا لَوْ هُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64)

محمد بن إسحاق { لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ } أي يحضرون عقابه وما يصنع به { قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا قَائِبًا لَوْ هُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) }

فلما أتوا به، { قَالُوا } له { أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ } ؟. { قَالَ } إبراهيم، { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا } غضب من أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسره، وأراد بذلك إبراهيم إقامة الحجة عليهم، فذلك قوله: { قَائِبًا لَوْ هُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ } حتى يخبروا من فعل ذلك بهم. قال القتيبي: معناه بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون على سبيل الشرط، فجعل النطق شرطاً للفعل، أي إن قدروا على النطق قدروا على الفعل، فأراهم عجزهم عن النطق، وفي [ضمنه] (1) أنا فعلت،. وروي عن الكسائي أنه كان يقف عند قوله { بَلْ فَعَلَهُ } ويقول: معناه [فعله] (2) من فعله، والأول أصح لما روي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، اثنتان منهن في ذات الله، قوله: { إني سقيم } (الصفات: 89)، وقوله: { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ } وقوله لسارة { هذه أختي } (3) وقيل في قوله: { إني سقيم } أي سأسقم، وقيل: سقم القلب أي مغتم بضاللتكم، وقوله لسارة: هذه أختي أي في الدين، وهذه التأويلات لنفي الكذب عن إبراهيم، والأولى هو الأول للحديث فيه، ويجوز أن يكون الله عز وجل أذن له في ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم، كما أذن ليوسف حتى (4) أمر مناديه فقال لإخوته: { أيتها العير إنكم لسارقون } (يوسف: 70). ولم يكونوا سارقوا. { فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ } أي فتفكروا بقلوبهم، ورجعوا إلى عقولهم، { فَقَالُوا } ما نراه إلا كما قال: { إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ } يعني بعبادتكم من لا يتكلم. وقيل: أنتم الظالمون هذا الرجل في سؤالكم إياه وهذه ألهمتكم حاضرة فاسألوها.

(1) في "ب" ضميره.

(2) زيادة من "ب".

(3) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) 6 / 388، ومسلم في الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، برقم (2371) 4 / 1840.

(4) في "ب" حين.

ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّفُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَاعِلِينَ (68)

{ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّفُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَاعِلِينَ (68) }

{ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ } قال أهل التفسير: أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة، فهو معنى قوله: { ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ } أي ردوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم، يقال نكس المريض إذا رجع إلى حاله الأول، وقالوا: { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ } فكيف نسألهم؟ فلما اتجهت الحجة لإبراهيم عليه السلام. { قَالَ } لهم، { أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا } إن عبدتموه، { وَلَا يَضُرُّكُمْ } إن تركتم عبادته. { أَفَ لَكُمْ } أي تبا وقذرا لكم، { وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } أي أليس لكم عقل تعرفون هذا، فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب. { قَالُوا حَرِّفُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَاعِلِينَ } 17/ب أي: إن كنتم ناصرين لها.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: إن الذي قال هذا رجل من الأكراد (1). وقيل: اسمه "هيزن" فحسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة (2). وقيل: قاله نمرود، فلما أجمع نمرود وقومه على إحراق إبراهيم عليه السلام، حبسوه في بيت، وبنوا له بنيانا كالخطيرة (3). وقيل: بنو أتونا بقرية يقال لها "كوثى" (4) ثم جمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عافاني الله لأجمعن حطبا لإبراهيم، وكانت المرأة تنذر في بعض ما تطلب لئن أصابته لتحطين في نار إبراهيم، وكان الرجل يوصي بشراء الحطب وإلقائه فيه، وكانت المرأة تغزل وتشترى الحطب بغزلها، فتلقيه فيه احتسابا (5) في دينها.

- (1) أخرجه الطبري: 43 / 17، وانظر: الدر المنثور: 5 / 639.
- (2) أخرجه الطبري: 43 / 17، وانظر تفسير ابن كثير: 3 / 185.
- (3) أخرجه الطبري: 43 / 17، وانظر: البحر المحيط: 6 / 328.
- (4) بضم أوله، وبالثاء المثناة، وهي بالعراق، ولد فيها إبراهيم عليه السلام.
- (5) انظر الطبري: 44 / 17، الدر المنثور: 5 / 641.

قال ابن إسحاق كانوا يجمعون الحطب شهرا فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا في كل ناحية من الحطب فاشتعلت النار واشتدت حتى أن كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها، فأوقدوا عليها سبعة أيام. روي أنهم لم يعلموا كيف يلقونه فيها فجاء إبليس فعلمهم عمل المنجنيق

فعملوا، ثم عمدوا إلى إبراهيم فرفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم وضعوه في المنجنيق مقيدا مغلولا (1) فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة واحدة، أي ربنا إبراهيم خليلك يلقي في النار وليس في أرضك أحد يعبدك غيره فأذن لنا في نصرته، فقال الله عز وجل: إنه خليلي ليس لي غيره، وأنا إلهه وليس له إله غيري، فإن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه، فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن المياه فقال: إن أردت أخدمت النار (2) وأتاه خازن الرياح فقال: إن شئت طيرت النار في الهواء، فقال إبراهيم: لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل (3).

وروي عن أبي بن كعب أن إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك (4) ثم رموا به في المنجنيق إلى النار، واستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم لك حاجة؟ فقال أما إليك فلا (5) قال جبريل: فاسأل ربك، فقال إبراهيم حسبي من سؤالي علمه بحالي (6).

قال كعب الأحبار: جعل كل شيء يطفئ عنه النار إلا الوزغ فإنه كان ينفخ في النار (7).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبيد الله بن موسى وابن سلام عنه أخبرنا ابن جريح عن عبد الحميد بن جبير عن سعيد بن المسيب عن أم شريك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الوزغ، وقال: كان

(1) انظر البحر المحيط: 6 / 328 .

(2) عزاه السيوطي في الدر المنثور: 5 / 640 للإمام أحمد في الزهد ولعبد بن حميد.

(3) انظر البحر المحيط: 6 / 328 وقد عزاه لابن عباس، والدر المنثور: 5 / 641، وعند البخاري: 8 / 229 بلفظ: (كان آخر قول إبراهيم حين ألقى في النار: حسبي الله ونعم الوكيل).

(4) أخرجه الطبري: 17 / 45.

(5) أخرجه الطبري: 17 / 45، وانظر: تفسير ابن كثير: 3 / 185.

(6) ذكره ابن عراق في: "تنزيه الشريعة" 1 / 250 بلفظ: (علمه بحالي يعني عن سؤالي) حكاية عن الخليل عليه السلام، وقال: قال ابن تيمية: موضوع.

(7) انظر القرطبي: 11 / 304.

(5/327)

قُلْنَا يَا تَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (69)

"ينفخ النار على إبراهيم" (1).

{ قُلْنَا يَا تَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (69) }

قال تعالى: { قُلْنَا يَا تَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ } قال ابن عباس: لو لم يقل سلاما لمات إبراهيم من بردها، ومن المعروف في الآثار أنه لم يبق يومئذ نار في الأرض إلا طفتت، فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم، ولو لم

يقول وسلاما على إبراهيم بقيت ذات برد أبدا (2) .
قال السدي: فأخذت الملائكة بضيعي إبراهيم فأقعده على الأرض، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس (3) .
قال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه (4) قالوا: وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام (5) .
قال المنهال بن عمرو: قال إبراهيم ما كنت أياما قط أنعم مني من الأيام التي كنت فيها في النار (6) .
قال ابن يسار: وبعث الله عز وجل ملك الظل في صورة إبراهيم فقعد فيها إلى جنب إبراهيم يؤنسه، قالوا وبعث الله جبريل بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه (7) وقال جبريل: يا إبراهيم إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أحبائي.
ثم نظر نمرود وأشرف على إبراهيم من صرح له فرآه جالسا في روضة والملك قاعد إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب، فناداه: يا إبراهيم كبير إلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين ما أرى، يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك؟ قال: لا قال: فقم فأخرج منها، فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها، فلما خرج إليه قال له: يا إبراهيم من الرجل الذي رأيت معك في صورتك قاعدا إلى جنبك؟ قال: ذاك ملك الظل أرسله

- (1) أخرجه البخاري في الأنبياء باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلا) 389 / 6، ومسلم في باب السلام، باب استحباب قتل الوزغ، برقم (2237) 4 / 1757 .
(2) ذكر هذه الأقوال صاحب أضواء البيان: 4 / 589 .
(3) انظر: زاد المسير: 5 / 367 .
(4) أخرجه الطبري: 17 / 44 .
(5) انظر: زاد المسير: 5 / 367، القرطبي: 11 / 304 .
(6) أخرجه الطبري: 17 / 44 وابن كثير في التفسير: 4 / 185 .
(7) انظر زاد المسير: 5 / 367 .

(5/328)

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَتَجَيَّنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71)

إلي ربي ليؤنسني فيها، فقال نمرود: يا إبراهيم إنني مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده إنني ذابح له أربعة آلاف بقرة، فقال له إبراهيم: إذا لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه إلى ديني، فقال: لا أستطيع ترك ملكي. ولكن سوف أذبحها له فذبحها له نمرود ثم كف عن إبراهيم، ومنعه الله منه (1) . قال شعيب الجبائي: ألقي إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة (2) .
{ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَتَجَيَّنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) }

(1) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في سكنى الشام 3 / 353 - 354، والحاكم: 4 / 486 - 487، وأحمد: 2 / 199، والمصنف في شرح السنة: 14 / 209 وشهر بن حوشب تكلم فيه غير واحد.

(2) قال ياقوت: والسبع - يسكون الباء: ناحية في فلسطين، بين بيت المقدس والكرك، فيه سبع أبار، سمي الموضع بذلك، وكان ملكا لعمر بن العاص أقام به لما اعتزل الناس، قال: وأكثر الناس يروي هذا بفتح الباء.

(3) وأخرجه الطبري عن ابن إسحاق: 17 / 47 مع أقوال آخر، ثم قال مرجحا أن هجرة إبراهيم كانت من العراق إلى الشام: وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يقيم بها، ولم يتخذها وطنًا لنفسه، ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

(5/330)

وَجَعَلْتَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73)

{ وَجَعَلْتَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73) }

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً } قال مجاهد وعطاء: معنى النافلة العطية وهما جميعا من عطاء الله نافلة يعني عطاء، قال الحسن والضحاك: فضلا. وعن ابن عباس وأبي بن كعب وأبي زيد وقتادة رضي الله عنهم: النافلة هو يعقوب لأن الله عز وجل أعطاه إسحاق بدعائه حيث قال: { هب لي من الصالحين } (الصافات: 100)، وزاد يعقوب [ولد الولد] (1) والنافلة الزيادة، { وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ } يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. { وَجَعَلْتَاهُمْ أُمَّةً } يقتدى بهم في الخير، { يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } يدعون الناس إلى ديننا،

(1) في "ب" ولدا لولده.

(5/330)

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76)

وَبَصُرْنَا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77) وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ عَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78)

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ { العمل بالشرائع، { وَإِقَامَ الصَّلَاةِ { يعني:
المحافظة عليها، { وَإِيَاءَ الزَّكَاةِ { إعطاءها (1) } وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ }
موجدين.

{ وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)
وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76)
(77) وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا
لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) }

{ وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ { أي: وآتيناه لوطًا، وقيل: واذكر لوطًا آتيناه، { حُكْمًا { يعني:
الفصل بين الخصوم بالحق، { وَعِلْمًا { } وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ
الْخَبَائِثَ { يعني: سدوما وكان أهلها يأتون الذكران في أديارهم ويتضارطون
في أدينتهم مع أشياء آخر، كانوا يعملون من المنكرات، { إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ
فَاسِقِينَ { } وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ { } . { وَنُوحًا إِذْ نَادَى {
رعا، { مِنْ قَبْلٍ { أي من قبل إبراهيم ولوط، { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ
الْكَرْبِ الْعَظِيمِ { قال ابن عباس: من العرق وتكذيب قومه. وقيل: لأنه كان
أطول الأنبياء عمرا وأشدهم يلاء، والكرب: أشد الغم (2) . { وَتَصْرَتَاهُ {
منعناه، { مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا { أن يصلوا إليه بسوء. وقال أبو عبيدة:
أي على القوم، { إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَاعْرِفْتَاهُمْ أَجْمَعِينَ { قوله عز وجل: {
وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ { اختلفوا في الحرث، قال ابن مسعود
وابن عباس رضي الله عنهم وأكثر المفسرين: كان الحرث كرما قد تدلت
عناقيده. وقال قتادة: كان زرعاً، { إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ { أي رعته ليلا
فأفسدته، والنفش: الرعي بالليل وأهمل بالنهار

(1) زيادة من "ب".

(2) ساقط من "ب".

(5/331)

وهما الرعي بلا راع، { وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ { أي: كان ذلك بعلمنا ومرأى منا
لا يخفى علينا علمه. قال الفراء: جمع اثنين، فقال لحكمهم وهو يريد داود
وسليمان لأن الاثنين جمع وهو مثل قوله: { فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأَمِّهِ السُّدُسُ {
(النساء: 11) ، وهو يريد أخوين.

قال ابن عباس وقاتدة والزهري: وذلك أن رجلين دخلا على داود أحدهما
صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الزرع: إن هذا انفلتت غنمه ليلا
ووقعت في حرثي فأفسدته فلم يبق منه شيء، فأعطاه داود رقاب الغنم
بالحرث، فخرجا فمرا على سليمان فقال: كيف قضى بينكما فأخبراه فقال
سليمان: لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا.

وروى أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين، فأخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف
تقضي؟ وبروى أنه قال بحق النبوة والأبوة إلا أخبرتني بالذي هو أرفق
بالفريقين، قال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بديرها ونسلها وصوفها
ومنافعها ويذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث

كهينته يوم أكل دفع إلى أهله، وأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك (1) .
وقيل: إن سليمان يوم حكم كان ابن إحدى عشرة سنة، وأما حكم الإسلام [في هذه المسألة] (2) أن ما أفسدت الماشية المرسله بالنهار من مال الغير فلا ضمان على ربهها، وما أفسدت بالليل ضمنه ربهها لأن في عرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار، والمواشي تسرح بالنهار وترد بالليل إلى المراح.
أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي شهاب، عن حرام بن سعد بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطا فأفسدته فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضمانه على أهلها، وذهب أصحاب الرأي إلى أن المالك إذا لم يكن معها فلا ضمان عليه فيما أتلفت ماشيته ليلا كان أو نهارا (3) .

(1) أخرج هاتين الروايتين الطبري: 17 / 51 - 54، وانظر: تفسير ابن كثير: 3 / 187 /

(2) زيادة من "ب".

(3) أخرجه أبو داود في البيوع، باب: المواشي تفسد زرع قوم: 5 / 202، وعزاه المنذري للنسائي في الكبرى، وابن ماجه في الأحكام، باب: الحكم فيما أفسدت المواشي برقم (2333) 2 / 781، ورواه الإمام مالك في الموطأ مرسلًا: 2 / 747 - 748، وأحمد: 4 / 295، وعبد الرزاق 10 / 82، والبيهقي 8 / 341 - 342. قال: ابن عبد البر في التمهيد: 11 / 81 - 82، هكذا رواه جميع رواة الموطأ - فيما علمت - مرسلًا، وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب عن ابن شهاب مرسلًا إلا أن ابن عيينة رواه عن الزهري عن سعيد بن المسيب وحرام بن سعد بن محيصة. . . ثم قال: هذا الحديث وإن كان مرسلًا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة وحدث به الثقات واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول، وجرى في المدينة به العمل، وقد زعم الشافعي أنه تتبع مراسيل سعيد بن المسيب فألفاها صحاحا وأكثر الفقهاء يحتجون بها. وقال ابن التركماني في الجوهر النقي: 8 / 342 اضطرب إسناد هذا الحديث اضطرابا شديدا، واختلف فيه على الزهري على سبعة أوجه ذكرها ابن القطان.

(5/332)

فَقَهَّمَتَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ
وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79)

{ فَقَهَّمَتَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ
وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) }

قوله عز وجل: { فَقَهَّمَتَا سُلَيْمَانَ } أي علمناه القضية وألهمناها سليمان، { وَكَلَّا } يعني داود وسليمان، { آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا } قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده (1) . واختلف العلماء في أن حكم داود كان بالاجتهاد أم بالنص، وكذلك حكم

سليمان.

فقال بعضهم: فعلا بالاجتهاد. وقالوا يجوز الاجتهاد للأنبياء ليدركوا ثواب المجتهدين إلا أن داود أخطأ وأصاب سليمان. وقالوا: يجوز الخطأ على الأنبياء إلا أنهم لا يقرون عليه، فأما العلماء فلهم الاجتهاد في الحوادث إذا لم يجدوا فيها نص كتاب أو سنة، وإذا أخطأوا فلا إثم عليهم (2) [فإنه موضوع عنهم] (3) لما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد 18/ب الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع بن سليمان، أخبرنا الشافعي، أخبرنا عبد العزيز بن محمد، عن يزيد بن عبد الله بن الهادي، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن بشر

(1) انظر: القرطبي: 11 / 309.

(2) انظر تفصيلا في تفسير القرطبي: 11 / 308 - 310، وأضواء البيان 4 / 596 - 597 وقد رجح الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - أن حكمهما - داود وسليمان عليهما السلام - كان باجتهاد لا بوحى، إذا يقول: وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحى، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ولم يستوجب لوما ولا ذما بعدم إصابته، كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله: (ففهمناها سليمان)، وأثنى عليهما في قوله: (وكلا آتينا حكما وعلما) فدل قوله: (إذ يحكمان) على أنهما حكما فيها معا، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحيا لما ساغ الخلاف، ثم قال: (ففهمناها سليمان) فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود، ولو كان حكمه فيها بوحى لكان مفهما إياها كما ترى. فقوله: (إذ يحكمان) مع قوله: (ففهمناها سليمان) قرينة على أن الحكم لم يكن بوحى بل باجتهاد، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهم الله إياه ذلك. والقرينة الثانية: هي أن قوله تعالى: (ففهمناها) الآية يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع، لا أنه أنزل عليه فيها وحيا جديدا ناسخا، لأن قوله تعالى: (ففهمناها) أليق بالأول من الثاني كما ترى.

(3) زيادة من "ب".

(5/333)

ابن سعيد، عن أبي عن قيس مولى عمرو بن العاص، عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر" (1). وقال قوم: إن داود وسليمان حكما بالوحى، وكان حكم سليمان ناسخا لحكم داود، وهذا القائل يقول: لا يجوز للأنبياء الحكم بالاجتهاد لأنهم مستغنون عن الاجتهاد بالوحى، وقالوا: لا يجوز الخطأ على الأنبياء (2) واحتج من ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب بظاهر الآية وبالخير حيث وعد الثواب للمجتهد على الخطأ، وهو قول أصحاب الرأي، وذهب جماعة إلى أنه ليس كل مجتهد مصيبا بل إذا اختلف اجتهاد مجتهدين في حادثة كان الحق مع واحد لا بعينه، ولو كان كل واحد مصيبا لم يكن للتقسيم معنى، وقوله عليه السلام: "وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر"، لم يرد به أنه يؤجر على الخطأ بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة، والإثم في الخطأ عنه موضوع إذا لم يأل جهده (3).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرنا أبو الزناد، عن عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان وأخبرناه فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله فهو ابنها فقضى به للصغرى" (4).

قوله عز وجل: { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ } أي وسخرنا الجبال والطير يسبحن مع داود إذا سبح، قال ابن عباس: كان يفهم تسييح الحجر والشجر. قال وهب: كانت الجبال تجاوبه بالتسييح وكذلك الطير. وقال قتادة: يسبحن أي يصلين معه إذا صلى. وقيل: كان داود إذا فتر يسمعه الله تسييح الجبال والطير لينشط في التسييح ويشتاق إليه. { وَكُنَّا قَاعِلِينَ }

- (1) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ: 13 / 318 ومسلم في الأفضية، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ برقم (1716) 3 / 1342 والمصنف في شرح السنة: 10 / 115.
- (2) انظر القرطبي: 11 / 308 - 310.
- (3) انظر القرطبي: 11 / 311.
- (4) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب: قول الله تعالى: (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب) 6 / 458 ومسلم في الأفضية، باب: بيان اختلاف المجتهدين برقم (1720) 3 / 1343.

(5/334)

وَعَلَّمَنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80)
وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81)

يعني: ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير.

{ وَعَلَّمَنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80) }
وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81) }

{ وَعَلَّمَنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ } والمراد باللبوس هنا الدروع لأنها تلبس، وهو في اللغة اسم لكل ما يلبس ويستعمل في الأسلحة كلها، وهو بمعنى الملبوس كالجلوس والركوب، قال قتادة: أول من صنع الدروع وسردها وخلقها داود وكانت من قبل صفائح، والدرع يجمع الخفة والحصانة، { لِيُخَصِّنْكُمْ } لتحززكم وتمنعكم، { مِنْ بَأْسِكُمْ } أي حرب عدوكم، قال السدي: من وقع السلاح فيكم، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب: { لِيُخَصِّنْكُمْ } بالتاء، يعني الصنعة، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالنون لقوله: { وَعَلَّمَنَاهُ } وقرأ الآخرون بالياء، جعلوا الفعل لللبوس، وقيل: ليحصنكم الله عز وجل، { فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ } يقول لداود وأهل بيته. وقيل: يقول لأهل مكة فهل أنتم

شاكرون نعمي بطاعة الرسول. قوله عز وجل: { وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً } أي وسخرنا لسليمان الريح، وهي هواء متحرك، وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه، ويظهر للحس بحركته، والريح يذكر ويؤنث، عاصفة شديدة الهبوب، فإن قيل: قد قال في موضع آخر تجري بأمره رخاء والرخاء اللين؟ قيل: كانت الريح تحت أمره إن أراد أن تشتد اشتدت، وإن أراد أن تلين لانت، { تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } يعني الشام، وذلك أنها كانت تجري لسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان، ثم تعود إلى منزله بالشام، { وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ } علمناه، { عَالِمِينَ } بصحة التدبير فيه علمنا أن ما يعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعو إلى الخضوع لربه عز وجل.

قال وهب بن منبه: كان سليمان عليه السلام إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره، وكان امرءا غزاء قل ما يقعد عن الغزو، ولا يسمع في ناحية من الأرض بملك إلا أتاه حتى يذله، كان فيما يزعمون إذا أراد الغزو أمر بمعسكره فضرب بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب، فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصفة من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى إذا استقلت به أمر الرخاء فمر به شهرا في روحته وشهرا في غدوته إلى حيث أراد، وكانت تمر بمعسكره الريح الرخاء وبالمزرعة

(5/335)

فما تحركها، ولا تثير ترابا ولا تؤذي طائرا. قال وهب: ذكر لي أن منزلا بناحية دجلة مكتوب فيه [كتبه] (1) بعض صحابة سليمان إما من الجن وإما من الإنس نحن نزلناه وما بنيناه مبنيا وجدناه، غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائجون منه إن شاء الله فبأئتون بالشام (2).

قال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسحا في فرسخ ذهبيا في إبريسم، وكان يوضع له منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه، وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة، يقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح (3)

وعن سعيد بن جبير قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس الإنس فيما يليه ثم يليهم الجن ثم تظلمهم الطير ثم تحملهم الريح (4). وقال الحسن: لما شغلت الخيل نبي الله سليمان عليه السلام حتى فاتته صلاة العصر غضب لله عز وجل فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيرا منها، وأسرع الريح تجري بأمره كيف شاء، فكان يغدو من إيلياء فيقبل باصطخر، ثم يروح 19/أ منها فيكون رواحها ببابل (5).

وقال ابن زيد: كان له مركب من خشب وكان فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت يركب معه فيه الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب، وإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فسارت به وبهم، يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ويمسي عند قوم بينه وبينهم شهر، لا يدري القوم إلا وقد أظلمهم معه الجيوش (6).

[وروي أن سليمان سار من أرض العراق غاديا فقال بمدينة مرو، وصلى العصر

بمدينة بلخ، تحمله وجنوده الريح، وتظلمهم الطير، ثم سار من مدينة بلخ متخللاً بلاد الترك، ثم جاءهم إلى بلاد الصين يغدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك، ثم عطف يمناً عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى على أرض القندهار، وخرج منها إلى أرض مكران وكرمان، ثم جاوزها حتى أتى أرض

- (1) ساقط من "أ".
- (2) أخرجه الطبري: 17 / 55 - 56.
- (3) انظر: البحر المحيط: 6 / 333.
- (4) ذكره ابن كثير في تفسيره: 3 / 188.
- (5) عزاه السيوطي في الدر المنثور: 6 / 677 لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
- (6) عزاه السيوطي في الدر المنثور: 5 / 651 لابن أبي حاتم.

(5/336)

فارس فنزلها أياماً وغدا منها فقال بكسركر ثم راح إلى الشام وكان مستقره بمدينة تدمر، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق، فبنوها له بالصفاح والعمد والرخام الأبيض والأصفر، وفي ذلك يقول النابغة: إلا سليمان إذ قال المليك له ... قم في البرية فاحدها عن الفند وجيش الجن إنني قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد [1]

(1) زيادة من "ب".

(5/337)

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ)
(82) وَأَيُّوبَ إِذْ تَادَى رَبُّهُ أَنِّي مَسْنِي الصُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83)

{ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ }
(82) وَأَيُّوبَ إِذْ تَادَى رَبُّهُ أَنِّي مَسْنِي الصُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) {
قوله عز وجل: { وَمِنَ الشَّيَاطِينِ } أي وسخرنا له من الشياطين، { مَنْ يَغُوضُونَ لَهُ } أي يدخلون تحت الماء فيخرجون له من فعر البحر الجواهر، { وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ } أي دون الغوص، وهو ما ذكر الله عز وجل: { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ } (سبا: 13) الآية. { وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ } حتى لا يخرجوا من أمره. وقال الزجاج: معناه حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا. وفي القصة أن سليمان كان إذا بعث شيطانا مع إنسان ليعمل له عملاً قال له: إذا فرغ من عمله قبل الليل أشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل، وكان من عادة الشياطين أنهم إذا فرغوا من العمل ولم يشتغلوا بعمل آخر خربوا ما عملوا وأفسدوه. قوله عز وجل: { وَأَيُّوبَ إِذْ تَادَى رَبُّهُ } أي دعا ربه، قال وهب بن منبه: كان أيوب عليه السلام رجلاً من الروم وهو أيوب بن أموص بن رازخ بن روم بن عيس بن إسحاق بن إبراهيم، وكانت أمه

من أولاد لوط بن هاران، وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا، وكانت له البثنية من أرض الشام، كلها سهلها وجبلها، وكان له فيها من أصناف المال كله، من البقر والإبل والغنم والخيل والحرر ما لا يكون لرجل أفضل منه من العدة والكثرة، وكان له خمسمائة فدان، يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد ومال، ويحمل آلة كل فدان أتان لكل أتان ولد من اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة، وفوق ذلك، وكان الله عز وجل أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء، وكان براً تقياً رحيماً بالمساكين، يطعم المساكين ويكفل الأراامل والأيتام، ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكراً لأنعم الله مؤدياً لحق الله، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا، وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا

(5/337)

به وصدقوه رجل من أهل اليمن يقال له اليقين، ورجلان من أهل بلدة يقال لأحدهما يلدو والآخر صافر وكانوا كهولاً وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات، وكان يقف فيهن حيث ما أراد حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع سموات، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب من الثلاث الباقية، فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه، فأدركه البغي والحسد، فصعد سربعا حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه، فقال إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك، ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شرك وعبادتك، ولخرج من طاعتك، قال الله تعالى: انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله إبليس حتى وقع إلى الأرض، ثم جمع عفاريت الجن ومردة الشياطين، وقال لهم: ماذا عندكم من القوة؟ فإني قد سلطت على مال أيوب، وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال، فقال عفریت من الشياطين أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصاراً من نار وأحرق كل شيء أتى عليه، قال له إبليس: فأت الإبل ورعاءها، فأتى الإبل حين وضعت رعوسها وثبتت في مراعيها، فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لا يدنو منها أحد إلا احترق فأحرق الإبل ورعاءها، حتى أتى على آخرها، ثم جاء عدو الله إبليس في صورة قبيحة على قعود إلى أيوب فوجده قائماً يصلي، فقال: يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت إبلك فأحرقتها ومن فيها غيري، فقال أيوب: الحمد لله الذي هو أعطاه وهو أخذها، وقديماً ما وطنت مالي ونفسي على الفناء، فقال إبليس: فإن ربك أرسل عليها نارا من السماء فأحترقت فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها، منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلا في غرور، ومنهم من يقول لو كان إله أيوب يقدر على أن يصنع شيئاً لمنع [وليه] (1) ومنهم من يقول: بل هو الذي فعل ليشمت به عدوه ويفجع به صديقه.

قال أيوب: الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني، عريانا خرجت من بطن أمي، وعريانا أعود في التراب، وعريانا أحشر إلى الله، ليس لك أن تفرح حين أعارك وتجزع حين قبض عاريته منك، الله أولى بك وبما أعطاك، ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيداً، ولكنه علم منك

شرا فأخرك، فرجع إبليس إلى أصحابه [خائبا] (2) خاسئا ذليلا فقال لهم: ماذا عندكم من القوة؟ فإني لم أكلم قلبه؟ قال عفريت: عندي من القوة ما شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه، فقال إبليس فأت الغنم ورعاتها، فانطلق حتى توسطها

(1) في "ب" عن وليه أيوب.

(2) زيادة من "ب".

(5/338)

ثم صاح صيحة فتجثمت أمواتا عن آخرها ومات رعاؤها، ثم جاء إبليس متمثلا بقهرمان الرعاة إلى أيوب وهو يصلي، فقال له مثل القول الأول، فرد عليه أيوب مثل الرد الأول ثم رجع إبليس إلى أصحابه فقال: ماذا عندكم من القوة فإني لم أكلم قلب أيوب، فقال عفريت عندي من القوة ما إذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنسف كل شيء تأتي عليه، قال فأت الفدادين والحرث فانطلق ولم يشعروا حتى هبت ريح عاصف، فنسفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن، ثم جاء إبليس متمثلا بقهرمان الحرث إلى أيوب وهو قائم يصلي، فقال له مثل القول الأول، فرد عليه أيوب مثل رده الأول كلما انتهى إليه هلاك مال من أمواله حمد الله وأحسن الثناء عليه، ورضي منه بالقضاء، ووطن نفسه بالصبر على البلاء، حتى لم يبق له مال.

فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله صعد [إلى السماء] (1) فقال إلهي إن أيوب يرى 19/ب أنك ما متعته بولده فأنت معطيه المال فهل مسلطي على ولده، فإنها المصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال، قال الله تعالى: انطلق فقد سلطتك على ولده، فانقض عدو الله حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده، ثم جعل يناطح جدره بعضها ببعض ويرميهم بالخشب والجندل، حتى إذا مثل بهم كل مثلة رفع القصر فقلبه فصاروا منكسين، وانطلق إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مخدوش الوجه يسيل دمه ودماعه فأخبره، وقال: لو رأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا فكانوا منكسين على رؤوسهم تسيل دماؤهم ودماعهم، ولو رأيت كيف شقت بطونهم وتناثرت أعضاؤهم لقطع قلبك، فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق أيوب فبكي وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه، وقال: ليت أُمِّي لم تلدني، فاغتنم إبليس ذلك فصعد سريعا بالذي كان من جزع أيوب مسرورا به، ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر واستغفر، وصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته إلى الله وهو أعلم، فوقف إبليس ذليلا فقال: يا إلهي إنما هون على أيوب المال والولد أنه يرى منك أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطي على جسده؟ فقال الله عز وجل: انطلق فقد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه، وكان الله عز وجل أعلم به لم يسلمه عليه إلا رحمة له ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم، ليتأسوا به في الصبر ورجاء للثواب، فانقض عدو الله سريعا فوجد أيوب ساجدا فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجوهه فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها [جميع] (2) جسده، فخرج من قرنه إلى قدمه تأليل مثل أليات

- (1) ساقط من "أ".
(2) زيادة من "ب".

(5/339)

الغنم فوَقعت فيه حكة فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة، فلم يزل يحكها حتى نغل لحمه، وتقطع وتغير وأنتن، وأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة، وجعلوا له عريشا، فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته، وهي رحمة بنت أفرايم بن يوسف بن يعقوب كانت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه، فلما رأى الثلاثة من أصحابه وهم: يقن وبلدد وصافر ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه فبكتوه ولاموه وقالوا له: تب إلى الله من الذنب الذي عوقبت به، قال: وحضره معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقته، فقال لهم: إنكم تكلمتم أيها الكهول، وكنتم أحق بالكلام مني لأسنانكم، ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمم أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم، ومن الرجل الذي عيتم واتهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وخيرته من خلقه وصفوته من أهل الأرض إلى يومكم هذا، ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله من أمره على أنه قد سخط عليه شيئا من أمره منذ أتاه الله ما أتاه إلي يومك هذا، ولا على أنه نزع منه شيئا من الكرامة التي أكرمه بها، ولا أن أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا، فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضع في أنفسكم فقد علمتم أن الله يبتلي المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين، وليس بلاؤه لأولئك بدليل على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم، ولكنه كرامة وخيرة لهم، ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة إلا أنه أخ أحببتموه على وجه الصحة لكان لا يجمل بالحليم أن [يعذل] (1) أخاه عند البلاء، ولا يعيره بالمصيبة، ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين، ولكنه يرحمه ويبكي معه، ويستغفر له، ويحزن لحزنه، ويدله على مرشد أمره، وليس بحليم ولا رشيد من جهل هذا، فالله أيها الكهول وقد كان في عظمة الله وجلاله، وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم، ويكسر قلوبكم، ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم خشية من غير عي ولا بكم، وأنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم، واقشعرت جلودهم، وانكسرت قلوبهم، وطاشت عقولهم إعظاما وإجلالا لله عز وجل، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله عز وجل بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين، وإنهم لأبرار براء، ومع المقصرين والمفرطين، وأنهم لأكياس أقوياء، فقال أيوب: إن الله عز وجل يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى نبتت في القلب يظهرها الله على اللسان، وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة، وإذا جعل الله العبد حكيما في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله سبحانه عليه نور الكرامة، ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستغيثا به متضرعا إليه، فقال رب لأبي

شيء خلقتني ليتني إذ كرهتني لم تخلقني يا ليتني قد عرفت الذنب الذي
أذنبت، والعمل الذي عملت، فصرفت وجهك الكريم عني، لو كنت أمتني
فألحقتني بأبائي الكرام، فالموت كان أجمل بي ألم أكن للغريب دارا،
وللمسكين قرارا، ولليتيم وليا، وللأرملة قيما، إلهي أنا عبدك إن أحسنت فالمن
لك، وإن أسأت فبيدك عقويتي، جعلتني + عرضا، وللفتنة نصبا، وقد وقع علي
بلاء لو سلطته على جبل ضعف عن حمله، فكيف يحمله ضعفي وإن قضاءك هو
الذي أدلني، وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي، ولو أن ربي نزع
الهيئة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي بما كان ينبغي
للعبد أن يحاج عن نفسه لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي، ولكنه ألقاني
وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه، لا نظر إلي فيرحمني، ولا
دنا مني ولا أدناني فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم 20/أ عن نفسي (2)
فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب
أليم، ثم نودي يا أيوب إن الله عز وجل يقول: ها أنا قد دنوت منك ولم أزل
منك قريبا قم فأدل بعذرك، وتكلم ببراءتك، وخاصم عن نفسك، واشدد إزرك،
وقم مقام جبار يخاصم جبارا إن استطعت، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلا جبار
مثلي، لقد + منتك نفسك يا أيوب أمرا ما تبلغ بمثل قوتك، أين أنت مني يوم
خلقت الأرض فوضعتها على أساسها، هل كنت معي تمد بأطرافها؟ وهل
علمت بأي مقدار قدرتها أم على أي شيء وضعت أكنافها؟ أبطاعتك حمل
الماء الأرض أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء؟ أين كنت مني يوم رفعت
السماء سقفا في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها؟
حتى تبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها
ونهارها؟ أين أنت مني يوم نبعت الأنهار وسكرت البحار، أسلطانك حبس أمواج
البحار على حدودها؟ أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها؟ أين أنت مني
يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال؟ هل تدري على أي شيء
أرسيتها؟ وبأي مثقال وزنتها؟ أم هل لك من ذراع تطيق حملها؟ أم هل تدري
من أين الماء الذي أنزلت من السماء؟ أم هل تدري من أي شيء أنشئت
السحاب؟ أم هل تدري أين خزائن الثلج؟ أم أين جبال البرد أم أين خزانة الليل
بالنهار [وخزانة النهار بالليل] (3) ؟ وأين خزانة الريح؟ وبأي لغة تتكلم
الأشجار؟ ومن جعل العقول في أجواف الرجال؟ ومن شق الأسماع والأبصار؟
ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته؟ وقسم الأرزاق بحكمته؟ في
كلام كثير من آثار قدرته ذكرها لأيوب، فقال أيوب: صغر شأني وكل لساني
وعقلي ورأئي وضعفت قوتي عن هذا الأمر الذي تعرض لي يا إلهي، قد علمت
أن كل الذي ذكرت صنع يديك وتديبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت
عملت، لا يعجزك شيء ولا يخفى عليك خافية إذ لقيني البلاء، يا إلهي فتكلمت
ولم أملك لساني وكان البلاء هو الذي أنطقني، فليت الأرض انشقت لي
فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخط ربي، وليتني مت بغمي في أشد بلائي
قبل ذلك، إنما تكلمت حين تكلمت لتعذرني، وسكت حين سكت لترحمني،
كلمة زلت مني فلن أعود، وقد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني،
وألصقت بالتراب خدي، أعود بك اليوم منك واستجيرك من جهد البلاء فأجرتني،
وأستغيث بك من عقابك فأغثنني، وأستعين بك على أمري فأعني، وأتوكل عليك
فاكفني، وأعتصم بك فاعصمني، وأستغفرك فاعفر لي، فلن أعود لشيء
تكرهه مني، قال الله تعالى: يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي
فقد غفرت لك، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلقت آية،
وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين، فاركض برجلك هذا مغتسل بارد

وشراب فيه شفاؤك وقرب عن أصحابك قربانا فاستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك، فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء، ثم خرج فجلس فأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه فلم تجده فقامت كالوالهة مترددة (4) ثم قالت: يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هاهنا؟ قال لها: هل تعرفينه إذا رأيته؟ قالت: نعم وما لي لا أعرفه، فتبسم وقال: أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته. قال ابن عباس: فوالذي نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى مر بهما كل مال لهما وولد (5) .
فذلك قوله تعالى: { وَأَيُّوبَ إِذْ تَادَى رَبُّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ } واختلفوا في وقت ندائه والسبب الذي قال لأجله: أني مسني الضر، وفي مدة بلائه.
روي ابن شهاب عن أنس يرفعه أن أيوب لبث في بلائه ثماني عشرة سنة (6) .

وقال وهب: لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين لم يزد يوما (7) .
وقال كعب: كان أيوب في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام.
وقال الحسن: مكث أيوب مطروحا على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا تختلف فيه الدواب لا يقربه أحد غير رحمة صبرت معه بصدق وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمد، وأيوب على ذلك لا يفتر عن ذكر الله والصبر على ابتلائه (8) فصرخ إبليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض، فلما اجتمعوا إليه قالوا: له حزنك؟ قال أعياني هذا العبد الذي لم أدع له مالا ولا ولدا فلم يزد إلا صبورا، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة لا يقربه إلا امرأته، فاستعنت بكم لتعينوني عليه، فقالوا له أين مكرك الذي أهلكت به من مضى؟ قال: بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا علي قالوا نشير عليك، من أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة؟ قال من قبل امرأته قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها، قال: أصبتم، فانطلق حتى أتى امرأته وهي تصدق فتمثل لها في صورة رجل فقال: أين بعلك يا أمة الله؟ قالت هو ذاك يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده، فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع فوسوس إليها وذكرها ما كانت فيه من النعم والمال، وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضر وأن ذلك لا ينقطع عنهم أبدا، قال الحسن فصرخت فلما صرخت علم أن قد جزعت فأناها بسخلة وقال ليذبح هذه لي أيوب وبيرا، فجاءت تصرخ يا أيوب حتى متى يعذبك ربك، أين المال، أين الولد، أين الصديق، أين لونك الحسن، أين جسمك [الحسن] (9) اذبح هذه السخلة واسترح، قال أيوب أتاك عدو الله فنفخ فيك ويلك أرايت ما تبكين 20/ب عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه؟ قالت الله، قال فكم متعنا به؟ قالت ثمانين سنة، قال فمئذ كم ابتلانا؟ قالت منذ سبع سنين وأشهر، قال ويلك

(1) في "ب" يعتزل.

(2) أخرجه الطبري: 17 / 65 - 68 دون أن يعلق بشيء على ما في الرواية من الإسرائيليات كما قال صاحب أضواء البيان: 4 / 681، ومنها ما ذكره جماعة من المفسرين: أن الله سلط الشيطان على ماله وأهله ابتلاء لأيوب، فأهلك الشيطان ماله وولده، ثم سلطه على بدنه ابتلاء له فنفخ في جسده نفخة اشتعل منها، فصار في جسده ثليل، فحكمها بأظافره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه، وعصم الله قلبه ولسانه (وغالبا ذلك من الإسرائيليات) انتهى. وقال الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 391 - 392) بعد أن ساق عدة روايات

في ابتلاء أيوب عليه السلام: والمحققون من العلماء على أن نسبة هذا إلى المعصوم - صلى الله عليه وسلم - إما من عمل بعض الوضاعين الذين يركبون الأسانيد للمتون، أو من غلط بعض الرواة، وأن ذلك من إسرئيليات بني إسرائيل وافترائهم على الأنبياء. . . ثم قال: وقد ذلك كتاب الله الصادق، على لسان نبيه محمد الصادق على أن الله - تبارك وتعالى - ابتلى نبيه: أيوب - عليه السلام - في جسده، وأهله، وماله وأنه صبر حتى صار مضرب الأمثال في ذلك. . . والذي يجب أن نعتقده أنه ابتلى، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب، من أنه أصيب بالجذام وأن جسمه أصبح قرحة، وأنه ألقى على كناسة بني إسرائيل، يرعى في جسده الدود، وتعبث به دواب بني إسرائيل، أو أنه أصيب بمرض الجدري، وأيوب - عليه صلوات الله وسلامه - أكرم على الله من أن يقلى على مزبلة، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته، ويقرزهم منه، وأي فائدة تحصل من الرسالة وهو على هذه الحال المزرية التي لا يرضاها الله لأنبيائه ورسوله.

(3) زيادة من "ب".

(4) متلدة: متلغة يمينا وشمالا.

(5) أخرجه الطبري: 17 / 68 - 69.

(6) أخرجه الحاكم: 2 / 581 إلا أنه ذكر مدة البلاء خمس عشرة سنة، وابن حبان في موارد الظمان ص 511، وعزاه السيوطي: 5 / 659 لابن أبي الدنيا وأبي يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير 3 / 189 من رواية ابن أبي حاتم عن أنس ابن مالك وقال: رفع هذا الحديث غريب جدا.

(7) أخرجه الطبري: 17 / 66.

(8) أخرجه الطبري: 17 / 69.

(9) في "ب" الصحيح.

(5/340)

ما أنصفت ألا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة، والله لئن شفاني الله لأجلدتك مائة جلدة أمرتيني أن أذبح لغير الله طعامك وشرايك الذي أتيتني به علي حرام [أو حرام علي] (1) أن أذوق شيئاً مما تاتيني به بعد إذ قلت لي هذا، فاعزبي عني، فلا أراك فطردها فذهبت، فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق (2) خر ساجدا وقال: رب { أَتِي مَسْنِيَّ الصُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } فقيل له: ارفع رأسك فقد استجيب لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين فاعتسل منها فلم يبق عليه من دائه شيء ظاهر إلا سقط وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان، ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا خرج فقام صحيحاً وكسي حلة، قال: فجعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من أهل ومال إلا وقد أضعفه الله حتى والله ذكر لنا أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب فجعل يضمه بيده، فأوحى الله إليه يا أيوب ألم أغنك؟ قال: بلى ولكنها بركتك فمن يشيع منها، قال فخرج حتى جلس علي مكان مشرف، ثم إن امرأته قالت أرأيتك إن كان طردني إلى من أكله؟ أدعه يموت جوعاً ويضيع فتأكله السباع لأرجعن إليه فلا كناسة ترى ولا تلك الحالة التي كانت، وإذا الأمور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك

بعين أيوب، وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله عنه، فدعاها أيوب فقال: ما تريد يا أمة الله؟ فبكت وقالت: أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذا على الكناسة لا أدري أضاع أم ما فعل، فقال أيوب: ما كان منك فبكت، وقالت: بعلي، قال: فهل تعرفينه إذا رأيته؟ فقالت: وهل يخفى على أحد رآه؟ ثم جعلت تنظر إليه وهي تهابه، ثم قالت: أما أنه أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحا، قال فإني أنا أيوب الذي أمرتني أن أذبح لإبليس، وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله سبحانه فرد علي ما ترين (3).

وقال وهب: لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب إبليس ولم يستطع منه شيئا اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس [من] (4) مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال، فقال لها: أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى؟ قالت: نعم، قال فهل تعرفيني؟ قالت: لا قال: أنا إله الأرض، وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لأنه عبد. إله السماء وتركني فأغضبني، ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان لكما من مال وولد، فإنه عندي ثم أراها إياهم ببطن الوادي الذي لقيها فيه، قال وهب: وقد سمعت

(1) زيادة من "ب".

(2) أخرجه الطبري: 71 - 70 / 17.

(3) أخرجه الطبري: 72-71 / 17.

(4) في "ب" في صورة.

(5/344)

أنه إنما قال لها لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم الله عليه لعوفي مما به من البلاء (1) والله أعلم وفي بعض الكتب: إن إبليس قال لها: اسجدي لي سجدة حتى أرد عليك المال والأولاد وأعافي زوجك، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها [وما أراها] (2) قال لقد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم [إن عافاه الله] (3) ليضربنها مائة جلدة، وقال عند ذلك: مسني الضر من طمع إبليس في سجد حرمتي له، ودعائه إياها وإيائي إلى الكفر، ثم إن الله عز وجل رحم [رحمة] (4) امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء، وخفف عليها وأراد أن يبر يمين أيوب، فأمره أن يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة كما قال تعالى: "وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث" (ص): (44)، وروى أن إبليس اتخذ تابوتا وجعل فيه أدوية وقعد على طريق امرأته يداوي الناس فمرت به امرأة أيوب فقالت [يا شيخ] (5) إن لي مريضا أفتداويه؟ قال نعم [والله] (6) لا أريد شيئا إلا أن يقول إذا شفيتها أنت شفيتني، فذكرت ذلك لأيوب فقال: هو إبليس قد خدعك، وحلف إن شفاه الله أن يضربها مائة جلدة.

وقال وهب وغيره: كانت امرأة أيوب تعمل للناس وتجيئه بقوته، فلما طال عليه البلاء وسئمها الناس فلم يستعملها أحد التمسست له يوما من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئا فجرت قرنا من رأسها، فباعته برغيف فاتته به، فقال لها: أين قرنك؟ فأخبرته (7) فحينئذ قال: { مَسَّنِيَ الصُّرُّ } وقال قوم: إنما قال ذلك حين قصدت الدود إلى قلبه ولسانه فخشي أن يفتر

عن الذكر والفكر.
 وقال حبيب بن أبي ثابت: لم يدع الله بالكشف عنه حتى ظهرت له ثلاثة أشياء أحدها: قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره فجاءا إليه ولم يبق له إلا عيناه ورأيا أمرا عظيما فقالا لو كان لك عند الله منزلة ما أصابك هذا. والثاني: أن امرأته طلبت طعاما فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها وحملت إليه طعاما. والثالث: قول إبليس إني أداويه على أن يقول أنت شفيتني. وقيل: إن إبليس وسوس إليه أن امرأتك زنت فقطعت ذؤابتها فحينئذ عيل صبره، فدعا وحلف ليضربنها مائة جلدة. وقيل: معناه مسني الضر من شماتة الأعداء. حتى روى أنه قيل له [بعدهما

(1) أخرجه الطبري: 17 / 66-67.

(2) ساقط من "ب".

(3) في "ب" إن كان الله عافاه.

(4) زيادة من "ب".

(5) زيادة من "ب".

(6) زيادة من "ب".

(7) ذكره الطبري: 17 / 66 عن وهب بن منبه.

(5/345)

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ صُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
 وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ (84)

عوفي] (1) ما كان أشد عليك في بلائك قال: شماتة الأعداء. وقيل: قال ذلك حين وقعت دودة من فخذة فردها إلى موضعها.
 وقال كلي: فقد جعلني الله طعامك فعضته عضه زاد ألمها على جميع ما قاسى من عض الديدان. فإن قيل: إن الله سماه صابرا وقد أظهر الشكوى والجزع، بقوله: { أَتَى مَسْنِيَّ الصُّرِّ } و { مَسْنِيَّ الشَّيْطَانِ يُضْب } (ص: 41) ، قيل: ليس هذا شكاية إنما هو دعاء بدليل قوله تعالى: { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ } على أن الجزع إنما هو في الشكوى إلى الخلق فأما الشكوى إلى الله عز وجل فلا يكون جزعا ولا ترك صبر كما قال يعقوب: { إِثْمًا 21/أَشْكُو بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ } (يوسف: 86) . قال سفيان بن عيينة: وكذلك من أظهر الشكوى إلى الناس وهو راض بقضاء الله لا يكون ذلك جزعا كما روي أن جبريل دخل على النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه فقال: كيف تجدك؟ قال: "أجدني مغموما وأجدني مكروبا" (2) .
 وقال لعائشة حين قالت وأرأساه، "بل أنا وأرأساه" (3) .
 { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ صُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ (84) }

قوله عز وجل: { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ صُرٍّ } وذلك أنه قال اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين [ماء] (4) فأمره أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره، ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد، فأمره فشرب منها فذهب كل

داء كان بباطنه فصار كأصح ما يكون من الرجال وأجملهم.
{ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ } واختلفوا في ذلك، فقال ابن مسعود وقتادة، وابن عباس، والحسن، وأكثر المفسرين: رد الله عز وجل إليه أهله وأولاده بأعيانهم أحياءهم الله له وأعطاه مثلهم معهم، وهو ظاهر القرآن (5) .
قال الحسن: أتاه الله المثل من نسل ماله الذي رده الله [إليه وأهله] (6) يدل عليه ما روى

- (1) ساقط من "ب".
- (2) قطعة من حديث طويل أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير": 3 / 139، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: 9 / 35 "فيه عبد الله ابن ميمون القداح، وهو ذاهب الحديث".
- (3) أخرجه البخاري في المرضى، باب: ما رخص للمريض أن يقول: أني وجع، أو وأرأساه. . . : 10 / 123.
- (4) ساقط من "ب".
- (5) أخرج الطبري هذه الأقوال: 17 / 72-73.
- (6) ساقط من "ب".

(5/346)

الضحك وابن عباس أن الله عز وجل رد إلى المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا (1) .
قال وهب كان له سبع بنات وثلاثة بنين.
وقال ابن يسار: كان له سبع بنين وسبع بنات.
وروى عن أنس يرفعه: أنه كان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله عز وجل سحابتين فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض (2) .
وروي أن الله تعالى بعث إليه ملكا وقال: إن ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج إلى أندرك، فخرج إليه فأرسل الله عليه جرادا من ذهب فطارت واحدة فاتبعها وردها إلى أندره، فقال له الملك: أما يكفيك ما في أندرك؟ فقال هذه بركة من بركات ربي ولا أشبع من بركته (3) .
أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزبادي، أخبرنا محمد بن الحسين القطان، أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام بن منبه، قال: أخبرنا أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بيننا أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه [يا أيوب] (4) ألم أكن أغنيك عما ترى؟ قال: بلى يا رب وعزتك، ولكن لا أغني بي عن بركتك" (5) . وقال قوم: أتى الله أيوب في الدنيا مثل أهله الذين هلكوا فأما الذين هلكوا فإنهم لم يردوا عليه في الدنيا (6) قال عكرمة: قيل لأيوب: إن أهلك لك في الآخرة فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا وإن شئت كانوا لك في الآخرة، وأتيناك مثلهم في الدنيا فقال يكونون لي في الآخرة، وأوتى مثلهم في الدنيا (7) فعلى هذا يكون معنى الآية: وأتينا أهله في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا وأراد بالأهل الأولاد، { رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا } أي نعمة من عندنا، { وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ } أي: عظة وعبرة

لهم.

- (1) عزاه السيوطي في الدر المنثور: 5 / 660 لابن مردويه وابن عساكر من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس.
- (2) أخرجه الحاكم: 2 / 581 - 582 وصححه على شرط الشيخين.
- (3) عزاه السيوطي في الدر المنثور: 5 / 660 لابن مردويه وابن عساكر من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس.
- (4) زيادة من "ب".
- (5) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب: قول الله تعالى: (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر. . .) 6 / 420، والمصنف في شرح السنة: 8 / 7.
- (6) ذكره الطبري: 17 / 72.
- (7) أخرجه الطبري: 17 / 72.

(5/347)

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85)

{ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) }
قوله عز وجل: { وَإِسْمَاعِيلَ } يعني ابن إبراهيم، { وَإِدْرِيسَ } وهو أخنوخ، { وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ } على أمر الله، واختلفوا في ذا الكفل.
قال عطاء: إن نبيا من أنبياء بني إسرائيل أوحى إليه الله أني أريد قبض روحك فأعرض ملكك على بني إسرائيل فمن تكفل لك أن يصلي بالليل لا يفتر، ويصوم بالنهار ولا يفطر، ويقضي بين الناس ولا يغضب، فادفع ملكك إليه ففعل ذلك، فقام شاب فقال: أنا أتكفل لك بهذا فتكفل، ووفى به فشكر الله له ونباه فسمي ذا الكفل (1).

وقال مجاهد: لما كبر اليسع قال: [لو] (2) أني أستخلف رجلا على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل، قال: فجمع الناس فقال: من يتقبل مني بثلاث أستخلفه: يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يغضب، فقام رجل تزدره العين، فقال: أنا فرده ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا، فاستخلفه فأتاه إبليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام بالليل [والنهار] (3) إلا تلك النومة فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم، فقام ففتح الباب فقال: إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني، وفعلوا وفعلوا فجعل يطول حتى حضر الرواح، وذهبت القائلة، فقال: إذا رحمت فائتني [فإني] (4) أخذ حقك، فانطلق وراح، فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره، فقام يتغيه فلما كان الغد جلس يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب، فقال: من هذا؟ فقال: الشيخ المظلوم ففتح [له الباب] (5) فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فائتني؟ فقال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدوني، قال: فانطلق فإذا رحمت فائتني، ففاته القائلة وراح فجعل ينظر فلا يراه فشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فإنه قد شق على النوم، فلما كان تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل،

فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها، فإذا هو في البيت يدق الباب من داخل، فاستيقظ فقال: يا فلان ألم أمرك، فقال: أما من قبلي فلم تؤت فانظر من أين أتيت، فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت، فقال: أأنتم والخصوم ببابك؟ فعرفه فقال: أعدو

(1) انظر زاد المسير: 5 / 379 - 380.

(2) ساقط من "أ".

(3) ساقط من "أ".

(4) ساقط من "أ".

(5) ساقط من "ب".

(5/348)

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) وَدَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)

الله؟ قال: نعم أعيبتني ففعلت ما ترى لأغضبك فعصمك الله، فسمي ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به (1).

وقيل: إن إبليس جاءه وقال: إن لي غريما يمطلني فأحب أن تقوم معي وتستوفي حقي منه، فانطلق معه حتى إذا كان في السوق خلاه وذهب. وروى: أنه اعتذر إليه. وقال: إن صاحبي هرب.

وقيل: إن ذا الكفل رجل كفل أن يصلي كل ليلة مائة ركعة 21/ب إلى أن يقبضه الله فوفى به.

واختلفوا في أنه كان نبيا، فقال بعضهم: كان نبيا (2). وقيل: هو إلياس. وقيل: زكريا. وقال أبو موسى: لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا (3).

{ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) وَدَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) }

{ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا } يعني ما أنعم الله عليهم من النبوة وصيرهم إليه في الجنة من الثواب، { إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ } قوله عز وجل: { وَدَا التُّونِ } أي: اذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى، { إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا } اختلفوا في معناه.

فقال الضحاك: مغاضبا لقومه، وهو رواية العوفي وغيره عن ابن عباس، قال: كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقي سبطا ونصف، فأوحى الله إلى شعيا النبي أن سر إلى حزقيل الملك، وقل له حتى يوجه نبيا قويا فإني ألقى [الرعب] (4) في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال له الملك فمن ترى، وكان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال يونس: إنه قوي أمين فدعا الملك يونس فأمره أن يخرج، فقال له يونس: هل أمرك الله بإخراجه؟ قال: لا قال: فهل سماني لك؟ قال: لا قال: فها هنا غيري أنبياء أقوياء فألحوا

- (1) أخرجه الطبري: 74 / 17.
- (2) قال ابن كثير: 3 / 191 . . . وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي، وقال آخرون: إنما كان رجلا صالحا وكان ملكا عادلا وحكما مقسطا، وتوقف ابن جرير في ذلك فالله أعلم). وقال ابن جرير: 17 / 73 (... وبذي الكفل: رجلا تكفل من بعض الناس، إما من نبي وإما من ملك من صالحي الملوك بعمل من الأعمال، فقام به من بعده، فأثنى الله عليه حسن وفائه بما تكفل به، وجعله من المعدودين في عبادته، مع حمد صبره على طاعة الله، والذي قلنا في أمره جاءت الأخبار عن سلف العلماء).
- (3) أخرجه الطبري: 75 / 17.
- (4) ساقط من "أ".

(5/349)

عليه فخرج من بينهم مغاضبا للنبي وللملك، ولقومه فأتى بحر الروم فركبه (1)

وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة: ذهب عن قومهم مغاضبا لربه إذ كشف عن قومهم العذاب بعدما أوعدهم، وكره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم، واستحيا منهم، ولم يعلم السبب الذي به رفع العذاب، وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده، وأنه يسمى كذابا لا كراهية لحكم الله تعالى (2).

وفي بعض الأخبار أنه كان من عادة قومهم أن يقتلوا من جربوا عليه الكذب فخشى أن يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد، فغضب، والمغاضبة هاهنا كالمفاعلة التي تكون من واحد، كالمسافرة والمعاقبة، فمعنى قوله مغاضبا أي غضبان.

وقال الحسن: إنما غضب ربه عز وجل من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومهم لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه، فسأل ربه أن ينظره ليتأهب للشخص إلىهم، فقبل له إن الأمر أسرع من ذلك حتى سأل أن ينظر إلا أن يأخذ نعلا يلبسها فلم ينظر (3) وكان في خلقه ضيق [فذهب مغاضبا] (4).

وعن ابن عباس، قال: أتى جبريل يونس فقال: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم، قال: ألتمس دابة قال: الأمر أعجل من ذلك، فغضب فانطلق إلى السفينة.

وقال وهب بن منبه: إن يونس بن متى كان عبدا صالحا وكان في خلقه ضيق، فلما حمل عليه أثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربيع (5) تحت الحمل الثقيل فحذفها من يده، وخرج هاربا منها، فلذلك أخرجه الله من أولي العزم من الرسل وقال لنبية [محمد صلى الله عليه وسلم] (6) { فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل } (الأحقاف: 35)، وقال: { ولا تكن كصاحب الحوت } (7) (القلم: 48).

(1) انظر زاد المسير: 381 / 5.

(2) سبق تخريجه (سورة يونس).

(3) انظر الطبري: 77 / 17.

(4) ما بين القوسين زيادة من "ب".

- (5) ولد الناقة أول ما يحمل عليه.
- (6) ما بين القوسين زيادة من "ب".
- (7) أخرج القولين الطبري: 17 / 77 - 78 ثم قال: (وليس في واحد من هذين القولين من وصف نبي الله يونس صلوات الله عليه شيء إلا وهو دون ما وصفه بما وصفه الذين قالوا: ذهب مغاضبا لقومه، لأن ذهابه عن قومهم مغاضبا لهم، وقد أمره الله تعالى بالمقام بين أظهرهم، ليلغهم رسالته، ويحذرهم بأسه وعقوبته على تركهم الإيمان به والعمل بطاعته لا شك أن فيه ما فيه، ولولا أنه قد كان صلى الله عليه وسلم أتى ما قاله الذين وصفوه بإتيان الخطيئة، لم يكن الله تعالى ذكره ليعاقبه العقوبة التي ذكرها في كتابه، ويصفه بالصفة التي وصفه بها، فيقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: (ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) ويقول: (فالتقمه الحوت وهو مليم، فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون).

(5/350)

قوله عز وجل { قَطَنَّ أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ } أي لن نقضي بالعقوبة، قاله مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي، وهو رواية العوفي عن ابن عباس يقال: قدر الله الشيء تقديرا وقدر يقدر قدرا بمعنى واحد، ومنه قوله: { نحن قدرنا بينكم الموت } (الواقعة: 60) في قراءة من قرأها بالتخفيف، دليل هذا التأويل قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري: { قَطَنَّ أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ } بالتشديد، وقال عطاء وكثير من العلماء: معناه فطن أن لن نصيق عليه الحيس، من قوله تعالى: { الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر } (الرعد: 26)، أي يضيق. وقال ابن زيد: هو استفهام معناه: أفطن أنه يعجز ربه، فلا يقدر عليه. وقرأ يعقوب يقدر [بضم الياء] (1) علي المجهول خفيف.

وعن الحسن قال: بلغني أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضبا لربه واستتره الشيطان حتى ظن أن لن نقدر عليه، وكان له سلف وعبادة فأبى الله أن يدعه للشيطان، فقفزه في بطن الحوت فمكث فيه أربعين من بين يوم وليلة (2). وقال عطاء: سبعة أيام [وقيل: ثلاثة أيام] (3). وقيل: إن الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة. وقيل: بلغ به تخوم الأرض السابعة فتأب إلى ربه تعالى في بطن الحوت، وراجع نفسه فقال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، حين عصيتك وما صنعت من شيء فلن أعبد غيرك فأخرجه الله من بطن الحوت برحمته، والتأويلات المتقدمة أولي بحال الأنبياء أنه ذهب مغاضبا لقومه أو للملك، { فَتَادَى فِي الظُّلُمَاتِ } أي ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، { أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } وروي عن أبي هريرة مرفوعا: أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما، فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه في البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا؟ فأوحى الله إليه: أن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبحه، فقالوا: يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة، وفي رواية صوتا معروفا من مكان مجهول، فقال: ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت، فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم فشفعوا له، عند ذلك

- (1) زيادة من "ب".
 (2) أخرجه الطبري: 79 / 17.
 (3) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(5/351)

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ (88) وَرَكَرِبًا إِذْ تَادَى رَبُّهُ رَبًّا لَا تَدْرِي قَرَدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89)

فأمر الحوت فقفذه إلى الساحل (1) كما قال الله تعالى: { فنبدناه بالعراء وهو سقيم } (الصفات: 145).
 { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ (88) وَرَكَرِبًا إِذْ تَادَى رَبُّهُ رَبًّا لَا تَدْرِي قَرَدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) }
 فلذلك قوله عز وجل: { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ } يعني: أجبناه، { وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ } من تلك الظلمات، { وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ } من كل كرب إذا دعونا واستغاثوا بنا، قرأ ابن عامر وعاصم برواية أبي بكر: "نجي" بنون واحدة وتشديد الجيم وتسكين الياء لأنها مكتوبة في المصحف بنون واحدة، واختلف النحاة في هذه القراءة، فذهب أكثرهم إلى أنها لحن لأنه لو كان على ما لم يسم فاعله لم تسكن الياء ورفع المؤمنون، ومنهم من صوبها، وذكر الفراء أن لها وجهاً آخر وهو إضمار المصدر، أي نجا النجاء المؤمنين، ونصب المؤمنين كقولك: ضرب الضرب زيدا، ثم تقول ضرب زيدا بالنصب على إضمار المصدر، وسكن الياء في "نجي" كما يسكنون في بقي ونحوها، قال القتيبي من قرأ بنون واحدة والتشديد فإنما أراد ننجي من التنجية إلا أنه أدغم وحذف نونا طلباً للخفة ولم 22/أ يرضه النحويون لبعد مخرج النون من الجيم، والإدغام يكون عند قرب المخرج، وقراءة العامة { نُنَجِّي } بنونين من الإنجاء، وإنما كتبت بنون واحدة لأن النون الثانية كانت ساكنة والساكن غير ظاهر على اللسان فحذفت كما فعلوا في إلّا حذفوا النون من إن لخفائها (2) واختلفوا في أن رسالة يونس متى كانت؟ فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: كانت بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت، بدليل أن الله عز وجل ذكره في سورة الصفات، { فنبدناه بالعراء } (الصفات: 145)، ثم ذكر بعده: { وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون } (الصفات: 147)، وقال الآخرون: إنها كانت من قبل بدليل قوله تعالى: { وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون } (الصفات: 139-140). قوله عز وجل: { وَرَكَرِبًا إِذْ تَادَى رَبُّهُ } دعا ربه، { رَبًّا لَا تَدْرِي قَرَدًا } وحيدا لا ولد لي وارزقني وارثا، { وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ } ثناء على الله بأنه الباقي بعد فناء الخلق وأنه أفضل من بقي حيا.

- (1) أخرجه الطبري: 81 / 17، وقال الهيثمي في المجمع: 98 / 7 رواه البزار عن بعض أصحابه ولم يسمه، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات، وانظر تفسير ابن كثير: 3 / 193، البداية والنهاية: 1 / 234.
 (2) ذكر هذه الوجوه في القراءات الطبري: 82 / 17 ثم قال: (والصواب من

القراءة التي لا أستجيز غيرها في ذلك عندنا ما عليه قراء الأمصار، من قراءته بنونين، وتخفيف الجيم لإجماع الحجة من القراء عليها، وتخطئها خلافة).

(5/352)

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونَ رَبًّا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا حَاشِعِينَ (90)

{ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَ رَبًّا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا حَاشِعِينَ (90) }

(5/353)

وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابِتَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91)
إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ
أَلْبَانًا رَاجِعُونَ (93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا
لَهُ كَاتِبُونَ (94) وَحَرَامٌ عَلَيَّ أَهْلُكُنَا إِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّىٰ إِذَا
فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96)

{ وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابِتَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ }
(91) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ } ولدا { وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ } أي جعلناها ولودا
بعد ما كانت عقيما، قاله أكثر المفسرين، وقال بعضهم: كانت سيئة الخلق فأصلحها له بأن رزقها حسن الخلق. { إِنَّهُمْ } يعني الأنبياء الذين سماهم في
هذه السورة، { كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَ رَبًّا وَرَهَبًا } طمعا، { وَرَهَبًا }
خوفا، رغبا من رحمة الله، ورهبا من عذاب الله، { وَكَانُوا لَنَا حَاشِعِينَ } أي
متواضعين، قال قتادة: ذللا لأمر الله. قال مجاهد: الخشوع هو الخوف اللازم
في القلب. { وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا } حفظت من الحرام، وأراد مريم بنت
عمران، { فَتَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا } أي أمرنا جبرائيل حتى نفخ في جيب درعها،
وأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها، وأضاف الروح إليه تشريفا لعيسى عليه
السلام، { وَجَعَلْنَاهَا وَابِتَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ } أي دلالة على كمال قدرتنا على خلق
ولد من غير أب، ولم يقل آيتين وهما آيتان لأن معنى الكلام وجعلنا شأنهما
وأمرهما آية ولأن الآية كانت فيهما واحدة، وهي أنها أتت به من غير فعل. قوله
عز وجل : { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ } أي ملتكم ودينكم، { أُمَّةً وَاحِدَةً } أي دينا واحدا
وهو الإسلام، فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان، وأصل الأمة الجماعة التي
هي على مقصد واحد فجعلت الشريعة أمة واحدة لاجتماع أهلها على مقصد
واحد، ونصب أمة على القطع. { وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ }
{ وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ أَلْبَانًا رَاجِعُونَ (93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (94) وَحَرَامٌ عَلَيَّ أَهْلُكُنَا إِنَّهُمْ لَا
يَرْجِعُونَ (95) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ }
(96)

{ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ } أي اختلفوا في الدين فصاروا فرقا وأحزابا، قال الكلبي: [فرقوا دينهم بينهم] (1) يلحن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض، والتقطع هاهنا بمعنى التقطيع، { كَلِّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } فنجزهم بأعمالهم.

(1) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(5/353)

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ } لا يجحد ولا يبطل سعيه بل يشكر ويثاب عليه، { وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ } لعمله حافظون، وقيل: معنى الشكر من الله المجازاة. { وَحَرَامٌ عَلَيَّ قَرْيَةٌ } قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: " وحرم " بكسر الحاء بلا ألف، وقرأ الباقون بالألف " حرام " وهما لغتان مثل حل وحلال.

قال ابن عباس: معنى الآية وحرام على قرية أي أهل قرية، { أَهْلَكْنَاهَا } أن يرجعوا بعد الهلاك، فعلى هذا تكون " لا " صلة، وقال آخرون: الحرام بمعنى الواجب، فعلى هذا تكون " لا " ثابتا معناه واجب على أهل قرية أهلكتناهم { أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } إلى الدنيا.

وقال الزجاج: معناه وحرام على أهل قرية أهلكتناهم أي حكمنا بهلاكهم أن تتقبل أعمالهم لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون، والدليل على هذا المعنى أنه قال في الآية التي قبلها: { فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ } أي يتقبل عمله، ثم ذكر هذه الآية عقيبها وبين أن الكافر لا يتقبل عمله. قوله عز وجل: { حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ } قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: " فتحت " بالتشديد على الكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف، { يَا جُوجَ وَمَا جُوجَ } يريد فتح السد عن يأجوج ومأجوج، { وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ } أي نشز وتل، والحذب المكان المرتفع، { يَنْسِلُونَ } يسرعون النزول من الأكام والتلال كنسلان الذئب، وهو سرعة مشيه، واختلفوا في هذه الكناية، فقال قوم: عني بهم يأجوج ومأجوج بدليل ما روينا عن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " وبيعت الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون " (1) وقال قوم: أراد جميع الخلق يعني أنهم يخرجون من قبورهم، وبدل عليه قراءة مجاهد وهم من كل جدث بالجيم والثاء كما قال: { فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون } (يونس: 51) .

(1) أخرجه مسلم في الفتن وأشرط الساعة، باب ذكر الدجال برقم (2137) 2255 - 2250 / 4.

(5/354)

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي عَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97)

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني، أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسي، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أخبرنا مسلم بن حجاج، أخبرنا أبو خيثمة زهير بن حرب، أخبرنا سفيان بن عيينة، عن فرات القزاز، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري، قال: اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: "إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والداية وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم وأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم" (1)

{ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97) }

قوله عز وجل: { وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ } يعني القيامة، قال الفراء وجماعة: الواو في قوله واقترب [مقحمة فمعناه حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب] (2) الوعد الحق، كما قال الله تعالى: { فلما أسلما وتله للجبين وناديناه } (الصفات: 103) أي ناديناه، والدليل عليه ما روي عن حذيفة قال: لو أن رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة (3) وقال قوم: لا يجوز طرح الواو، وجعلوا جواب حتى إذا فتحت في قوله يا ويلنا، فيكون مجاز الآية. حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق، قالوا: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا قوله: { فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا } وفي قوله "هي" ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها كناية عن الأبصار. ثم أظهر الأبصار بيانا، معناه فإذا 22/ب الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا.

والثاني: أن "هي" تكون عمادا كقوله: { فإنها لا تعمى الأبصار } (الحج: 46). والثالث: أن يكون تمام الكلام عند قوله: "هي"، على معنى فإذا هي بارزة يعني من قربها كأنها حاضرة، ثم ابتداء: { شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا } على تقديم الخبر على الابتداء، مجازها أبصار الذين كفروا شاخصة. قال الكلبي: شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم وهوله، يقولون، { يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا } اليوم، { بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ } بوضعنا

(1) أخرجه مسلم في الفتن، باب الآيات التي تكون قبل الساعة برقم)

(2901) 4 / 2225، والمصنف في شرح السنة: 15 / 45.

(2) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(3) أخرجه الطبري: 17 / 92.

(5/355)

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَّثُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101)

العبادة في غير موضعها.
{ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُّوهَا وَكُلَّ فِيهَا خَالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } (101)
{ إِنَّكُمْ } أيها المشركون { وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } يعني الأصنام،
{ حَصَبُ جَهَنَّمَ } أي وقودها. وقال مجاهد وقتادة: حطبها، والحصب في لغة أهل اليمن: الحطب. وقال عكرمة: هو الحطب بلغة الحبشة. قال الضحاك: يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصاء. وأصل الحصب الرمي، قال الله عز وجل: { أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا } (القمر: 34) أي ريحا ترميهم بحجارة، وقرأ علي بن أبي طالب: حطب جهنم، { أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } أي فيها داخلون.
{ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ } يعني الأصنام، { آلِهَةً } على الحقيقة، { مَا وَرَدُّوهَا } أي ما دخل عابدها النار، { وَكُلَّ فِيهَا خَالِدُونَ } يعني العابد والمعبودين. { لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ } قال ابن مسعود: في هذه الآية إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى [ثم تلك التوابيت في توابيت أخرى] (1) عليها مسامير من نار، فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار أحدا يعذب غيره، ثم استثنى فقال: { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحُسْنَى } قال بعض أهل العلم: إن هاهنا بمعنى: إلا الذين سبقت لهم منا الحسنَى، يعني السعادة والعدة الجميلة بالجنة، { أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } قيل: الآية عامة في كل من سبقت لهم من الله السعادة. وقال أكثر المفسرين: عني بذلك كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليه: { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ } الآيات الثلاثة، ثم قام فأقبل عبد الله بن الزبيري السهمي فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته، فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبيري: أنت قلت:

(1) ما بين القوسين زيادة من "ب".

(5/356)

"إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم"؟ قال: نعم، قال: أليست اليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد المسيح، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل هم يعبدون الشياطين فأنزل الله عز وجل: { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحُسْنَى } (1) يعني عزيرا والمسيح والملائكة، { أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } وأنزل في ابن الزبيري: { ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون } (الزخرف: 58) ، وزعم جماعة أن المراد من الآية الأصنام، لأن الله تعالى قال: { وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ولو أراد به الملائكة والناس لقال ومن تعبدون من دون الله (2) .

(1) قال ابن حجر في الكافي الشاف: ص (111) ذكره الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد، ولم أجده هكذا إلا ملفقا، فأما صدره ففي الطبراني الصغير من حديث ابن عباس. . . وأما قوله: وكانت صناديد قريش، فقصه أخرى ذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبراني من طريق ابن عباس، وروى ابن مردويه والواحدي عن ابن عباس قال: لما نزلت (إنكم وما تعبدون من دون الله) شق ذلك على قريش. . . فذكر نحوه. انظر الطبري: 17 / 97، أسباب النزول للواحدي: ص 353 - 354، مجمع الزوائد: 7 / 68 - 69.

(2) قال ابن حجر في الكافي الشاف: ص 111 - 112 اشتهر في السنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما أجهلك بلغة قومك، فإني قلت: (وما تعبدون) وهي لما لا يعقل، ولم أقل ومن تعبدون أ. هـ. وهو شيء لا أصل له ولا يوجد لا مسندا ولا غير مسند.

(5/357)

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيْسَهَا وَهُمْ فِي مَا اسْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزُنُهُمُ
الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103)

{ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيْسَهَا وَهُمْ فِي مَا اسْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزُنُهُمُ
الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) }

{ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيْسَهَا } يعني صوتها وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة، والحس والحسيس: الصوت الخفي: { وَهُمْ فِي مَا اسْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ } مقيمون كما قال: { وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين } (الزخرف: 71) . { لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ } قال ابن عباس: الفرع الأكبر: النفخة الأخيرة بدليل قوله عز وجل: { ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض } (النمل: 87) ، قال الحسن: حين يؤمر بالعبد إلى النار. قال ابن جريج: حين يذبح الموت وينادي يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. وقال سعيد بن جبير والضحاك: هو أن تطبق عليهم جهنم وذلك بعد أن يخرج الله منها من يريد أن يخرج (1) . { وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ } أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة + يهنئونهم، ويقولون: { هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ }

(1) أخرج هذه الأقوال الطبري: 17 / 98 - 99، ثم رجح قائلا: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: ذلك عند النفخة الآخرة، وذلك أن من لم يحزنه ذلك الفرع الأكبر، وأمن منه، فهو مما بعده أخرى أن لا يفزع، وأن من أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفرع مما بعده.

(5/357)

يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا
كُنَّا قَاعِلِينَ (104) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ (105)

{ يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا
إِنَّا كُنَّا قَاعِلِينَ (104) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا
عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) }

{ يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ } قرأ أبو جعفر: " تطوى " بالطاء وضمها وفتح الواو، و "
السماء " رفع على المجهول، وقرأ العامة بالنون وفتحها وكسر الواو، و "
السماء " نصب، { كَطَيِّ السَّجْلِ لِلْكِتَابِ } قرأ حمزة والكسائي وحفص عن
عاصم للكتب على الجمع، وقرأ الآخرون للكتاب على الواحد، واختلفوا في
السجل، فقال السدي: السجل ملك يكتب أعمال العباد، واللام زائدة، أي كطي
السجل للكتب كقوله { ردف لكم } (النمل: 72) ، اللام فيه زائدة، وقال ابن
عباس ومجاهد والأكثرون: السجل الصحيفة للكتب أي لأجل ما كتب معناه
كطي الصحيفة على مكتوبها، والسجل اسم مشتق من للمساجلة وهي
المكاتبة، والطي هو الدرج الذي هو ضد النشر، { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ }
أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلا كذلك نعيدهم يوم القيامة،
نظيره قوله تعالى: { ولقد جنتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة } (الأنعام:
94) ، وروي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنكم
محشورون حفاة عراة غرلا"، ثم قرأ: { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ } (1)
{ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا قَاعِلِينَ } يعني الإعادة والبعث. قوله عَزَّ وَجَلَّ: { وَلَقَدْ
كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ } قال سعيد بن جبير ومجاهد: الزبور جمع
الكتب المنزلة، والذكر أم الكتاب الذي عنده، والمعنى من بعد ما كتب ذكره
في اللوح المحفوظ .

وقال ابن عباس والضحاك: الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد
التوراة .

وقال الشعبي: الزبور كتاب داود، [والذكر التوراة. وقيل: الزبور زبور داود] (
2) والذكر القرآن، وبعد بمعنى قبل، كقوله تعالى: { وكان وراءهم ملك {
(الكهف: 97) : أي أمامهم 23/أ { والأرض بعد ذلك دحاها } (النازعات: 30)
قبله، { أَنَّ الْأَرْضَ } يعني أرض الجنة، { يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } قال
مجاهد: يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم دليله قوله تعالى: { وقالوا
الحمد لله الذي

(1) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم
خليلًا) 6 / 386، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر
يوم القيامة برقم (2860) 4 / 2194 والمصنف في شرح السنة: 15 / 122 -
123.

(2) ما بين القوسين زيادة من "ب".

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107)
 قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا
 فَقُلْ أَدْنَيْكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ (109)

صدقنا وعده وأورثنا الأرض { (الزمر: 74) ، وقال ابن عباس: أراد أن أراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله بإظهار الدين وإعزاز المسلمين. وقيل: أراد بالأرض الأرض المقدسة.

{ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ أَدْنَيْكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ (109) }
 { إِنَّ فِي هَذَا } أي في هذا القرآن، { لَبَلَاغًا } وصولاً إلى البغية، أي من اتبع القرآن وعمل به وصل إلى ما يرجوه من الثواب. وقيل: بلاغاً أي كفاية. يقال في هذا الشيء بلاغ وبلغة أي كفاية، والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر، { لِقَوْمٍ عَابِدِينَ } أي المؤمنين الذين يعبدون الله، وقال ابن عباس: عالمين. وقال كعب الأحبار: هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان. { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } قال ابن زيد: يعني رحمة للمؤمنين خاصة فهو رحمة لهم. [وقال ابن عباس: هو عام في حق من آمن ومن لم يؤمن فمن آمن فهو رحمة له] في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير العذاب عنهم ورفع المسخ والخسف والاستئصال عنهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا رحمة مهداة" (1). { قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } أي أسلموا. { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ أَدْنَيْكُمْ } أي أعلمتكم بالحرب وأن لا صلح بيننا، { عَلَىٰ سَوَاءٍ } أي إنذار بين يستوي في علمه لا استيذاناً به دونكم لتتأهبوا لما يراد بكم، أي أذنتكم على وجه نستوي نحن وأنتم في العلم به، وقيل: لتستووا في الإيمان، { وَإِنْ أَدْرِي } أي وما أعلم. { أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ } يعني القيامة.

(1) أخرجه الدارمي عن أبي صالح مرسلًا، في المقدمة، باب كيف كان أول شأن النبي صلى الله عليه وسلم 1 / 9 ووصله الحاكم 1 / 35 وصححه على شرط الشيخين، وقال: "فقد احتجا جميعاً بمالك بن سعير، والتفرد من الثقات مقبول" ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في شعب الإيمان: 3 / 577 مرسلًا من طريق الأعمش عن أبي صالح مرفوعاً. ثم قال: رواه زياد بن يحيى الحساني عن مالك بن سعير عن الأعمش موصولاً بذكر أبي هريرة فيه، ثم ساقه بإسناده، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: 11 / 504، وابن سعد في الطبقات: 1 / 192 - 193 من طريق وكيع مرسلًا، وقال الهيثمي في المجمع: 8 / 257 رواه البزار والطبراني في الصغير ورجال البزار رجال الصحيح، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة 1 / 803 - 805.

(5/359)

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (111) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (112)

{ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (111) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112) }

{ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ } . { وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ } أي لعل تأخير العذاب عنكم كناية عن غير مذكور، { فِتْنَةٌ } اختبار، { لَكُمْ } ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم، { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } أي تتمتعون إلى انقضاء أجالكم. { قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ } قرأ حفص عن عاصم: { قَالَ رَبِّ احْكُم } والآخرين: " قل رب احكم " افصل بيني وبين من كذبتني بالحق، فإن قيل كيف قال احكم بالحق والله لا يحكم إلا بالحق؟ قيل: الحق هاهنا بمعنى العذاب كأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر، نظيره قوله تعالى: { ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق } (الأعراف: 89) ، وقال أهل المعاني: معناه رب احكم بحكمك الحق فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه، والله تعالى يحكم بالحق طلب أو لم يطلب، ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب في حكمه الحق، { وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } من الكذب والباطل.

(5/360)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

سورة الحج مكية غير آيات من قوله عز وجل { هَذَانِ حَصَمَانِ } إلى قوله { وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ } بسم الله الرحمن الرحيم { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2) } { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ } أي: احذروا عقابه بطاعته، { إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } والزلزلة والزلال شدة الحركة على الحالة الهائلة، واختلفوا في هذه الزلزلة:

فقال علقمة والشعبي: هي من أشراط الساعة. [وقيل: قيام الساعة] (1) . وقال الحسن والسدي: هذه الزلزلة تكون يوم القيامة. وقال ابن عباس: زلزلة الساعة قيامها فتكون معها. { يَوْمَ تَرَوُنَّهَا } يعني الساعة، وقيل: الزلزلة، { تُدْهَلُ } قال ابن عباس: تشغل، وقيل: تنسى، يقال: ذهلت عن كذا أي تركته واشتغلت بغيره. { كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ } أي: كل امرأة معها ولد ترضعه، يقال: امرأة مرضع، بلاهء، إذا أريد به الصفة، مثل حائض وحامل، فإذا أرادوا الفعل أدخلوا الهاء. { وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا } أي: تسقط ولدها من هول ذلك اليوم.

(1) ما بين القوسين زيادة من "ب".

(5/361)

قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحمل ما في بطنها بغير تمام (1) وهذا يدل على أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حمل.

ومن قال: تكون في القيامة، قال هذا على وجه تعظيم الأمر لا على حقيقته، كقولهم: أصابنا أمر يشيب فيه الوليد، يريد شدته. { وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ } قرأ حمزة والكسائي: "سكرى وما هم بسكرى" بلا ألف وهما لغتان في جمع السكران، مثل كسلى وكسالى. قال الحسن: معناه: وترى الناس سكارى من الخوف، وما هم بسكارى من الشراب.

وقيل: معناه: وترى الناس كأنهم سكارى، { وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن حمش الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر بن بكر الكوفي العبسي، أخبرنا وكيع عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم قم فابعث بعث النار، قال فيقول: لبيك وسعديك والخير كله في يدك، يا رب وما بعث النار؟ قال فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فحينئذ يشيب المولود، وتضع كل ذات حمل حملها وترى [الناس] (2) سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، قال: فيقولون: وأينا ذاك الواحد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تسعمائة وتسعة وتسعون من يأجوج ومأجوج ومنكم واحد"، فقال الناس: الله أكبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، قال فكبر الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو الشعرة السوداء في الثور الأبيض" (3). وروي عن عمران بن حصين، وأبي سعيد الخدري، وغيرهما: أن هاتين الآيتين نزلتا في

(1) أخرجه الطبري: 17 / 114.

(2) ساقط من "أ".

(3) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب: قول الله تعالى (يسألونك عن ذي القرنين) 6 / 382، ومسلم في الإيمان، باب: قوله (يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين برقم (222) 1 / 201 - 202 والمصنف في شرح السنة: 15 / 139 - 140.

(5/364)

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (4) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُّخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ وَنُقِرَّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَسَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتَّقَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدِّ إِلَىٰ أَرْدَلِ

الْعُمْرُ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيحٍ (5)

غزوة 23/ب بني المصطلق ليلا فنأدى [منأدى] (1) رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطي حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأها عليهم فلم ير أكثر بأكيا من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا قدرا، والناس ما بين باك أو جالس حزين متفكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتدرون أي يوم ذلك؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول الله عز وجل لأدم قم فابعث بعث النار من ولدك، فيقول آدم: من كل كم؟ فيقول الله عز وجل: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد في الجنة، قال: فكبر ذلك على المسلمين وبكوا وقالوا: فمن ينجو إذا يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبشروا وسددوا وقاربوا فإن معكم خليقتين ما كانتا في قوم إلا كثرتا: يأجوج ومأجوج، ثم قال: إني لأرجو [أن تكونوا] (2) ثلث أهل الجنة، فكبروا وحمدوا الله، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبروا وحمدوا الله، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة، وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفا، ثمانون منها أمتي، وما المسلمون في الكفار إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة، بل كالشعرة السوداء في الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود. ثم قال: ويدخل من أمتي سبعون ألفا الجنة بغير حساب، فقال عمر: سبعون ألفا؟ قال: نعم ومع كل واحد سبعون ألفا، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت منهم، فقام رجل من الأنصار فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبقك بها عكاشة" (3).

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْقَةٍ ثُمَّ مِّن عَظْمَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لِّكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا تَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يَتَّقَىٰ وَمِنكُم مَّن يُفْرِدْ إِلَىٰ أُرْدِيٍّ الْعُمْرُ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيحٍ (5) }

قوله عز وجل: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } نزلت في النضر بن الحارث (4) كان كثير الجدل، وكان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وكان ينكر البعث وإحياء من صار ترابا. قوله تعالى: { وَيَتَّبِعُ } أي: يتبع في جداله في الله بغير علم، { كُلِّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ } والمريد: المتمرد المستمر في الشر. { كُتِبَ عَلَيْهِ } قضي على الشيطان، { أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ } اتبعه { فَإِنَّهُ } يعني الشيطان،

(1) ساقط من "أ".

(2) ساقط من "أ".

(3) أخرجه الترمذي: 9 / 12 - 13 حتى قوله: في ذراع الدابة، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والإمام أحمد 4 / 435 حتى قوله: أو الرقمة في ذراع الدابة، والحاكم: 2 / 385، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وعزاه ابن حجر في الكافي الشاف ص 112 للثعلبي والبعوي، ثم قال: وأما آخره فلم

أره.
(4) عزاه السيوطي في الدر المنثور: 6 / 8 لابن أبي حاتم.

(5/365)

{ يُضِلُّهُ } أي: يضل من تولاه، { وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ } ثم ألزم الحجة على منكري البعث فقال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ } في شك { مِنْ } الْبَعْثِ قَائِلًا خَلَقْنَاكُمْ { يعني: أباكم آدم الذي هو أصل النسل، { مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } يعني: ذريته، والنطفة هي المنى، وأصلها الماء القليل وجمعها نطاف، { ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ } وهي الدم الغليظ المتجمد، وجمعها علق، وذلك أن النطفة تصير دما غليظا ثم تصير لحما، { ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ } وهي لحمه قليلة قدر ما يمضغ، { مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ } قال ابن عباس وقتادة: "مخلقة" أي تامة الخلق، "وغير مخلقة" غير تامة أي ناقصة الخلق.

وقال مجاهد: مصورة وغير مصورة، يعني السقط.
وقيل: "المخلقة" الولد الذي تأتي به المرأة لوقته، "وغير المخلقة" السقط.
روي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه وقال: أي رب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلقة، قذفها الرحم دما ولم تكن نسمة، وإن قال: مخلقة، قال الملك: أي رب أذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ ما الأجل ما العمل ما الرزق وبأي أرض يموت؟ فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك، فيذهب فيجدها في أم الكتاب فينسخها، فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته (1).
{ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ } كمال قدرتنا وحكمتنا في تصريف أطوار خلقكم ولتستدلوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة.
وقيل: لنبين لكم ما تأتون وما تذكرون وما تحتاجون إليه في العبادة.
{ وَتُقَرَّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا تَشَاءُ } فلا تمجه ولا تسقطه، { إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى } وقت خروجها من الرحم تامة الخلق والمدة. { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ } من بطون أمهاتكم { طِفْلًا } أي: صغارا، ولم يقل:

(1) أخرجه الترمذي في "نوادير الأصول" وابن أبي حاتم.

(5/366)

أطفالا لأن العرب تذكر الجمع باسم الواحد. وقيل: تشبيها بالمصدر مثل عدل وزور. { ثُمَّ لِنَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ } يعني: الكمال والقوة.
{ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى } من قبل بلوغ الكبر، { وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ } أي: الهرم والخرف، { لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا } أي: يبلغ من السن ما يتغير عقله فلا يعقل شيئا.

ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال: { وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً } أي: يابسة لا نبات فيها، { فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ } المطر، { اهْتَزَّتْ } تحركت بالنبات وذلك أن الأرض ترتفع بالنبات فذلك تحركها، { وَرَبَّتْ } أي: ارتفعت وزادت، وقيل: فيه

تقديم وتأخير معناه: ربت واهتزت وربما نباتها، فحذف المضاف، والاهتزاز في النبات أظهر، يقال: اهتز النبات أي: طال وإنما أتت لذكر الأرض. وقرأ أبو جعفر: " وربات " بالهمزة، وكذلك في حم السجدة، أي: ارتفعت وعلت. { وَأُتْبِتُ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيحٍ } أي: صنف حسن يبهج به من رآه، أي: يسر، فهذا دليل آخر على البعث.

(5/367)

ذَلِكَ يَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8)

{ ذَلِكَ يَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) }
 { ذَلِكَ يَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ } أي: لتعلموا أن الله هو الحق، { وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى فِي الْقُبُورِ } . { وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ } . { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } يعني النصر بن الحارث، { وَلَا هُدًى } بيان { وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ }

(5/367)

ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (10) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11)

{ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (10) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) }
 { ثَانِي عِطْفِهِ } أي: متبخترا لتكبره. وقال مجاهد، وقتادة: لاوي عنقه. قال عطية، وابن زيد: معرضا عما يدعى إليه تكبرا. وقال ابن جريج: يعرض عن الحق تكبرا. والعطف: الجانب، وعطفا الرجل: جانبه عن يمين وشمال وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان أي يلويه ويميله عند الإعراض عن الشيء، نظيره قوله تعالى: { وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا } (لقمان: 7) ، وقال تعالى: { وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوووا رءوسهم } (المنافقون: 5) . { لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } 24/أ عن دين الله، { لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ } عذاب وهوان، وهو القتل ببدن، فقتل النصر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط يوم بدر صبرا. { وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } ويقال له: { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ } فيعذبهم بغير ذنب وهو جل ذكره على أي وجه

شَاءَ تَصْرَفَ فِي عِبْدِهِ، فَحَكَمَهُ عَدْلٌ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ. قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } الآية نزلت في قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله، قال: هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيرا واطمان إليه، وإن أصابه مرض وولدت امرأته جارية وأجهضت رماكه (1) وقل ماله، قال: ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلا شرا فينقلب عن دينه، وذلك الفتنة (2) فأنزل الله عز وجل: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } أكثر المفسرين قالوا: على شك وأصله من حرف الشيء وهو طرفه، نحو حرف الجبل والحائط الذي كالقائم عليه غير مستقر، فقليل للشاك في الدين إنه يعبد الله على حرف لأنه على طرف وجانب من الدين لم يدخل فيه على الثبات والتمكن وأصله كالقائم على حرف الجبل مضطرب غير مستقر، يعرض أن يقع في أحد جانبي الطرف لضعف قيامه، ولو عبدوا الله في الشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف، قال الحسن: هو المنافق

(1) الأثنى من البراذين.

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 355 عن المفسرين، وأخرجه الطبري: 17 / 122 - 123، وأخرج البخاري نحوه في التفسير: 8 / 442 عن ابن عباس.

(5/368)

يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاةُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ (13)

يعبده بلسانه دون قلبه { فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ } صحة في جسمه، وسعة في معيشته، { اطمأن به } أي: رضي به وسكن إليه، { وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ } بلاء في جسده، وضيق في معيشته، { انقلب على وجهه } ارتد ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر، { حَسِيرَ الدُّنْيَا } يعني هذا الشاك خسر الدنيا بفوات ما كان يؤمل، { وَالْآخِرَةَ } بذهاب الدين والخلود في النار. قرأ يعقوب " خاسر " بالألف { وَالْآخِرَةَ } جر. { ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } الظاهر.

{ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاةُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ (13) }
 { يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ } إن عصاه ولم يعبده، { وَمَا لَا يَنْفَعُهُ } إن أطاعه وعبده، { ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاةُ الْبَعِيدُ } عن الحق والرشد. { يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ } هذه الآية من مشكلات القرآن وفيها أسئلة:
 أولها قالوا: قد قال الله في الآية الأولى "يدعو من دون الله ما لا يضره"، وقال هاهنا: "لمن ضره أقرب"، فكيف التوفيق بينهما؟
 قيل قوله في الآية الأولى "يدعو من دون الله ما لا يضره" أي: لا يضره ترك عبادته، وقوله: "لمن ضره أقرب" أي: ضر عبادته.
 فإن قيل: قد قال: "لمن ضره أقرب من نفعه" ولا نفع في عبادة الصنم أصلا؟.

قيل: هذا على عادة العرب، فإنهم يقولون لما لا يكون أصلا بعيدا، كقوله تعالى: { ذلك رجع بعيد { (ق:3) أي: لا رجع أصلا فلما كان نفع الصنم بعيدا، على معنى: أنه لا نفع فيه أصلا قيل: ضره أقرب، لأنه كائن. السؤال الثالث: قوله { لَمَنْ صَرَّهُ أَقْرَبُ } ما وجه هذه اللام؟ اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هي صلة، مجازها: يدعو من ضره أقرب (1) وكذلك قرأها ابن مسعود. وقيل: "لمن ضره" أي إلى الذي ضره أقرب من نفعه. وقيل: "يدعو" بمعنى يقول: والخبر محذوف، أي يقول: لمن ضره أقرب من نفعه هو إله.

(1) انظر مسائل الرازي وأجوبتها ص 272.

(5/369)

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15)

وقيل: معناه يدعو لمن ضره أقرب من نفعه يدعو، فحذف يدعو الأخيرة اجتزاء بالأولى، ولو قلت: يضرب لمن خيره أكثر من شره يضرب، ثم يحذف الأخير جاز.

وقيل: على التوكيد، معناه: يدعو والله لمن ضره أقرب من نفعه. وقيل: "يدعو من" صلة قوله: "ذلك هو الضلال البعيد" يقول: ذلك هو الضلال البعيد يدعو، ثم استأنف فقال: "لمن ضره أقرب من نفعه" فيكون "من" في محل رفع بالابتداء وخبره: { لَيْسَ الْمَوْلَى } أي الناصر. وقيل: المعبود. { وَلَيْسَ الْعَشِيرُ } أي: الصاحب والمخالط، يعني: الوثن، والعرب تسمي الزوج عشييرا لأجل المخالطة.

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15) } قوله عز وجل: { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } . { مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ } يعني نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم { فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ } بحبل { إِلَى السَّمَاءِ } أراد بالسماة سقف البيت على قول الأكثرين، أي: ليشدد حبالا في سقف بيته فليختنق به حتى يموت، { ثُمَّ لِيَقْطَعْ } الحبل بعد الاختناق. وقيل: "ثم ليقطع" أي ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقا، { فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ } صنيعه وحيلته، { مَا يَغِيظُ } "ما" بمعنى المصدر، أي: هل يذهبن كيده وحيلته غيظه، معناه: فليختنق غيظا حتى يموت. وليس هذا على سبيل الحتم أي: أن يفعله لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق والموت، ولكنه كما يقال للحاسد: إن لم ترض هذا فاختنق وممت غيظا.

وقال ابن زيد: المراد من السماء السماء المعروفة. ومعنى الآية: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكيد في أمره ليقطعه عنه فليقطعه من أصله، فإن أصله من السماء، فليمدد بسبب إلى السماء ثم

ليقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم الوحي الذي يأتيه فلينظر هل يقدر على إذهاب غيظه بهذا الفعل.

(5/370)

وروي أن هذه الآية نزلت في قوم من أسد وغطفان، دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام وكان بينهم وبين اليهود حلف، وقالوا: لا يمكننا أن نسلم لأننا نخاف أن لا ينصر محمد ولا يظهر أمره فينقطع الحلف بيننا وبين اليهود، فلا يمروننا ولا يتوننا فنزلت هذه الآية (1). وقال مجاهد: "النصر" بمعنى الرزق (2) والهاء راجعة إلى { مَنْ } ومعناه: من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة. نزلت فيمن أساء الظن بالله عز وجل وخاف ألا يرزقه الله، "فليمدد بسبب إلى السماء"، أي: إلى سماء البيت، فلينظر هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ، وهو خيفة أن لا يرزق. وقد يأتي النصر بمعنى الرزق، تقول العرب: من ينصرني نصره الله. أي: من يعطني أعطاه الله، قال أبو عبيدة: تقول العرب: أرض منصور، أي: ممطورة.

قرأ أبو عمرو، ونافع، وابن عامر، ويعقوب: "ثم ليقطع" "ثم ليقضوا" بكسر اللام، والباقون بجزمها لأن الكل لام الأمر، زاد ابن عامر { وليوفوا نذورهم وليطوفوا } (الحج: 29) بكسر اللام فيهما، ومن كسر في: "ثم ليقطع" وفي "ثم ليقضوا" فرق بأن ثم مفصول من الكلام، والواو كأنها من نفس الكلمة كالفاء في قوله: "فلينظر".

(1) ذكره الطبري: 17 / 128 بدون سند.

(2) 24 / ب.

(5/371)

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (18)

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (18) }

{ وَكَذَلِكَ } أي: مثل ذلك، يعني: ما تقدم من آيات القرآن، { أَنْزَلْنَا } يعني:

القرآن { آيَاتِ بَيِّنَاتٍ وَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ } { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالضَّالِّينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا } يعني: عبدة الأوثان، { إِنَّ
اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ } يحكم بينهم، { يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }
{ أَلَمْ تَرَ } ألم تعلم، وقيل: { أَلَمْ تَرَ } [تقرأ] (1) بقلبك { أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ
مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ
وَالدَّوَابُّ }

(1) زيادة من "ب".

(5/371)

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ
مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19)

قال مجاهد: سجودها تحول ظلالها. وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا
شمس ولا قمر إلا يقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ
ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعها. وقيل: سجودها بمعنى الطاعة فإنه ما من
جماد إلا وهو مطيع لله خاشع له مسبح له كما أخبر الله تعالى عن السموات
والأرض { قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (فصلت: 11) ، وقال في وصف الحجارة { وَإِنْ
مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } (البقرة: 74) ، وقال تعالى: { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } (الإسراء: 44) ، وهذا مذهب
حسن موافق لقول أهل السنة.

قوله: { وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ } أي: من هذه الأشياء كلها تسبح الله عز وجل
"وكثير من الناس"، يعني المسلمين. { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } وهم الكفار
لكفرهم وتركهم السجود وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله عز وجل. والواو
في قوله: { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } واو الاستئناف.
{ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ } أي: يهينه الله { فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ } أي: من يذله الله فلا
يكرمه أحد، { إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } أي: يكرم ويهين فالسعادة والشقاوة
بإرادته ومشئته.

{ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ
يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) }

قوله عز وجل: { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } أي: جادلوا في دينه
وأمره، والخصم اسم شبيه بالمصدر، فلذلك قال: { اخْتَصَمُوا } بلفظ الجمع
كقوله: { وهل أتاك نبا الخصم إذ تسوروا المحراب } (ص" 21) ، واختلفوا
في هذين الخصمين:

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن
يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا يعقوب بن إبراهيم، أخبرنا هشيم،
أخبرنا أبو هاشم، عن أبي مجلز، عن قيس بن عباد قال: سمعت أبا ذر يقسم
قسما أن هذه الآية: { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } نزلت في الذين
برزوا يوم بدر: حمزة وعلي، وعبيدة بن الحارث، وعتبة، وشيبة ابني أبي ربيعة،
والوليد بن عتبة (1) .

(1) أخرجه البخاري في المغازي ، باب قتل أبي جهل: 297 / 7 ، ومسلم في التفسير، باب: في قوله تعالى (هذان خصمان اختصموا في ربهم) برقم: (3033 / 4 .2323

(5/372)

وأخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا حجاج بن منهال، حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت أبي قال أخبرنا أبو مجلز، عن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت: { هَذَانِ حَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة، وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة (1) .

قال محمد بن إسحاق خرج -يعني يوم بدر -عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة: عوذ ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، وعبد الله بن رواحة فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، فقالوا حين انتسبوا: أكفاء كرام، ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبد المطلب ويا علي بن أبي طالب، فلما دنوا قالوا من أنتم؟ فذكروا وقالوا: نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة، وعلي الوليد، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما [أثبت] (2) صاحبه، فكر حمزة وعلي بأسيا فهما على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة إلى أصحابه، وقد قطعت رجله ومخها يسيل، فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألسنت شهيدا يا رسول الله؟ قال: "بلى"، فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حيا لعلم أنا أحق بما قال منه (3) حيث يقول:

ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وقال ابن عباس وقتادة: نزلت الآية في المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نحن أولى بالله وأقدم منكم كتابا، ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله أمنا بنينا محمد صلى الله عليه وسلم ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتكم به حسدا، فهذه خصومتهم في ربهم (4) .

وقال مجاهد وعطاء بن أبي رباح والكلبي: هم المؤمنون والكافرون كلهم من أي ملة كانوا (5) .

وقال بعضهم: جعل الأديان ستة في قوله تعالى: { إن الذين آمنوا والذين هادوا } (المائدة: 69) الآية، فجعل خمسة للنار وواحدًا للجنة، فقوله تعالى: { هَذَانِ حَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } ينصرف

(1) أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل: 296 / 7 .

(2) في "ب" أثخن.

(3) انظر: السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف: 67 / 2 - 68 .

(4) أخرجه الطبري: 132 / 17 عن ابن عباس.
(5) انظر الطبري: 132 / 17.

(5/373)

يُضْهِرُّ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20)

إليهم فالمؤمنون 25/أ خصم وسائر الخمسة خصم.
وقال عكرمة: هما الجنة والنار اختصمتا كما أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي
أخبرنا أبو طاهر الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد حسين القطان، أخبرنا أحمد بن
يوسف السلمي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، قال:
حدثنا أبو هريرة: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تحتاج الجنة
والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فما لي لا
يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم؟ قال الله عز وجل للجنة: إنما أنت
رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك
من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع
الله فيها رجله فتقول قط قط، فهالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض، ولا
يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقا" (1).

ثم بين الله عز وجل ما للخصمين فقال:

{ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ } قال سعيد بن جبيرة: ثياب من
نحاس مذاب، وليس من الأنية شيء إذا حمي أشد حرا منه وسمي باسم
الثياب لأنها تحيط بهم كإحاطة الثياب.

وقال بعضهم: يلبس أهل النار مقطعات من النار، { يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ
الْحَمِيمُ } الحميم: هو الماء الحار الذي انتهت حرارته.

{ يُضْهِرُّ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) }

{ يُضْهِرُّ بِهِ } أي: يذاب بالحميم، { مَا فِي بُطُونِهِمْ } يقال: صهرت الإلية
والشحم بالنار إذا أذبتهما أصهرها صهرا، معناه يذاب بالحميم الذي يصب من
فوق رؤوسهم حتى يسقط ما في بطونهم من الشحوم والأحشاء، { وَالْجُلُودُ }
أي: يشوي حرها جلودهم فتتساقط.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد
بن الحارث، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن
محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن
سعيد بن زيد، عن أبي السمح، عن أبي جحيرة واسمه عبد الرحمن، عن أبي
هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الحميم ليصب على رؤوسهم
فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلب ما في جوفه حتى يمرق من
قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان" (2).

(1) أخرجه البخاري في التفسير، باب (وتقول هل من مزيد) 8 / 595،
ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها
الضعفاء برقم (2846) 4 / 2186، والمصنف في شرح السنة: 15 / 256 -
257.

(2) أخرجه الترمذي في صفة أهل جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل

النار 7 / 302 - 303 وقال: هذا حديث غريب صحيح، والإمام أحمد: 2 / 374،
والحاكم في المستدرک: 2 / 387، والطبري: 17 / 133 - 134، والمصنف
في شرح السنة: 15 / 244، وقد ضعف الألباني إسناده في تعليقه على
المشكاة: 3 / 1581.

(5/374)

وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا
وَدُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا
خَرِيرٌ (23)

{ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا
وَدُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا
خَرِيرٌ (23) }

قوله تعالى: { وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ } سباط من حديد واحدها: مقمعة، قال
الليث: المقمعة شبه الجزر من الحديد، من قولهم: قمعت رأسه، إذا ضربته
ضربا عنيفا، وفي الخبر: "لو وضع مقمعة من حديد في الأرض ثم اجتمع عليه
الثقلان ما أقلوه من الأرض" (1). { كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ } أي:
كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفاسهم
{ أُعِيدُوا فِيهَا } أي: ردوا إليها بالمقامع. وفي التفسير: إن جهنم لتجيش بهم
فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بمقامع من الحديد
فيهون فيها سبعين خريفا. { وَدُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } أي: تقول لهم الملائكة:
ذوقوا عذاب الحريق، أي: المحرق، مثل الأليم والوجيع.

قال الزجاج: هؤلاء أحد الخصمين. وقال في الآخر، وهم المؤمنون: { إِنَّ اللَّهَ
يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ } { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ } جمع سوار، { وَلَوْلُؤًا }
{ قرأ أهل المدينة وعاصم "ولؤلؤا" هاهنا وفي سورة الملائكة بالنصب وافق
يعقوب هاهنا على معنى ويحلون لؤلؤا، ولأنها مكتوبة في المصاحف بالألف،
وقرأ الآخرون بالخفض عطفًا على قوله: "من ذهب"، ويترك الهمزة الأولى في
كل القرآن أبو جعفر وأبو بكر، واختلفوا في وجه إثبات الألف، فيه، فقال أبو
عمرو: أثبتوها كما أثبتوا في: قالوا وكانوا، وقال الكسائي: أثبتوها للهمزة، لأن
الهمزة حرف من الحروف { وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا خَرِيرٌ } أي: يلبسون في الجنة
ثياب الإبريسم وهو الذي حرم لبسه في الدنيا على الرجال.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو
القاسم البغوي، أخبرنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، عن قتادة، عن داود
السراج، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم

(1) أخرجه الحاكم: 4 / 600 من رواية دراج، عن أبي الهيثم، والإمام أحمد: 3

29 / قال الهيثمي في المجمع 10 / 388 رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه ضعفاء وثقوا، وانظر الكافي الشاف ص (112)، الترغيب والترهيب: 4 / 474.

(5/375)

قال: "من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه الله إياه في الآخرة، فإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو" (1) .

(1) أخرجه الحاكم: 4 / 191 وصححه ووافقه الذهبي، وأبو داود الطيالسي ص (294) وأخرجه أيضا عن عمر رضي الله عنه ص (10)، وأخرجه الشيخان عن أنس بن مالك بلفظ: (من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة): البخاري في اللباس، باب: لبس الحرير للرجال: 10 / 284، ومسلم في اللباس، باب تحريم الذهب والحرير على الرجال وإباحته للنساء، برقم (2073) 3 / 1645، والمصنف في شرح السنة: 12 / 30 - 31.

(5/376)

وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمِ نُذُفَةً مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25)

{ وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمِ نُذُفَةً مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) }

قوله عز وجل: { وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ } قال ابن عباس: هو شهادة أن لا إله إلا الله. وقال ابن زيد: لا إله إلا الله وألله أكبر والحمد لله [وسبحان الله] (1) . وقال السدي: أي القرآن. وقيل: هو قول أهل الجنة: "الحمد لله الذي صدقنا وعده". (الزمر: 74) { وَهُدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ } إلى دين الله وهو الإسلام، "والحميد" هو الله المحمود في أفعاله. قوله عز وجل: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } عطف المستقبل على الماضي، لأن المراد من لفظ المستقبل الماضي، كما قال تعالى في موضع آخر: { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } (النساء: 167) ، معناه: إن الذين كفروا فيما تقدم، ويصدون عن سبيل الله في الحال، أي: وهم يصدون. { وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } أي: ويصدون عن المسجد الحرام. { الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ } قبلة لصلاتهم ومنسكا ومتعبدا كما قال: { وَضَعْنَا لِلنَّاسِ } (آل عمران: 96) . { سَوَاءً } قرأ حفص عن عاصم ويعقوب: "سواء" نصبا بإيقاع الجعل عليه لأن الجعل يتعدى إلى مفعولين. وقيل: معناه مستويا فيه، { الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي } وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وما بعده خبر، وتمام الكلام عند قوله " للناس " وأراد بالعاكف: المقيم فيه، وبالبادي: الطارئ المنتاب إليه من غيره. واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: "سواء العاكف فيه والبادي" أي: في تعظيم حرمة وقضاء النسك فيه. وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة، وقالوا: المراد

منه نفس المسجد الحرام. ومعنى التسوية: هو التسوية في تعظيم الكعبة في فضل الصلاة في المسجد الحرام والطواف بالبيت.

(1) زيادة من "ب".

(5/376)

وقال آخرون: المراد منه جميع الحرم، ومعنى التسوية: أن المقيم والبادي سواء في النزول به، ليس أحدهما أحق بالمنزل يكون فيه من الآخر، غير أنه لا يزعج فيه أحد إذا كان قد سبق إلى منزل، وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد، قالوا: هما سواء في [البيوت] (1) والمنازل. وقال عبد الرحمن بن سابط: كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنزله منهم. وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم في الموسم، وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها، وعلى القول الأول - وهو الأقرب إلى الصواب - يجوز، لأن الله تعالى قال: {الذين أخرجوا من ديارهم} (الحج: 40)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" (2) فنسب الدار إليه نسب ملك، واشترى عمر دارا للسجن بمكة بأربعة آلاف درهم، فدل على جواز بيعها. وهذا قول طاوس وعمرو بن دينار، وبه قال الشافعي.

قوله عز وجل: { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمُ } أي: في المسجد الحرام بالحاد بظلم وهو الميل إلى الظلم، الباء في قوله "بالحاد" زائدة كقوله: { تنبت بالدهن } (المؤمنون: 20)، ومعناه من يرد فيه إلحادا بظلم، قال الأعشى: "ضمنت برزق عيالنا أرماحنا"، أي: رزق عيالنا. وأنكر المبرد أن تكون الباء زائدة وقال: معنى الآية من تكن إرادته فيه بأن يلحد بظلم. واختلفوا في هذا الإلحاد، فقال مجاهد وقتادة: هو الشرك وعبادة غير الله. وقال قوم: هو كل شيء كان منهيًا عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم. وقال عطاء: هو دخول الحرم غير محرم، أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم، من قتل صيد، أو قطع شجر. وقال ابن عباس: هو أن تقتل فيه من لا يقتلك، أو تظلم فيه من لا يظلمك، وهذا معنى قول الضحاك.

وعن مجاهد أنه قال: تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات.

وقال حبيب بن أبي ثابت: وهو احتكار الطعام بمكة.

وقال عيد الله بن مسعود في قوله: { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمُ نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ } قال: لو أن رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه، ما لم يعملها، ولو أن رجلا هم بقتل رجل بمكة وهو بعدن

(1) في "ب" السوق.

(2) قطعة من حديث أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: فتح مكة برقم (1780) 3 / 1405 - 1407.

(5/377)

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ
ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27)

أبين، أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم. وقال السدي: إلا أن يتوب. وروي عن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الآخر، فسئل عن ذلك فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل كلا والله، وبلى والله (1).
{ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) }
قوله عز وجل: { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ } أي: وطأنا قال ابن عباس: جعلنا. وقيل: بينا قال الزجاج: جعلنا مكان البيت [مبوءاً لإبراهيم]. وقال مقاتل بن حيان: هيأنا. وإنما ذكرنا مكان البيت [2] لأن الكعبة رفعت إلى السماء زمان الطوفان، ثم لما أمر الله تعالى إبراهيم ببناء البيت لم يدر أين يبني فبعث الله ريحا خجوجا فكنست له ما حول البيت على الأساس (3). وقال الكلبي: بعث الله سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا إبراهيم ابن علي قدري فبني عليه (4). قوله تعالى: { أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا } أي: عهدنا إلى إبراهيم وقلنا له لا تشرك بي شيئا، { وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ } يعني: الذين يطوفون بالبيت، { وَالْقَائِمِينَ } أي: المقيمين، { وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } أي: المصلين. { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ } أي: أعلم وناد في الناس، { بِالْحَجِّ } فقال إبراهيم وما يبلغ صوتي؟ فقال: عليك الأذان وعلي البلاغ، فقام إبراهيم على المقام فارتفع المقام حتى صار كأطول الجبال فأدخل أصبعيه في أذنيه، وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وقال: يا أيها الناس ألا إن ربكم قد بنى بيتا وكتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم، فأجابه كل من كان يحج من أصلاب الآباء وأرحام

- (1) ذكر هذه الأقوال الطبري: 17 / 138 - 142، ثم قال: وأولى الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك بالصواب: القول الذي ذكرناه عن ابن مسعود وابن عباس من أنه معنى بالظلم في هذا الموضع، كل معصية لله، وذلك أن الله عم بقوله: (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم)، ولم يخص به ظلم دون ظلم في خير ولا عقل، فهو على عمومته.
(2) ما بين القوسين ساقط من "أ".
(3) انظر الطبري: 17 / 143.
(4) انظر الدر المنثور: 6 / 30.

(5/378)

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ
بِهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا النَّبَأِينَ الْفُقَيْرَ (28)

الأمهات: لبيك اللهم لبيك (1) قال ابن عباس: فأول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجا.
 وروي أن إبراهيم صعد أبا قبيس ونادى (2) . وقال ابن عباس عني بالناس في هذه الآية أهل القبلة، وزعم الحسن أن قوله: "وأذن في الناس بالحج" كلام مستأنف وأن المأمور بهذا التأذين محمد صلى الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع.
 وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا" (3) .
 قوله تعالى: { يَا تُوكُ رَجَالًا } مشاة على أرجلهم جمع راجل، مثل قائم وقيام وصائم وصيام، { وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ } أي: ركبانا على كل ضامر، والضامر: البعير المهزول. { يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } أي: من كل طريق بعيد، وإنما جمع "يأتين" لمكان كل وإرادة النوق
 { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) }
 { لِيَشْهَدُوا } ليحضروا، { مَنَافِعَ لَهُمْ } قال سعيد بن المسيب، ومحمد بن علي الباقر: العفو والمغفرة. وقال سعيد بن جبير: التجارة، وهي رواية ابن زيد عن ابن عباس، قال: الأسواق. وقال مجاهد: التجارة وما يرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة (4) . { وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ } يعني عشر ذي الحجة في قول أكثر المفسرين. قيل لها "معلومات" للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها. وروى عن علي 26/أرضي الله عنه: أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وفي رواية عطاء عن ابن عباس أنها يوم عرفة والنحر وأيام التشريق. وقال مقاتل: المعلومات أيام التشريق (5) . { عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } يعني: الهدايا، والضحايا، تكون من النعم،

(1) انظر الطبري: 144 / 17.

(2) عزاه السيوطي: 6 / 35 لابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(3) أخرجه مسلم في الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر برقم: (1337) 2 / 975 والمصنف في شرح السنة: 3 / 7.

(4) ذكر هذه الأقوال الطبري: 146 / 17 - 147 ثم قال مرجحا: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: عني بذلك: ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضى الله والتجارة، وذلك أن الله عم لهم منافع جميع ما يشهد له الموسم، ويأتي له مكة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخص من ذلك شيء من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في المنافع التي وصفت.

(5) سبق تخريج هذه الأقوال في المجلد الأول صفحة (234) هامش (1).

(5/379)

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَتَّهِمَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

وهي الإبل والبقر والغنم.

واختار الزجاج أن الأيام المعلومات: يوم النحر وأيام التشريق، لأن الذكر على

بهيمة الأنعام يدل على التسمية على نحرها، ونحر الهدايا يكون في هذه الأيام. { فَكُلُوا مِنْهَا } أمر إباحة وليس بواجب، وإنما قال ذلك لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئاً، واتفق العلماء على أن الهدى إذا كان تطوعاً يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما:

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى، أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال في قصة حجة الوداع: وقدم علي بدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين بدنة بيده ونحر علي ما بقي، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تؤخذ بضعة من كل بدنة فتجعل في قدر، فأكلا من لحمها وحسبها من مرقها (1).

واختلفوا في الهدى الواجب بالشرع هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئاً؟ مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بإفساد الحج وفواته وجزاء الصيد؟ فذهب قوم إلى أنه لا يجوز أن يأكل منه شيئاً، وبه قال الشافعي، وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر، وقال ابن عمر: لا يأكل من جزاء الصيد والنذر، وبأكل مما سوى ذلك، وبه قال أحمد وإسحاق، وقال مالك: يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور، وعند أصحاب الرأي يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما.

قوله عز وجل: { وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَالرَّسُولَ الْقَوِيمَ } يعني: الزمن الفقير الذي لا شيء له و "البائس" الذي يشتد بؤسه، والبؤس شدة الفقر. { ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29) } { ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ } التفت: الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظافر والشعث، تقول العرب لمن تستقذره: ما أتفتك: أي: ما أوسخك. والحاج أشعث أغبر، لم يخلق شعره ولم يقلم ظفره، فقضاء التفت: إزالة هذه الأشياء ليقضوا تفتهم، أي: ليزيلوا أدرانهم، والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق، وقص الشارب، وتنف الإبط، والاستحداد، وقلم الأظفار، ولبس الثياب. قال ابن عمر

(1) قطعة من حديث جابر، أخرجه مسلم برقم (1218): 2 / 893، والمصنف في شرح السنة: 7 / 150.

(5/380)

وابن عباس: "قضاء التفت": مناسك الحج كلها. وقال مجاهد: هو مناسك الحج، وأخذ الشارب، وتنف الإبط، وحلق العانة، وقلم الأظفار. وقيل: التفت هاهنا رمي الجمار. قال الزجاج: لا نعرف التفت ومعناه إلا من القران. قوله تعالى: { وَلِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ } قال مجاهد: أراد نذر الحج والهدى وما ينذر الإنسان من شيء يكون في الحج أي: ليطمونها بقضائها. وقيل: المراد منه الوفاء بما نذر على ظاهره. وقيل: أراد به الخروج. عما وجب عليه نذر أو لم ينذر. والعرب تقول لكل من خرج عن الواجب عليه وفي بنذره. وقرأ عاصم برواية أبي بكر "وليووفوا" بنصب الواو وتشديد الفاء.

{ وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } أراد به الطواف الواجب عليه وهو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق.

والطواف ثلاثة: طواف القدوم، وهو أن من قدم مكة يطوف بالبيت سبعا يرمل ثلاثا من الحجر الأسود إلى أن ينتهي إليه ويمشي إربعا، وهذا الطواف سنة لا شيء على من تركه.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أحمد هو أبو عيسى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل القرشي أنه سأل عروة بن الزبير فقال: قد حج النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرتني عائشة أنه أول شيء بدأ به حين قدم أنه توجأ ثم طاف بالبيت ثم لم يكن عمرة، ثم حج أبو بكر فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم يكن عمرة، ثم عمر مثل ذلك، ثم حج عثمان فرأيته أول شيء بدأ به الطواف بالبيت (1).

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا أنس بن عياض، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا طاف في الحج أو العمرة أول ما يقدم يسعى ثلاثة أطواف ويمشي إربعا، ثم يصلي سجدتين، ثم يطوف بين الصفا والمروة سبعا (2).

والطواف الثاني: هو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق، وهو واجب لا يحصل التحلل من الإحرام ما لم يأت به.

- (1) أخرجه البخاري في الحج، باب: الطواف على وضوء: 3 / 496، ومسلم في الحج، باب: ما يلزم من طاف بالبيت وسعى برقم: (1235) 2 / 906 - 907، والمصنف في شرح السنة: 7 / 101 - 102.
- (2) أخرجه البخاري في الحج، باب: من طاف بالبيت إذا قدم مكة: 3 / 477 ومسلم في الحج، باب: استحباب الرمل في الطواف والعمرة برقم: (1261) 2 / 920، والمصنف في شرح السنة: 7 / 104 والشافعي في المسند: 1 / 347.

(5/381)

ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْكُمْ اللَّهُ فَحُزْمَاتٍ لِي اللَّهِ فِيهِمْ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُجِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30)

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، أخبرنا الأعمش، أخبرنا إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: حاضت صفية ليلة النفر فقالت: ما أراني إلا حابستكم قال النبي صلى الله عليه وسلم "عقري حلقي أطافت يوم النحر؟ قيل: نعم، قال: فانفري" (1) فثبت بهذا أن من لم يطف يوم النحر طواف الإفاضة لا يجوز له أن ينفر.

والطواف الثالث: هو طواف الوداع لا رخصة فيه لمن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر أن يفارقها حتى يطوف بالبيت سبعا، فمن تركه فعليه دم إلا

المرأة الحائض يجوز لها ترك طواف الوداع.
أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز أحمد الخلال، 26/ب
أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا سفيان، عن
سليمان الأحول، عن طاوس عن ابن عباس، قال: أمر الناس أن يكون آخر
عهدهم الطواف بالبيت إلا أنه رخص للمرأة الحائض (2).
والرمل مختص بطواف القدوم، ولا رمل في طواف الإفاضة والوداع.
قوله: { بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } اختلفوا في معنى "العتيق": قال ابن عباس، وابن
الزبير ومجاهد وقتادة: سمي عتيقا لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا
إلى تخريبه، فلم يظهر عليه جبار قط. قال سفيان بن عيينة: سمي عتيقا لأنه
لم يملك قط، وقال الحسن وابن زيد: سمي به لأنه قديم وهو أول بيت وضع
للناس، يقال: دينار عتيق أي قديم، وقيل: سمي عتيقا لأن الله أعتقه من
الغرق، فإنه رفع أيام الطواف (3).
{ دَلِّكَ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا
يُنْتَلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) }
{ دَلِّكَ } أي: الأمر ذلك، يعني ما ذكر من أعمال الحج، { وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَاتِ
اللَّهِ } أي

- (1) أخرجه البخاري في الحج، باب: الإدلاج من المحصب: 3 / 595، والمصنف
في شرح السنة: 7 / 234.
(2) أخرجه البخاري في الحج، باب: طواف الوداع 3 / 585، ومسلم في الحج،
باب: وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض برقم (1328)، والمصنف
في شرح السنة: 7 / 232. والشافعي في المسند: 1 / 364.
(3) ذكر هذه الأقوال الطبري: 17 / 151 - 152 ثم قال: ولكل هذه الأقوال
التي ذكرناها عن ذكرناها عنه في قوله: (البيت العتيق) وجه صحيح، غير أن
الذي قاله ابن زيد أغلب معانيه عليه في الظاهر، غير أن الذي روي عن ابن
الزبير أولى بالصحة، إن كان ما حدثني به محمد بن سهل البخاري - قال: حدثنا
عبد الله بن صالح، قال: أخبرني الليث، عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر،
عن الزهري، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير، قال: قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: "إنما سمي البيت العتيق لأن الله أعتقه من
الجبابرة فلم يظهر عليه قط - صحيحاً".

(5/382)

معاصي الله وما نهى عنه، وتعظيمها ترك ملابسها. قال الليث: حرمت الله ما
لا يحل انتهاكها. وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرمة التفريط فيه،
وذهب قوم إلى أن معنى الحرمت هاهنا: المناسك، بدلالة ما يتصل بها من
الآيات. وقال ابن زيد: الحرمت هاهنا: البيت الحرام، والبلد الحرام والشهر
الحرام، والمسجد الحرام، والإحرام (1). { فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ } أي: تعظيم
الحرمت، خير له عند الله في الآخرة.
قوله عز وجل: { وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ } أن تأكلوها إذا ذبحتموها وهي الإبل
والبقرة والغنم، { إِلَّا مَا يُنْتَلَى عَلَيْكُمْ } تحريمه، وهو قوله في سورة المائدة:
{ حرمت عليكم الميتة والدم } (المائدة: 3)، الآية، { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ

الأوثان { أي: عبادتها، يقول: كونوا على جانب منها فإنها رجس، أي: سبب الرجس، وهو العذاب، والرجس: بمعنى الرجز. وقال الزجاج: { من { هاهنا للتجنيس أي: اجتنبوا الأوثان التي هي رجس، { وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ { يعني: الكذب والبهتان. وقال ابن مسعود: شهادة الزور، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيباً فقال: "يا أيها الناس عدلت شهادة الزور بالشرك بالله"، ثم قرأ هذه الآية (2). وقيل: هو قول المشركين في تليبتهم: لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

(1) انظر الطبري: 153 / 17.

(2) أخرجه أبو داود في الأفضية، باب في شهادة الزور: 217 / 5، والترمذي في الشهادات 6 / 585، وقال: (هذا حديث إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد - يعني حديث خريم بن فاتك - وقد اختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي صلى الله عليه وسلم). وابن ماجه في الأحكام، باب: شهادة الزور رقم (2372)، 2 / 794، والإمام أحمد: 4 / 178.

(5/383)

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31)

{ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31) {
 { حُنَفَاءَ لِلَّهِ { مخلصين له، { غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ { قال قتادة: كانوا في الشرك يحجون، ويحرمون البنات والأمهات والأخوات، وكانوا يسمون حنفاء، فنزلت: "حنفاء لله غير مشركين به" أي: حجاجاً لله مسلمين موحدين، يعني: من أشرك لا يكون حنيفاً.

{ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ { أي: سقط، { مِنَ السَّمَاءِ { إلى الأرض، { فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ { أي: تستلبه الطير وتذهب به، والخطف والاختطاف: تناول الشيء بسرعة. وقرأ أهل المدينة: فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء، أي: يتخطفه، { أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ { أي: تميل وتذهب به، { فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ {

(5/383)

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمُ شِعَابِ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَفْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيهَا مَتَاعٌ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

أي: بعيد، معناه: بعد من أشرك من الحق كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير، أو هوت به الريح، فلا يصل إليه بحال. وقيل: شبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء في أنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع بحيث تسقطه الريح، فهو هالك لا محالة إما باستلاب الطير لحمه وإما بسقوطه إلى المكان

السحيق، وقال الحسن: شبه أعمال الكفار بهذه الحال في أنها تذهب وتبطل فلا يقدر على شيء منها
 { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ يَشْعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى
 أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33) }
 { ذَلِكَ } يعني: الذي ذكرت من اجتناب الرجس وقول الزور، { وَمَنْ يُعْظَمَ }
 شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ { قال ابن عباس "شعائر الله" البدن
 والهدي، وأصلها من الإشعار، وهو إعلامها ليعرف أنها هدي، وتعظيمها:
 استسمانها واستحسانها. وقيل "شعائر الله" أعلام دينه، "فإنها من تقوى
 القلوب"، أي: فإن تعظيمها من تقوى القلوب. { لَكُمْ فِيهَا } أي: في البدن
 قبل تسميتها للهدي، { مَنَافِعٌ } في درها ونسلها وأصوافها وأوبارها وركوب
 ظهورها، { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } وهو أن يسميها ويوجبها هديا، فإذا فعل ذلك لم
 يكن له شيء من منافعها، هذا قول مجاهد، وقول قتادة والضحاك، ورواه
 مقسم عن ابن عباس.

وقيل: معناه لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هديا بأن تركبوها
 وتشربوا ألبانها عند الحاجة "إلى أجل مسمى"، يعني: إلى أن تنحروها، وهو
 قول عطاء بن أبي رباح.
 واختلف أهل العلم في ركوب الهدي.

فقال قوم: يجوز له ركوبها والحمل عليها غير مضر بها، وهو قول مالك،
 والشافعي، وأحمد، وإسحاق، لما أخبر أبو الحسن السرخسي، أخبرنا أبو علي
 زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك، عن
 أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 رأى رجلا يسوق بدنة فقال له: "اركبها، فقال يا رسول الله إنها بدنة، فقال:
 اركبها ويلك، في الثانية أو الثالثة"، وكذلك قال له: "اشرب لبنها بعدما فضل
 عن ري ولدها" (1).
 وقال أصحاب الرأي: لا يركبها.

(1) أخرجه البخاري في الحج، باب: ركوب البدن 3 / 536، ومسلم في الحج،
 باب: جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها، برقم (1322) 2 / 960
 والمصنف في شرح السنة: 7 / 195.

(5/384)

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ
 فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34)

وقال قوم: لا يركبها إلا أن يضطر إليه.
 وقال بعضهم: أراد بالشعائر: المناسك ومشاهدة مكة. "لكم فيها منافع"
 بالتجارة والأسواق "إلى أجل مسمى" وهو الخروج من مكة.
 وقيل: "لكم فيها منافع" بالأجر والثواب في قضاء المناسك. "إلى أجل
 مسمى" أي: إلى انقضاء أيام الحج.
 { ثُمَّ مَحِلُّهَا } أي: منحرها، { إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } أي: منحرها عند البيت
 العتيق، يريد أرض الحرم كلها، كما قال: { فلا يقربوا المسجد الحرام }

(التوبة: 28) أي: الحرم كله.

وروي عن جابر في قصة حجة الوداع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم 27/أ قال: "نحرت هاهنا ومنى كلها منحرفانحروا في رحالكم" (1).
ومن قال: "الشعائر" المناسك، قال: معنى قوله "ثم محلها إلى البيت العتيق"
أي: محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق، أي: أن يطوفوا به طواف
الزيادة يوم النحر.

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ
فَالَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَتَشِرَ الْمُخْتَبِينَ } (34)
قال الله تعالى: { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ } أي: جماعة مؤمنة سلفت قبلكم، { جَعَلْنَا
مَنْسَكًا } قرأ حمزة والكسائي بكسر السين هاهنا وفي آخر السورة، علي
معنى الاسم مثل المسجد والمطلع، أي: مذبحا وهو موضع القران، وقرأ
الآخرون بفتح السين على المصير، مثل المدخل والمخرج، أي: إراقة الدماء
وذبح القرابين، { لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } [عند
نحرها وذبحها، وسماها بهيمة] (2) لأنها لا تتكلم، وقال: "بهيمة الأنعام" وقيدها
بالنعم، لأن من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبعال والحمير، لا يجوز
دخلها (3) في القرابين.
{ فَالَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ } أي: سموا على الذبائح اسم الله وحده، فإن إلهكم إله
واحد،

- (1) أخرجه مسلم في الحج، باب: ما جاء أن عرفه كلها موقف، برقم (1218)
2 / 893، والمصنف في شرح السنة: 7 / 150.
(2) ما بين القوسين زيادة من "ب".
(3) في "ب" ذبحها.

(5/385)

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (35) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا حَبِيرٌ
فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ
وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36)

{ فَلَهُ أَسْلِمُوا } انقادوا وأطيعوا، { وَتَشِرَ الْمُخْتَبِينَ } قال ابن عباس وقتادة:
المتواضعين. وقال مجاهد: المطمئنين إلى الله عز وجل، "والخبت" المكان
المطمئن من الأرض. وقال الأخفش: الخاشعين. وقال النخعي: المخلصين.
وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم. وقال عمرو بن أوس: هم الذين لا يظلمون
وإذا ظلموا لم ينتصروا.

{ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي
الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (35) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ
فِيهَا حَبِيرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا
الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) }
{ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ } من البلاء
والمصائب { وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ } أي: المقيمين للصلاة في أوقاتها، { وَمِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ { يتصدقون. قوله عز وجل: { وَالْبُدْنَ } جمع بدنة سميت بدنة لعظمتها وضخامتها، يريد: الإبل العظام الصحاح الأجسام، يقال بدن الرجل بدنا وبدانة إذا ضخم، فأما إذا أسن واسترخى يقال بدن تبيدنا. قال عطاء والسدي: البدن: الإبل والبقر أما الغنم فلا تسمى بدنة. { جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } من أعلام دينه، سميت شعائر لأنها تشعر، وهو أن تطعن بحديدة في سنامها فيعلم أنها هدي، { لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ } النفع في الدنيا والأجر في العقبى، { قَادُكُورُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا } عند نحرها، { صَوَافٌ } أي: قياما على ثلاث قوائم قد صفت رجليها وإحدى يديها، وبدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبد الله بن مسلمة، أخبرنا يزيد بن زريع، عن يونس، عن زياد بن جبير قال: رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها، قال: ابعتها قياما مقيدة سنة محمد صلى الله عليه وسلم (1). وقال مجاهد: الصواف إذا عقلت رجليها اليسرى وقامت على ثلاث قوائم. وقرأ ابن مسعود: "صوافن" وهي أن تعقل منها يد وتنحر على ثلاث، وهو مثل صواف. وقرأ أبي والحسن ومجاهد: "صوافي" بالياء أي: صافية خالصة لله لا شريك له فيها. { قَادًا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا } أي: سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض. وأصل الوجوب:

(1) أخرجه البخاري في الحج، باب: نحر الإبل مقيدة: 3 / 553، ومسلم في الحج، باب: نحر البدن قياما مقيدة، برقم (1320) 2 / 956، والمصنف في شرح السنة: 7 / 198.

(5/386)

لَنْ يَتَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَتَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

الوقوف. يقال: وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب، { فَكُلُّوا مِنْهَا } أمر بإباحة، { وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ } اختلفوا في معناهما: فقال عكرمة وإبراهيم وقتادة: "القانع" الجالس في بيته المتعفف يقنع بما يعطى ولا يسأل، و"المعتر" الذي يسأل. وروى العوفي عن ابن عباس: "القانع" الذي لا يعترض ولا يسأل، و"المعتر" الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل، فعلى هذين التأويلين يكون "القانع": من القناعة، يقال: قنع قناعة إذا رضي بما قسم له. وقال سعيد بن جبير والحسن والكلبي: "القانع": الذي يسأل، و"المعتر": الذي يعترض ولا يسأل، فيكون "القانع" من قنع يقنع قنوعا إذا سأل. وقرأ الحسن: "والمعترى" وهو مثل المعتر، يقال: عره واعتره وعراه واعتراه إذا أتاه يطلب معروفه، إما سؤالا أو تعرضا. وقال ابن زيد: "القانع": المسكين، و"المعتر": الذي ليس بمسكين، ولا يكون له ذبيحة يجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم (1).

{ كَذَلِكْ } أي: مثل ما وُصِفنا من نحرها قياما، { سَخَّرَناها لَكُمْ } نعمة منا
لنتمكنوا من نحرها، { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } لكي تشكروا إنعام الله عليكم.
{ لَنْ يَتَالَ اللهُ لِحَوْمِها وَلَا دِمَاؤِها وَلَكِنْ يَتَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكْ سَخَّرَها لَكُمْ
لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَيَّ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } (37)
{ لَنْ يَتَالَ اللهُ لِحَوْمِها وَلَا دِمَاؤِها } وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحرُوا
البدن لطلخوا الكعبة

(1) ذكر هذه الأقوال وغيرها الطبري: 17 / 167 - 170 ثم قال: (وأولى هذه
الأقوال بالصواب قول من قال: عنى بالقانع: السائل، لأنه لو كان المعنى
بالقانع في هذا الموضوع: المكتفي بما عنده، والمستغني به لقليل: وأطعموا
القانع والسائل، ولم يقل: وأطعموا القانع والمعتر، وفي إتباع ذلك قوله:
والمعتر، الدليل الواضح على أن القانع معني به السائل من قولهم: قنع فلان
إلى فلان، بمعنى سأله وخضع إليه، فهو يقنع قنوعا، ومنه قول لبيد: وأعطاني
المولى على حين فقره ... بنات إذا قال أبصر خلتي وقنوعي
وأما القانع الذي هو بمعنى المكتفي، فإنه من قنعت، بكسر النون، أقنع قناعة،
وقنوعا وقنعانا، وأما المعتر: فإنه الذي يأتيك معترا بك لتعطيه وتطعمه).

(5/387)

إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38)

بدمائها قربة إلى الله، فأنزل الله هذه الآية: "لن ينال الله لحومها ولا دماؤها"
قرأ يعقوب "تنال وتناله" بالتاء فيهما، وقرأ العامة بالياء. قال مقاتل: لن يرفع
إلى الله لحومها ولا دماؤها، { وَلَكِنْ يَتَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ } ولكن ترفع إليه منكم
الأعمال الصالحة والتقوى، والإخلاص ما أريد به وجه الله، { كَذَلِكْ سَخَّرَها لَكُمْ
{ يعني: البدن، { لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَيَّ مَا هَدَاكُمْ } أرشدكم لمعالم دينه ومناسك
حجه، وهو أن يقول: الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا وأولانا،
{ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } قال ابن عباس: الموحدين.
{ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ } (38)

(5/388)

أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39)

{ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } (39)
قوله تعالى: { إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا } قرأ ابن كثير وأهل البصرة:
"يدفع"، وقرأ الآخرون: "يدافع" بالألف، يريد: يدفع غائلة المشركين عن
المؤمنين ويمنعهم عن المؤمنين. { إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ } أي:
خوان في أمانة الله كفور لنعمته، قال ابن عباس: خانوا الله فجعلوا معه
شريكا وكفروا نعمه. قال الزجاج: من تقرب إلى الأصنام بذيبحته وذكر عليها
اسم غير الله فهو خوان كفور. قوله عز وجل: { أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ

طَلِمُوا { 27/ب قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم: "أذن" بضم الألف والباقون بفتحها، أي: أذن الله، "للذين يقاتلون"، قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص "يقاتلون" بفتح التاء يعني المؤمنين الذين يقاتلهم المشركون، وقرأ الآخرون بكسر التاء يعني الذين أذن لهم بالجهاد "يقاتلون" المشركين. قال المفسرون: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج، ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل هذه الآية (1) وهي أول آية أذن الله فيها بالقتال، فنزلت هذه الآية بالمدينة. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة، فكانوا

(1) قال ابن حجر في الكافي الشاف ص (113): لم أجده هكذا. وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين، قلت - ابن حجر -: هو منتزع من أحاديث، أقربها ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قوله (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنا النبي صلى الله عليه وسلم في قتالهم بمكة، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنزل الله عليه: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا).

(5/388)

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيُنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

يمنعون فإذن الله لهم في قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة (1) { بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا } أي: بسبب ما ظلموا، واعتدوا عليهم بالإيذاء، { وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ تَصْرِيهِمْ لَقَدِيرٌ }

{ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيُنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41) }

{ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ } بدل "عن الذين" الأولى { إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ } أي: لم يخرجوا من ديارهم إلا لقولهم ربنا الله وحده.

{ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ } بالجهاد وإقامة الحدود، { لَهَدَمَتْ } قرأ أهل الحجاز بتخفيف الدال، وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير، فالتخفيف يكون للقليل والتكثير، والتشديد يختص بالتكثير، { صَوَامِعُ } قال مجاهد والضحاك: يعني: صوامع الرهبان. وقال قتادة: صوامع الصابئين، { وَبِيَعٌ } بيع

النصارى جمع "بيعة" وهي كنيسة النصارى، { وَصَلَوَاتٌ } يعني كنائس اليهود، ويسمونها بالعبرانية صلواتا، { وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا } يعني مساجد المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ومعنى الآية: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شريعة كل نبي مكان صلاتهم، لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى البيع والصوامع، وفي زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد. وقال ابن زيد: أراد بالصلوات صلوات أهل الإسلام، فإنها تنقطع إذا دخل العدو عليهم.

{ وَلَيُنْصَرَنَّ لِلَّهِ مَنْ يَنْصُرُهُ } أي: ينصر دينه ونيبه، { إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ } قال الزجاج: هذا من صفة ناصره، ومعنى "مكناهم في الأرض": نصرناهم على عدوهم حتى

(1) عزاه السيوطي: 6 / 57 لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل.

(5/389)

وَإِنْ يُكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَتَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَىٰ غُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45)

يتمكنوا في البلاد. قال قتادة: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وقال الحسن: هم هذه الأمة { وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } أي: آخر أمور الخلق ومصيرهم إليه، يعني: يبطل كل ملك سوى ملكه، فتصير الأمور إليه بلا منازع ولا مدع. { وَإِنْ يُكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَتَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَىٰ غُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45) } قوله عز وجل: { وَإِنْ يُكذِّبُوكَ } يعرِّي نبيه صلى الله عليه وسلم، { فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَتَمُودُ } { وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ } { وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ } أي: أمهلتهم وأخرت عقوبتهم، { ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ } [عاقبتهم] (1) { فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } أي: إنكاره، أي: كيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك، يخوف به من يخالف النبي صلى الله عليه وسلم ويكذبه. { فَكَأَيُّنَ } فكم { مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } { وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ } هكذا قرأ أهل البصرة ويعقوب، وقرأ الآخرون: "أهْلَكْنَاهَا" بالنون والألف على التعظيم، { وَهِيَ ظَالِمَةٌ } أي: وأهلها ظالمون، { فَهِيَ خَاوِبَةٌ } ساقطة { عَلَىٰ غُرُوشِهَا } على سقوفها، { وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ } [أي: وكمن بئر معطلة] (3) متروكة مخلاة عن أهلها { وَقَصْرٍ مَشِيدٍ } قال قتادة والضحاك ومقاتل: رفيع طويل، من قولهم شاد بناءه إذا رفعه. وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء: مجصص، من الشيد، وهو الجص. وقيل: إن البئر

المعطللة والقصر المشيد باليمن، أما القصر فعلى قلة جبل، والبئر في سفحه، ولكل واحد منهما قوم كانوا في نعمة فكفروا فأهلكهم الله، وبقي البئر والقصر خاليين.

وروى أبو روق عن الضحاك: أن هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها حاضوراء، وذلك

(1) زيادة من "ب".

(2) أي: أهلكتها.

(3) ما بين القوسين زيادة من "ب".

(5/390)

أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آدَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح، نجوا من العذاب، أتوا حضرموت ومعهم صالح فلما حضروه مات صالح، فسمي حضرموت، لأن صالحا لما حضر مات فبنوا حاضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلا فأقاموا دهرًا وتناسلوا حتى كثروا، ثم إنهم عبدوا الأصنام وكفروا فأرسل الله إليهم نبيا يقال له حنظلة بن صفوان، كان حمالا فيهم، فقتلوه في السوق فأهلكهم الله، وعطلت بئرهم وخربت قصورهم (1).

{ أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آدَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) }

(1) انظر: البحر المحيط: 6 / 377.

(5/391)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47)

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) }

{ أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ } يعني: كفار مكة، فينظروا إلى مصارع المكذبين من الأمم الخالية، { فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آدَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا } يعني: ما يذكر لهم من أخبار القرون الماضية فيعتبرون بها، { فَإِنَّهَا } الهاء عماد، { لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } ذكر "التي في الصدور" تأكيدا كقوله: { يطير بجناحيه } (الأنعام: 38) معناه أن العمى الضار هو عمى القلب، فأما عمى البصر فليس بضار في أمر الدين، قال قتادة: البصر الظاهر: بلغة ومنتعة، وبصر القلب: هو البصر النافع. { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } نزلت في النصر بن الحارث حيث قال: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا

حجارة من السماء (1) { وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ } فأنجز ذلك يوم 28/أبدر. { وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: "بعدون" بالياء هاهنا لقوله: { وَبَسْتَعَجَلُونَكَ } وقرأ الباقون: بالتاء لأنه أعم، لأنه خطاب للمستعجلين والمؤمنين، واتفقوا في تنزيل "السجدة" أنه بالتاء. قال ابن عباس: يعني يوما من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وقال مجاهد وعكرمة: يوما من أيام الآخرة، والدليل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري

(1) سبق تخريجه سورة الأنفال عند الآية (32).

(5/391)

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا آتَاكُمْ تَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51)

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك مقدار خمسمائة سنة" (1). قال ابن زيد: "وإن يوما عند ربك كآلف سنة مما تعدون" هذه أيام الآخرة. وقوله: "كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون" يوم القيامة. والمعنى على هذا: أنهم يستعجلون بالعذاب، وإن يوما من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة.

وقيل: معناه وإن يوما من أيام العذاب الذي استعجلوه في الثقل والاستطالة والشدة كآلف سنة مما تعدون، فكيف تستعجلونه؟ هذا كما يقال: أيام الهموم طوال، وأيام السرور قصار.

وقيل: معناه إن يوما عنده وألف سنة في الإمهال سواء، لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوته شيء بالتأخير، فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء.

{ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا آتَاكُمْ تَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51) }

{ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا } أي أهلتها، { وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ } . { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا آتَاكُمْ تَذِيرٌ مُبِينٌ } . { فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } الرزق الكريم الذي لا ينقطع أبدا. وقيل: هو الجنة. { وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا } أي عملوا في إبطال آياتنا، { مُعَاجِزِينَ } قرأ ابن كثير وأبو عمرو: "معجزين" بالتشديد هاهنا وفي سورة سبأ أي: مثبطين الناس عن الإيمان، وقرأ الآخرون: "معاجزين" بالالف أي معاندين مشاقين. وقال قتادة: معناه ظالنين ومقدرين أنهم يعجزوننا بزعمهم أن لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، ومعنى يعجزوننا، أي: يفوتوننا فلا نقدر

عليهم. وهذا كقوله تعالى: { أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا { (العنكبوت: 4) ، { أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } وقيل: "معجزين" مغالين، يريد كل واحد أن يظهر عجز صاحبه.

(1) أخرجه أبو داود في العلم، باب في القمص: 5 / 255 - 256 ، قال المنذري في إسناده المعلى بن زياد، وفيه مقال، ثم ساق شاهدا من حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي وابن ماجه. والإمام أحمد: 3 / 63، والمصنف في شرح السنة: 14 / 191 - 192.

(5/392)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52)

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (52)

قوله عز وجل: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ } الآية. قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين: لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تولي قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباحثهم عما جاءهم به من الله تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه لحرصه على إيمانهم، فكان يوما في مجلس قريش فأنزل الله تعالى سورة "النجم" فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله: { أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى } ألقى الشيطان على لسانه بما كان يحدث به نفسه ويتمناه: "تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى"، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته، فقرأ السورة كلها وسجد في آخر السورة فسجد المسلمون بسجوده، وسجد جميع من في المسجد من المشركين، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة وأبو أحيحة سعيد بن العاص، فإنهما أخذوا حفنة من البطحاء ورفعها إلى جبهتهما وسجدا عليها، لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود. وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر الهتهم ويقولون: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإذا جعل لها نصيبا فنحن معه، فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال: يا محمد ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم أتك به عن الله عز وجل! فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله خوفا كثيرا فأنزل الله هذه الآية يعزيه، وكان به رحيمًا، وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود قريش. وقيل: أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم إلى عشائرتهم، وقالوا: هم أحب إلينا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفيا، فلما نزلت هذه الآية قالت قريش: ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند

الله فغير ذلك. وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقعا في فم كل مشرك فازدادوا شرا إلى ما كانوا عليه، وشدة على من أسلم.

قال الله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ } وهو الذي يأتيه جبريل بالوحي عيانا، { وَلَا نَبِيٍّ } وهو الذي تكون نبوته إلهاما أو مناما، وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا { إِلَّا إِذَا تَمَنَّى } قال بعضهم: أي: أجب شيئا واشتهاه وحدث به نفسه ما لم يؤمر به. { أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيهِ } أي مراده.

وعن ابن عباس قال: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ووجد إليه سبيلا وما من نبي إلا تمنى

(5/393)

أن يؤمن به قومه ولم يتمن ذلك نبي إلا ألقى الشيطان عليه ما يرضى به قومه، فينسخ الله ما يلقي الشيطان.

وأكثر المفسرين 28/ب قالوا: معنى قوله: { تمنى } أي: تلا وقرأ كتاب الله تعالى. "ألقى الشيطان في أمنيته" أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل: تمنى كتاب الله أول ليلة ... وأخرها لاقى حمام المقادر واختلفوا في أنه كان يقرأ في الصلاة أو في غير الصلاة؟ فقال قوم: كان يقرأ في الصلاة. وقال قوم: كان يقرأ في غير الصلاة. فإن قيل كيف يجوز الغلط في التلاوة على النبي صلى الله عليه وسلم وكان معصوما من الغلط في أصل الدين، وقال جل ذكره في القرآن: { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ } (فصلت: 42) يعني إبليس؟

قيل: قد اختلف الناس في الجواب عنه، فقال بعضهم: إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقرأ، ولكن الشيطان ذكر ذلك بين قراءته، فظن المشركون أن الرسول قرأه.

وقال قتادة: أغفى النبي صلى الله عليه وسلم إغفاءة فجرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان ولم يكن له خبر.

والأكثر قالوا: جرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان على سبيل السهو والنسيان ولم يلبث أن نهه الله عليه.

وقيل: إن شيطاننا يقال له أبيض عمل هذا العمل، وكان ذلك فتنة ومحنة من الله تعالى يمتحن عباده بما يشاء (1).

(1) أن هذه القصة والمعروفة بقصة الغرانيق قد ذكرها أكثر المفسرين دون تعليق فقد ذكرها الطبري 17 / 186 - 190 وابن كثير في تفسيره 3 / 230 - 231 ثم قال: (وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا كلها مرسلات ومنقطعات والله أعلم). والذي يتتبع طرق هذه القصة يجد أن جميع طرقها مرسلة أو منقطعة أو معلقة أو فيها جهالة فالطرق مهما كثرت وكانت ضعيفة لا تزيد الرواية إلا ضعفا. فإن قاعدة تقوية الحديث بكثرة الطرق لا تقبل على إطلاقها وهذا ما حققه الحافظ أبو عمرو بن الصلاح في مقدمته وغيره من علماء الحديث المحققين. لقد وقف على هذه القصة غير واحد من العلماء المحققين وبينوا زيف وبطلان هذه المرويات التي أوردها بعض المفسرين.

فقد ذكر الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني في تفسيره: 3 / 462 عند قوله تعالى: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم" فقال: "ولم يصح شيء من هذا، ولا ثبت بوجه من الوجوه، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه قال تعالى: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وقوله: (وما ينطق عن الهوى) وقوله: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم). قال البزار: هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل. وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. وقال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة. ووصف في ذلك كتابا". وللقاضي عياض في كتاب الشفاء 2 / 750 كلام حول نقض هذه القصة فيقول: (فاعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: المأخذ الأول: يكفيك أن هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، والمتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم. المأخذ الثاني: فهو مبني على تسليم الحديث لو صح، وقد أعادنا الله من صحته ولكن على كل حال فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين. ثم سرد أحاديث بين زيفها ورد العلماء عليها. ويقول الإمام القرطبي في تفسيره 12 / 84 عند قوله تعالى: "وما أرسلنا من قبلك من رسول. . ." بعد أن سرد بعض الروايات "ومما يدل على ضعفه أيضا وتوهينه من الكتاب قوله تعالى: (وإن كادوا ليفتنونك) الآيتين؛ فإنهما تردان الخبر الذي رووه، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى، وأنه لولا أن ثبته لكان يركن إليهم. فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه في أن يفترى وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا) + إن هذه الأقاويل يجب تنزيه رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وقد ثبت بطلان هذه القصة سندا ومتنا. ولمن أراد مزيد إطلاع فلينظر بحثا فيما للأستاذ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) فقد سرد جميع الروايات وبين ضعفها وسرد أقوال المحدثين والعلماء المحققين في رد هذه القصة. انظر الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، صفحة 440 - 452 لمحمد بن محمد أبو شهية روح المعاني للألوسي 17 / 175 - 184. الشفاء للقاضي عياض 2 / 750 وما بعده فتح القدير 3 / 461 تفسير القرطبي 12 / 79 وما بعدها في ظلال القرآن 5 / 611.

(5/394)

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54)

{ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54)
 { فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْفِي الشَّيْطَانَ } أي: يبطله ويذهبه، { ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ فِي قُلُوبِهِمْ } وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ { لِيَجْعَلَ مَا يُلْفِي الشَّيْطَانَ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } أي: محنة وبلية، شك ونفاق، { وَالْقَاسِيَةِ } يعني الجافية، { قُلُوبُهُمْ } عن قبول الحق وهم المشركون، وذلك أنهم افتنوا لما سمعوا ذلك، ثم نسخ ورفع فازدادوا عتوا، وظنوا أن محمدا يقوله من تلقاء نفسه ثم يندم فيبطل، { وَإِنَّ الظَّالِمِينَ } المشركين { لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } أي: في خلاف شديد. { وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } التوحيد والقرآن. وقال السدي: التصديق بنسخ الله تعالى، { أَنَّهُ } يعني: أن الذي أحكم الله من آيات القرآن هو { الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ } أي: يعتقدوا

(5/395)

وَلَا يَرَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

أنه من الله، { فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ } أي: فتسكن إليه قلوبهم، { وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } أي: طريق قويم هو الإسلام. { وَلَا يَرَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ } (55)

(5/396)

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَيَاتِهِمُ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا قَالُوا لَيْسَ لَنَا بِهِ مَسْئَلَةٌ وَرَبِّنَا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58)

{ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَيَاتِهِمُ النَّعِيمِ } (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا قَالُوا لَيْسَ لَنَا بِهِ مَسْئَلَةٌ وَرَبِّنَا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } (58)

{ وَلَا يَرَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ } أي: في شك مما ألقى الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: ما به ذكرها بخير ثم ارتد عنها. وقال ابن جريج: "منه" أي من القرآن. وقيل: من الدين، وهو الصراط المستقيم. { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } يعني: القيامة. وقيل: الموت، { أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ } قال الضحاك وعكرمة: عذاب يوم لا ليلة له، وهو يوم القيامة.

والأكثر على أن اليوم العقيم يوم بدر، لأنه ذكر الساعة من قبل وهو يوم القيامة. وسمي يوم بدر عقيما لأنه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير، كالريح

العقيم التي لا تأتي بخير، سحب ولا مطر، [والعقم في اللغة: المنع، يقال: رجل عقيم إذا منع من الولد] (1) . وقيل: لأنه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه. وقال ابن جريج: لأنهم لم ينظروا فيه إلى الليل حتى قتلوا قبل المساء. { الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ } يعني يوم القيامة، { لِلَّهِ } وحده من غير منازع، { يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ } ثم بين الحكم، فقال تعالى: { قَالِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَيَاتِ النَّعِيمِ } { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا قَالُوا لَئِن لَّهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } . { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب رضاه، { ثُمَّ قَاتِلُوا أَوْ مَاتُوا } وهم كذلك، قرأ ابن عامر "قتلوا" بالتشديد { لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا } والرزق الحسن الذي لا ينقطع أبدا هو رزق الجنة، { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } قيل: هو قوله: { بل أحياء عند ربهم يرزقون } (آل عمران: 169) .

(1) ما بين القوسين زيادة من "ب".

(5/396)

لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنَّصُرَنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَعَفُوٌّ عَفُورٌ (60) ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهَ يُولُجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَيُولُجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63)

{ لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنَّصُرَنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَعَفُوٌّ عَفُورٌ (60) ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهَ يُولُجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَيُولُجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) }

{ لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ } لأن لهم فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، { وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ } بنياتهم، { حَلِيمٌ } عنهم. { ذَلِكَ } أي: الأمر ذلك الذي قصصنا عليكم، { وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ } جازى الظالم بمثل ظلمه. قال الحسن: يعني قاتل المشركين كما قاتلوه، { ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ } أي: ظلم بإخراجه من منزله يعني: ما أتاه المشركون من البغي على المسلمين حتى أحوجهم إلى مفارقة أوطانهم، نزلت في قوم من المشركين أتوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فكره المسلمون قتالهم وسألوهم أن يكفوا عن القتال من أجل الشهر الحرام فأبى المشركون وقتلوهم فذلك بغيم عليهم ووثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم (1) قال الله تعالى: { لَيَنَّصُرَنَّ اللَّهُ } والعقاب الأول بمعنى الجزاء، { إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ عَفُورٌ } عفا عن مساوئ المؤمنين وغفر لهم ذنوبهم. { ذَلِكَ } أي: ذلك النصر { يَأْتِي اللَّهَ } القادر على ما يشاء، فمن قدرته أنه: { يُولُجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَيُولُجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّ مَا يَدْعُونَ } قرأ

أهل البصرة وحمزة والكسائي وحفص: بإلياء، وقرأ الآخرون: بالتاء، يعني المشركين، { مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ } الْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، { الْكَبِيرُ } الْعَظِيمُ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ. { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً } بِالنبات، { إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ } بِأَرْزَاقِ عِبَادِهِ وَاسْتِخْرَاجِ النِّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، { حَبِيرٌ } بِمَا فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ وَاسْتِخْرَاجِ النِّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، إِذَا تَأَخَّرَ الْمَطَرُ عَنْهُمْ.

(1) ذكره الطبري: 17 / 195 بغير سند، وعزاه السيوطي في الدر المنثور 6 / 71 لابن أبي حاتم.

(5/397)

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ (64)

{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ (64) }

(5/398)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (66) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ تَاسِبُوهُ فَلَا يَتَّزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (67)

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (66) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ تَاسِبُوهُ فَلَا يَتَّزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (67) }

{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } عبيدا ومليكا، { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَنِيُّ } عن عبادته، { الْحَمِيدُ } في أفعاله. { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ } أي: وسخر لكم الفلك، { تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } 29/أ وقيل: "ما في الأرض": الدواب تركب في البر، و"الفلك" تركب في البحر، { وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ } يعني: لكيلا تسقط على الأرض، { إِلَّا بِإِذْنِهِ } إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ { } وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ } أي: أنشاكم ولم تكونوا شيئا، { ثُمَّ يُمِيتُكُمْ } عند انقضاء آجالكم، { ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } يوم البعث للثواب والعقاب، { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ } لنعم الله. قوله عز وجل: { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ تَاسِبُوهُ } قال ابن عباس: يعني شريعة هم عاملون بها. وروي عنه أنه قال: عيدا فال فتادة ومجاهد: موضع قربان يذبحون فيه. وقيل: موضع عبادة. وقيل: مألفا يالفونه.

والمنسك في كلام العرب: الموضع المعتاد لعمل خير أو شر، ومنه "مناسك

الحج" لتردد الناس إلى أماكن أعمال الحج .
 { فَلَا يُتَارَعُكَ فِي الْأَمْرِ } يعني في أمر الذبائح، نزلت في بديل بن ورقاء،
 وبشر بن سفيان، ويزيد بن خنيس قالوا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم:
 ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله (1) .
 قال الزجاج: معنى قوله { فَلَا يُتَارَعُكَ } أي: لا تنازعهم أنت، كما يقال: لا
 يخاصمك فلان،

(1) انظر: القرطبي: 93 / 12.

(5/398)

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
 كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ
 فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ
 سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
 آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ
 عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَقَاتِبْكُمْ بِسَرٍّ مِنْ دَلِكُمُ النَّارِ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ
 الْمَصِيرَ (72)

أي: لا تخاصمه، وهذا جائز فيما يكون بين الإثنين، ولا يجوز: لا يضربك فلان،
 وأنت تريد: لا تضربه، وذلك أن المنازعة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين، فإذا ترك
 أحدهما فلا مخاصمة هناك.

{ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ } إلى الإيمان بربك، { إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ } .
 { وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ
 ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ
 بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
 آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ
 عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَقَاتِبْكُمْ بِسَرٍّ مِنْ دَلِكُمُ النَّارِ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ
 الْمَصِيرَ (72) }

{ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } . { اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } فتعرفون حينئذ الحق من الباطل. والاختلاف: ذهاب
 كل واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر. { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
 مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ } كله، { فِي كِتَابٍ } يعني اللوح المحفوظ،
 { إِنَّ ذَلِكَ } يعني: علمه لجميع ذلك، { عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا } حجة، { وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ } يعني أنهم فعلوا
 ما فعلوا عن جهل لا عن علم، { وَمَا لِلظَّالِمِينَ } للمشركين، { مِنْ نَصِيرٍ }
 مانع يمنعهم من عذاب الله. { وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } يعني: القرآن،
 { تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ } يعني الإنكار يتبين ذلك في وجوههم
 من الكراهية والعبوس، { يَكَادُونَ يَسْطُونَ } أي: يقعون ويسطون إليكم
 أيديهم بالسوء. وقيل: يبطشون، { بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } أي: بمحمد
 وأصحابه من شدة الغيظ. يقال: سطا عليه وسطا به، إذا تناوله بالبطش

والعنف، وأصل السطون القهر.
{ قُلْ } يا محمد، { أَقَاتِبْتُكُمْ بِشْرٍ مِنْ دَلِكُمْ } أي: بشر لكم وأكره إليكم من هذا القرآن

(5/399)

الذي تستمعون، { النَّارُ } أي: هي النار، { وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ
الْمَصِيرُ }

(5/400)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا
ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ
وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74) اللَّهُ
يَضْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75)

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ
يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ
الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)
اللَّهُ يَضْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) }

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ } معنى ضرب: جعل، كقولهم: ضرب السلطان
البعث على الناس، وضرب الجزية على أهل الذمة، أي جعل ذلك عليهم.
ومعنى الآية: جعل لي شبه، وشبهه بي الأوثان، أي: جعل المشركون الأصنام
شركائي فعبدوها ومعنى { فَاستَمِعُوا لَهُ } أي: فاستمعوا حالها وصفتها. ثم
بين ذلك فقال:

{ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } يعني: الأصنام، قرأ يعقوب بالياء والباقون
بالتاء { لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا } واحدا في صغره وقلته لأنها لا تقدر عليه. والذباب:
واحد وجمعه القليل: أذبة، والكثير: ذبان، مثل غراب وأغربة، وغربان، { وَلَوْ
اجْتَمَعُوا لَهُ } أي: خلقه، { وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ } قال
ابن عباس: كانوا يطلون الأصنام بالزعفران، فإذا جف جاء الذباب فاستلب
منه.

وقال السدي: كانوا يضعون الطعام بين يدي الأصنام فتقع الذباب عليه فيأكلن
منه.

وقال ابن زيد: كانوا يحلون الأصنام باليواقيت واللاكي وأنواع الجواهر،
ويطيبونها بالوان الطيب فرما تسقط منها واحدة فيأخذها طائر أو ذباب فلا
تقدر الآلهة على استردادها، فذلك قوله: { وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا } أي:
وإن يسلب الذباب الأصنام شيئا مما عليها لا يقدر أن يستنقذوه منه،
{ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } قال ابن عباس: "الطالب": الذباب يطلب ما
يسلب من الطيب من الصنم، و"المطلوب": الصنم يطلب الذباب منه
السلب. وقيل: على العكس: "الطالب": الصنم و"المطلوب": الذباب. وقال
الضحاك: "الطالب": العابد و"المطلوب": المعبود. { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ

{ ما عظموه حق عظمتهم وما عرفوه حق معرفته، ولا وصّفوه حق صفته إن أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه، { إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } { اللَّهُ يَصْطَفِي } يعني يختار { مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا } وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم، { وَمِنَ النَّاسِ } أي: يختار من الناس رسلا مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم

(5/400)

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77)

وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، نزلت حين قال المشركون: "أنزل عليه الذكر من بيننا" فأخبر أن الاختيار إليه، يختار من يشاء من خلقه (1) .
 { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } أي: سميع لقولهم، بصير بمن يختاره لرسالته.
 { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) }
 { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } قال ابن عباس: ما قدموا، { وَمَا خَلْفَهُمْ } ما خلفوا، وقال الحسن: "ما بين أيديهم": ما عملوا "وما خلفهم" ما هم عاملون من بعد وقيل: "ما بين أيديهم: ملائكته وكتبه ورسله قبل أن خلقهم، "وما خلفهم" أي: يعلم ما هو كائن فنائهم. { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا } أي: صلوا، لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود، { وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ } وخدمي { وَافْعَلُوا الْخَيْرَ } قال ابن عباس 29/ب صلة الرحم ومكارم الأخلاق، { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة. واختلف أهل العلم في سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية.

فذهب قوم إلى أنه يسجد عندها، وهو قول عمر، وعلي، وابن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وبه قال ابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق . واحتجوا بما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا قتيبة، أخبرنا ابن لهيعة، عن مشرح بن عاهان، عن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله فضلت سورة الحج بان فيها سجدتين؟ قال: "نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما" (2) .

(1) انظر: القرطبي: 12 / 98.

(2) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب: تفرع أبواب السجود، وكم سجدة في القرآن 2 / 117، والترمذي في الصلاة، باب: ما جاء في السجدة في الحج 3 / 178 - 179 وقال: (هذا حديث ليس إسناده بالقوي) ونقل المنذري قول الترمذي هذا وقال: "وفي إسناده عبد الله بن لهيعة ومشرح بن هاعان، ولا يحتج بحديثهما". وأخرجه الإمام أحمد: 1 / 151، والدارقطني: 1 / 408، والحاكم: 2 / 390 وقال: هذا حديث لم نكتبه مسندا إلا من هذا الوجه، وعبد الله بن لهيعة أحد الأئمة إنما نقم عليه اختلاطه في آخر عمره، وقد صحت الرواية فيه من قول عمر بن الخطاب. . . وأخرجه المصنف في شرح السنة: 3 / 304. وانظر: نصب الراية للزيلعي: 2 / 179.

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ
 مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ
 شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا
 بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

وذهب قوم إلى أنه لا يسجد ها هنا، وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي.
 وعدة سجود القرآن أربعة عشر عند أكثر أهل العلم، منها ثلاث في المفصل.
 وذهب قوم إلى أنه ليس في المفصل سجود. روي ذلك عن أبي بن كعب، وابن
 عباس، وبه قال مالك. وقد صح عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله
 صلى الله عليه وسلم: في "اقرأ" و "إذا السماء انشقت" (1) وأبو هريرة من
 متأخري الإسلام.

واختلفوا في سجود صاد، فذهب الشافعي: إلى أنه سجود شكر ليس من
 عزائم السجود، ويروى ذلك عن ابن عباس (2) وذهب قوم إلى أنه يسجد فيها،
 روي ذلك عن عمر، وبه قال سفيان الثوري، وابن المبارك، وأصحاب الرأي،
 وأحمد، وإسحاق، فعند ابن المبارك، وإسحاق، وأحمد، وجماعة: سجود القرآن
 خمسة عشرة سجدة، فعدوا سجدي الحج وسجدة ص، وروي عن عمرو بن
 العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن (3)

{ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ
 مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ
 شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا
 بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78) }

قوله عز وجل: { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ } قيل: جاهدوا في سبيل الله
 أعداء الله "حق جهاده" هو استفراغ الطاقة فيه، قاله ابن عباس: وعنه أيضا
 أنه قال: لا تخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد، كما قال تعالى:
 { يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم } (المائدة: 54) .
 قال الضحاك ومقاتل: اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته.
 وقال مقاتل بن سليمان: نسخها قوله (4) { فاتقوا الله ما استطعتم }
 (التغابن: 16) ، وقال أكثر المفسرين: "حق الجهاد": أن تكون نيته خالصة
 صادقة لله عز وجل. وقال السدي: هو أن يطاع فلا يعصى.
 وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى، وهو الجهاد الأكبر، وهو
 حق الجهاد. وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة
 تبوك قال: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد

(1) أخرجه مسلم في المساجد، باب: سجود التلاوة برقم: (578) 1 / 406،
 والمصنف في شرح السنة: 3 / 301.

(2) أخرجه البخاري في سجود القرآن، باب سجدة ص: 2 / 552، والمصنف
 في شرح السنة: 3 / 306.

(3) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب: تفریح أبواب السجود: 2 / 117، وابن
 ماجه في إقامة الصلاة، باب: عدد سجود القرآن: 1 / 335 برقم: (1057)،

والحاكم، 1 / 223 وقال: هذا حديث رواه مصريون قد احتج الشيخان بأكثرهم وليس في عدد سجود القرآن أتم منه ولم يخرجاه.
(4) انظر فيما سبق: 3 / 2 تعليق (1).

(5/402)

الأكبر" (1) وأراد بالجهاد الأصغر الجهاد مع الكفار، وبالجهاد الأكبر الجهاد مع النفس.

{ هُوَ اجْتَبَاكُمْ } أي: اختاركم لدينه، { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } ضيق، معناه: أن المؤمن لا يتلى بشيء من الذنوب إلا جعل الله له منه مخرجا، بعضها بالتوبة، وبعضها برد المظالم والقصاص، وبعضها بأنواع الكفارات، فليس في دين الإسلام ذنب لا يجد العبد سبيلا إلى الخلاص من العقاب فيه.

وقيل: من ضيق في أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج إذا التبس ذلك عليكم، وسع ذلك عليكم حتى تتيقنوا.
وقال مقاتل: يعني الرخص عند الضرورات، كقصر الصلاة في السفر، والتميم، وأكل الميتة عند الضرورة، والإفطار بالسفر والمرض، والصلاة قاعدا عند العجز. وهو قول الكلبي.

وروي عن ابن عباس أنه قال: الحرج ما كان على بني إسرائيل من الآصال التي كانت عليهم، وضعها الله عن هذه الأمة (2).
{ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } أي كلمة أبيكم، نصب بنزع حرف الصفة. وقيل: نصب على الإغراء، أي: اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم، [وإنما أمرنا باتباع ملة إبراهيم] (3) لأنها داخله في ملة محمد صلى الله عليه وسلم.
فإن قيل: فما وجه قوله: { مِلَّةَ أَبِيكُمْ } وليس كل المسلمين يرجع نسبهم إلى إبراهيم؟

قيل: خاطب به العرب وهم كانوا من نسل إبراهيم. وقيل: خاطب به جميع المسلمين، وإبراهيم أب لهم، على معنى وجوب احترامه وحفظ حقه كما يجب احترام الأب، وهو كقوله تعالى: { وأزواجه

(1) قال ابن حجر في الكافي الشاف ص 114: "ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرجه البيهقي في "الزهد" من حديث جابر، قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم غزاة، فقال: قدمتم بخير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه" قال: فيه ضعف قلت - ابن حجر - هو من رواية عيسى ابن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث ابن أبي سليم، والثلاثة ضعفاء، وأورده النسائي في "الكنى" من قول إبراهيم بن أبي عبلة، أحد التابعين من أهل الشام. ورواه الخطيب البغدادي في التاريخ: 13 / 493، ونسبه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: 3 / 7 للبيهقي وقال: هذا إسناد فيه ضعف انظر كشف الخفاء: 1 / 511، ضعيف الجامع الصغير: 14 / 118، الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة للقراري ص 211 - 212.

(2) عزاه السيوطي في الدر المنثور: 6 / 78 لابن أبي حاتم بلفظ: (الإصر

الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم).
(3) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(5/403)

أمهاتهم { (الأحزاب: 6) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا لكم مثل
الوالد [لوالده] (1) " (2) .
{ هُوَ سَمَّاكُمُ } يعني أن الله تعالى سماكم { الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ } يعني من
قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة. { وَفِي هَذَا } أي: في الكتاب، هذا
قول أكثر المفسرين. وقال ابن زيد: "هو" يرجع إلى إبراهيم أي أن إبراهيم
سماكم المسلمين في أيامه، من قبل هذا الوقت، وفي هذا الوقت، وهو قوله:
{ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ } (البقرة: 127) ،
{ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ } يوم القيامة أن قد بلغكم، { وَتَكُونُوا } أنتم،
{ شُهَدَاءَ عَلَيَّ النَّاسِ } أن رسلكم قد بلغتهم، { فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ } أي: ثقوا بالله وتوكلوا عليه. قال الحسن: تمسكوا بدين الله.
وروي عن ابن عباس قال: سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يكره (3) .
وقيل: معناه ادعوه ليثبتكم على دينه. وقيل: الاعتصام بالله هو التمسك
بالكتاب والسنة، { هُوَ مَوْلَاكُمْ } [وليكم] (4) وناصركم وحافظكم، { قَنِعَمَ
الْمَوْلَى وَيَنْعَمَ النَّصِيرُ } الناصر لكم.

(1) زيادة من "ب".

(2) قطعة من حديث أخرجه أبو داود في الطهارة، باب: كراهية استقبال
القبلة عند قضاء الحاجة: 1 / 18 بلفظ: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد)، والنسائي
في الطهارة، باب: النهي عن الاستطابة بالروث: 1 / 38، وابن ماجه في
الطهارة، باب: الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروثة والرمة: 1 / 114 برقم (313)،
والدارمي 11 / 172 - 173، وصححه ابن حبان برقم (128) ص (62)،
وابن خزيمة: 1 / 44 والشافعي: 1 / 28، والمصنف في شرح السنة: 1 / 356
وقال هذا حديث صحيح.
(3) انظر زاد المسير 5 / 457.
(4) ساقط من "ب".

(5/404)

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)

سورة المؤمنون
مكية بسم الله الرحمن الرحيم
{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) }
أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالح، أخبرنا أحمد بن الحسين الحيري، أخبرنا
حاجب بن أحمد الطوسي، أخبرنا محمد بن حماد، أخبرنا عبد 30/ الرزاق،
أخبرنا يونس بن سليمان، أملى علي يونس صاحب أيلة، عن ابن شهاب، عن

عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبد القارئ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل، فمكثنا ساعة -وفي رواية: فنزل علينا يوماً فمكثنا ساعة -فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: " اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأثرنا ولا تؤثر علينا، وارضي عنا، ثم قال: لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة"، ثم قرأ { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } إلى عشر آيات.

ورواه أحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، وجماعة عن عبد الرزاق، وقالوا: "وأعطنا ولا تحرمنا وأرضنا وارض عنا" (1). قوله تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } "قد" حرف تأكيد، وقال المحققون: "قد" تقرب الماضي من

(1) أخرجه الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة المؤمنين: 9 / 16 - 17، والإمام أحمد: 1 / 34، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: 1 / 535، والمصنف في شرح السنة: 5 / 177 وقال: "هذا حديث حسن، ويونس صاحب أيلة: هو يونس بن يزيد الأيلي صاحب الزهري".

(5/405)

الحال، يدل على أن الفلاح قد حصل لهم، وأنهم عليه في الحال، وهو أبلغ من تجريد ذكر الفعل، "والفلاح" النجاة والبقاء، قال ابن عباس: قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا في الجنة. { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } اختلفوا في معنى الخشوع، فقال ابن عباس: مخبتون أذلاء. وقال الحسن وقتادة: خائفون. وقال مقاتل: متواضعون. وقال مجاهد: هو غص البصر وخفض الصوت.

والخشوع قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن، والخشوع في القلب والبدن والبصر والصوت، قال الله عز وجل: "وخشعت الأصوات للرحمن" (طه 108-).

وعن علي رضي الله عنه: هو أن لا يلتفت يمينا ولا شمالا. وقال سعيد بن جبیر: هو أن لا يعرف من على يمينه ولا من على يساره، ولا يلتفت من الخشوع لله عز وجل.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، حدثنا مسدد، أخبرنا أبو الأحوص، أخبرنا أشعث بن سليم، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال: "هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد" (1).

وأخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو الحسن القاسم بن بكر الطيالسي ببغداد، أخبرنا أبو أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسي، أخبرنا عبد الغفار بن عبيد الله، أخبرنا صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري، عن أبي الأحوص، عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يزال الله مقبلا على العبد ما كان في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت اعرض عنه" (2).

وقال عمرو بن دينار: هو السكون وحسن الهيئة. وقال ابن سيرين وغيره: هو أن لا ترفع بصرك عن موضع سجودك.
وقال أبو هريرة: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزل: { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } رموا بأبصارهم إلى مواضع السجود.

(1) أخرجه البخاري في الأذان باب: الالتفات في الصلاة: 2 / 234، والمصنف في شرح السنة: 3 / 251.
(2) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب: الالتفات في الصلاة: 1 / 429، والنسائي في السهو، باب: التشديد في الالتفات في الصلاة: 3 / 8، وابن خزيمة في صحيحه: 1 / 244، والإمام أحمد: 5 / 172، والحاكم: 1 / 236 وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبو الأحوص هذا مولى بني الليث تابعي من أهل المدينة، وثقه الزهري وروى عنه، وجرت بينه وبين سعد ابن إبراهيم مناظرة في معناه". والمصنف في شرح السنة: 3 / 252 وقال: "صالح بن أبي الأخضر، ضعيف يروي عن الزهري". وروى هذا الحديث عبد الله بن المبارك وغيره عن يونس عن الزهري قال المنذري: "وأبو الأحوص - هذا - لا يعرف له اسم، وهو مولى بني ليث، وقيل: مولى بني غفار، ولم يرو عنه الزهري. قال يحيى بن معين: ليس هو بشيء، وقال أبو أحمد الكرايسي: ليس بالمتين عندهم". مختصر سنن أبي داود: 1 / 429 وقال: النووي في "الخلاصة": هو فيه جهالة، لكن الحديث لم يضعفه أبو داود فهو حسن عنده انظر: نصب الراية: 2 / 89.

(5/408)

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4)

أخبرنا عبد الواحد المليحي ، أخبرنا أحمد النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا علي بن عبد الله، أخبرنا يحيى بن سعيد، أخبرنا ابن أبي عروبة، أخبرنا قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم"، فاشتد قوله في ذلك حتى قال: "لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم" (1).
وقال عطاء: هو أن لا تعبت بشيء من جسدك في الصلاة. وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أبصر رجلا يعبت بلحيته في الصلاة فقال: "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه" (2).
أخبرنا أبو عثمان الضبي، أخبرنا أبو محمد الجراحي، أخبرنا أبو العباس المحبوبي، أخبرنا أبو عيسى الترمذي، أخبرنا سعيد، عن عبد الرحمن المخزومي، أخبرنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن أبي الأحوص، عن أبي ذر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى فإن الرحمة تواجهه" (3).
وقيل: الخشوع في الصلاة هو جمع الهمة، والإعراض عما سواها، والتدبر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر.

{ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ قَاعِلُونَ (4) }
 قوله عز وجل: { وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ } قال عطاء عن ابن عباس:
 عن الشرك، وقال الحسن: عن المعاصي. وقال الزجاج: عن كل باطل وهو
 وما لا يحل من القول والفعل. وقيل: هو معارضة الكفار بالشتيم والسب: قال
 الله تعالى: "وإذا مروا باللغو مروا كراما" (الفرقان-72) ، أي: إذا سمعوا
 الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه. { وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ قَاعِلُونَ }
 أي: للزكاة الواجبة مؤدون، فعبر عن التأدية بالفعل لأنها فعل. وقيل: الزكاة
 هاهنا هو العمل الصالح، أي: والذين هم للعمل الصالح فاعلون.

- (1) أخرجه البخاري في السهو، باب: رفع البصر إلى السماء في الصلاة: 2 / 233، والمصنف في شرح السنة: 3 / 258 .
 (2) قال المناوي في "الفتح السماوي" (2 / 854): أخرجه الحكيم الترمذي
 في نوادر الأصول بسند ضعيف من حديث أبي هريرة، وفيه سليمان بن عمرو
 وهو أبو داود النخعي أحد من اتهم بوضع الحديث. وانظر: إرواء الغليل: 2 / 92 -
 93، سلسلة الأحاديث الضعيفة: 1 / 143 - 144.
 (3) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب: مسح الحصى في الصلاة: 1 / 443،
 والترمذي في الصلاة، باب: ما جاء في كراهية مسح الحصى في الصلاة: 2 / 382،
 والنسائي في السهو، باب: النهي عن مسح الحصى في الصلاة: 3 / 6،
 وابن ماجه في الإقامة، باب: مسح الحصى برقم: (1027) 1 / 328، وابن
 حبان في المواقيت، باب: فيما ينهى عنه في الصلاة ص 131 من موارد
 الظمان، والإمام أحمد: 5 / 150، والمصنف في شرح السنة: 3 / 158.

(5/409)

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ
 غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ
 لِأَمَانَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَٰئِكَ
 هُمُ الْوَارِثُونَ (10)

{ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
 فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ
 لِأَمَانَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9)
 أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) }
 { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ } الفرج: اسم يجمع سواة الرجل والمرأة،
 وحفظ الفرج: التعفف عن الحرام. { إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ } أي: من أرواحهم، و
 "على" بمعنى "من". { أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } { مَا } في محل الخفض، يعني
 أو ما ملكت أيمانهم، والآية في الرجال خاصة بدليل قوله: "أو ما ملكت
 أيمانهم" والمرأة لا يجوز أن تستمتع بفرج مملوكها. { فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ }
 يعني يحفظ فرجه إلا من امرأته أو أمته فإنه لا يلام على ذلك، وإنما لا يلام
 فيهما إذا كان على وجه أذن فيه الشرع دون الإتيان في غير المأتي، وفي حال
 الحيض والنفاس، فإنه محظور وهو على فعله ملوم. { فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ }
 أي: التمس وطلب سوى الأزواج والولائد المملوكة، { فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ }

الظالمون المتجاوزون من الحلال إلى الحرام 30/ب وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام، وهو قول أكثر العلماء. قال ابن جريج: سألت عطاء عنه فقال: مكروه، سمعت أن قوما يحشرون وأيديهم حبالى فأظن أنهم هؤلاء. وعن سعيد بن جبير قال: عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم. { وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَاتِهِمْ } قرأ ابن كثير "لأمانتهم" على التوحيد هاهنا وفي سورة المعارج، لقوله تعالى: "وعهدهم" والباقون بالجمع، كقوله عز وجل: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها (النساء -57) ، { وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } حافظون، أي: يحفظون ما أئتمنوا عليه، والعقود التي عاقدوا الناس عليها، يقومون بالوفاء بها، والأمانات تختلف فتكون بين الله تعالى وبين العبد كالصلاة والصيام والعبادات التي أوجبها الله عليه، وتكون بين العبيد كالودائع والصنائع فعلى العبد الوفاء بجميعها. { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ } قرأ حمزة والكسائي "صلاتهم" على التوحيد، والآخرين صلواتهم على الجمع. { يُحَافِظُونَ } أي: يداومون على حفظها وبراعون أوقاتها، كرر ذكر الصلاة ليبين أن المحافظة عليها واجبة كما أن الخشوع فيها واجب. { أَوْلِيكَ } أهل هذه الصفة، { هُمْ الْوَارِثُونَ } يرثون منازل أهل النار من الجنة.

(5/410)

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13)

وروي عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله" (1) وذلك قوله تعالى: { أَوْلِيكَ هُمْ الْوَارِثُونَ }

وقال مجاهد: لكل واحد منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني منزله الذي له في الجنة ويهدم منزله الذي له في النار، وأما الكافر فيهدم منزله الذي في الجنة ويبني منزله الذي في النار. وقال بعضهم: معنى الوراثة هو أنه يتول أمرهم إلى الجنة وينالونها، كما يتول أمر الميراث إلى الوارث.

{ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) }

قوله تعالى: { الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ } وهو أعلى الجنة قد ذكرناه في سورة الكهف (2) { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } لا يموتون ولا يخرجون، وجاء في الحديث:

"أن الله تعالى خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده، ثم قال: وعزتي لا يدخلها مدمن خمر، ولا ديوث" (3). قوله عز وجل: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ } يعني: ولد آدم، و "الإنسان" اسم الجنس، يقع على الواحد والجمع، { مِنْ سُلَالَةٍ } روي عن ابن عباس أنه قال: السلالة صفوة الماء. وقال مجاهد: من بني آدم. وقال عكرمة: هو يسيل من الظهر، والعرب تسمى النطفة سلالة، والولد سليلا وسلالة، لأنهما مسلولان منه.

قوله: { مِنْ طِينٍ } يعني: طين آدم. والسلالة تولدت من طين خلق آدم منه.

قال الكلبي: من نطفة سلت من طين، والطين آدم عليه السلام، وقيل المراد من الإنسان هو آدم. وقوله: "من سلالة: أي: سل من كل تربة. { ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً } يعني الذي هو الإنسان جعلناه نطفة، { فِي قَرَارٍ مَكِينٍ } حريز، وهو الرحم مُكِن [أي قد هيئ] (4) لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها.

- (1) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب: صفة الجنة: 2 / 1453 برقم (4341) وقال: في الزوائد، هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.
(2) راجع فيما سبق ، تفسير سورة الكهف.
(3) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات: 2 / 47 مرسلا وأشار إلى تضعيفه بقوله: "هذا مرسل، وفيه إن ثبت دلالة على أن الكتب هاهنا بمعنى الخلق"، وعزاه في الكنز أيضا (6 / 131) للخرائطي في مساوئ الأخلاق وللديلمي في الفردوس.
(4) ساقط من "أ".

(5/411)

ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

{ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16) }

{ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا } قرأ ابن عامر وأبو بكر "عظما"، { فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ } على التوحيد فيهما، وقرأ الآخرون بالجمع لأن الإنسان ذو عظام كثيرة. وقيل: بين كل خلقين أربعون يوما. { فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا } أي البسنا، { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ } اختلف المفسرون فيه، فقال ابن عباس: ومجاهد، والشعبي، وعكرمة، والضحاك، وأبو العالية: هو نفخ الروح فيه (1). وقال قتادة: نبات الأسنان والشعر. وروى ابن جريج عن مجاهد: أنه استواء الشباب. وعن الحسن قال: ذكرا أو أنثى. وروى العوفي عن ابن عباس: أن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال إلى الارتضاع، إلى القعود إلى القيام، إلى المشي إلى الفطام، إلى أن يأكل ويشرب، إلى أن يبلغ الحلم، ويتقلب في البلاد إلى ما بعدها. { فَتَبَارَكَ اللَّهُ } أي: استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال. { أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } المصورين والمقدرين. و "الخلق" في اللغة: التقدير. وقال مجاهد: يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين، يقال: رجل خالق أي: صانع. وقال ابن جريج: إنما جمع الخالقين لأن عيسى كان يخلق كما قال: "إني أخلق لكم من الطين" (آل عمران-49) فأخبر الله عن نفسه بأنه أحسن الخالقين (2). { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ } والميت -بالتشديد- والمات الذي لم يمت بعد وسيموت، والميت -بالتخفيف-: من مات، ولذلك لم يجر التخفيف هاهنا، كقوله: "إنك ميت وإنهم ميتون" (الزمر-30). { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } . {

(1) وهو ما رجحه الطبري في التفسير: (18 / 11) وذلك أنه بنفخ الروح فيه يتحول خلقاً آخر إنساناً، وكان قبل ذلك بالأحوال التي وصفها الله أنه كان بها من نطفة وعلقة ومضغة وعظم، وبنفخ الروح فيه يتحول عن تلك المعاني كلها إلى معنى الإنسانية، كما تحول أبواه آدم بنفخ الروح في الطينة التي خلق منها إنساناً، وخلقاً آخر غير الطين الذي خلق منه.

(2) أخرج الطبري هذين القولين، ورجح قول مجاهد؛ لأن العرب تسمي كل صانع خالقا، ومنه قول زهير: ولأنت تفري ما خلقت وبعض ... بنات القوم يخلق ثم لا يفري

انظر: تفسير الطبري: 18 / 11 ، زاد المسير: 5 / 463 - 464.

(5/412)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17)

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) }

(5/413)

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18)

{ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18) }

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ } أي: سبع سموات، سميت طرائق لتطارقها، وهو أن بعضها فوق بعض، يقال: طارقت النعل إذا جعلت بعضه فوق بعض. وقيل: سميت طرائق لأنها طرائق الملائكة. { وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ } أي كنا لهم حافظين من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم كما قال الله تعالى: "ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه" (الحج-65) . وقيل: ما تركناهم سدى بغير أمر ونهي.

وقيل: وما كنا عن الخلق غافلين أي بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب. { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ } يعلمه الله. قال مقاتل: بقدر ما يكفيهم للمعيشة، { فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ } يريد ما يبقى في الغدران والمستنقعات، ينتفع به الناس في الصيف عند انقطاع المطر. وقيل: فأسكناه في الأرض ثم أخرجنا منها ينابيع، فماء الأرض كله من السماء، { وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ } حتى تهلکوا عطشا وتهلك مواشیکم وتخرب أراضيكم 31/أ وفي الخبر: "أن الله عز وجل أنزل أربعة أنهار من الجنة: سيحان، وجيحان، ودجلة، والفرات" (1) .

وروى مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله عز وجل أنزل من الجنة خمسة أنهار: جيحون، وسيحون، ودجلة، والفرات، والنيل، أنزلها الله عز وجل من عين واحدة من

عيون الجنة، من أسفل درجة من درجاتها، على جناحي جبريل، استودعها الله الجبال، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس، فذلك قوله عز وجل: "وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض"، فإذا كان عند خروج ياجوج ومأجوج أرسل الله جبريل فرفع من الأرض القرآن، والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت، ومقام إبراهيم وتابوت موسى بما فيه، وهذه الأنهار الخمسة، فيرفع كل ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى: { وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهٖ لَقَادِرُونَ } فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا (2) .
وروى هذا الحديث الإمام الحسن بن يوسف، عن عثمان بن سعيد بالإجازة، عن سعيد بن سابق الإسكندراني، عن مسلمة بن علي، عن مقاتل بن حيان (3) .

- (1) عزاه السيوطي في الدر: 6 / 95 لابن أبي الدنيا عن ابن عطاء.
(2) عزاه السيوطي في الدر: 6 / 95 لابن مردويه والخطيب بسند ضعيف وانظر: البحر المحيط: 6 / 400.
(3) مسلمة بن علي الخشني متروك. انظر التقريب لابن حجر.

(5/413)

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيْغٌ لِلْأَكْلِيِّنَ (20)

{ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيْغٌ لِلْأَكْلِيِّنَ (20) } قوله تعالى: { فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ } أي: بالماء، { جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا } في الجنات، { فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } شتاء وصيفاً، وخص النخيل والأعناب بالذكر لأنها أكثر فواكه العرب. { وَشَجَرَةً } أي: وأنشأنا لكم شجرة { تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ } وهي الزيتون، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو "سيناء" بكسر السين. وقرأ الآخرون بفتحها واختلفوا في معناه وفي "سينين" في قوله تعالى: "وطور سينين" (التين-2) قال مجاهد: معناه البركة، أي: من جبل مبارك. وقال قتادة: معناه الحسن، أي: من الجبل الحسن. وقال الضحاك: هو بالنبطية، ومعناه الحسن. وقال عكرمة: هو بالحبشية. وقال الكلبي: معناه الشجر، أي: جبل ذو شجر. وقيل: هو بالسريانية الملتفة بالأشجار. وقال مقاتل: كل جبل فيه أشجار مثمرة فهو سينا، وسينين بلغة النبط. وقيل: هو فيعال من السناء وهو الارتفاع. قال ابن زيد: هو الجبل الذي نودي منه موسى بين مصر وأيلة. وقال مجاهد: سينا اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها لوجودها عنده. وقال عكرمة: هو اسم المكان الذي فيه هذا الجبل (1) .
{ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ } قرأ ابن كثير وأهل البصرة ويعقوب "تنبت" بضم التاء وكسر الباء، وقرأ الآخرون بفتح التاء وضم الباء، فمن قرأ بفتح التاء فمعناه تنبت تثمر الدهن وهو الزيتون. وقيل: تنبت ومعها الدهن، ومن قرأ بضم التاء، اختلفوا فيه فمنهم من قال: الباء زائدة، معناه: تنبت الدهن، كما يقال: أخذت ثوبه وأخذت بثوبه، ومنهم من قال: نبت وأنبت لغتان بمعنى واحد، كما قال زهير: رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم ... قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل (2)
أي: نبت، { وَصَيْغٌ لِلْأَكْلِيِّنَ } الصيغ والصباغ: الإدام الذي يلون الخبز إذا غمس

فيه وينصبغ، والإدام كل ما يؤكل مع الخبز، سواء ينصبغ به الخبز أو لا ينصبغ.
قال مقاتل: جعل

(1) ذكر هذه الأقوال الطبري: 18 / 13 - 14 وقال مرجحاً: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن سينا اسم أضيف إليه الطور يعرف به، كما قيل جبلا طيئ، فأضيفا إلى طيئ، ولو كان القول في ذلك كما قال من قال: معناه: جبل مبارك، أو كما قال: من قال: معناه حسن، لكان الطور منونا، وكان قوله سينا، من نعته، على أن سينا بمعنى: مبارك وحسن، غير معروف في كلام العرب، فيجعل ذلك من نعت الجبل، ولكن القول في ذلك إن شاء الله، كما قال ابن عباس من أنه جبل عرف بذلك، وأنه الجبل الذي نودي منه موسى صلى الله عليه وسلم، وهو مع ذلك مبارك، لا أن معنى سينا: معنى مبارك".
(2) انظر: "شرح ديوان زهير" ص (111)، "تفسير الطبري" 18 / 14، "لسان العرب" لابن منظور، مادة (نبت).

(5/414)

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (24) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26)

الله في هذه الشجرة أدما ودهنا، فالأدم: الزيتون، والدهن: الزيت، وقال: خص الطور بالزيتون لأن أول الزيتون نبت بها. ويقال: أن الزيتون أول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان.

{ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (24) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26) }

قوله عز وجل: { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً } أي: آية تعتبرون بها، { نُسْقِيكُمْ } قرأ نافع بالنون [وفتحها] (1) وقرأ أبو جعفر هاهنا بالتاء وفتحها، { مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } { وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ } أي: على الإبل في البر، وعلى الفلك في البحر. قوله عز وجل: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ } وحدوه، { مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } { مَعْبُودٌ سِوَاهُ } { أَفَلَا تَتَّقُونَ } أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره. { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ } أي: يتشرف بأن يكون له الفضل عليكم فيصير متبوعاً وأنتم له تبع، { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ } أن لا يعبد سواه، { لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً } يعني بإبلاغ الوحي. { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا } الذي يدعوننا إليه نوح { فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ } وقيل: "ما سمعنا بهذا" أي: بإرسال

بشر رسولا. { إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ } أي: جنون، { فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ }
أي: إلى أن يموت فتستريحوا منه. { قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } أي: أعني
بإهلاكهم لتكذيبهم إياي.

(1) ساقط من "ب".

(5/415)

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا
مِنْ كُلِّ رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلِكْ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ (27)

{ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ
فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلِكْ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ (27) }

(5/416)

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (29) إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31)
فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32)

{ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (29)
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31)
فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32) }

{ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ
فِيهَا } أدخل فيها، يقال سلكته في كذا وأسلكته فيه، { مِنْ كُلِّ رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ
وَأَهْلِكْ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ } أي من سبق عليه الحكم بالهلاك.
{ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ } { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ } اعتمدت
{ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }
أي: الكافرين. { وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا } قرأ أبو بكر عن عاصم
"منزلا" بفتح الميم وكسر الزاي، أي يريد موضع النزول، قيل: هو السفينة بعد
الركوب، وقيل: هو الأرض بعد النزول، ويحتمل أنه أراد في السفينة، ويحتمل
بعد الخروج، وقرأ الباقون "منزلا" بضم الميم وفتح الزاي، أي إنزالا فالبركة
في السفينة النجاة، وفي النزول بعد الخروج كثرة النسل من أولاده الثلاثة،
{ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ } { إِنَّ فِي ذَلِكَ } أي الذي ذكرت من أمر نوح والسفينة
وإهلاك أعداء الله، { لآيَاتٍ } لدلالات على قدرته، { وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ } وقد
كنا. وقيل: وما كنا إلا مبتلين أي: مختبرين إياهم بإرسال نوح ووعظه وتذكيره

31/ب لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم. { ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ } من بعد إهلاكهم، { قَرْنًا آخِرِينَ } { فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ } يعني: هودا وقومه. وقيل: صالحا وقومه. والأول أظهر، { أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ }

(5/416)

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمْ بِأَكْلٍ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشِيرًا مِثْلَكُمْ لَأَنَّكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ (34) أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (39) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (40) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عَتَاءً قَبْعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخِرِينَ (42)

{ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمْ بِأَكْلٍ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشِيرًا مِثْلَكُمْ لَأَنَّكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ (34) أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (39) }
{ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ } أي المصير إلى الآخرة، { وَأَتْرَفْنَاهُمْ } نعمناهم ووسعنا عليهم، { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمْ بِأَكْلٍ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ } أي: مما تشربون منه. { وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشِيرًا مِثْلَكُمْ لَأَنَّكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ } لمغبونون. { أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ } من قبوركم أحياء وأعاد "أنكم" لما طال الكلام، ومعنى الكلام: أبعادكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما مخرجون؟ وكذلك هو في قراءة عبد الله، نظيره في القرآن: "ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها" (التوبة-63). { هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ } قال ابن عباس: هي كلمة بعد، أي: بعيد ما توعدون، قرأ أبو جعفر "هيهات هيهات" بكسر التاء، وقرأ نصر بن عاصم بالضم، وكلها لغات صحيحة فمن نصب جعله مثل أين وكيف، ومن رفع جعله مثل منذ وقط وحيث، ومن كسر جعله مثل أمس وهؤلاء، ووقف عليها أكثر القراء بالتاء، ويروى عن الكسائي الوقف عليها بالهاء. { إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا } { إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا } قيل فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت. وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء. وقيل: يموت قوم ويحيا قوم. { وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } بمنشرين بعد الموت. { إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ } بمصدقين بالبعث بعد الموت. { قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ } { قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (40) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عَتَاءً قَبْعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخِرِينَ (42) }

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ
أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَا لَهُمْ آخِذِينَ قُبَعًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ
(44)

{ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا
جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَا لَهُمْ آخِذِينَ قُبَعًا لِقَوْمٍ لَا
يُؤْمِنُونَ (44) }
{ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ { أي: عن قليل، و "ما" صلة،

{ لِيُصِخَّرَ } ليصيرن، { تَادِمِينَ } على كفرهم وتكذيبهم. { فَأَخَذَهُمُ الصَّيْحَةُ }
{ يعني صيحة العذاب، { بِالْحَقِّ } قيل: أراد بالصيحة الهلاك. وقيل: صاح بهم
جبريل صيحة فتصدعت قلوبهم، { فَجَعَلْنَا لَهُمْ عُتَاءً } وهو ما يحمله السيل من
حشيش وعيدان بشجر، معناه: صيرناهم هلكي فببسوا يبس العتاء من نبات
الأرض، { قُبَعًا لِقَوْمٍ الظَّالِمِينَ } { ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخِرِينَ } أي:
أقواما آخرين. { مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا } أي: ما تسبق أمة أجلها أي: وقت
هلاكها، { وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } وما يتأخرون عن وقت هلاكهم. { ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا
تَتْرَى } أي: مترادفين يتبع بعضهم بعضا غير متواصلين، لأن بين كل نبين زمانا
طويلا وهي فعلى من المواترة، قال الأصمعي: يقال واترت الخبر أي أتبع
بعضه بعضا، وبين الخبرين [هنيهة] (1).

واختلف القراء فيه، فقرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو: بالتنوين، ويقفون
بالألف، ولا يميله أبو عمرو، وفي الوقف فيها كالألف في قولهم: رأيت زيدا،
وقرأ الباقر بلا تنوين، والوقف عندهم يكون بالياء، ويميله حمزة والكسائي،
وهو مثل قولهم: غضبي وسكري، وهو اسم جمع مثل شتي، وعلى القراءتين
التاء الأولى بدل من الواو، وأصله: "وترى" من المواترة والتواتر، فجعلت الواو
تاء، مثل: التقوى والتكلان.

{ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا } بالهلاك، أي: أهلكتنا
بعضهم في إثر بعض، { وَجَعَلْنَا لَهُمْ آخِذِينَ } أي: سمرا وقصصا، يتحدث من
بعدهم بأمرهم وشأنهم، وهي

(1) في "ب" مهلة.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا

عَايِدُونَ (47) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ (50)

جمع أحداثه. وقيل: جمع حديث. قال الأخفش: إنما هو في الشر، وأما في
الخير فلا يقال جعلتهم أحاديث وأحداثه، إنما يقال صار فلان حديثاً، { قَبْعَدًا
لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ }

{ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45) إِلَى فِرْعَوْنَ
وَمَلِيئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا
لَنَا عَايِدُونَ (47) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ (50) }

{ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ } أي بحجة بينة من اليد
والعصا. وغيرهما. { إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِيئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا } تعظموا عن الإيمان،
{ وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ } متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم. { فَقَالُوا } يعني
فرعون وقومه، { أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلِنَا } يعني: موسى وهارون، { وَقَوْمُهُمَا لَنَا
عَايِدُونَ } مطيعون متذللون، والعرب تسمى كل من دان للملك: عابدا له.
{ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ } بالغرق. { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ }
التوراة، { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } أي لكي يهتدي به قومه. { وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ
آيَةً } دلالة على قدرتها، ولم يقل آيتين، قيل: معناه شأنهما آية. وقيل: معناه
جعلنا كل واحد منهما آية، كقوله تعالى: "كلتا الجنتين آتت أكلها" (الكهف-33)
. { وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ } الربوة المكان المرتفع من الأرض، واختلفت الأقوال
فيها، فقال عبد الله بن سلام: هي دمشق، وهو قول سعيد بن المسيب
ومقاتل، وقال الضحاك: غوطة دمشق. وقال أبو هريرة: هي الرملة. وقال
عطاء عن ابن عباس: هي بيت المقدس، وهو قول قتادة وكعب. وقال كعب:
هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا. وقال ابن زيد: هي مصر.
وقال السدي: أرض فلسطين (1). { ذَاتِ قَرَارٍ } أي: مستوية منبسطة
واسعة يستقر عليها ساكنوها. { وَمَعِينٍ } فالمعين الماء الجاري الظاهر الذي
تراه العيون، مفعول من عانه يعينه إذا أدركه البصر.

(1) ذكر هذه الأقوال الطبري: 18 / 25 - 27 ثم قال مرجحا: "وأولى هذه
الأقوال بتأويل ذلك: أنها مكان مرتفع ذو استواء، وماء ظاهر، وليس كذلك صفة
الرملة، لأن الرملة لا ماء بها معين، والله تعالى ذكره وصف هذه الربوة بأنها
ذات قرار ومعينط.

(5/419)

بِأَيِّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَإِن
هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ
حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ
أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ (55)

{ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرْحُونَ (53) فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) }

قوله عز وجل : { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ } قال الحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي وجماعة: أراد به محمدا صلى الله عليه وسلم وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجماعة. وقال بعضهم: أراد به عيسى. وقيل: أراد به جميع الرسل عليهم السلام، { كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ } أي الحلالات، { وَاعْمَلُوا صَالِحًا } الصلاح هو الاستقامة على ما توجبه الشريعة، { إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } { وَإِنَّ هَذِهِ } قرأ أهل الكوفة: "وإن" بكسر الألف على الابتداء، وقرأ الباقون بفتح الألف، وخفف ابن عامر النون وجعل "إن" صلة، مجازة: وهذه { أُمَّتُكُمْ } وقرأ الباقون بتشديد النون على 32/أ معنى وبأن هذا، تقديره: بأن هذه أمتكم، أي ملتكم وبشريعتكم التي أنتم عليها، { أُمَّةً وَاحِدَةً } أي ملة واحدة وهي الإسلام، { وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } أي: اتقوني لهذا. وقيل: معناه أمرتكم بما أمرت به المرسلين من قبلكم، فأمركم واحد، { وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } فاحذرون. وقيل: هو نصب بإضمار فعل، أي: اعلمو أن هذه أمتكم، أي ملتكم، أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون. { فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ } دينهم، { بَيْنَهُمْ } أي: تفرقوا فصاروا فرقا، يهودا ونصارى ومجوسا، { زُبُرًا } أي: فرقا وقطعا مختلفة، واحدها زبور وهو الفرقة والطائفة، ومثله الزبرة وجمعها زبر، ومنه: "زبر الحديد" (الكهف -96). أي: صاروا فرقا كزبر الحديد. وقرأ بعض أهل الشام "زبرا" بفتح الباء، قال قتادة ومجاهد "زبرا" أي: كتبا، يعني دان كل فريق بكتاب غير الكتاب الذي دان به الآخرون. وقيل: جعلوا بينهم قطعا مختلفة، آمنوا بالبعث، وكفروا بالبعث، وحرفوا البعض، { كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ } بما عندهم من الدين، { قَرِحُونَ } معجبون ومسرورون. { فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ } قال ابن عباس: في كفرهم وضلاتهم، وقيل: عمايتهم، وقيل: غفلتهم { حَتَّى حِينٍ } إلى أن يموتوا. { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ } ما نعطيهم ونجعله مددا لهم من المال والبنين في الدنيا.

(5/420)

نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59)

{ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) }

(5/421)

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60)

{ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) }
 { تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ } أي: نجعل لهم في الخيرات، ونقدمها ثوابا
 لأعمالهم لمرضاتنا عنهم، { بَلْ لَا يَشْعُرُونَ } أن ذلك استدراج لهم. ثم ذكر
 المسارعين في الخيرات فقال: { إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ }
 أي: خائفون، والإشفاق: الخوف، والمعنى أن المؤمنين بما هم عليه من خشية
 الله خائفون من عقابه، قال الحسن البصري: المؤمن من جمع إحسانا وخشية،
 والمنافق من جمع إساءة وأمنا (1). { وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ }
 يصدقون. { وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ } . { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا } أي:
 يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات، وروي عن عائشة أنها كانت تقرأ
 "والذين يأتون ما أتوا" (2) أي: يعملون ما عملوا من أعمال البر، { وَقُلُوبُهُمْ
 وَجِلَةٌ } أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله وأن أعمالهم لا تقبل منهم، { أَنَّهُمْ
 إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } لأنهم يوقنون أنهم يرجعون إلى الله عز وجل. قال
 الحسن: عملوا لله بالطاعات [واجتهدوا فيها] (3) وخافوا أن ترد عليهم.
 أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن
 يوسف، أخبرنا محمد بن حامد، حدثنا محمد بن الجهم، أخبرنا عبد الله بن
 عمرو، أخبرنا وكيع عن مالك بن مغول، عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب،
 عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا
 وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: "لا يا بنت
 الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه" (4).

(1) أخرجه الطبري: 18 / 32.

(2) أخرجه الطبري: 18 / 33.

(3) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(4) أخرجه الترمذي في التفسير، تفسير سورة المؤمنون: 9 / 19 - 20
 والإمام أحمد: 6 / 159، 206، والحاكم: 2 / 393 - 394 وقال: هذا حديث
 صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والطبري: 18 / 34. وانظر: الدر
 المنثور: 6 / 105، سلسلة الأحاديث الصحيحة: 1 / 255 - 256.

(5/421)

أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
 وَلَدَيْنَا مِكْتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا
 وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (63) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ
 بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64)

{ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
 وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا مِكْتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ
 مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (63) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ
 بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) }

قوله عز وجل: { أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ } يبادرون إلى الأعمال
 الصالحات، { وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } أي: إليها سابقون، كقوله تعالى: "لما نهوا"
 أي: إلى ما نهوا، ولما قالوا ونحوها، وقال ابن عباس في معنى هذه الآية:

سبقت لهم من الله السعادة. وقال الكلبي: سبقوا الأمم إلى الخيرات. قوله: { وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } أي: طاقتها، فمن لم يستطع القيام فليصل قاعدا، ومن لم يستطع الصوم فليفطر، { وَلَدَيْتَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ } وهو اللوح المحفوظ، "ينطق بالحق" يبين بالصدق، ومعنى الآية: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها إلا ما أطاقت من العمل، وقد أثبتنا عمله في اللوح المحفوظ، فهو ينطق به وببينه. وقيل: هو كتب أعمال العباد التي تكتبها الحفظة، { وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } ولا ينقص من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم. ثم ذكر الكفار، فقال: { بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ } أي: في غفلة وجهالة، { مِنْ هَذَا } أي: من القرآن، { وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ } أي: للكفار أعمال خبيثة من المعاصي والخطايا محكومة عليهم من دون ذلك، يعني من دون أعمال المؤمنين التي ذكرها الله تعالى في قوله "إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون"، { هُمْ لَهَا عَامِلُونَ } لا بد لهم من أن يعملوها، فيدخلوا بها النار، لما سبق لهم من الشقاوة. هذا قول أكثر المفسرين. وقال قتادة: هذا ينصرف إلى المسلمين، وأن لهم أعمالا سوى ما عملوا من الخيرات هم لها عاملون، والأول أظهر. { حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ } أي: أخذنا أغنياءهم ورؤساءهم، { بِالْعَذَابِ } قال ابن عباس: هو السيف يوم بدر. وقال الضحاك: يعني الجوع حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف" (1) فابتلاههم الله عز وجل بالقحط حتى أكلوا الكلاب والحييف. { إِذَا هُمْ يَجْأُرُونَ } يضجون ويجزعون ويستغيثون، وأصل الجأر: رفع الصوت بالتضرع.

(1) قطعة من حديث أخرجه البخاري في الدعوات، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة: 11 / 193 - 194، ومسلم في المساجد، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة، برقم (675) 1 / 466 - 467.

(5/422)

لَا تَجْأُرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصِرُونَ (65) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَلِّي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكَصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (69)

{ لَا تَجْأُرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصِرُونَ (65) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَلِّي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكَصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (69) }

{ لَا تَجْأُرُوا الْيَوْمَ } أي لا تضرعوا، { إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصِرُونَ } لا تمنعون منا ولا ينفعكم تضرعكم. { قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَلِّي عَلَيْكُمْ } يعني القرآن، { فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكَصُونَ } ترجعون القهقري تتأخرون عن الإيمان. { مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ } يختلفوا في هذه الكناية، فأظهر الأفاويل أنها تعود إلى البيت الحرام كناية عن غير المذكور، أي: مستكبرين متعظمين بالبيت الحرام، وتعظمهم به أنهم كانوا يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته، فلا يظهر علينا أحد، ولا نخاف أحدا،

فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف، هذا قول ابن عباس ومجاهد، وجماعة، وقيل: "مستكبرين به" أي: بالقرآن فلم يؤمنوا به. والأول أظهر، المراد منه الحرم، { سَامِرًا } نصب على الحال، أي أنهم يسمرون بالليل في مجالسهم حول البيت، ووجد سامرا وهو بمعنى السمار لأنه وضع موضع الوقت، أراد تهجرون ليلا. وقيل: وجد سامرا، ومعناه الجمع 32/ب كقوله: "ثم نخرجكم طفلا" (الحج-5)، { تَهْجُرُونَ } قرأ نافع "تهجرون" بضم التاء وكسر الجيم من الإهجار وهو الإفحاش في القول، أي: تفحشون وتقولون الخنا، وذكر أنهم كانوا يسبون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقرأ الآخرون: "تهجرون" بفتح التاء وضم الجيم، أي: تعرضون عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الإيمان والقرآن، وترفضونها: وقيل: هو من الهجر وهو القول القبيح، يقال هجر يهجر هجرا إذا قال غير الحق. وقيل + تهزئون وتقولون ما لا تعلمون، من قولهم: هجر الرجل في منامه إذا هذى. { أَقَلَمَ يَدَبَّرُوا } أي: يتدبروا، { الْقَوْلَ } يعني: ما جاءهم من القول وهو القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، { أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ } فأنكروا، يريد إنا قد بعثنا من قبلهم رسلا إلى قومهم كذلك بعثنا محمدا صلى الله عليه وسلم إليهم. وقيل: "أم" بمعنى بل، يعني: جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين فلذلك أنكروا. { أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ } محمدا صلى الله عليه وسلم، { فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ } قال ابن عباس: أليس قد عرفوا محمدا صلى الله عليه وسلم صغيرا وكبيرا، وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود. وهذا على سبيل التوبيخ

(5/423)

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْتَرَتْهُمْ لِلْحَقِّ كَارَهُونَ (70) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَحْرًا رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74)

لهم على الإعراض عنه بعدما عرفوه بالصدق والأمانة. { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْتَرَتْهُمْ لِلْحَقِّ كَارَهُونَ (70) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَحْرًا رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74) }

{ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ } جنون، وليس كذلك، { بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ } يعني بالصدق والقول الذي لا تخفى صحته وحسنه على عاقل، { وَأَكْتَرَتْهُمْ لِلْحَقِّ كَارَهُونَ } { وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ } قال ابن جريج ومقاتل والسدي وجماعة: "الحق" هو الله، أي: لو اتبع الله مرادهم فيما يفعل، وقيل: لو اتبع مرادهم، فسمى لنفسه شريكا وولدا كما يقولون: { لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ } وقال الفراء والزجاج: والمراد بالحق القرآن أي: لو نزل القرآن بما يحبون من جعل الشريك والولد على ما يعتقدونه { لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ }

وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ } وهو كقوله تعالى: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" (الأنبياء-22) .
 { بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ } بما يذكرهم، قال ابن عباس: أي: بما فيه فخرهم وشرفهم، يعني القرآن، فهو كقوله تعالى: لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم (الأنبياء-10) ، أي: شرفكم، "وإنه لذكر لك ولقومك" (الزخرف-44) ، أي: شرف لك ولقومك. { فَهَمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ } يعني عن شرفهم، { مُعْرُضُونَ } { أَمْ تَسْأَلُهُمْ } على ما جئتهم به، { حَرْجًا } أجرا وجعلا { فَخَرَّاجُ رَبِّكَ حَيْرٌ } أي: ما يعطيك الله من رزقه وثوابه خير، { وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } قرأ حمزة والكسائي: "خرجا" "فخراج" كلاهما بالالف، وقرأ ابن عامر كلاهما بغير ألف، وقرأ الآخرون: "خرجا" بغير ألف "فخراج" بالالف. { وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } وهو الإسلام. { وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ } أي: عن دين الحق، { لَتَأْكُبُونَ } لعادكون مائلون.

(5/424)

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80)

{ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80) }

{ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ } قحط وجدوبة { لَلَّجُوا } تماردوا، { فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } ولم ينزعوا عنه. { وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ } وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على قريش أن يجعل عليهم سنين كسني يوسف، فأصابهم القحط، فجاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال أنشدك الله والرحم، ألسنت تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: بلى، فقال: قد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع، فادع الله أن يكشف عنا هذا القحط، فدعا فكشف عنهم، فأنزل الله هذه الآية (1) { فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ } أي: ما خضعوا وما ذلوا لربهم، وأصله طلب السكون، { وَمَا يَتَضَرَّعُونَ } أي: لم يتضرعوا إلى ربهم بل مضوا على تمردهم. { حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ } قال ابن عباس: يعني القتل يوم بدر. وهو قول مجاهد، وقيل: هو الموت. وقيل: هو قيام الساعة، { إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ } أيسون من كل خير. { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ } أي: أنشأ لكم الأسماع { وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ } لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا، { قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ } أي: لم تشكروا هذه النعم. { وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ } خلقكم، { فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }

تبعثون. { وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } أي: تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان، قال الفراء: جعلهما مختلفين، يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض، { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } ما ترون من صنعة فتعتبرون.

(1) انظر الطبري: 18 / 45، أسباب النزول للواحي ص 362 - 363 ، الدر المنثور: 6 / 111، الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل بن هادي ص 100.

(5/425)

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنبَأَ لَمْبَعُونُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83) قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ يَبْدِهِ مَلَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88)

{ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنبَأَ لَمْبَعُونُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83) قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ يَبْدِهِ مَلَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) }

{ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ } أي: كذبوا كما كذب الأولون. { قَالُوا أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنبَأَ لَمْبَعُونُونَ } لمحشورون، قالوا ذلك على طريق الإنكار والتعجب. { لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا } الوعد، { مِنْ قَبْلُ } أي: وعد آباءنا قوم ذكروا أنهم رسل الله فلم نر له حقيقة، { إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } أكاذيب الأولين. { قُلْ } يا محمد مجيبا لهم، يعني أهل مكة، { لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا } من الخلق، { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } خالفها ومالكها. { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ } ولا يد لهم من ذلك لأنهم يقرون أنها مخلوقة. { قُلْ } لهم إذا أقروا بذلك: { أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } فتعلمون أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت. { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } . { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ } قرأ العامة "الله" ومثله ما بعده، فجعلوا الجواب على المعنى، كقول القائل للرجل: من مولاك؟ فيقول: لفلان، أي أنا لفلان وهو مولاي. وقرأ أهل البصرة فيهما "الله" وكذلك هو في مصحف أهل البصرة، وفي سائر المصاحف، مكتوب بالألف كالأول، { قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } تحذرون. { قُلْ مَنْ يَبْدِهِ مَلَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ } الملكوت الملك، والتاء فيه للمبالغة، { وَهُوَ يُحْيِي } أي: يؤمن من يشاء { وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ } أي: لا يؤمن من أخافه الله، أو يمنع هو من السوء من يشاء، ولا يمنع منه من أراده بسوء، { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } قيل: معناه أجيوا إن كنتم تعلمون.

(5/426)

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلُوبٌ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89)

{ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلُوبٌ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89) }

(5/427)

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ
إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ
(91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْبِي مَا
يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا
تَعِدُّهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)
(96)

{ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ
إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ
(91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْبِي مَا
يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا
تَعِدُّهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)
(96) }

{ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلُوبٌ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } أي: تخدعون وتصرفون عن توحيد
وطاعته، والمعنى: كيف يخيل لكم الحق باطلا؟ { بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ } بالصدق
{ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } فيما يدعون من الشرك 33/أ { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا
كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ } أي: من شريك، { إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ } أي: تفرد
بما خلقه فلم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره، ومنع الإله الآخر من
الاستيلاء على ما خلق. { وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ } أي: طلب بعضهم مغالبة
بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم، ثم نزه نفسه فقال: { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ } { عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } قرأ أهل المدينة والكوفة غير حفص:
"عالم" برفع الميم على الابتداء، وقرأ الآخرون بجرها على نعت الله في
سبحان الله، { فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } أي: تعظم عما يشركون، ومعناه أنه
أعظم من أن يوصف بهذا الوصف. قوله: { قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْبِي } أي: إن
أريتنِي، { مَا يُوْعَدُونَ } أي: ما أوعدهم من العذاب. { رَبِّ } أي: يا رب،
{ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } أي: لا تهلكني بهلاكهم. { وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ
نُرِيَكَ مَا تَعِدُّهُمْ } من العذاب لهم، { لَقَادِرُونَ } { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }
أي: ادفع بالخلعة التي هي أحسن، هي الصفح والإعراض والصبر، { السَّيِّئَةِ }
يعني أذاهم، أمرهم بالصبر على أذى المشركين والكف عن المقاتلة، نسختها
آية السيف (1) { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ } يكذبون ويقولون من الشرك.

(1) تقدم في أكثر من موضع أن العلماء توسعوا في نسخ كثير من آيات الصبر
والمسالمة والحسنى بآية السيف، والحق أنه لا نسخ في هذا انظر فيما سبق :

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101)

{ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) }

{ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ } أي: أمتنع واعتصم بك، { مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ } قال ابن عباس: / نزعاتهم. وقال الحسن: وساوسهم. وقال مجاهد: نفخهم ونفثهم. وقال أهل المعاني: دفعهم بالإغواء إلى المعاصي، وأصل الهمز شدة الدفع.

{ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ } في شيء من أموري، وإنما ذكر الحضور لأن الشيطان إذا حضره يوسوسه. ثم أخبر أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند معاينة الموت، فقال: { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ } ولم يقل أرجعني، وهو يسأل الله وحده الرجعة، على عادة العرب فإنهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم، كما أخبر الله تعالى عن نفسه فقال: " { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } (الحجر-9) ، ومثله كثير في القرآن. وقيل: هذا الخطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه ابتداء بخطاب الله لأنهم استغاثوا بالله أولاً ثم رجعوا إلى مسألة الملائكة الرجوع إلى الدنيا. قوله تعالى: { لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ } أي: ضيعت أن أقول لا إله إلا الله. وقيل: أعمل بطاعة الله. قال قتادة: ما تمنى أن يرجع إلى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فرحم الله امرءاً عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب، { كَلَّا } كلمة ردع وزجر، أي: لا يرجع إليها، { إِنَّهَا } يعني: سؤاله الرجعة، { كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [ولا ينالها] (1) { وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ } أي أمامهم وبين أيديهم حاجز، { إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ } والبرزخ الحاجز بين الشيتين، واختلفوا في معناه هاهنا، فقال مجاهد: حجاب بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا. وقال قتادة: بقية الدنيا. وقال الضحاك: البرزخ ما بين الموت إلى البعث. وقيل: هو القبر، وهم فيه إلى يوم يبعثون. { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ } اختلفوا في هذه النفخة، فروى سعيد بن جبير

(1) ما بين القوسين زيادة من "ب".

فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102)

عن ابن عباس: أنها النفخة الأولى "ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض" (الزمر-68) ، { فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ } "ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون" (الزمر-68) ، "وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون" (الصفات-27) .

وعن ابن مسعود: أنها النفخة الثانية، قال: يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة فينصب على رءوس الأولين والآخرين ثم ينادي مناد: هذا فلان ابن فلان، فمن كان له قبله حق فليات إلى حقه، فيفرح المرء أن [يكون له] (1) الحق على والده وولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منه، ثم قرأ ابن مسعود "فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" (2) .

وفي رواية عطاء عن ابن عباس : أنها الثانية فلا أنساب بينهم أي: لا يتفاخرون بالأنساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون في الدنيا، ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا: من أنت ومن أي قبيلة أنت؟ ولم يرد أن الأنساب تنقطع.

فإن قيل: أليس قد جاء في الحديث: "كل سبب ونسب ينقطع إلا نسبي وسبيي" (3) .

قيل: معناه لا يبقى (4) يوم القيامة سبب ولا نسب إلا نسبه وسببه، وهو الإيمان والقرآن.

فإن قيل: قد قال هاهنا { وَلَا يَتَسَاءَلُونَ } وقال في موضع آخر: "وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون" (الصفات-27) .

الجواب: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن للقيامة أحوالا ومواطن، ففي موطن يشتد عليهم الخوف، فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون (5) .

{ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) }
{ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

(1) في "ب" قد وجب.

(2) أخرج الروايتين الطبري: 18 / 54.

(3) قطعة من حديث أخرجه الحاكم في المستدرک: 3 / 142 عن عمر رضي الله عنه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: منقطع، والطبراني: 3 / 37، قال الهيثمي: 4 / 272: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، والبيهقي: 7 / 114، وذكره ابن حجر في المطالب العلية: 4 / 177 ونسبه لابن أبي عمر، وقال البوصيري: رواه ثقات، وعزاه السيوطي في الدر المنثور: 6 / 117 للبخاري والضياء في المختارة، وانظر: تفسير ابن كثير: 3 / 257.

(4) في "ب" لا ينفذ.

(5) انظر مسائل الرازي وأجوبتها ص 238.

(5/429)

وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103)
تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104)

{ وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103)
تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) }

(5/430)

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَلِّى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا عَلَّيْتْ عَلَيْنَا
شِفْوَتْنَا وَكُنَّا قَوْمًا صَالِيْنَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107)
قَالَ أَحْسِنُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ (108)

{ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَلِّى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا عَلَّيْتْ عَلَيْنَا
شِفْوَتْنَا وَكُنَّا قَوْمًا صَالِيْنَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107)
قَالَ أَحْسِنُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ (108) }

{ وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } .
{ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ } أي: تسفع، وقيل: تحرق، { وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ }

عابسون.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد الحارثي،
أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن
عبد الله الخلال، أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن يزيد، عن أبي
السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال: "وهم فيها كالحون، قال: تشويه النار، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ
وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرتة" (1) وبهذا الإسناد
عن عبد الله بن المبارك عن حاجب بن عمر عن الحكم ابن الأعرج قال: قال:
أبو هريرة: "يعظم الكافر في النار مسيرة سبع ليال، فيصير ضرسه مثل أحد،
ويشفاهم عند سررهم، سود زرق خسر مقبوحون" (2) 33/ب قوله عز وجل:
{ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَلِّى عَلَيْكُمْ } يعني القرآن، تخوفون بها، { فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ
{ قَالُوا رَبَّنَا عَلَّيْتْ عَلَيْنَا شِفْوَتْنَا } قرأ حمزة والكسائي: "شقاوتنا" بالألف
وفتح الشين، وهما لغتان أي: غلبت علينا شفاوتنا التي كتبت علينا فلم نهتد.
{ وَكُنَّا قَوْمًا صَالِيْنَ } عن الهدى. { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا } أي: من النار، { فَإِنْ
عُدْنَا } لما تكره { فَإِنَّا ظَالِمُونَ } { قَالَ أَحْسِنُوا } أبعادوا، { فِيهَا } كما يقال
للكلب إذا طرد: احسأ، { وَلَا تُكَلِّمُونَ } في رفع العذاب، فإنني لا أرفعه عنكم،
فعند ذلك أيس المساكين (3) من الفرج، قال الحسن: هو آخر

(1) أخرجه الترمذي في التفسير، تفسير سورة المؤمنون: 9 / 20، وقال:
"هذا حديث حسن غريب صحيح"، والإمام أحمد: 3 / 88، والحاكم: 2 / 395
وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه ابن حجر في الكافي الشاف صفحة (116)
لليهقي في الشعب من رواية أبي السمع عن الهيثم بن أبي سعيد، وعزاه
السيوطي أيضا: 6 / 118 لعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وأبي يعلى وابن المنذر
وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية. وانظر: الترغيب والترهيب:
4 / 486، تفسير ابن كثير: 3 / 258.
(2) انظر: كنز العمال: 14 / 529 - 530.
(3) في "ب" المشركون.

إِنَّهُ كَانَ قَرِيبٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ (111)

كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعدها إلا الشهيق والزفير، ويصير لهم عواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون، روي عن عبد الله بن عمرو: أن أهل جهنم يدعون مالكا خازن النار أربعين عاما: (1) "يا مالك ليقض علينا ربك" (الزخرف -77) فلا يجيبهم، ثم يقول: "إنكم ماكنون" (الزخرف -77)، ثم ينادون ربهم: { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ } فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم: { أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ } فلا ينبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان إلا الزفير والشهيق.

وقال القرطبي: إذا قيل لهم: "أخسئوا فيها ولا تكلمون" انقطع رجاؤهم، وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض، وأطبقت عليهم.

{ إِنَّهُ كَانَ قَرِيبٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ (111) }

{ إِنَّهُ } الهاء في "إنه" عماد وتسمى أيضا المجهولة، { كَانَ قَرِيبٌ مِّنْ عِبَادِي } وهم المؤمنون { يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } { فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا } قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائي: "سخريا" بضم السين هاهنا وفي سورة ص، وقرأ الباقون بكسرهما، واتفقوا على الضم في سورة الزخرف. قال الخليل: هما لغتان مثل قولهم: بحر لحي، ولجى بضم اللام وكسرهما، مثل كوكب دري ودري، قال الفراء والكسائي: الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول، والضم بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل، واتفقوا في سورة الزخرف بأنه بمعنى التسخير، { حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم } أي: أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم وتسخيرهم، { ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ } نظيره: "إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون" (المطففين -29) قال مقاتل: نزلت في بلال وعمار وخباب وصهيب وسلمان والفقراء من الصحابة، كان كفار قريش يستهزئون بهم (2). { إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا } على أذاكم واستهزائكم في الدنيا، { أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ } قرأ حمزة والكسائي "أنهم" بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون بفتحها، فيكون في موضع المفعول الثاني إني جزيتهم اليوم بصبرهم الفوز بالجنة.

(1) أخرجه الحاكم: 2 / 395 وصححه ووافقه الذهبي، لكن بلفظ "يوما" بدل عام.

(2) انظر البحر المحيط: 6 / 423.

قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ
الْعَادِينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ
أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)

{ قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114)
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) }
{ قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ } قرأ حمزة والكسائي: "قل كم لبئتم" على الأمر. ومعنى
الآية : قولوا أيها الكافرون، فأخرج الكلام مخرج الواحد، والمراد منه الجماعة،
إذ كان معناه مفهوما، ويجوز أن يكون الخطاب لكل واحد منهم، أي قل يا أيها
الكافرون، وقرأ ابن كثير: قل كم، على الأمر، وقال "أن" على الخبر، لأن
الثانية جواب، وقرأ الآخرون: "قال" فيهما جميعا، أي: قال الله عز وجل للكفار
يوم البعث: كم لبئتم؟ { فِي الْأَرْضِ } أي: في الدنيا وفي القبور { عَدَدَ سِنِينَ
{ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } نسوا مدة لبئتم في الدنيا لعظم ما هم
يصدده من العذاب، { فَاسْأَلِ الْعَادِينَ } الملائكة الذين يحفظون أعمال بني
آدم ويحسونها عليهم. { قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ } أي: ما لبئتم في الدنيا، { إِلَّا قَلِيلًا }
سماه قليلا لأن الواحد وإن طال مكثه في الدنيا فإنه يكون قليلا في جنب ما
يلبث في الآخرة، لأن لبئته في الدنيا وفي القبر متناه، { لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }
قدر لبئتم في الدنيا. قوله عز وجل : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا } لعبا
وباطلا لا لحكمة، وهو نصب على الحال، أي: عاشين. وقيل: للبعث، أي: لتلعبوا
وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وهو مثل قوله: "أيحسب
الإنسان أن يترك سدى" (القيامة -36) ، وإنما خلقتكم للعبادة وإقامة أوامر الله
عز وجل ، و { وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ } أي: أفحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون في
الآخرة للجزاء، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب لا "ترجعون" بفتح التاء وكسر
الجيم.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان،
أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه،
أخبرنا بشر بن عمر، أخبرنا عبد الله بن لهيعة، أخبرنا عبد الله بن هبيرة، عن
حنشل، أن رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه في أذنيه: { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا } حتى ختم السورة فبرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: "بماذا رقيت في أذنه"؟ فأخبره، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: "والذي نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال" (1) .

(1) عزاه السيوطي في الدر : (6 / 122) للحكيم الترمذي، وأبي يعلى، وابن
أبي حاتم، وابن السني في عمل اليوم والليلة ص (298)، وأبي نعيم في الحلية
1 / 7، وابن مردويه . وفي إسناده: سلام بن رزين، لا يعرف وحديثه باطل.
وذكره الذهبي في الميزان: (2 / 175) وقال: قال العقيلي : حدثنا عبد الله
ابن أحمد بن حنبل قال. . . وساق الحديث: فقال أبي: هذا موضوع، هذا حديث
الكذابين.

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117)
وَقُلْ رَبِّ اعْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)

{ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117)
وَقُلْ رَبِّ اعْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118) }
ثم نزه الله نفسه عما يصفه به المشركون، فقال جل ذكره: { فَتَعَالَى اللَّهُ
الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } يعني السرير الحسن. وقيل:
المرتفع. { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ } أي: لا حجة له به ولا
بينة، لأنه لا حجة في دعوى الشرك، { فَإِنَّمَا حِسَابُهُ } جزاؤه، { عِنْدَ رَبِّهِ }
يجازيه بعمله، كما قال تعالى: "ثم إن علينا حسابهم" (الغاشية-26)، { إِنَّهُ لَا
يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } لا يسعد من جحد وكذب. { وَقُلْ رَبِّ اعْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ
الرَّاحِمِينَ } .

(5/433)

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1) الرَّانِيَّةُ
وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (2)

سورة النور مدنية (1) بسم الله الرحمن الرحيم
{ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1) الرَّانِيَّةُ
وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (2) }
{ سورة } أي: هذه سورة، { أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا } قرأ ابن كثير، وأبو عمرو:
"وفرضناها" بتشديد الراء، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي: أوجبنا ما فيها من
الأحكام والزمناكم العمل بها. وقيل: معناه قدرنا ما فيها من الحدود، والفرض:
التقدير، قال الله عز وجل: "فنصف ما فرضتم (البقرة-237) أي: قدرتم،
ودليل التخفيف قوله عز وجل: "إن الذي فرض عليك القرآن" (القصص-85)
وأما التشديد فمعناه: 34/أ وفصلناه وبيناه. وقيل: هو بمعنى الفرض الذي هو
بمعنى الإيجاب أيضا، والتشديد للتكثير لكثرة ما فيها من الفرائض، أي:
أوجبناها عليكم وعلى من بعدكم إلى قيام الساعة. { وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ }
واضحات، { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } يتعظون. قوله عز وجل: { الرَّانِيَّةُ وَالرَّانِي
فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ } أراد إذا كانا حرين بالغين عاقلين بكرين
غير محصنين "فاجلدوا": فاضربوا كل واحد منهما مائة جلدة، يقال جلده إذا
ضرب جلده، كما يقال رأسه وبطنه، إذا ضرب رأسه وبطنه، وذكر بلفظ الجلد
لثلا يبرح ولا يضرب

(1) مدنية كلها بإجماع العلماء، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت
سورة النور بالمدينة، وأخرج عن ابن الزبير مثله. انظر: الدر المنثور: 6 /
124، زاد المسير: 3 / 6.

الرَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ
ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3)

بحيث يبلغ اللحم، وقد وردت السنة أنه يجلد مائة ويغرب عاما (1) وهو قول أكثر أهل العلم، وإن كان الزاني محصنا فعليه الرجم، ذكرناه في سورة النساء (2)

{ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ } رحمة ورقة، وقرأ ابن كثير "رأفة" بفتح الهمزة ولم يختلفوا في سورة الحديد أنها ساكنة لمجاورة قوله ورحمة، والرأفة معنى في القلب، لا ينهى عنه لأنه لا يكون باختيار الإنسان.

روي أن عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت، فقال للجلاد: اضرب ظهرها ورجليها، فقال له ابنه: لا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، فقال يا بني إن الله عز وجل لم يأمرني بقتلها وقد ضربت فأوجعت (3).

واختلفوا في معنى الآية، فقال قوم: لا تأخذكم بهما رأفة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها، وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعي والشعبي. وقال جماعة: معناها ولا تأخذكم بهما رأفة فتخففوا الضرب ولكن أوجعوهما ضربا، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن، قال الزهري: يجتهد في حد الزنا والفرية ويخفف في حد الشرب. وقال قتادة: يجتهد في حد الزنا ويخفف في الشرب والفرية.

{ فِي دِينِ اللَّهِ } أي: في حكم الله، { إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } معناه أن المؤمن لا يأخذ الرأفة إذا جاء أمر الله تعالى.

{ وَلِيَشْهَدَ } وليحضر، { عَدَاتِهِمَا } حدهما إذا أقيم عليهما { طَائِفَةٌ } نفر، { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } قال مجاهد والنخعي: أقله رجل واحد فما فوقه، وقال عكرمة وعطاء: رجلان فصاعدا. وقال الزهري وقاتادة: ثلاثة فصاعدا. وقال مالك وابن زيد: أربعة بعدد شهود الزنا.

{ الرَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3) }

قوله عز وجل: { الرَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } اختلف العلماء في معنى الآية وحكمها فقال قوم: قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر، وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن، وهن يومئذ أخصب

(1) أخرج البخاري في الشهادات، باب: شهادة القاذف والسارق والزاني: 5 / 255 عن زيد بن خالد رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أنه أمر فيمن زنى ولم يحصن بجلد مئة وتغريب عام".

(2) أخرج البخاري في الشهادات، باب: شهادة القاذف والسارق والزاني: 2 / 183-181.

(3) أخرجه الطبري: 18 / 67 وانظر: الدر المنثور: 6 / 125-126.

أهل المدينة، فرغب أناس من فقراء المسلمين في نكاحهن لينفقن عليهم، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (1) { وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } أن يتزوجوا تلك البغايا لأنهن كن مشركات، وهذا قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح وقتادة والزهري والشعبي، ورواية العوفي عن ابن عباس. وقال عكرمة: نزلت في نساء بمكة والمدينة، منهن تسع لهن رايات كرايات البيطار يعرفن بها، منهن أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي، وكان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية يتخذها مأكلة، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الجهة، فاستأذن رجل من المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم في نكاح أم مهزول واشترطت له أن تنفق عليه، فأنزل الله هذه الآية (2) .

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت بمكة بغى يقال لها عناق، وكانت صديقة له في الجاهلية، فلما أتى مكة دعتة عناق إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حرم الزنا، قالت: فانكحني، فقال: حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد شيئاً، فنزلت: { وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ } فدعاني فقرأها علي وقال لي: لا تنكحها (3) . فعلى قول هؤلاء كان التحريم خاصاً في حق أولئك دون سائر الناس.

وقال قوم: المراد من النكاح هو الجماع، ومعناه: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة، والزانية لا تزني إلا بزنان أو مشرك، وهو قول سعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم. ورواية الوالبي عن ابن عباس، قال يزيد بن هارون: إن جامعها وهو مستحل فهو مشرك، وإن جامعها وهو محرم فهو زان، وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول: إذا تزوج الزاني بالزانية فهما زانيان أبداً. وقال الحسن: الزاني المجلود لا ينكح إلا زانية مجلودة والزانية المجلودة لا ينكحها إلا زان مجلود. قال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ، فكان نكاح الزانية حراماً بهذه الآية فنسخها قوله تعالى: "وأنكحوا الأيامى منكم" فدخلت الزانية في أيامى المسلمين (4) .

- (1) قطعة من حديث عزاه السيوطي في الدر: (6 / 127) لابن أبي حاتم.
(2) أخرجه الإمام أحمد: 2 / 159 وانظر: أسباب النزول للواحدي ص 364-366، تفسير الطبري: 18 / 71.
(3) أخرجه أبو داود في النكاح، باب: قوله تعالى "الزاني لا ينكح إلا زانية" 3 / 6، والترمذي في تفسير سورة النور: 9 / 21-23 وقال: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه"، والنسائي في النكاح، باب: تزويج الزانية 6 / 66-67 من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وصححه الحاكم 2 / 166 وأقره الذهبي، والطبري: 18 / 71.
(4) ذكر هذه الأقوال الطبري: 18 / 74-75. ثم قال مرجحاً: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عنى بالنكاح في هذه الموضع: الوطء، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات، وذلك لقيام الحجة على أن الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من عبدة الأوثان. فمعلوم إذ كان ذلك كذلك، أنه لم يعن

بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات، ولا ينكح إلا بزانية أو مشرقة. وإذا كان ذلك كذلك، فبين أن معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية لا تستحل الزنا، أو بمشركة تستحله.

(6/9)

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْقَاسِيُونَ (4)

واحتج من جوز نكاح الزانية بما أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أخبرنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، أخبرنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ، أخبرنا الحسن بن فرج، أخبرنا عمرو بن خالد الحراني، أخبرنا عبيد الله عن عبد الكريم الجزري، عن أبي الزبير، عن جابر، أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن امرأتي لا تدفع يد لامس؟ قال: طلقها، قال: فإني أحبها وهي جميلة، قال: استمتع بها. وفي رواية غيره "فأمسكها إذا" (1).

وروي أن عمر بن الخطاب ضرب رجلا وامرأة 34/ب في زنى وحرص أن يجمع بينهما فأبى الغلام (2).

{ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْقَاسِيُونَ (4) } قوله عز وجل: { وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً } أراد بالرمي القذف بالزنا، وكل من رمى محصنا أو محصنة بالزنا، فقال له: زנית أو يا زاني فيجب عليه جلد ثمانين جلدة، إن كان حرا، وإن كان عبدا فيجلد أربعين، وإن كان المقذوف غير محصن، فعلى القاذف التعزير.

وشرائط الإحصان خمسة: الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنى، حتى أن من زنى مرة في أول بلوغه ثم تاب وحسنت حالته وامتد عمره فقذفه قاذف فلا حد عليه. فإن أقر المقذوف على نفسه بالزنا أو أقام القاذف أربعة من الشهود على زناه سقط الحد عن القاذف، لأن الحد الذي وجب عليه حد الفرية وقد ثبت صدقه.

وقوله: { وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ } أي: يقذفون بالزنا المحصنات، يعني المسلمات الحرائر العفائف { ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ } يشهدون على زناهن { فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً } أي: اضربوهم ثمانين جلدة. { وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْقَاسِيُونَ }

(1) أخرجه أبو داود في النكاح، باب: النهي عن تزويج من لم يلد من النساء: 3 / 5، والنسائي في النكاح، باب: تزويج الزانية: 6 / 67-68، وفي الطلاق، باب: ما جاء في الخلع: 6 / 170 وقال: "هذا الحديث ليس بثابت، وعبد الكريم ليس بالقوي، وهارون بن رثاب أثبت منه وقد أرسل الحديث، وهارون ثقة وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم. وقال السندي في حواشيه على النسائي: "وقيل: هذا الحديث موضوع، ورد بأنه حسن صحيح، ورجال سنده رجال الصحيحين، فلا يلتفت إلى قول من حكم عليه بالوضع والله أعلم".

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: 7 / 203-204، وسعيد بن منصور في السنن: 1 / 224، والبيهقي: 7 / 155.

(6/10)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ
أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ
لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ
أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ
لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) {

{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } اختلف العلماء في قبول شهادة القاذف بعد التوبة، وفي حكم هذا الاستثناء: فذهب قوم إلى أن القاذف ترد شهادته بنفس القذف، وإذا تاب وندم على ما قال وحسنت حالته قبلت شهادته، سواء تاب بعد إقامة الحد عليه أو قبله. لقوله تعالى: "إلا الذين تابوا"، وقالوا: الاستثناء يرجع إلى الشهادة وإلى الفسق، فبعد التوبة تقبل شهادته، وبزول عنه اسم الفسق. يروى ذلك عن ابن عباس وعمر، وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبي وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهري وبه قال مالك والشافعي.

وذهب قوم إلى أن شهادة المجدود في القذف لا تقبل أبداً وإن تاب، وقالوا: الاستثناء يرجع إلى قوله: { وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْقَاسِيُونَ } وهو قول النخعي وشريح وأصحاب الرأي، وقالوا: بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحد. قال الشافعي: وهو قبل أن يحد شر منه حين يحد، لأن الحدود كفارات، فكيف يردونها في أحسن حاله ويقبلونها في شر حاله. وذهب الشعبي إلى أن حد القذف يسقط بالتوبة، وقال: الاستثناء يرجع إلى الكل. وعامة العلماء على أنه لا يسقط بالتوبة إلا أن يعفو عنه المقذوف فيسقط، كالقصاص يسقط بالعفو، ولا يسقط بالتوبة.

فإن قيل: إذا قبلتم شهادته بعد التوبة فما معنى قوله { أَبَدًا } ؟. قيل: معناه لا تقبل شهادته أبداً ما دام مصراً على قذفه، لأن أمد كل إنسان مدته على ما يليق بحاله. كما يقلل: لا تقبل شهادة الكافر أبداً: يراد ما دام كافراً (1). قوله عز وجل: { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ } أي: يقذفون نساءهم، { وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ } يشهدون على صحة ما قالوا، { إِلَّا أَنْفُسُهُمْ } أي: غير أنفسهم، { فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } قرأ حمزة والكسائي وحفص: "أربع شهادات" برفع العين على خبر الابتداء، أي: فشهادة أحدهم التي تدرأ الحد أربع شهادات، وقرأ الآخرون بالنصب، أي: فشهادة أحدهم أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين.

(1) انظر تفصيلاً لهذه الأقوال مع الترجيح عند الطبري: 18 / 76-81.

(6/11)

وَالْحَامِسَةُ أَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7)

{ وَالْحَامِسَةُ أَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) }
{ وَالْحَامِسَةُ أَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } قرأ نافع ويعقوب "أن"
خفيفة وكذلك الثانية "لعنة الله" رفع، ثم يعقوب قرأ "غضب" برفع، وقرأ نافع
"غضب" بكسر الضاد وفتح الباء على الماضي "الله" رفع، وقرأ الآخرون "أن"
بالتشديد فيهما، "لعنة" نصب، و "غضب" بفتح الضاد على الاسم، "الله" جر،
وقرأ حفص عن عاصم "والخامسة" الثانية نصب، أي: ويشهد الشهادة
الخامسة، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره في أن كالأولى.
وسبب نزول هذه الآية ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد،
أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن
مالك عن ابن شهاب أن سهل بن سعد الساعدي أخبره أن عويمر العجلاني جاء
إلى عاصم بن عدي الأنصاري فقال له: يا عاصم أرأيت لو أن رجلاً وجد مع
امرأته رجلاً أيقته فتقتلونه، أم كيف يفعل؟ سل لي عن ذلك يا عاصم رسول
الله صلى الله عليه وسلم، قال: فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن ذلك، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها حتى
كبر على عاصم ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رجع عاصم
إلى أهله جاءه عويمر فقال له: يا عاصم ماذا قال لك رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال عاصم لعويمر، لم تأتني بخير، قد كره رسول الله صلى الله
عليه وسلم المسألة التي سألتك عنها، فقال عويمر، والله لا أنتهي حتى أسأله
عنها، فجاء عويمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الناس فقال: يا
رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقته فتقتلونه أم كيف يفعل؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد أنزل فيك وفي صاحبك فاذهب
فأت بها"، فقال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله صلى الله عليه
وسلم، فلما فرغنا من تلاعنا قال عويمر: كذبت عليها يا رسول الله أن
أمسكتها، فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال
مالك قال ابن شهاب: فكانت تلك سنة المتلاعنين (1).

وقال محمد بن إسماعيل أخبرنا إسحاق، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا
الأوزاعي، أخبرنا الزهري بهذا الإسناد بمثل معناه وزاد: ثم قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: "انظروا فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم
الإبتين، خدلج الساقين، فلا أحسب عويمرا إلا قد صدق عليها، وإن جاءت به
35/أ أحيمر كأنه [وجوة] (2) فلا أحسب عويمر إلا قد كذب عليها" فجاءت به
على النعت الذي نعت رسول الله

(1) أخرجه مالك في الموطأ، باب ما جاء في اللعان برقم (34): 2 / 566-
567، وأخرجه البخاري في الطلاق، باب: اللعان ومن طلق بعد اللعان: 9 /
446، وفي مواضع أخرى، ومسلم في أول باب اللعان، برقم: (1492) 2 /
1129-1130، والمصنف في شرح السنة: 9 / 250.

(2) لقد اشتهر بهذا اللفظ في كتب والأصول ما أخرجه ابن ماجه في كتاب
الطلاق باب طلاق المكره والناسي من طريق الوليد بن مسلم عن الأوزاعي
عن عطاء عن ابن عباس بلفظ: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما
استكرهوا عليه) رجاله كلهم ثقات ولكن يوجد فيه انقطاع بين ابن عباس

وعطاء وأشار إلى هذا البوصيري في الزوائد فقال: إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع وقد ورد بالفاظ أخرى يقوي بعضها بعضا. انظر إرواء الغليل للشيخ الألباني 1 / 123 والمعتبر في تخريج أحاديث المنهاج، والمختصر للزركشي ص 154.

(6/12)

صلى الله عليه وسلم من تصديق عويمر (1) فكان بعد ينسب إلى أمه. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا محمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا أحمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن بشار، أخبرنا ابن أبي عدي، عن هشام بن حسان، أخبرنا عكرمة، عن ابن عباس، أن هلال بن أمية كذب امرأته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "البينة أو حد في ظهرك"، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "البينة وإلا حد في ظهرك"، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه: { وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ } فقرأ حتى بلغ { إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ } فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟" ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة، قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين (2)، سايب الإليتين (3)، خدلج الساقين (4)، فهو لشريك بن سحماء"، فجاءت به كذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن" (5).

وروى عكرمة عن ابن عباس: قال لما نزلت: { وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ } الآية. قال سعد بن عبادة: لو أتيت لكاع وقد تفخذها رجل لم يكن لي أهيجه حتى أتني بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لأتني بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب، وإن قلت ما رأيت إن في ظهري لثمانين جلدة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما قال سيدكم؟" قالوا: لا تلمه، فإنه رجل غيور، ما تزوج امرأة قط إلا بكرا، ولا طلق امرأة له فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، فقال سعد: يا رسول الله بأبي أنت وأمي والله إني لأعرف أنها من الله وأنها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فإن الله يأبى إلا ذلك"، فقال صدق الله ورسوله، قال: فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية من حديقة له، فرأى رجلا مع امرأته يزني بها، فأمسك حتى أصبح، فلما أصبح غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع أصحابه، فقال:

(1) أخرجه البخاري في الطلاق، باب: التلاعن في المسجد: 9 / 452-453،

والمصنف في شرح السنة: 9 / 252.

(2) شديد سوادهما.

(3) تام الإليتين، عظيمهما.

(4) عظيمهما.
(5) أخرجه البخاري في تفسير سورة النور، باب: "ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين" 8 / 449 وفي مواضع أخرى، والمصنف في شرح السنة: 9 / 259-260.

(6/13)

يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت رجلاً مع امرأتي، رأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أتاه به، وثقل عليه حتى عرف ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رسول الله إني لأرى الكراهية في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم إني لصادق وما قلت إلا حقا، وإني لأرجو أن يجعل الله لي فرجا، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضربه، فقال: واجتمعت الأنصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد، يجلد هلال وتبطل شهادته، وإنهم كذلك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأمر بضربه، إذ نزل عليه الوحي، فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أن الوحي قد نزل عليه، حتى فرغ، فأنزل الله عز وجل: { وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ } إلى آخر الآيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبشروا هلال فإن الله قد جعل لك فرجا" فقال: لقد كنت أرجو ذلك من الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسلوا إليها، فجاءت، فلما اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لها فكذبت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب؟ فقال هلال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي قد صدقت وما قلت إلا حقا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعتوا بينهما، فقيل لهلال: اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فقال له عند الخامسة: يا هلال اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس، وإن هذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال هلال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشهد الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم قال للمرأة: اشهدي، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فقال لها عند الخامسة ووقفها: اتقي الله فإن الخامسة موجبة وإن عذاب الله أشد من عذاب الناس، فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت: والله لا أفصح قومي، فشهدت الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما (1)، وقضى بأن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه"، فجاءت به غلاما كأنه جمل أورق، على الشبه المكروه، وكان بعد أميراً على مصر، لا يدري من أبوه.

وقال ابن عباس في سائر الروايات، ومقاتل: لما نزلت: { وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ } الآية، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر فقام عاصم بن عدي الأنصاري فقال: جعلني الله فداك، إن رأيت رجلاً منا مع امرأته رجلاً فأخبر بما رأى جلد ثمانين جلدة، وسماه المسلمون فاسقا، ولا تقبل شهادته أبداً، فكيف لنا بالشهداء ونحن إذا التمسنا الشهداء كان الرجل فرغ من حاجته ومر؟ وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر، وله امرأة يقال

لها خولة بنت قيس بن محصن،

(1) أخرجه مسلم في اللعان، برقم (1498): 2 / 1135، وأخرج بعضه المصنف في شرح السنة: 9 / 265.

(6/14)

فأتى عويمر 35/ب عاصما وقال: لقد رأيت شريك بن السمحاء على بطن امرأتي خولة، فاسترجع عاصم، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجمعة الأخرى، فقال: يا رسول الله ما أسرع ما ابتليت بالسؤال الذي سألت في الجمعة الماضية في أهل بيتي، فأخبره وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بني عم عاصم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم جميعا، وقال لعويمر: "اتق الله في زوجتك وابنة عمك ولا تقذفها بالبهتان" فقال: يا رسول الله أقسم بالله إنني رأيت شريكا على بطنها وإنني ما قربتها منذ أربعة أشهر، وإنها حبلى من غيري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرأة: "اتقي الله ولا تخبري إلا بما صنعت" فقالت: يا رسول الله إن عويمرا رجل غيور، وإنه رأني وشريكا يطيل السمر وتتحدث، فحملته الغيرة على ما قال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لشريك: "ما تقول؟" فقال: ما تقوله المرأة كذب، فأنزل الله عز وجل: { وَالَّذِينَ يَزْمُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ مَا كَذَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَوَدَّى الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَصَلَّى الْعَصْرَ ثُمَّ قَالَ لِعُويمر: قم، فقام فقال: أشهد بالله بأن خولة لزانية وإنني لمن الصادقين، ثم قال في الثانية أشهد أنني رأيت شريكا على بطنها، وإنني لمن الصادقين، ثم قال في الثالثة أشهد بالله إنها حبلى من غيري وإنني لمن الصادقين، ثم قال في الرابعة أشهد لعنة الله على عويمر -يعني نفسه- إن كان من الكاذبين فيما قال، ثم أمره بالعود، وقال لخولة: قومي فقامت، فقالت: أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمرا لمن الكاذبين، ثم قالت في الثانية أشهد بالله أنه ما رأى شريكا على بطني وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الثالثة أشهد بالله إنني حبلى منه وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الرابعة أشهد بالله إنه ما رأني قط على فاحشة وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الخامسة غضب الله على خولة -تعني نفسها- إن كان من الصادقين. ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما، وقال لولا هذه الأيمان لكان لي في أمرهما رأي، ثم قال: "تحينوا بها الولادة فإن جاءت به [أصيهب] (1) [أثبيج] (2) يضرب إلى السواد فهو لشريك، وإن جاءت به أوراق (3) جعدا جماليا (4) خدلج الساقين (5) فهو لغير الذي رميت به". قال ابن عباس فجاءت بأشبهه خلق الله بشريك (6) . والكلام في حكم الآية: أن الرجل إذا قذف امرأته فموجبه موجب قذف الأجنبي في وجوب الحد عليه إن كانت محصنة، أو التعزير إن لم تكن محصنة، غير أن المخرج منهما مختلف؛ فإذا قذف

(1) الأصيهب: تصغير الأصهب، وهو الذي يعلوه صهبة، وهي كالشقرة، وفي "أ": "بأصهب" بدلا من "به أصيهب".

(2) الأثبيج: تصغير الأثيج، وهو الناتئ الشج، والأثيج: ما بين الكاهل ووسط

- الظهر وفي "أ" جاءت العبارة: "أسلح أسحب".
 (3) أورق: يميل لونه للون الرماد.
 (4) جماليا: الجمالي: العظيم الخلق، شبه خلقه بخلق الجمل.
 (5) الخدلج: العظيم الساقين.
 (6) أخرجه الطبري مختصراً: 84 / 18.

(6/15)

وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8)
 وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9)

أجنبيا يقام الحد عليه، إلا أن يقيم أربعة من الشهود على زناه، أو يقر به المقذوف فيسقط عنه حد القذف، وفي الزوجة إذا وجد أحد هذين أو لاعن يسقط عنه الحد، فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة، لأن الرجل إذا رأى مع امرأته رجلا ربما لا يمكنه إقامة البينة عليه ولا يمكنه الصبر على العار، فجعل الله اللعان حجة له على صدقه، فقال تعالى: "فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين"، وإذا أقام الزوج البينة على زناها أو اعترفت بالزنا سقط عنه الحد واللعان، إلا أن يكون هناك ولد يريد نفيه فله أن يلاعن لنفيه.

وإذا أراد الإمام أن يلاعن بينهما يبدأ فيقيم الرجل ويلقنه كلمات اللعان، فيقول: قل أشهد بالله إنني لمن الصادقين فيما رميت به فلانة بالزنا، وإن كان قد رماها برجل بعينه سماه بعينه باللعان، وإن رماها بجماعة سماهم، ويقول الزوج كما يلقنه الإمام، وإن كان ولد أو حمل يريد نفيه يقول: وإن هذا الولد أو الحمل لمن الزنا ما هو مني، ويقول في الخامسة: علي لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة، وإذا أتى بكلمة منها من غير تلقين الحاكم لا تكون محسوبة، فإذا فرغ الرجل من اللعان وقعت الفرقة بينه وبين زوجته وحرمت عليه على التأييد، وانتفى عنه النسب وسقط عنه حد القذف، ووجب على المرأة حد الزنا، إن كانت محصنة ترجم، وإن كانت غير محصنة تجلد وتعرب، فهذه خمسة أحكام تتعلق كلها بلعان الزوج.

{ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8)
 وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) }

قوله عز وجل: { وَيَدْرَأُ } يدفع، { عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ } { وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ } وأراد بالعذاب الحد، كما قال في أول السورة: "وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين" أي: حدهما، ومعنى الآية: أن الزوج إذا لعن وجب على المرأة حد الزنا، وإذا وجب عليها حد الزنا بلعانه فأرادت إسقاطه عن نفسها فإنها تلاعن، فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به، وتقول في الخامسة علي غضب الله إن كان زوجي من الصادقين فيما رماني به.

ولا يتعلق بلعانها إلا حكم واحد وهو سقوط الحد عنها، ولو أقام الزوج بينة على زناها فلا يسقط الحد عنها باللعان. وعند أصحاب الرأي: لا حد على من قذف

زوجته، بل موجه اللعان، فإن لم يلاعن يحبس حتى يلاعن، فإذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة عن اللعان حبست حتى تلاعن.

(6/16)

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10)

وعند الآخرين اللعان حجة على صدقه، والقاذف إذا قعد عن إقامة الحجة على صدقه لا يحبس بل يحد كقاذف الأجنبي إذا قعد عن إقامة البينة. وعند أبي حنيفة موجب اللعان وقوع الفرقة ونفي النسب، وهما لا يحصلان إلا بلعان الزوجين جميعاً، وقضاء القاضي. وفرقة اللعان فرقة فسخ عند كثير من أهل العلم وبه قال الشافعي، وتلك الفرقة متأبدة حتى لو كذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه دون ما له، فيلزمه الحد ويلحقه الولد 1/36 ولكن لا يرتفع تأييد التحريم. وعند أبي حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق فإذا كذب الزوج نفسه جاز له أن ينكحها. وإذا أتى ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم. وعند أبي حنيفة إذا أتى بأكثر كلمات اللعان قام مقام الكل في تعلق الحكم به. وكل من صح يمينه صح لعانه حراً أو عبداً، مسلماً أو ذمياً، وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والحسن، وبه قال ربيعة ومالك والثوري والشافعي وأكثر أهل العلم. وقال الزهري والأوزاعي وأصحاب الرأي: لا يجري اللعان إلا بين مسلمين حرين غير محدودين، فإن كان الزوجان أو أحدهما رقيقاً أو ذمياً أو محدوداً في قذف فلا لعان بينهما. وظاهر القرآن حجة لمن قال يجري اللعان بينهما، لأن الله تعالى قال: { وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ } وَلَمْ يَفْصَلْ بَيْنَ الْحَرِّ وَالْعَبْدِ وَالْمَحْدُودِ وَغَيْرِهِ كَمَا قَالَ: "الذين يظاهرون من نسائهم" (المجادلة-2) ، ثم يستوي الحر والعبد هنا في الظهار، ولا يصح اللعان إلا عند الحاكم أو خليفته. ويغلظ اللعان بأربعة أشياء: بعدد الألفاظ، والمكان، والزمان، وأن يكون بمحض جماعة من الناس. أما الألفاظ المستحقة فلا يجوز الإخلال بها، وأما المكان فهو أن يلاعن في أشرف الأماكن، إن كان بمكة فبين الركن والمقام، وإن كان بالمدينة فعند المنبر، وفي سائر البلاد ففي المسجد الجامع عند المنبر، والزمان هو أن يكون بعد صلاة العصر، وأما الجمع فأقلهم أربعة، والتغليظ بالجمع مستحب، حتى لو لاعن الحاكم بينهما وحده [جاز] (1) ، وهل التغليظ بالمكان والزمان واجب أو مستحب فيه قولان. { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10) } قوله: { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ } جواب لولا محذوف، يعني لعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان، وإن الله تواب يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة، حكيم فيما فرض من الحدود.

(1) ساقط من "أ".

(6/17)

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ
أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا اُكْتُبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11)

{ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ
أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا اُكْتُبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ }
(11)

قوله عز وجل: { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ } الآيات سبب نزول هذه
الآية ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا
محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد العزيز بن عبد الله
أخبرنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال: حدثني عروة بن الزبير
وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن
مسعود عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال
لها أهل الإفك ما قالوا وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى
لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث
الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضا.
قالوا: قالت عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع
بين أزواجه وأيهن خرج سهمها خرج بها النبي صلى الله عليه وسلم معه قالت
عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعدما أنزل الحجاب فكنت أحمل في هودج وأنزل فيه
فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل
ودنونا من المدينة قافلين أذن ليلة بالرحيل فقامت حين أذنوا بالرحيل فمشيت
حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا
عقد لي من جزع ظفار (1) قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني
ابتغاؤه. قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه
على بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أنني فيه وكان النساء إذ ذاك
خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكل العلقة (2) من الطعام فلم
يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا
الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها
منهم داع ولا مجيب فتيمنت منزلي الذي كنت به وطمنت أنهم سيفقدونني
فيرجعون إلي فيبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان
بن المعطل السلمى ثم الذكواني من وراء الجيش فأصبح عند منزلي فرأى
سواد إنسان نائم فعرفني حين رأني وكان رأني قبل الحجاب، فاستيقظت
باسترجاعه حين عرفني،

(1) جزع: خرز معروف في سواده بياض كالعروق، قال ابن القطاع: هو واحد
لا جمع له، وقال ابن سيده: هو جمع واحدة جزعة وهو بالفتح.
(2) ما يتبلغ به من العيش.

فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها، فقامت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول.

قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي بن سلول، قال عروة أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه. وقال عروة أيضا: لم يسم من أهل الإفك أيضا إلا حسان بن ثابت ومسطح بن أثاة وحمنة بنت جحيش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير أنهم عصبة، كما قال الله تعالى { وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ } قال: عبد الله بن أبي بن سلول، قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان وتقول: إنه الذي قال: فإن أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

قالت عائشة: فقدمتنا المدينة، فاشتكت حين قدمت شهرا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول كيف تيكم؟ ثم ينصرف، فذلك يريني ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين نقهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع وكان متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكنف 36/ب أن نتخذها عند بيوتنا.

قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح -وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاة بن عباد بن المطلب، فاقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت أتسيين رجلا شهد بدرا؟ فقالت: أي هنتاه (1) أو لم تسمعي ما قال؟ قالت فقلت: ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت فازددت مرضا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت له: أأذن لي أن أتى أبوي؟ قالت: وأنا أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: يا أمته ما ذا يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوني عليك فوالله لقل ما كانت امرأة قط رضية (2) عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت فقلت: سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت

(1) أي: حرف نداء للبعيد، وقد تستعمل للقريب حين ينزل منزلة البعيد، وهنتاه: بفتح الهاء وسكون النون وقد تفتح بعدها متناة وأخرها هاء ساكنة، وقد تضم: أي هذه، وقيل يلهى، كأنها نسبتها إلى قلة المعرفة بمكائد الناس .
(2) في "ب" وضيئة.

تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل [بنوم] (1) ، ثم أصبحت أبكي.
قالت: ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن

زيد حين استلبت الوحي يسألها ويستشيرها في فراق أهله، فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيرا، وأما علي فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أغمضه أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله.

قالت: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم [من يومه] (2) فاستعذر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما يدخل على أهلي إلا معي، قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال أنا يا رسول الله أعذرک فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک، قالت: وقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذة وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم [قالت وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم] (3) ولا يرقأ لي دمع حتى إنني لأظن أن البكاء فالق كبدي فبينما أبواي جالسان عندي، وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي. قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأنه بشيء، قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه.

(1) ساقط من "أ".

(2) زيادة من "ب".

(3) ساقط من "أ".

قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته فاض (1) دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم،

فقلت لأمي: أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، فقالت أُمِّي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وأنا جارية حديثه السن لا أقرأ من القرآن كثيرا: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنني منه بريئة لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلا إلا قول أبي يوسف حين قال: "فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون" (يوسف-18) ثم تحولت واضطجعت على فراشي وأنا أعلم والله يعلم أنني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئني ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأنني وحيا يتلى، لشأنني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي (2) فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان، وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: يا عائشة أما والله فقد برأك الله، قالت: فقالت لي أُمِّي: قومي إليه فقلت: والله لا أقوم إليه فإني لا أحمد إلا الله، قالت: وأنزل الله تعالى: "إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم" العشر الآيات، فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق، وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح بشيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: { وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُو الْقِصْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ } إلى قوله { عَفُوٌّ رَحِيمٌ } قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا.

قالت 37/أ عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرا، قالت عائشة وهي التي تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط، قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أنثى قط. قالت:

(1) في "ب": قلص.

(2) ساقط من "أ".

ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله (1) .
 ورواه محمد بن إسماعيل عن يحيى بن بكير، أخبرنا الليث عن يونس عن ابن شهاب بإسناد مثله، وقال: وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرني الله وتوبني إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه، إلى قوله: فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك (2) .

ورواه أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتي فسأل عني خادمتي، فقالت: لا والله ما علمت عليها عيباً إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها، فانتهرها بعض أصحابه، فقال: اصدقني رسول الله حتى أسقطوا لها به، فقالت: سبحان الله والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر، وفيه قالت: وأنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فزُفِعَ عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه ويقول: أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك فقال لي أبواي: قومي إليه فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمد أحداً ولكن أحمد الله الذي برأني لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه (3).

أما تفسير قوله: { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ } بالكذب، والإفك: أسوأ الكذب، سمي إفكاً لكونه مصروفاً عن الحق، من قولهم: أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه، وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف فمن رماها بالسوء قلب الأمر عن وجهه، { عَصَبَةُ مِنْكُمْ } أي: جماعة منهم عبد الله بن أبي بن سلول، ومسطح بن أثاة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، زوجة طلحة بن عبيد الله، وغيرهم، { لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ } يا عائشة ويا صفوان، وقيل: هو خطاب لعائشة ولأبويها وللنبي صلى الله عليه وسلم ولصفوان، يعني: لا تحسبوا الإفك شراً لكم، { بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } لأن الله يأجركم على ذلك ويظهر براءتكم. { لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ } يعني من العصبة الكاذبة { مَا اكْتَسَبَ مِنْ الْإِثْمِ } أي: جزاء ما اجترح من الذنب على قدر ما خاض فيه، { وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ } أي: تحمل معظمه فبدأ بالخوض فيه، قرأ يعقوب "كبره" بضم الكاف، وقرأ العامة بالكسر، قال الكسائي: هما لغتان. قال الضحاك: قام بإشاعة الحديث، وهو عبد الله بن أبي بن سلول.

(1) أخرجه البخاري في المغازي، باب حديث الإفك: 7 / 435-431، وفي تفسير سورة النور: 8 / 452-455، وفي الشهادات: 5 / 269-272 وفي مواضع أخرى. وأخرجه مسلم في التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف برقم (2770): 4 / 2129-2136 وأخرج المصنف أوله في شرح السنة: 9 / 153.

(2) أخرجه مسلم في كتاب التفسير، سورة النور: 8 / 452-455.

(3) في رواية البخاري معلقاً بصيغة الجزم، باب "إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة.." 8 / 488، ومسلم في التوبة أيضاً: 4 / 2137-2138.

(6/22)

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (12)

وروى الزهري عن عروة عن عائشة { وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ } قالت: عبد الله بن أبي بن سلول (1)، والعذاب الأليم هو النار في الآخرة. وقد روى ابن أبي مليكة عن عروة عن عائشة في حديث الإفك قالت: ثم ركبت

وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملأ من المنافقين، وكانت عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس، فقال عبد الله بن أبي، رئيسهم: من هذه؟ قالوا: عائشة قال: والله ما نجت منه وما نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها (2). وشرع في ذلك أيضا حسان، ومسطح، وحمنة، فهم الذين تولوا كبره.

وقال قوم: هو حسان بن ثابت. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا بشر بن خالد، أخبرنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سليمان عن أبي الضحى عن مسروق قال: دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشد شعرا يشيب بأبيات له، وقال: حِصَانُ رَزَانُ مَا تَرَنَّ بِرِيْبَةٍ ... وَتُصِيحُ عَرْتِي مِنْ لِحُومِ الْعَوَافِلِ (3)

فقال له عائشة: لكنك لست كذلك، قال مسروق فقلت لها: لم تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى: { وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ } قالت: وأي عذاب أشد من العمى (4)، وقالت: إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (5).

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالذين رموا عائشة فجلدوا الحد جميعا ثمانين ثمانين (6)

{ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (12) }

قوله عز وجل: { لَوْلَا } هلا { إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ } بإخوانهم { خَيْرًا } قال الحسن: بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة، نظيره قوله تعالى: " ولا تقتلوا

(1) انظر: البخاري 8 / 450، 452، صحيح مسلم: 4 / 2131.

(2) انظر: فتح الباري 8 / 461.

(3) الحصان: العفيفة، والرزان: الرزينة الثابتة التي لا يستخفها الطيش. وترن: ترمى وتتهم. والريبة: التهمة والشك. وعرثى: جائعة، يريد لا تغتاب النساء، والغوافل: جمع غافلة، وهي التي غفل قلبها عن الشر.

(4) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (3 / 273): "ثم الأكثرون على أن المراد بذلك -الذي تولى كبر الإفك- إنما هو عبد الله بن أبي بن سلول -قبحه الله تعالى ولعنه- وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث. وقال ذلك: مجاهد وغير واحد. وقيل: بل المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب، وأحسن ما أثره أنه كان يذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعره..."

(5) أخرجه البخاري في التفسير، باب: "ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم" 8 / 485.

(6) انظر: فتح الباري: 8 / 479، زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم: 3 / 263-264.

لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ
الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي
مَا أَقْسَمْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14)

أنفيسكم" (النساء-29) "فسلموا على أنفسكم" (النور-61) . { وَقَالُوا هَذَا
إِفْكٌ مُّبِينٌ } أي كذب بين .
{ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ
الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي
مَا أَقْسَمْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) }
{ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ } أي: على ما زعموا، { فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا
بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ } فإن قيل: كيف يصيرون عند الله
كاذبين إذ لم يأتوا بالشهداء ومن كذب فهو عند الله كاذب سواء أتى بالشهداء
أو لم يأت؟ قيل: "عند الله" أي: في حكم الله وقيل: معناه كذبوهم بأمر الله
وقيل: هذا في جق عائشة، ومعناه: أولئك هم الكاذبون في غيبي وعلمي .
{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَقْسَمْتُمْ }
خضتم { فيه } من الإفك { عَذَابٌ عَظِيمٌ } قال ابن عباس أي: عذاب لا
انقطاع له، يعني: في الآخرة، لأنه ذكر عذاب الدنيا من قبل، فقال تعالى:
"والذي تولى 37/ب كبره منهم له عذاب عظيم"، وقد أصابه، فإنه جلد وحده،
وروت عمرة عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية حد
أربعة نفر: عبد الله بن أبي، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت
جحش (1) .

(1) أخرج الترمذي عن عائشة قالت: "لما نزل عذري قام رسول الله صلى
الله عليه وسلم على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل أمر برجلين وامرأة
فضربوا حدهم". تفسير سورة النور: 9 / 37، وقال: "هذا حديث حسن غريب
لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق". ووقع تسمية هؤلاء الثلاثة: حسان بن
ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش عند أبي داود في الحدود، باب في
حد القذف: 6 / 283، وعزاه المنذري للنسائي وقال: "وقد أسنده ابن إسحاق
مرة، وأرسله أخرى". وأخرجه ابن ماجه في الحدود، باب حد القذف: 2 /
857. وانظر: تفسير ابن كثير: 3 / 272. وأخرج الطبراني عن سعيد بن جبير
مثل حديث عائشة الذي ساقه المصنف، وقال الهيثمي: "وفيه ابن لهيعة، وفيه
ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد: 7 / 80. وانظر: فتح
الباري: 9 / 481، تحفة الأحوذى: 9 / 37. وأخرج البزار وابن مردويه بسند
حسن، عن أبي هريرة، وفيه: فحد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسطحا،
وحمنة، وحسان. انظر: الدر المنثور: 6 / 146، وراجع: زاد المعاد: 3 / 263-
264.

(6/24)

إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّتِّكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ
عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا
سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعْظَمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19)

{ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّتَةِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) }

قوله عز وجل: { إِذْ تَلَقَّوْنَهُ } تقولونه، { بِالسِّتَةِ } قال مجاهد ومقاتل: يرويه بعضكم عن بعض. وقال الكلبي: وذلك أن الرجل منهم يلقي الرجل فيقول بلغني كذا وكذا يتلقونه تلقيا، وقال الزجاج: يلقيه بعضكم إلى بعض، وقرأت عائشة "تلقونه" بكسر اللام وتخفيف القاف من الولق وهو الكذب، { وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا } تظنون أنه سهل لا إثم فيه، { وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ } في الوزر. { وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ } هذا اللفظ هاهنا معناه التعجب { هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } أي: كذب عظيم يبهت ويتحير من عظمته. وفي بعض الأخبار أن أم أيوب قالت لأبي أيوب الأنصاري: أما بلغك ما يقول الناس في عائشة؟ فقال أبو أيوب: سبحانك هذا بهتان عظيم (1) فنزلت الآية على وفق قوله. { يَعِظُكُمُ اللَّهُ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحرم الله عليكم وقال مجاهد: ينهاكم الله. { أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } { وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ } في الأمر والنهي، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } يأمر عائشة وصفوان، { حَكِيمٌ } حكم ببراءتهما. قوله عز وجل: { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ } يعني: تظهر، وبذيع الزنا، { فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } يعني عبد الله بن أبي وأصحابه المنافقين، والعذاب في الدنيا الحد، وفي الآخرة النار، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ } كذبهم وبرائة عائشة وما خاضوا فيه من سخط الله { وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص (373)، وانظر الطبري: 18 / 96، والدر المنثور: 6 / 159، فتح الباري: 9 / 470.

(6/25)

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ (20)

{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ (20) }

(6/26)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21) وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (22)

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21) وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (22) }

محدوف، أي: لعاجلكم بالعقوبة، قال ابن عباس: يريد مسطحا، وحسان، وحمئة. قوله عز وجل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ } أي: بالقيائح من الأفعال، { وَالْمُنْكَرِ } ما يكرهه الله عز وجل، { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا } قال مقاتل: ما صلح. وقال ابن قتبية: ما طهر، { مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ } والآية على العموم عند بعض المفسرين، قالوا: أخبر الله أنه لولا فضله ورحمته بالعصمة ما صلح منكم أحد. وقال قوم: هذا الخطاب للذين خاضوا في الإفك، ومعناه: ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذي فعل، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، قال: ما قبل توبة أحد منكم، { أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي } يطهر، { مَنْ يَشَاءُ } بمن الذنب بالرحمة والمغفرة، { وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } قوله عز وجل { وَلَا يَأْتِلِ } أي: ولا يحلف، وهو يفتعل من الآية وهي القسم، وقرأ أبو جعفر: "يأتل" بتقديم التاء وتأخير الهمزة، وهو يتفعل من الآية. { أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ } يعني أبو بكر الصديق { أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } يعني مسطحا، وكان مسكينا مهاجرا بدرية ابن خالة أبي بكر، حلف (1) أبو بكر أن لا ينفق عليه، { وَلِيَعْفُوا } ولِيَصْفَحُوا { عَنْهُمْ خَوْضِهِمْ فِي أَمْرِ عَائِشَةَ، } { أَلَا تُحِبُّونَ } يخاطب أبو بكر، { أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ } فلما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر قال: بلى أنا أحب أن يغفر الله لي، ورجع

(1) ساقط من "أ".

(6/26)

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِيَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23)

إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا (1). وقال ابن عباس والضحاك: أقسم ناس من الصحابة فيهم أبو بكر أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا ينفقوهم، فأنزل الله هذه الآية (2).

{ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) }

قوله عز وجل: { إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ { العفائف، { الغافلات { عن الفواحش، { المؤمنات { والغافلة عن الفاحشة أي: لا يقع في قلبها فعل الفاحشة وكانت عائشة كذلك، قوله تعالى: { لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ { عذبوا بالحدود وفي الآخرة بالنار، { وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ { قال مقاتل: هذا في عبد الله بن أبي المنافق. روي عن خصيف قال: قلت لسعيد بن جبير: من قذف مؤمنة يلعنه الله في الدنيا والآخرة؟ فقال ذلك لعائشة خاصة (3) .

وقال قوم: هي لعائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة دون سائر المؤمنات. روي عن العوام بن حوشب عن شيخ من بني كاهل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هذه في شأن عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ليس فيها توبة، ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ: { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءِ { إلى قوله: { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا { فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لأولئك توبة (4) .

وقال الآخرون: نزلت هذه الآية في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وكان [ذلك] (5) حين نزلت الآية التي في أول السورة { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءِ { إلى قوله: { فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ { فأنزل الله الجلد والتوبة (6) .

(1) أخرجه البخاري في التفسير: باب: "لولا إذ سمعتموه قلت ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم" 8 / 455، ومسلم في التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، برقم (2770): 4 / 2129-2136.

(2) أخرجه الطبري: 18 / 102-103.

(3) عزاه السيوطي: (6 / 164) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني. قال الهيثمي (6 / 79): رواه الطبراني وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف.

(4) قال الهيثمي (6 / 80): "رواه الطبراني بأسانيد، وفي هذا الإسناد راو لم يسم، وبقية رجاله ثقات، وهو أمثلها".

(5) في "ب" كذلك حتى.

(6) ذكر هذه الأقوال الطبري: 18 / 104-105 ثم قال مرجحاً: "وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: نزلت هذه الآية في شأن عائشة والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصفه الله بها فيها".

(6/27)

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيِّثِينَ وَالْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26)

{ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) الْحَيِّثَاتُ

لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26) { يَوْمَ تَشْهَدُ } قرأ حمزة والكسائي بالياء لتقديم الفعل، وقرأ الآخرون بالتاء، { عَلَيْهِمُ السِّتْنُهُمْ } وهذا قبل أن يختم على أفواههم، { وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ } يروى أنه { تختم } (1) الأفواه فتتكلم الأيدي والأرجل بما عملت في الدنيا. وقيل: معناه تشهد السنة بعضهم على بعض وأيديهم وأرجلهم، { يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } { يَوْمَئِذٍ يُؤْقِبِهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ } جزاءهم الواجب. وقيل: حسابهم العدل. { وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ } يبين لهم حقيقة ما كان يعدهم في الدنيا. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: وذلك أن عبد الله بن أبي كان يشك في الدين فيعلم يوم القيامة أن الله هو الحق 38/أ المبين. قوله عز وجل: { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ } قال أكثر المفسرين: الخبيثات من القول والكلام للخبيثين من الناس. { وَالْخَبِيثُونَ } من الناس، { لِلْخَبِيثَاتِ } من القول، { وَالْطَّيِّبَاتُ } (2)، { وَالطَّيِّبَاتُ } من القول، { لِلطَّيِّبِينَ } من الناس، { وَالطَّيِّبُونَ } من الناس، { لِلطَّيِّبَاتِ } من القول، والمعنى: أن الخبيث من القول لا يليق إلا بالخبيث من الناس والطيب لا يليق إلا بالطيب من الناس، فعائشة لا يليق بها الخبيثات من القول لأنها طيبة رضي الله عنها فيضاف إليها طيبات الكلام من الثناء الحسن [وما يليق بها] (3).

وقال الزجاج: معناه لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء، وهذا ذم للذين قذفوا عائشة، ومدح للذين برؤوها بالطهارة. وقال ابن زيد: معناه الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء [أمثال عبد الله بن أبي والشاكين في الدين] (4)، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. يريد عائشة طيبها الله لرسوله الطيب صلى الله عليه وسلم.

(1) في "ب": يختم على.

(2) زيادة من "ب".

(3) زيادة من "ب".

(4) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(6/28)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا
دَلِكُمْ حَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27)

{ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ } يعني: عائشة وصفوان ذكرهما بلفظ الجمع كقوله تعالى: "فإن كان له إخوة" (النساء-11) أي: إخوان. وقيل: "أولئك مبرءون" يعني الطيبين والطيبات منزهون، { يَمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } فالمغفرة هي العفو عن الذنوب، والرزق الكريم: الجنة.

وروي أن عائشة كانت تفتخر بأشياء أعطيتها لم تعطها امرأة غيرها، منها أن جبريل أتى بصورتها في سرقة (1) من حرير، وقال هذه زوجتك. وروي أنه أتى بصورتها في راحته وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها،

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه في حجرها، ودفن في بيتها، وكان ينزل عليه الوحي وهو معها في لحافه، ونزلت براءتها من السماء، وأنها ابنة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصديقه، وخلقت طيبة، ووعدت مغفرة ورزقا كريما (2).

وكان مسروق إذا روى عن عائشة يقول: حدثني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء (3).
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (27)
قوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } قيل: معني قوله: { حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا } أي: حتى تستأذنوا [وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا] (4) ويقول: تستأنسوا خطأ من الكاتب (5). وكذلك كان يقرأ أبي ابن كعب، والقراءة المعروفة تستأنسوا وهو بمعنى الاستئذان. وقيل: الاستئناس طلب الأناص، وهو أن ينظر هل في البيت إنسان فيؤذنه من الداخل. وقال الخليل: الاستئناس الاستبصار من قوله: أنست نارا، أي: أبصرت. وقيل: هو أن يتكلم بتسبيحة أو تكبيرة أو يتنحج، يؤذن أهل البيت.
وجملة حكم الآية: أنه لا يدخل بيت الغير إلا بعد السلام والاستئذان. واختلفوا في أنه يقدم الاستئذان أم السلام؟ فقال قوم: يقدم الاستئذان فيقول: أدخل سلام

(1) شقة حرير بيضاء، والجمع، سرق مثل: قصبة وقصب.

(2) هذه المناقب التي ذكرها المصنف لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ثابتة بأحاديث صحاح، انظرها في: جامع الأصول لابن الأثير: 9 / 132-143، كنز العمال: 12 / 133-138، الدر المنثور: 6 / 168-170.

(3) انظر: حلية الأولياء: 2 / 44.

(4) ساقط من "أ".

(5) انظر فيما سبق تعليقا: 3 / 309، 310.

(6/29)

عليكم، لقوله تعالى: { حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا } أي: تستأذنوا، { وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا } والأكثر على أنه يقدم السلام فيقول: سلام عليكم أدخل. وفي الآية تقديم وتأخير تقديرها: حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا. وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود. وروي عن كلدة بن حنبل قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ارجع فقل: السلام عليكم أدخل (1).

وروي عن ابن عمر أن رجلا استأذن عليه فقال: أدخل؟ فقال ابن عمر: لا فأمر بعضهم الرجل أن يسلم فسلم فأذن له (2).

وقال بعضهم: إن وقع بصره على إنسان قدم السلام، وإلا قدم الاستئذان، ثم سلم، وقال أبو موسى الأشعري وحذيفة: يستأذن على ذوات المحارم، ومثله عن الحسن، وإن كانوا في دار واحدة يتنحج ويتحرك أدنى حركة.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد عبد الله

بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن سعيد الجريري، عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: سلم عبد الله بن قيس على عمر بن الخطاب ثلاث مرات فلم يأذن له فرجع فأرسل عمر في أثره فقال: لم رجعت؟ قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا سلم أحدكم ثلاثا فلم يجب فليرجع". قال عمر: لتأتين على ما تقول بيينة وإلا لأفعلن بك كذا وكذا غير أنه قد أوعده، قال: فجاء أبو موسى الأشعري ممتقعا لونه وأنا في حلقة جالس، فقلنا: ما شأنك؟ فقال: سلمت على عمر، فأخبرنا خبره، فهل سمع أحد منكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: نعم كلنا قد سمعنا، قال فأرسلوا معه رجلا منهم حتى أتى عمر فأخبره بذلك (3) .
ورواه بسر بن سعيد عن أبي سعيد الخدري، وفيه: قال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع" (4) . قال الحسن: الأول إعلام والثاني مؤامرة، والثالث استئذان بالرجوع.

(1) أخرجه أبو داود في الأدب، باب: كيف الاستئذان: 8 / 56-57، والترمذي في الاستئذان، ما جاء في التسليم قبل الاستئذان: 7 / 490-491 وقال: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن جريج. ورواه أبو عاصم عن ابن جريج مثل هذا" والإمام أحمد: 3 / 414، والمصنف في شرح السنة: 12 / 284.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: 10 / 383، وذكره المصنف في شرح السنة: 12 / 284.

(3) انظر الرواية في الجامع للإمام معمر: 10 / 380 وهو عند الشيخين كما سيأتي في التعليقة التالية.

(4) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب: التسليم والاستئذان ثلاثا: 11 / 26-27 وفي مواضع أخرى، ومسلم في الأدب، باب الاستئذان برقم (2153): 3 / 1694، والمصنف في شرح السنة: 12 / 280-281.

(6/30)

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28)

{ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) }
قوله عز وجل: { فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا } أي: إن لم تجدوا في البيوت أحدا يأذن لكم في دخولها فلا تدخلوها، { حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا } يعني: إذا كان في البيت قوم فقالوا: ارجع فليرجع ولا يقف على الباب ملازما، { هُوَ أَزْكَى لَكُمْ } يعني: الرجوع أطهر وأصلح لكم، قال قتادة: إذا لم يؤذن له فلا يقعد على الباب 38/ب فإن للناس حاجات، وإذا حضر ولم يستأذن وقعد على الباب منتظرا جاز.
وكان ابن عباس يأتي باب الأنصار لطلب الحديث فيقعد على الباب حتى يخرج،

ولا يستأذن، فيخرج الرجل ويقول: يا ابن عم رسول الله لو أخبرتني، فيقول: هكذا أمرنا أن نطلب العلم (1) وإذا وقف فلا ينظر من شق الباب إذا كان الباب مردودا: أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري، عن سهل بن سعد الساعدي أن رجلا اطلع على النبي صلى الله عليه وسلم من ستر الحجرة وفي يد النبي صلى الله عليه وسلم مدرى (2) ، فقال: "لو علمت أن هذا ينظرني حتى آتية لطعنت بالمدرى في عينه، وهل جعل الاستئذان إلا من أجل البصر" (3) .

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك جناح" (4) .

قوله تعالى: { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } من الدخول بالإذن وغير الإذن. ولما نزلت آية الاستئذان قالوا: كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام وعلى ظهر الطريق،

- (1) أخرجه ابن عبد البر بسنده مطولا في جامع بيان العلم وفضله ص (140).
(2) تطلق على نوعين: أحدهما: صغير يتخذ من ابنوس أو عاج أو حديد يكون طول المسلة يتخذ لفرق الشعر فقط، وهو مستدير الرأس على هيئة نصل السيف. وثانيهما: كبير وهو عود مخروط من ابنوس أو غيره، وفي رأسه قطعة منحوتة في قدر الكف، ولها مثل الأصابع، أولاها من معوجة مثل حلقة الإبهام المستعمل للتسريح.
(3) أخرجه البخاري في الديات، باب: من اطلع في بيت قوم ففقاؤا عينه فلا دية له: 12 / 243 ومسلم في الآداب باب تحريم النظر في بيت غيره برقم: (2156): 3 / 1698.
(4) أخرجه البخاري في الديات، باب: من اطلع في بيت قوم ففقاؤا عينه فلا دية له: 12 / 243 ومسلم في الآداب باب تحريم النظر في بيت غيره برقم: (2158): 3 / 1699 والمصنف في شرح السنة: 10 / 254 والشافعي: 2 / 101.

(6/31)

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30)

ليس فيها ساكن؟ فأنزل الله عز وجل:
{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) }
{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ } (1) ، أي: بغير استئذان،

{ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ } يعني منفعة لكم. واختلفوا في هذه البيوت، فقال قتادة: هي الخانات والبيوت والمنازل المبنية للسابلة لياووا إليها ويؤوا أمتعتهم إليها، جاز دخولها بغير استئذان، والمنفعة فيها بالنزول وإيواء المتاع والاتقاء من الحر والبرد.

وقال ابن زيد: هي بيوت التجار وحوانيتهم التي بالأسواق يدخلونها للبيع والشراء وهو المنفعة. وقال إبراهيم النخعي: ليس على حوانيت السوق إذن. وكان ابن سيرين إذا جاء إلى حانوت السوق يقول: السلام عليكم أدخل؟ ثم يلج. وقال عطاء: هي البيوت الخربة، والمتاع هو قضاء الحاجة فيها من البول والغائط. وقيل: هي جمع البيوت التي لا ساكن لها لأن الاستئذان إنما جاء لئلا يطلع على عورة فإن لم يخف ذلك فله الدخول بغير استئذان (2) ، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } قوله عز وجل: { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ } أي: عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه. وقيل: " مِنْ " صلة أي: يعضوا أبصارهم. وقيل: هو ثابت لأن المؤمنين غير مأمورين بغض البصر أصلا لأنه لا يجب الغض عما يحل النظر إليه، وإنما أمروا بأن يعضوا عما لا يحل النظر إليه، { وَخَفَّضُوا فُرُوجَهُمْ } عما لا يحل، قال أبو العالية: كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا والحرام، إلا في هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه، { ذَلِكَ } أي: غض البصر وحفظ الفرج، { أَرْكَى لَهُمْ } أي: خير لهم وأطهر، { إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا بَصَّعُونَ } عليم بما يفعلون، روي عن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: " يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة " (3) .

- (1) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 375 وانظر: القرطبي: 12 / 213.
- (2) ذكره هذه الأقوال الطبري: 18 / 113-116.
- (3) أخرجه أبو داود في النكاح، باب: ما يؤمر به من غض البصر: 3 / 70 والترمذي في الأدب، باب: ما جاء في نظرة المفاجأة: 8 / 61 وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك، والدارمي في الرقاق باب: في حفظ السمع: 2 / 298 وصححه الحاكم: 2 / 194 على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والإمام أحمد: 5 / 353 ، 357 وذكره المصنف في شرح السنة: 9 / 23.

(6/32)

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَخْفِظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُوهِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)

وروي عن جرير بن عبد الله قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فقال: " اصرف بصرك " (1) . أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا

عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة، أخبرنا زيد بن الحباب، عن الضحاك بن عثمان قال: أخبرني زيد بن أسلم، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد" (2).

{ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُرْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْتَبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ { (31)

قوله عز وجل: { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُرْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ } عما لا يحل، { وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ } عمن لا يحل. وقيل أيضا: "يحفظن فروجهن" يعني: يستترنها حتى لا يراها أحد. وروي عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: احتجبا منه، فقلت: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفعميا وان أنتما، ألستما تبصرانه"؟ (3)

- (1) أخرجه مسلم في الآداب، باب: نظرة الفجأة برقم: (2159): 3 / 1699 وذكره المصنف في شرح السنة: 9 / 23.
- (2) أخرجه مسلم في الحيض، باب تحريم النظر إلى العورات برقم: (338): 1 / 266 والمصنف في شرح السنة: 9 / 20.
- (3) أخرجه أبو داود في اللباس، باب في قوله تعالى: "وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن" 6 / 60-61 والترمذي في الأدب، باب: ما جاء في احتجاب النساء من الرجال: 8 / 61-62 وقال: "هذا حديث حسن صحيح". وعزاه المنذري للنسائي، وأخرجه الإمام أحمد: 6 / 296 وذكره المصنف في شرح السنة: 9 / 24.
- وقال أبو داود: "هذا لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، ألا ترى إلى اعتداد فاطمة بنت قيس عند ابن أم مكتوم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس: "اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده"، وانظر: عون المعبود: 11 / 170.

(6/33)

قوله تعالى: { وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } أي لا يظهرن زينتهن لغير محرم، وأراد بها الزينة الخفية، وهما زينتان خفية وظاهرة، فالخفية: مثل الخلخال، والخضاب في الرجل، والسوار في المعصم، والقرط والقلائد، فلا يجوز لها إظهارها، ولا للأجنبي النظر إليها، والمراد من الزينة موضع الزينة.

قوله تعالى: { إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا } أراد به الزينة الظاهرة. واختلف أهل العلم

في هذه الزينة الظاهرة التي استثناها الله تعالى: قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: هو الوجه والكفان. وقال ابن مسعود: هي الثياب بدليل قوله تعالى: "خذوا زينتكم عند كل مسجد" (الأعراف-31) ، وأراد بها الثياب. وقال الحسن: الوجه والثياب. وقال ابن عباس: الكحل والخاتم والخضاب في الكف. فما كان من الزينة الظاهرة جاز للرجل الأجنبي النظر إليه إذا لم يخف فتنة وشهوة، فإن خاف شيئاً منها غَضَ البصر، وإنما رُخص في هذا القدر أن تبديه المرأة من بدنها لأنه ليس بعورة وتؤمر بكشفه في الصلاة، وسائر بدنها عورة يلزمها ستره.

قوله عز وجل: { وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ } أي: ليلقين بمقانعهن، { عَلَيَّ جُيُوبِهِنَّ } وصدورهن [ليسترن بذلك شعورهن وصدورهن] (1) وأعناقهن وأقراطهن. قالت عائشة 39/أرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله عز وجل: { وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَيَّ جُيُوبِهِنَّ } شققن مروطهن فاخترن بها (2) . { وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } يعني: الزينة الخفية التي لم يبح لهن كشفها في الصلاة ولا للأجانب، وهو ما عدا الوجه والكفين { إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ } قال ابن عباس ومقاتل: يعني لا يضعن الجلباب ولا الخمار إلا لبُعُولَتِهِنَّ، أي إلا لأزواجهن، { أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ } فيجوز لهؤلاء أن ينظروا إلى الزينة الباطنة، ولا ينظرون إلى ما بين السرة والركبة، ويجوز للزوج أن ينظر إلى جميع بدنها غير أنه يكره له النظر إلى فرجها.

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(2) أخرجه البخاري في التفسير، باب: "وليضربن بخمرهن على جيوبهن" 8 / 489.

(6/34)

قوله تعالى: { أَوْ نِسَائِهِنَّ } أراد أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة إلا ما بين السرة والركبة كالرجل المحرم، هذا إذا كانت المرأة مسلمة، فإن كانت كافرة فهل يجوز للمسلمة أن تنكشف لها؟ اختلف أهل العلم فيه، فقال بعضهم: يجوز كما يجوز أن تنكشف للمرأة المسلمة لأنها من جملة النساء، وقال بعضهم: لا يجوز لأن الله تعالى قال: "أو نسائهن" والكافرة ليست من نسائنا ولأنها أجنبية في الدين، فكانت أبعد من الرجل الأجنبي. كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن يمنع نساء أهل الكتاب أن يدخلن الحمام مع المسلمات (1)

قوله تعالى: { أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ } اختلفوا فيها، فقال قوم: عبد المرأة محرم لها، فيجوز له الدخول عليها إذا كان عقيفاً، وأن ينظر إلى بدن مولاته إلا ما بين السرة والركبة، كالمحارم وهو ظاهر القرآن. وروي ذلك عن عائشة وأم سلمة، وروى ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها، وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تلقى قال: "إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلأمك" (2) . وقال قوم: هو كالأجنبي معها، وهو قول سعيد بن المسيب، وقال: المراد من الآية الإمام دون العبيد. وعن ابن جريح أنه قال: أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أنه لا يحل

لامرأة مسلمة أن تتجرد بين يدي امرأة مشرقة إلا أن تكون تلك المرأة المشتركة أمة لها.

قوله عز وجل: { أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ } قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر "غير" بنصب الراء على القطع لأن "التابعين" معرفة و "غير" نكرة. وقيل: بمعنى "إلا" فهو استثناء، معناه: بيدين زينتهن للتابعين إلا إذا الإربة منهم فإنهن لا يبدن زينتهن لمن كان منهم ذا إربة. وقرأ الآخرون بالجر على نعت "التابعين" والإربة والأرب: الحاجة. والمراد بـ "التابعين غير أولي الإربة" هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لا همة لهم إلا ذلك، ولا حاجة لهم في النساء، وهو قول مجاهد وعكرمة والشعبي. وعن ابن عباس أنه الأحقق العينين. وقال الحسن هو الذي لا ينتشر ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن. وقال سعيد بن جبير: هو المعتوه، وقال عكرمة: المجبوب. وقيل: هو المخنث. وقال مقاتل: الشيخ الهرم والعين والخصي والمجبوب ونحوه.

- (1) أخرجه الطبري: 121 / 18 وعزاه السيوطي في الدر المنثور: 6 / 183 لسعيد بن منصور والبيهقي وابن المنذر.
- (2) أخرجه أبو داود في اللباس، باب العبد ينظر إلى شعر مولاته: 6 / 59 قال المنذري: "في إسناده أبو جميع، سالم بن دينار الهجيمي البصري، قال ابن معين: ثقة، وقال أبو زرعة الرازي: مصري لين الحديث، وهو سالم بن أبي راشد". وأخرجه البيهقي: 7 / 95، وصحه الألباني في الإرواء: 6 / 206.

(6/35)

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أحمد بن الحسين الحيري، أخبرنا محمد بن أحمد بن محمد بن معقل بن محمد الميداني، أخبرنا محمد بن يحيى، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مخنث وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم يوماً وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة فقال: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا لا يدخلنَّ عليكن هذا" فحجبه (1) { أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ } أراد بالطفل الأطفال، يكون واحداً وجمعاً، أي: لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع فيطلعوا عليها. وقيل: لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر، وهو قول مجاهد. وقيل: لم يطبقوا أمر النساء. وقيل: لم يبلغوا حد الشهوة.

{ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ } كانت المرأة إذا مشت ضربت برجلها ليسمع صوت خلخالها أو يتبين خلخالها، فنهيت عن ذلك.

{ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا } من التقصير الواقع في أمره ونهيه، وقيل: راجعوا طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه من الآداب المذكورة في هذه السورة، { أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } قرأ ابن عامر: "أيه المؤمنون" و "أياه الساحر" و "أيه الثقلان" بضم الهاء فيهن، ويقف بلا ألف على الخط، وقرأ الآخرون بفتح الهاءات على الأصل. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد

الجبار الرياني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا وهب بن جرير، أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرة، عن أبي بردة أنه سمع الأغر يحدث عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإنني أتوب إلى ربي كل يوم مائة مرة" (2).

أخبرنا أبو الحسن عن عبد الرحمن بن محمد الداودي، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن حزم الشاشي، أخبرنا أبو محمد عبد بن حميد الكشي، حدثني ابن أبي شيبة، أخبرنا عبد الله بن نمير، عن مالك بن مغول، عن محمد بن سوقة، عن نافع، عن ابن عمر قال: إن كنا لتَعُدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول: "رب اغفر لي، وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم" مائة مرة (3).

(1) أخرجه البخاري في اللباس، باب إخراج المتشبهين بالنساء عن البيوت، عن أم سلمة: 10 / 333 ومسلم في السلام باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب، برقم (2181): 4 / 1716 والمصنف في شرح السنة: 12 / 122.

(2) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، برقم (2072): 4 / 2076 والمصنف في شرح السنة: 5 / 71.

(3) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار: 2 / 151 والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا قام من مجلسه: 9 / 393 وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وابن ماجه في الأدب، باب الاستغفار، برقم (3814) والإمام أحمد في المسند: 2 / 21 وصححه ابن حبان برقم (2459) ص (609) من موارد الظمان، وأخرجه عبد بن حميد في المنتخب ص (251) وابن السني في عمل اليوم والليلة ص (179). وانظر: مجمع الزوائد: 2 / 113 سلسلة الأحاديث الصحيحة: 2 / 89.

(6/36)

وجملة الكلام في بيان العورات: أنه لا يجوز للناظر أن ينظر إلى عورة الرجل، وعورته ما بين السرة إلى الركبة، وكذلك المرأة مع المرأة، ولا بأس بالنظر إلى سائر البدن إذا لم يكن خوف فتنة. وقال مالك وابن أبي ذئب: الفخذ ليس بعورة لما روي عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال أجرى نبي الله صلى الله عليه وسلم فرسا في زقاق خيبر وإن ركبتني لتمس 39/ب فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم، ثم حسر الإزار عن فخذه حتى إني لأنظر إلى بياض فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم (1).

وأكثر أهل العلم على أن الفخذ عورة، لما أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى، أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، حدثنا أحمد بن علي الكشميهني، أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن أبي كثير، عن محمد بن جحش، قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على معمر وفخذه مكشوفتان، قال: "يا معمر غط فخذيك، فإن الفخذين عورة" (2) وروي عن ابن عباس وجَرْهَد بن خويلد، كان من أصحاب الصفة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الفخذ عورة" (3)

قال محمد بن إسماعيل: "وحدِيث أَنَسِ أَسْنَدٌ، وَحَدِيثَ جَزْهَدَ أَخُوَطَ" (4) . أما المرأة مع الرجل فإن كانت أجنبية حرة: فجميع بدنها في حق الأجنبي عورة، ولا يجوز النظر إلى شيء منها إلا الوجه والكفين، وإن كانت أمة: فعورتها مثل عورة الرجل، ما بين السرة

- (1) أخرجه البخاري في الصلاة، باب ما يذكر في الفخذ: 1 / 479-480 وفي مواضع أخرى، ومسلم في الجهاد، باب غزوة خيبر، برقم (1365): 4 / 1426-1427. وذكره المصنف في شرح السنة: 9 / 21.
- (2) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار: 2 / 285 والحاكم في المستدرک: 4 / 180 والإمام أحمد في المسند: 5 / 290. وعلقه البخاري: 1 / 479 وأخرجه المصنف في شرح السنة: 9 / 21.
- قال الحافظ في الفتح: "وصله أحمد والمصنف في "التاريخ" والحاكم في "المستدرک"، كلهم من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبي كثير مولى محمد بن جحش عنه..". وصححه بشواهده الشيخ الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنة: 9 / 21-22.
- (3) أخرجه الترمذي في الاستئذان، باب ما جاء أن الفخذ عورة: 8 / 78-79 وقال: "هذا حديث حسن، ما أرى إسناده بمتصل".
- ورواه البخاري تعليقا: 1 / 478، وقال الحافظ ابن حجر في "الفتح": "وحدِيث جرهد موصول عند مالك في الموطأ، والترمذي وحسنه، وابن حبان وصححه. وضعفه المصنف في التاريخ للاضطراب في سنده، وقد ذكرت كثيرا من طرقه في تغريب التعليق". وانظر: مشكل الآثار: 2 / 285-286، شرح معاني الآثار: 1 / 474.
- (4) في الموضوع السابق: 1 / 478.

(6/37)

إلى الركبة، وكذلك المحارم بعضهم مع بعض. والمرأة في النظر إلى الرجل الأجنبي كهو معها. ويجوز للرجل أن ينظر إلى جميع بدن امرأته وأمته التي تحل له، وكذلك هي منه إلا نفس الفرج فإنه يكره النظر إليه، وإذا زوج الرجل أمته حرم عليه النظر إلى عورتها كالأمة الأجنبية، وروي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا زوج أحدكم عبده أمتة فلا ينظرن إلى ما دون السرة وفوق الركبة" (1) .

- (1) أخرجه أبو داود في اللباس: باب في قوله تعالى: "وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن": 6 / 61، والبيهقي في السنن: 3 / 226 و 229، و 7 / 94، والدارقطني: 1 / 230. وحسنه الألباني في الإرواء: 2 / 207. وذكره المصنف في شرح السنة: 9 / 25.

(6/38)

وَأُنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32)

{ وَأُنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32) }
قوله عز وجل: { وَأُنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ } "الأيامى": جمع أيم، وهو من لا زوج
له [من رجل أو امرأة، يقال: رجل أيم وامرأة أيمة، وأيم، ومعنى الآية: زوجوا
أيها المؤمنون] (1) من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم، { وَالصَّالِحِينَ
مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ } وهذا الأمر أمر ندب واستحباب.
يستحب لمن تأقت نفسه إلى النكاح ووجد أهبة النكاح أن يتزوج، وإن لم يجد
أهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم، لما أخبرنا أبو بكر محمد بن علي بن الحسين
الطوسي، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفرايني، [أخبرنا
أبو بكر محمد بن داود بن مسعود، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أيوب البجلي،
أخبرنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان] (2) عن الأعمش عن عمارة بن عمير،
عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه
أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" (3)
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم
حتى بالسقط" (4)

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(2) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(3) أخرجه البخاري في النكاح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من
استطاع الباءة فليتزوج": 9 / 106، ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح
لمن تأقت نفسه، برقم (1400): 2 / 1018-1019، والمصنف في شرح
السنة: 9 / 3.

(4) أخرجه عبد الرزاق في "المصنف": 6 / 173 عن سعيد بن أبي هلال
مرسلاً. قال الحافظ ابن حجر في "تلخيص الحبير" (3 / 116): "أخرجه
صاحب "مسند الفردوس" من طريق محمد بن الحارث عن محمد بن عبد
الرحمن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: .. والمحمدان ضعيفان، وذكر البيهقي عن الشافعي أنه ذكره بلاغا.
وفي الباب عن أبي أمامة أخرجه البيهقي.. وفيه محمد بن ثابت وهو ضعيف،
وعن أنس صححه ابن حبان.. وعن حرملة بن النعمان أخرجه الدارقطني في
"المؤتلف والمختلف" وابن قانع في "الصحابة"، وفي مسند ابن مسعود من
"علل الدارقطني" نحوه، وعن عياض بن غنم أخرجه الحاكم، وإسناده ضعيف..
وذكر ألفاظهم. وانظر: كشف الخفاء: 1 / 380.

(6/38)

وقال صلى الله عليه وسلم: "من أحب فطرتي فليستن بسنتي، ومن سنتي
النكاح" (1). أما من لا تتوق نفسه إلى النكاح وهو قادر عليه فالتخلي للعبادة

له أفضل من النكاح [عند الشافعي رحمه الله، وعند أصحاب الرأي النكاح أفضل] (2) .

قال الشافعي: وقد ذكر الله تعالى عبدا كرمه فقال: "وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين" (آل عمران-39) ، والحصور الذي لا يأتي النساء مع القدرة عليه، وذكر القواعد من النساء ولم يندبهن إلى النكاح. وفي الآية دليل على أن تزويج النساء الأيامى إلى الأولياء؛ لأن الله تعالى خاطبهم به، كما أن تزويج العبيد والإماء إلى السادات، لقوله عز وجل: { وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ } وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم، روي ذلك عن عمر، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وأبي هريرة، وعائشة، وبه قال سعيد بن المسيب، والحسن، وشريح، وإبراهيم النخعي، وعمر بن عبد العزيز، وإليه ذهب الثوري، والأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد وإسحاق. وجوز أصحاب الرأي للمرأة الحرة تزويج نفسها. وقال مالك: إن كانت المرأة دنيئة يجوز لها تزويج نفسها، وإن كانت شريفة فلا. والدليل على أن الولي شرط من جهة الأخبار: ما أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا محمد بن الحسن بن أحمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، أخبرنا قتيبة بن سعيد، أخبرنا أبو عوانة عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا نكاح إلا بولي" (3)

(1) أخرجه عبد الرزاق: 6 / 169، وسعيد بن منصور: 1 / 138 عن عبيد بن سعد مرفوعا، والبيهقي عن أبي هريرة: 7 / 78. قال الهيثمي في المجمع (4 / 252): "رواه أبو يعلى ورجاله ثقات إن كان عبيد بن سعد صحابيا وإلا فهو مرسل". وانظر: "المطالب العالية" لابن حجر: 2 / 36، "الكامل" لابن عدي: 7 / 2549.

(2) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(3) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في الولي: 3 / 29، والترمذي في النكاح، باب ما جاء: لا نكاح إلا بولي: 4 / 226-227، وابن ماجه في النكاح برقم (1881): 1 / 605، وصححه الحاكم: 2 / 169، وابن حبان برقم (1243) ص (304)، وأخرجه الإمام أحمد في المسند: 4 / 394.

قال الترمذي (4 / 229-234): "وحدیث أبي موسى حدیث فيه اختلاف.. وساق الاختلاف في إسناده ثم قال: ورواية هؤلاء الذين رووا عن أبي إسحاق، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا نكاح إلا بولي" عندي أصح؛ لأن سماعهم من أبي إسحاق في أوقات مختلفة، وإن كان شعبة والثوري أحفظ وأثبت من جميع هؤلاء الذين رووا عن أبي إسحاق هذا الحديث.. ثم قال: "والعمل في هذا الباب على حدیث النبي صلى الله عليه وسلم: "لا نكاح إلا بولي" عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، منهم عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وأبو هريرة وغيرهم.

وهكذا روي عن بعض فقهاء التابعين أنهم قالوا: لا نكاح إلا بولي. منهم سعيد بن المسيب والحسن البصري، وشريح وإبراهيم النخعي، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم. وبهذا يقول سفيان الثوري والأوزاعي ومالك وعبد الله بن مبارك والشافعي وأحمد وإسحاق. وانظر: نصب الرأية للزيلعي: 3 / 182-184.

وَلَيْسَتَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ
الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ
الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا يُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عَفُورٌ رَحِيمٌ (33)

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال،
أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا سعيد بن سالم
عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن ابن شهاب، عن عروة عن عائشة
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أما امرأة نكحت نفسها بغير إذن
وليها فنكاحها باطل، ثلاثا، فإن أصابها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن
اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له" (1)

قوله عز وجل: { إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }
قيل: الغنى هاهنا: القناعة. وقيل: اجتماع الرزقين، رزق الزوج ورزق الزوجة.
وقال عمر: عجت لمن ابتغى الغنى بغير النكاح، والله عز وجل يقول: { إِنْ
يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } [وروي عن بعضهم: أن الله تعالى وعد
الغني بالنكاح وبالتفرق فقال تعالى: { إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ }
[(2) ، ، وقال تعالى: "وإن يتفرقا يغني الله كلا من سعته" (النساء-130) .

{ وَلَيْسَتَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ
الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ
الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا يُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عَفُورٌ رَحِيمٌ (33) }
{ وَلَيْسَتَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا } أي: ليطلب العفة عن الحرام والزنا
الذين لا يجدون ما لا ينكحون به للصداق والنفقة، { حَتَّى يُعْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
{ أي: يوسع عليهم من رزقه.

(1) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في الولي: 3 / 26-27، والترمذي في
النكاح: 4 / 227-229، وقال: "هذا حديث حسن، وقد روى يحيى بن سعيد
الأنصاري، ويحيى بن أيوب، وسفيان الثوري، وغير واحد من الحفاظ عن ابن
جرير نحو هذا". وأخرجه ابن ماجه في النكاح برقم (1879): 1 / 605،
وصححه الحاكم: 2 / 168 على شرط الشيخين، وابن حبان برقم (1248)،
ص (305) من موارد الظمان، والبيهقي: 7 / 105، 107، والمصنف في شرح
السنة: 9 / 39.
(2) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(6/40)

قوله تعالى: { وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ } أي: يطلبون المكاتبه، { مِمَّا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ } سبب نزول هذه الآية ما روي أن غلاما لحويطب بن عبد
العزى سأل مولاة أن يكاتبه فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية فكاتبه حويطب
على مائة دينار، ووهب له منها عشرين دينارا فأداها، وقتل يوم حنين في

الحرب (1)

والكتابة أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على كذا من المال، ويسمي ما لا معلوما، يؤدي ذلك في نجمين أو نجوم معلومة في كل نجم كذا، فإذا أدبت فأنت حر، والعبد يقبل ذلك، فإذا أدى المال عتق، ويصير العبد 40/أحق بمكاسبه بعد الكتابة، وإذا أعتق بعد أداء المال فما فضل في يده من المال، يكون له، ويتبعه أولاده الذين حصلوا في حال الكتابة في العتق، وإذا عجز عن أداء المال كان لمولاه أن يفسخ كتابته ويرده إلى الرق، وما في يده من المال يكون لمولاه، لما أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك عن نافع، أخبرنا عبد الله بن عمر كان يقول: "المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته [شيء]" (2). ورواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: "المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته" (3) درهم (4).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: { فَكَاتِبُوهُمْ } أمر إيجاب، يجب على المولى أن ي كاتب عبده الذي علم فيه خيراً إذا سأل العبد ذلك، على قيمته أو أكثر، وإن سأل على أقل من قيمته فلا يجب، وهو قول عطاء وعمرو بن دينار، ولما روي أن سيرين سأل أنس بن مالك أن ي كاتبه فتلکأ عنه فشكا إلى عمر، فعلاه بالدرة وأمره بالكتابة فكاتبه (5). وذهب أكثر أهل العلم إلى أنه أمر نذب واستحباب. ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعي؛ لأنه عقد جوز إرفاقاً بالعبد، ومن تنمة الإرفاق أن يكون ذلك المال عليه إلى أجل حتى يؤديه على مهل، فيحصل المقصود، كالدية في قتل

(1) انظر: أسباب النزول للواحي ص (375)، الدر المنثور: 6 / 189، تفسير القرطبي: 12 / 184.

(2) أخرجه مالك في الموطأ موقوفاً على ابن عمر، كتاب المكاتب، باب القضاء في المكاتب: 2 / 787، والمصنف في شرح السنة: 9 / 373.

(3) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(4) أخرجه أبو داود في العتاق، باب في المكاتب يؤدي بعض كتابته...: 5 / 383. قال المنذري: وفيه إسماعيل بن عياش وهو ضعيف، وأخرجه المصنف في شرح السنة: 9 / 372-373.

(5) أخرجه الطبري: 18 / 126، وعبد الرزاق في "المصنف": 8 / 372، وبمعناه عن قتادة عند البيهقي: 10 / 319، وعلقه البخاري: 5 / 184. وانظر: فتح الباري: 5 / 186-187.

(6/41)

الخطأ، وجبت على العاقلة على سبيل المواساة فكانت عليهم مؤجلة منجمة، وجوز أبو حنيفة الكتابة على نجم واحد وحالة (1).
قوله تعالى: { إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا } اختلفوا في معنى الخير، فقال ابن عمر: قوة على الكسب. وهو قول مالك والثوري، وقال الحسن ومجاهد والضحاك: ما لا كقوله تعالى: "إن ترك خيراً" (لبقرة-180) أي: ما لا وروي أن عبداً لسلمان الفارسي قال له كاتبني، قال: ألك مال؟ قال: لا. قال: تريد أن تطعمني من أوساخ الناس، ولم ي كاتبه (2). قال الزجاج: لو أراد به المال

لقال: إن علمتم لهم خيرا. وقال إبراهيم وابن زيد وعبيدة: صدقا وأمانة (3) وقال طاوس، وعمرو بن دينار: مالا وأمانة (4) وقال الشافعي: وأظهر معاني الخير في العبد: الاكتساب مع الأمانة، فأحب أن لا يمنع من كتابته إذا كان هكذا. أخبرنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني، أخبرنا أبو الحسن بن علي بن شريك الشافعي، أخبرنا عبد الله بن محمد بن مسلم، أخبرنا أبو بكر الجوريزي، أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب أخبرني الليث عن محمد بن عجلان، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله" (5). وحكى محمد بن سيرين عن عبيدة: "إن علمتم فيهم خيرا" أي: أقاموا الصلاة (6). وقيل: هو أن يكون العبد بالغا عاقلا فأما الصبي والمجنون فلا تصح كتابتهما لأن الابتغاء منهما لا يصح. وجوز أبو حنيفة كتابة الصبي المراهق. قوله عز وجل: { وَأَتَوْهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ } اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هذا خطاب للموالي، يجب على المولى أن يحط عن مكاتبه من مال كتابته شيئا، وهو قول عثمان وعلي والزبير وجماعة، وبه قال الشافعي.

(1) في "أ": فعلله.

(2) أخرجه عبد الرزاق في "المصنف": 8 / 374، والبيهقي: 10 / 320.

(3) أخرجه عبد الرزاق: 8 / 370، 371، والبيهقي: 10 / 318.

(4) انظر: مصنف عبد الرزاق: 8 / 370، والبيهقي: 10 / 318.

(5) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في المجاهد والمكاتب

والناكح..: 5 / 296، وقال: "هذا حديث حسن"، والنسائي في النكاح، باب

معونة الله الناكح الذي يريد العفاف: 6 / 61، وابن ماجه في العتق، باب

المكاتب: 2 / 841-842، وصححه الحاكم: 2 / 160، وأخرجه المصنف في

شرح السنة: 9 / 7.

(6) أخرجه عنه عبد الرزاق في المصنف: 8 / 371.

(6/42)

ثم اختلفوا في قدره، فقال قوم: يحط عنه ربع مال الكتابة، وهو قول علي، ورواه بعضهم عن علي مرفوعا (1)، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يحط عنه الثلث. وقال الآخرون: ليس له حد بل عليه أن يحط عنه ما شاء (2) وهو قول الشافعي.

قال نافع: كاتب عبد الله بن عمر غلاما له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع

عنه من آخر كتابته خمسة آلاف درهم (3). وقال سعيد بن جبیر: كان ابن عمر

إذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئا من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع إليه

صدفته، ووضع من آخر كتابته ما أحب (4). وقال بعضهم: هو أمر استحباب.

والجواب أظهر. وقال قوم: أراد بقوله: "وأتوهم من مال الله" أي سهمهم

الذي جعله الله لهم من الصدقات المفروضات، بقوله تعالى: "وفي

الرقاب" (التوبة-60) وهو قول الحسن وزيد بن أسلم (5). وقال إبراهيم: هو

حث لجميع الناس على معونتهم (6)

ولو مات المكاتب قبل أداء النجوم، اختلف أهل العلم فيه: فذهب كثير منهم

إلى أنه يموت رقيقا، وترتفع الكتابة سواء ترك مالا أو لم يترك، كما لو تلف المبيع قبل القبض يرتفع البيع. وهو قول عمر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه قال عمر بن عبد العزيز، والزهري، وقتادة، وإليه ذهب الشافعي وأحمد. وقال قوم: إن ترك وفاءً بما بقي عليه من الكتابة كان حراً وإن كان فيه فضل، فالزيادة لأولاده الأحرار، وهو قول عطاء، وطاوس، والنخعي، والحسن، وبه قال مالك، والثوري، وأصحاب الرأي. ولو كاتب عبده كتابة فاسدة يعتق بأداء المال لأن عتقه معلق بالأداء، وقد وجد وتبعه الأولاد والاكْتساب كما في الكتابة الصحيحة، ويفترقان في بعض الأحكام: وهي أن الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها ما لم يعجز المكاتب عن أداء النجوم، [ولا تبطل بموت المولى، ويعتق بالإبراء

- (1) أخرجه عبد الرزاق عن علي مرفوعا: 375 / 7، والبيهقي: 329 / 10، وأخرجه البيهقي من طريق آخر موقوفا وقال: هذا هو الصحيح موقوف، وكذلك عبد الرزاق: 376 / 7، والطبري: 131 / 18.
- (2) انظر: الطبري: 131 / 18، المصنف لعبد الرزاق: 377 / 8.
- (3) أخرجه الطبري: 131 / 18.
- (4) أخرجه الطبري: 131 / 18، وعبد الرزاق: 377 / 8، والبيهقي: 330 / 3.
- (5) أخرجه الطبري: 131-132 / 18 ورجح الطبري هذا القول وهو قول من قال: عني به إيتاءهم سهمهم من الصدقة المفروضة. انظر بالتفصيل: 132 / 18.
- (6) أخرجه عبد الرزاق عن إبراهيم: 376-377 / 8.

(6/43)

عن النجوم] (1) والكتابة الفاسدة يملك المولى فسخها قبل أداء المال، [حتى لو أدى المال] (2) بعد الفسخ لا يعتق ويبطل بموت المولى، ولا يعتق بالإبراء عن النجوم، وإذا عتق المكاتب بأداء المال لا يثبت التراجع في الكتابة الصحيحة، ويثبت في الكتابة الفاسدة، فيرجع المولى عليه بقيمة رقبته، وهو يرجع على المولى بما دفع إليه إن كان مالا.

قوله عز وجل: { وَلَا تُكْرَهُوا قَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا } الآية نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول المنافق، كانت له جاريتان: معادة ومسيكة، وكان يكرههما على الزنا بالضريبة يأخذها منهما، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية، يؤجرون إماءهم، فلما جاء الإسلام 40/ب قالت معادة لمسيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين، فإن يك خيرا فقد استكثرتنا منه، وإن يك شرا فقد أن لنا أن ندعه، فأنزل الله هذه الآية (3). وروي أنه جاءت إحدى الجاريتين يوما ببرد وجاءت الأخرى بدينار، فقال لهما: ارجعا فازنيا، قالتا: والله لا نفعل، قد جاء الإسلام وحرم الزنا، فاتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكنا إليه، فأنزل هذه الآية (4)

{ وَلَا تُكْرَهُوا قَتِيَاتِكُمْ } إماءكم { عَلَى الْبِعَاءِ } أي: الزنا { إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا } أي: إذا أردن، وليس معناه الشرط، لأنه لا يجوز إكراههن على الزنا وإن لم يردن تحصننا، كقوله تعالى: "وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين" (آل عمران- 139)، [أي: إذا كنتم مؤمنين] (5) وقيل: شرط إرادة التحصن لأن الإكراه

إنما يكون عند إرادة التحصن، فإذا لم ترد التحصن بغت طوعاً، والتحصن: التعفف. وقال الحسن بن الفضل: في الآية تقديم وتأخير تقديرها: وأنكحوا الأيامي منكم إن أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء. { لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } أي: لتطلبوا من أموال الدنيا، يريد من كسبهن وبيع أولادهن، { وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عُفُوٌّ رَحِيمٌ } يعني للمكرهات، والوزر على المكره. وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: لهن والله لهن والله.

- (1) ما بين القوسين ساقط من "أ".
- (2) ما بين القوسين ساقط من "أ".
- (3) عزاه الواحدي في أسباب النزول ص (377) للمفسرين، وساق روايات أن الآية نزلت في عيد الله بن أبي كان يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً.. وهو في صحيح مسلم.
- (4) قاله مقاتل: انظر: أسباب النزول للواحدي ص 377-378.
- (5) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(6/44)

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (34) اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)

{ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (34) اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) }

قوله عز وجل: { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ } من الحلال والحرام، { وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ } أي: شبيها من حالكم بحالهم أيها المكذبون، وهذا تخويف لهم أن يلحقهم ما لحق من قبلهم من المكذبين، { وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } للمؤمنين الذين يتقون الشرك والكبائر. قوله عز وجل: { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } قال ابن عباس: هادي أهل السماوات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهداه من الضلالة ينجون. وقال الضحاك: منور السماوات والأرض، يقال: نور السماء بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء. وقال مجاهد: مدبر الأمور في السماوات والأرض (1) وقال أبي بن كعب والحسن وأبو العالية: مزين السماوات والأرض، زين السماء بالشمس والقمر والنجوم، وزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين. ويقال: بالنبات والأشجار. وقيل: معناه الأنوار كلها منه، كما يقال: فلان رحمة أي منه الرحمة. وقد يذكر مثل هذا اللفظ على طريق المدح كما قال القائل: إذا سار عبد الله من مرو ليلة ... فقد سار منها نورها وجمالها

قوله تعالى: { مَثَلُ نُورِهِ } أي: مثل نور الله تعالى في قلب المؤمن، وهو النور الذي يهتدي به، كما قال "فهو على نور من ربه" (الزمر-22)، وكان ابن مسعود يقرأ: "مثل نوره في قلب المؤمن". وقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس: مثل نوره الذي أعطى المؤمن. وقال بعضهم: الكناية عائدة إلى المؤمن، أي: مثل نور قلب المؤمن، وكان أبي يقرأ: "مثل نور من أمن به" وهو عبد جعل الإيمان والقرآن، في صدره. وقال الحسن وزيد بن أسلم: أراد بالنور القرآن. وقال سعيد بن جبیر والضحاك: هو محمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: أراد بالنور الطاعة، سمي طاعة الله نورا وأضاف هذه الأنوار إلى نفسه تفضيلا

(1) ذكر هذه الأقوال الثلاثة الطبري: 18 / 135 ورجح القول الأول الذي قال به ابن عباس رضي الله عنهما.

(6/45)

{ كَمِشْكَاةٍ } وهي الكوة التي لا منفذ لها فإن كان لها منفذ فهي كوة. وقيل: المشكاة حشوية. قال مجاهد: هي القنديل (1) { فِيهَا مِصْبَاحٌ } أي: سراج، أصله من الضوء، ومنه الصبح، ومعناه: كمصباح في مشكاة، { الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ } يعني القنديل، قال الزجاج: إنما ذكر الرجاجة لأن النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء، وضوءه يزيد في الزجاج، ثم وصف الرجاجة، فقال: { الرَّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ } قرأ أبو عمر والكسائي: "درى" بكسر الدال والهمزة، وقرأ حمزة وأبو بكر بضم الدال والهمزة، فمن كسر الدال فهو فعيل من الدرء، وهو الدفع، لأن الكوكب يدفع الشياطين من السماء، وشبهه بحالة الدفع لأنه يكون في تلك الحالة أضواً وأنوراً ويُقال: هو من درأ الكوكب إذا اندفع منقبضاً فيتضاعف ضوءه في ذلك الوقت. وقيل: "دُرِّيٌّ" أي: طالع، يقال: درأ النجم إذا طلع وارتفع. ويقال: درأ علينا فلان أي طلع وظهر، فأما رفع الدال مع الهمزة كما قرأ حمزة، قال أكثر النحاة: هو لحن، لأنه ليس في كلام العرب فعيل بضم الفاء وكسر العين.

قال أبو عبيدة: وأنا أرى لها وجهاً وذلك أنها دروء على وزن فعول من درات، مثل سبوح وقدوس، وقد استثقلوا كثرة الضمات فردوا بعضها إلى الكسر، كما قالوا: عتياً وهو فعول من عتوت، وقرأ الآخرون { دُرِّيٌّ } بضم الدال وتشديد الياء بلا همز، أي: شديد الإنارة، تُسبب إلى الدر في صفائه وحسنه، وإن كان الكوكب أكثر ضوءاً من الدر لكنه يفضّل الكواكب بضياؤه، كما يفضل الدرّ، سائر الحب. وقيل: الكوكب الدرّي واحد من الكواكب الخمسة العظام، وهي رُحْل والمريخ، والمشتري، والزهرة، وعطارد. وقيل: شبهه بالكوكب، ولم يشبهه بالشمس والقمر، لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف والكواكب لا يلحقها الخسوف.

{ يُوقَدُ } قرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: "تَوَقَّدَ" بالتاء وفتحها وفتح الواو والدال وتشديد القاف على الماضي، يعني المصباح، أي: اتقد، يقال توقدت النار أي: اتقدت. وقرأ

(1) قال الطبري: (18 / 140): "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به، فقال: مثل نور الله

الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد الذي أنزله إليهم فأمنوا به وصدّقوا بما فيه في قلوب المؤمنين، مثل مشكاة، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، وذلك هو نظير الكوة التي في الحيطان التي لا منفذ لها، وذلك مثل القرآن، يقول: القرآن الذي في قلب المؤمن الذي أنار الله قلبه في صدره، ثم مثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله والشك فيه، واستنارته بنور القرآن، واستضاءته بآيات ربه المبينات، ومواعظه فيها - بالكوكب الذي قال: الزجاج، ذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه كأنها كوكب دري".

(6/46)

أهل الكوفة غير حفص "توقد" بالتاء وضمها وفتح القاف خفيفا، يعني الزجاج أي: نار الزجاج لأن الزجاج لا توقد، وقرأ الآخرون بالياء وضمها خفيفا يعني المصباح، { مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ } أي: من زيت شجرة مباركة، فحذف المضاف بدليل قوله تعالى { يَكَادُ رَبُّهَا يُضِيءُ } وأراد بالشجرة المباركة: الزيتون 41/أ وهي كثيرة البركة، وفيها منافع كثيرة، لأن الزيت يسرج به، وهو أضوا وأصفى الأدهان، وهو إدام وفاكهة، ولا يحتاج في استخراجها إلى إعصار بل كل أحد يستخرجه، وجاء في الحديث: "أنه مصحة من الباسور" (1)، وهي شجرة تورق من أعلاها إلى أسفلها.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو الحسن القاسم بن بكر الطيالسي، أخبرنا أبو أمية الطرسوسي، أخبرنا قبيصة بن عقبة، أخبرنا سفيان الثوري، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الذي كان بالشام، وليس بابن أبي رباح، عن أسد بن ثابت وأبي أسلم الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة" (2). قوله تعالى: { لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ } أي: ليست شرقية وحدها حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة إذا طلعت، بل هي ضاحية الشمس طول النهار، تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها، فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين، فيكون زيتها أضوا، وهذا كما يقال: فلان ليس بأسود ولا بأبيض، يريد ليس بأسود خالص ولا بأبيض خالص، بل اجتمع فيه كل واحد منهما، وهذا الرمان ليس بحلو ولا حامض، أي اجتمعت فيه الحلاوة والحموضة، هذا قول ابن عباس في رواية عكرمة والكلبي، والأكثرين. وقال السدي وجماعة: معناه أنها ليست في مقناة لا تصيبها الشمس ولا في مضحاة لا يصيبها الظل، فهي لا تضرها شمس ولا ظل.

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: 17 / 281، وابن أبي حاتم في العلل: 2 / 279 وقال: "قال أبي: هذا كذب" وذكره الذهبي في الميزان: (3 / 40) في ترجمة عثمان بن صالح وهو علة هذا الحديث؛ ليثة أحمد بن صالح. قال الهيثمي في "المجمع": (6 / 100): "رواه الطبراني، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، ولكن ذكر الذهبي هذا الحديث في ترجمة عثمان عن أبي صالح ونقل عن أبي حاتم أنه كذاب". وزاد ابن حجر نسبه لأبي نعيم في الطب، والثعلبي، انظر: الكافي الشاف ص (119)، سلسلة الأحاديث الضعيفة: 1 / 228.

(2) أخرجه الترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في أكل الزيت: 5 / 585-586

وقال: "هذا حديث غريب من هذا الوجه، إنما نعرفه من حديث عبد الله بن عيسى" وصححه الحاكم: 2 / 398، وأخرجه الدارمي في السنن: 2 / 28، والإمام أحمد في المسند: 3 / 497، والمصنف في شرح السنة: 11 / 311. قال الألباني: "روي من حديث عمر، وأبي أسيد، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس.. وساق طرقه إليهم ثم قال: وجملة القول أن الحديث بمجموع طريقي عمر وطريق أبي سعيد يرتقي إلى درجة الحسن لغيره على أقل الأحوال. والله أعلم". انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: 1 / 354-357.

(6/47)

وقيل: معناه أنها معتدلة ليست في شرق يضرها الحر، ولا في غرب يضرها البرد. وقيل: معناه هي شامية لأن الشام لا شرقي ولا غربي. وقال الحسن: ليست هذه من أشجار الدنيا ولو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية وإنما هو مثل ضربه الله لنوره (1).

{ يَكَادُ رَبُّهَا } دهنها، { يُضِيءُ } من صفائه { وَلَوْ لَمْ تَمَسَّهُ تَارٌ } أي: قبل أن تصيبه النار، { نُورٌ عَلَى نُورٍ } يعني نور المصباح على نور الزجاجة. واختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل، فقال بعضهم: وقع هذا التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس لكعب الأحبار: أخبرني عن قوله تعالى: { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ } فقال كعب: هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم، فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوة، توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة، يكاد نور محمد وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار (2). وروى سالم عن ابن عمر في هذه الآية قال: المشكاة: جوف محمد، والزجاجة: قلبه، والمصباح: النور الذي جعله الله فيه، لا شرقية ولا غربية؛ ولا يهودي ولا نصراني، توقد من شجرة مباركة: إبراهيم، نور على نور، قلب إبراهيم، ونور: قلب محمد صلى الله عليه وسلم (3).

وقال محمد بن كعب القرظي: "المشكاة" إبراهيم، و"الزجاجة": إسماعيل و"المصباح": محمد صلوات الله عليهم أجمعين سماه الله مصباحًا كما سماه سراجًا فقال تعالى: "وسراجًا منيرًا" (الأحزاب-46)، "توقد من شجرة مباركة" وهي إبراهيم، سماه مباركة لأن أكثر الأنبياء من صلبه، "لا شرقية ولا غربية" يعني: إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا لأن اليهود تصلي قِبَلَ المغرب والنصارى تصلي قِبَلَ المشرق يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى إليه "نور على نور": نبي من نسل نبي، نور محمد على نور إبراهيم. وقال بعضهم: وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن. روى أبو العالية عن أبي بن كعب قال: هذا مثل المؤمن، فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره، والمصباح ما جعل الله فيه من الإيمان، والقرآن

(1) ذكر الطبري هذه الأقوال، ثم قال: "وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك، قول من قال: إنها شرقية غربية. وقال: ومعنى الكلام: ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشي دون الغداة، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب، فهي شرقية غربية. وإنما قلنا ذلك أولى بمعنى الكلام؛ لأن الله إنما وصف الزيت

يوقد على هذا المصباح بالصفاء والجودة، فإذا كان شجره شرقيا غربيا، كان زيته لا شك أجود وأصفى وأضوأ". تفسير الطبري: 18 / 142-143.
 (2) عزاه السيوطي في "الدر": (6 / 198) لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وابن مردويه.
 (3) عزاه السيوطي في "الدر": (6 / 198) للطبراني وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر.

(6/48)

فِي بُيُوتِ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36)

في قلبه يوقد من شجرة مباركة وهي الإخلاص لله وحده، فمثله كمثل الشجرة التي التف بها الشجر خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس لا إذا طلعت ولا إذا غربت فكذلك المؤمن، قد احترس من أن يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال إن أعطي شكر وإن ابتلي صبر، وإن حكم عدل، وإن قال صدق، يكاد زيتها يضيء أي: يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يتبين له لموافقته إياه نور على نور. قال أبي فهو يتقلب في خمسة أنوار: قوله نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة (1)
 قال ابن عباس: هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوءه، كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدًى على هدًى ونوراً على نور (2) قال الكلبي: قوله { نُورٌ عَلَى نُورٍ } يعني: إيمان المؤمن وعمله. وقال السدي: نور الإيمان ونور القرآن. وقال الحسن وابن زيد (3) هذا مثل القرآن، فالمصباح هو القرآن فكما يُستضاء بالمصباح يُهتدى بالقرآن، والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة الوحي، "يكاد زيتها يضيء" تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم يقرأ، نور على نور: يعني القرآن نور من الله عز وجل لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن، فازداد بذلك نوراً على نور (4)
 قوله عز وجل: { يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: لدين الإسلام، وهو نور البصيرة، وقيل: القرآن { وَبَصُرْتُ اللَّهُ الْأُمْتَلِلَ لِلنَّاسِ } يبين الله الأشياء للناس تقريباً للأفهام وتسهيلاً لسبل الإدراك، { وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ }
 { فِي بُيُوتِ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36)

قوله: { فِي بُيُوتِ أَذِنَ اللَّهُ } أي: ذلك المصباح في بيوت. وقيل: يوقد في بيوت، والبيوت: هي المساجد، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "المساجد بيوت الله في الأرض، وهي تضيء 41/ب لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض".

(1) أخرجه الطبري: 18 / 138، وانظر: الدر المنثور: 6 / 197.

(2) الطبري نفسه، الدر المنثور: 6 / 197.

(3) الطبري: 18 / 137.

(4) انظر ما سبق نقله عن الطبري في ترجيح أن ذلك مثل ضربه الله تعالى للقرآن في قلب أهل الإيمان به: ص (46).

(6/49)

وروى صالح بن حيان عن ابن بريدة في قوله تعالى " في بيوت أذن الله "، قال: إنما هي أربعة مساجد لم بينها إلا نبي: الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل فجعلها قبلة، وبيت المقدس بناه داود وسليمان، ومسجد المدينة بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسجد قباء أسس على التقوى بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم (1)

قوله: { أَنْ تُرْفَعَ } قال مجاهد: أن تبنى، نظيره قوله تعالى: " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت " (البقرة-127) ، قال الحسن: أي تعظم أي لا يذكر فيه الختا من القول. { وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: يتلى فيها كتابه، { يُسَبَّح } قرأ ابن عامر وأبو بكر "يُسَبَّح" بفتح الباء على غير تسمية الفاعل، والوقف على هذه القراءة عند قوله " والأصالة "، وقرأ الآخرون بكسر الباء، جعلوا التسبيح فعلا للرجال، { يُسَبَّحُ لَهُ } أي: يصلي، { لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ } أي بالغداة والعشي. قال أهل التفسير: أراد به الصلوات المفروضة. قالتي تؤدي بالغداة صلاة الصبح، والتي تؤدي بالأصالة صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم الأصيل يجمعهما. وقيل: أراد به صلاة الصبح والعصر.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو بكر أحمد ابن الحسين الحيري، أخبرنا محمد بن أحمد بن محمد بن معقل الميداني، حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا عبد الله بن رجاء، أخبرنا همام بن أبي حمزة، أن أبا بكر بن عبد الله بن قيس حدثه عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من صلى البردين دخل الجنة " (2) . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: التسبيح بالغدو صلاة الضحى (3) أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن السمعان، أخبرنا أبو جعفر الرباني، أخبرنا حميد بن زنجويه، أخبرنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا الهيثم بن حميد، أخبرني يحيى بن الحارث، عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجره كأجر الحاج المحرم، ومن مشى إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر، وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين " (4)

(1) انظر: الدر المنثور: 6 / 203.

(2) أخرجه البخاري في المواقيت، باب فضل صلاة الفجر: 2 / 52، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، برقم (635): 1 / 440، والمصنف في شرح السنة: 2 / 227.

(3) عزاه السيوطي في " الدر ": (6 / 206) لابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان.

(4) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة: 1 / 294. قال المنذري: " القاسم بن عبد الرحمن فيه مقال ". والإمام أحمد: 5 /

268، والبيهقي في السنن: 3 / 49، والطبراني في الكبير: 8 / 150، 207،
والمصنف في شرح السنة: 2 / 357، وانظر: نصب الراية: 3 / 151.

(6/50)

رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ
يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ
مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)

{ رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ
يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ
مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38) }

{ رَجَالٌ } قيل: خص الرجال بالذكر في هذه المساجد لأنه ليس على النساء
جمعة ولا جماعة في المسجد، { لَا تُلْهِهِمْ } لا تشغلهم، { تِجَارَةٌ } قيل خص
التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة والطاعات، وأراد
بالتجارة الشراء وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعًا لأنه ذكر
البيع بعد هذا، كقوله: "وإذا رأوا تجارة" (الجمعة-11) يعني: الشراء، وقال
الفراء: التجارة لأهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يديه. قوله: { وَلَا بَيْعٌ
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ } عن حضور المساجد لإقامة الصلاة، { وَإِقَامِ } أي: لإقامة،
{ الصَّلَاةِ } حذف الهاء وأراد أداءها في وقتها، لأن من آخر الصلاة عن وقتها لا
يكون من مقيمي الصلاة، وأعاد ذكر إقامة الصلاة مع أن المراد من ذكر الله
الصلوات الخمس لأنه أراد بإقام الصلاة حفظ المواقيت. روى سالم عن ابن
عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم فدخلوا
المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: { رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ
اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ } (1)

{ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ } المفروضة، قال ابن عباس رضي الله عنه: إذا حضر وقت
أداء الزكاة لم يحبسوها. وقيل: هي الأعمال الصالحة. { يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ
فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ } قيل: تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من
الشرك والكفر، وتنتفح الأبصار من الأغطية، وقيل: تتقلب القلوب بين الخوف
والرجاء تخشى الهلاك وتطمع في النجاة، وتقلب الأبصار من هوله أي: ناحية
يؤخذ بهم ذات اليمين أم ذات الشمال، ومن أين يؤتون الكتب أم من قبل
الأيمن أم من قبل الشمائل، وذلك يوم القيامة. وقيل: تتقلب القلوب في
الجوف فترتفع إلى الحنجرة فلا تنزل ولا تخرج، وتقلب البصر شخوصه من
هول الأمر وشدته. { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا } يريد: أنهم اشتغلوا بذكر
الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، أي بأحسن ما
عملوا، يريد: يجزيهم بحسناتهم، وما كان من مساوئ أعمالهم لا يجزيهم بها، {
وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ } ما لم يستحقوه بأعمالهم، { وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ } ثم ضرب لأعمال الكفار مثلا فقال تعالى:

(1) أخرجه الطبري: 18 / 146، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.
انظر: الدر المنثور: 6 / 207.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ
يَجِدْهُ سَيْبًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ
كَظَلَمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ يَسْحَابٌ ظَلَمَاتٌ
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ
مِنْ نُورٍ (40)

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ
يَجِدْهُ سَيْبًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ
كَظَلَمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ يَسْحَابٌ ظَلَمَاتٌ
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ
مِنْ نُورٍ (40) }

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ } "السراب" الشعاع الذي يرى نصف
النهار عند شدة الحر في البراري، يشبه الماء الجاري على الأرض يظنه من رآه
ماء، فإذا قرب منه انقش فلم ير شيئاً و"الآل" ما ارتفع من الأرض، وهو شعاع
يرى بين السماء والأرض بالعدوات شبه الملاءة يرفع فيه الشخص يرى فيه
الصغير كبيراً والقصير طويلاً و"الرقراق" يكون بالعشايا، وهو ما تترقق من
السراب، أي جاء وذهب. و"القبيعة": جمع إلقاء وهو المنبسط الواسع من
الأرض، وفيه يكون السراب، { يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ } أي: يتوهمه العطشان،
{ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ } أي: جاء ما قد رأى أنه ماء. وقيل: جاء موضع السراب،
{ لَمْ يَجِدْهُ سَيْبًا } على ما قدره وحسبه كذلك الكافر يحسب أن عمله نافعه
فإذا أتاه ملك الموت واحتاج إلى عمله لم يجد عمله أغنى منه شيئاً ولا نفعه. {
وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ } أي: عند عمله، أي: وجد الله بالمرصاد. وقيل: قدم على
الله، { فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ } أي جزاء عمله، { وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } { أَوْ
كَظَلَمَاتٍ } وهذا مثل آخر ضربه الله لأعمال الكفار، يقول: مثل أعمالهم من
فسادها وجهالتهم فيها كظلمات، { فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ } وهو العميق الكثير الماء،
ولجة البحر: معظمه، { يَغْشَاهُ } يعلوه، { مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ } متراكم،
{ مِنْ فَوْقِهِ يَسْحَابٌ } 42/أ، ، قرأ ابن كثير برواية القواس: "سحاب" بالرفع
والتنوين، { ظَلَمَاتٌ } بالجر على البدل من قوله "أو كظلمات". وروى أبو
الحسن البري عنه: "سحاب، ظلمات" بالإضافة، وقرأ الآخرون "سحابٌ
ظلمات"، كلاهما بالرفع والتنوين، فيكون تمام الكلام عند قوله "سحاب" ثم
ابتدأ فقال: { ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ } ظلمة السحاب وظلمة الموج
وظلمة البحر بعضها فوق بعض، أي: ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة
الموج فوق الموج، وظلمة السحاب على ظلمة الموج، وأراد بالظلمات أعمال
الكافر وبالبحر اللجي قلبه، وبالموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة،
وبالسحاب الختم والطبع على قلبه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَاقَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43)

قال أبي بن كعب: في هذه الآية الكافر يتقلب في خمسة من الظلم: فكلامة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار (1).

{ إِذَا أَخْرَجَ } يعني: الناظر، { يَدُهُ لَمْ يَكْدُ يَرَاهَا } يعني لم يقرب من أن يراها من شدة الظلمة. وقال الفراء: "يكد" صلة، أي: لم يرها، [قال المبرد: يعني لم يرها] (2) إلا بعد الجهد، كما يقول القائل: ما كدت أراك من الظلمة وقد راه، ولكن بعد ياس وشدة. وقيل: معناه قرب من رؤيتها ولم يرها، كما يقال: كاد النعام يطير. { وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } قال ابن عباس: من لم يجعل الله له دينا وإيمانا فلا دين له. وقيل: من لم يهده الله فلا إيمان له ولا يهديه أحد. وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في عتبة بن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين في الجاهلية ويلبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر. والأكثرون على أنه عام في جميع الكفار (3).

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَاقَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) }

قوله عز وجل: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَاقَاتٍ } باسطات أجنحتهن بالهواء. قيل خص الطير بالذكر من جملة الحيوان لأنها تكون بين السماء والأرض فتكون خارجة عن حكم من في السماء والأرض، { كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } قال مجاهد: الصلاة لبني آدم، والتسبيح لپسائر الخلق. وقيل: إن ضرب الأجنحة صلاة الطير وصوته تسبيحه. قوله: { كُلُّ قَدْ عَلِمَ } أي: كل مصل ومسيح منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه. وقيل: معناه كل مصل ومسيح منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } . { وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } . { أَلَيْسَ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي } يعني: يسوق بأمره، { سَحَابًا } إلى حيث يريد، { ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ } أي: يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلى بعض، { ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا } متراكما بعضه فوق

(1) الطبري: 18 / 151.

(2) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(3) انظر: البحر المحيط: 6 / 460.

بعض، { فَتَرَى الْوَدْقَ } يعني المطر، { يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ } وسطه وهو جمع الخلل، كالجبال جمع الجبل. { وَنُزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ } يعني: ينزل البرد، و"من" صلة، وقيل: معناه وينزل من السماء من جبال، أي: مقدار جبال في الكثرة من البرد، و"من" في قوله "من جبال" صلة، أي: وينزل من السماء جبلا من برد. وقيل: معناه وينزل من جبال في السماء تلك الجبال من برد. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أخبر الله عز وجل أن في السماء جبلا من برد، ومفعول الإنزال محذوف تقديره: وينزل من السماء من جبال فيها برد، فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه. قال أهل النحو ذكر الله تعالى "من" ثلاث مرات في هذه الآية فقوله "من السماء" لا ابتداء الغاية، لأن ابتداء الإنزال من السماء، وقوله تعالى "من جبال" للتبعيض لأن ما ينزله الله تعالى بعض تلك الجبال التي في السماء، وقوله تعالى: "من برد" للتجنيس لأن تلك الجبال من جنس البرد. { فَيُصِيبُ بِهِ } يعني بالبرد { مَنْ يَشَاءُ } فيهلك زروعه وأمواله، { وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ } فلا يضره، { يَكَادُ سَنًا بَرِّقَهُ } يعني ضوء برق السحاب، { يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ } شدة ضوئه وبريقه، وقرأ أبو جعفر: "يُذْهِبُ" بضم الياء وكسر الهاء.

(6/54)

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (44)

{ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (44) }
 { يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما يأتي بالليل ويذهب بالنهار، ويأتي بالنهار ويذهب بالليل. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا الحميدي، أخبرنا سفيان، أخبرنا الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: "يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهرَ وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار" (1) قوله تعالى: { إِنَّ فِي ذَلِكَ } يعني في ذلك الذي ذكرت من هذه الأشياء، { لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ } يعني: دلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله تعالى وتوحيده.

(1) أخرجه البخاري في تفسير سورة الجاثية: 8 / 574، ومسلم في الألفاظ من الأدب، باب النهي عن سب الدهر، برقم (2246): 4 / 1762.

(6/54)

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مِمَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47)

{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) }

قوله عز وجل: { وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ } قرأ حمزة والكسائي، "خالق كل" بالإضافة، وقرأ الآخرون "خلق كل" على الفعل، { مِنْ مَاءٍ } يعني: من نطفة، وأراد به كل حيوان يشاهد في الدنيا، ولا يدخل فيه الملائكة ولا الجن، لانا لا نشاهدهم. وقيل: أصل جميع الخلق من الماء، وذلك أن الله تعالى خلق ماء ثم جعل بعضه ريحاً فخلق منها الملائكة، وبعضه ناراً فخلق منها الجن، وبعضها طيباً فخلق منها آدم، { فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ } كالحيات والحيتان والديدان، { وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ } مثل بني آدم والطيور، { وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ } كالبهائم والسباع، ولم يذكر من يمشي على أكثر من أربع مثل حشرات الأرض، لأنها في الصورة كالتي يمشي على الأربع، وإنما قال: "من يمشي" و"مَنْ" إنما تستعمل فيمن يعقل دون من لا يعقل من الحيات والبهائم، لأنه ذكر كل دابة، فدخل فيه الناس وغيرهم، وإذا جمع اللفظ من يعقل ومن لا يعقل تجعل الغلبة لمن يعقل. { يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } { لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ، } آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا } يعني: المنافقين يقولونه، { ثُمَّ يَتَوَلَّى } يعرض عن طاعة الله ورسوله، { فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ } 42/ب، ، أي: من بعد قولهم: آمنا وبدو إلى غير حكم الله. قال الله عز وجل: { وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ } نزلت هذه الآية في بشر المنافق، كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وقال المنافق نتحاكم إلى كعب بن الأشرف، فإن محمداً يحيف علينا، فأنزل الله هذه الآية (1)

(1) انظر: أسباب النزول للواحي ص (378)، البحر المحيط: 6 / 467، القرطبي: 12 / 293، وراجع فيما سبق: 2 / 242-243. والقصة من رواية الكلبي وهو ضعيف.

(6/55)

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ الَّذِي يَتَّقُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52) وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوقَةَ إِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53)

{ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ

أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ
 الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ
 هُمُ الْقَائِرُونَ (52) وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا
 تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53) {
 وقال: { وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ } الرسول بحكم الله، { إِذَا
 قَرِيبِي مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ } أي عن الحكم. وقيل: عن الإجابة. { وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ
 الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ } مطيعين منقادين لحكمه، أي: إذا كان الحق لهم على
 غيرهم أسرعوا إلى حكمه لثقتهم بأنه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضًا
 بالحق. { أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا } أي: شكوا، هذا استفهام ذم وتوبيخ،
 أي: هم كذلك، { أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ } أي: بظلم، { بَلْ
 أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } لأنفسهم بإعراضهم عن الحق. { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ
 الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ } إلى كتاب الله ورسوله، { لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
 } هذا ليس على طريق الخبر لكنه تعليم أدب الشرع على معنى أن المؤمنين
 كذا ينبغي أن يكونوا، ونصب القول على الخير واسمه في قوله تعالى: { أَنْ
 يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } أي: سمعنا الدعاء وأطعنا بالإجابة. { وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ } { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: فيما
 ساءه وسره { وَيَخْشَى اللَّهَ } على ما عمل من الذنوب. { وَيَتَّقْهُ } فيما بعده،
 { فَأُولَئِكَ هُمُ الْقَائِرُونَ } الناجون، قرأ أبو عمرو وأبو بكر "يتقه" ساكنة الهاء،
 ويختلسها أبو جعفر ويعقوب وقالون، كما في نظائرها ويشعها الباؤون كسرا،
 وقرأ حفص "يتقه" بسكون القاف واختلاس الهاء، وهذه اللغة إذا سقطت الياء
 للجزم يسكنون ما قبلها، يقولون: لم أشتتر طعماً بسكون الراء. قوله عز
 وجل: { وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } جهد اليمين أن يحلف بالله، ولا حلف
 فوق

(6/56)

الحلف بالله، { لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ } وذلك أن المنافقين كانوا يقولون
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أينما كنت نكن معك، لئن خرجت خرجنا،
 وإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، فقال تعالى: { قُلْ } لهم { لا
 تُفْسِمُوا } لا تحلفوا، وقد تم الكلام، ثم قال: { طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ } أي: هذه
 طاعة بالقول وباللسان دون الاعتقاد، وهي معروفة أي: أمر عرف منكم أنكم
 تكذبون وتقولون ما لا تفعلون، هذا معنى قول مجاهد رضي الله عنه. وقيل:
 معناه طاعة معروفة بنية خالصة أفضل وأمثل من يمين باللسان لا يوافقها
 الفعل. وقال مقاتل بن سليمان: لتكن منكم طاعة معروفة. { إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا
 تَعْمَلُونَ }

(6/57)

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا
 حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54) وَعَدَّ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ
أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْقَاسِفُونَ (55)

{ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مِمَّا
حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54) وَعَدَّ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ
أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْقَاسِفُونَ (55) }

{ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا } أي: تولوا عن طاعة الله
ورسوله، { فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ } يعني: على الرسول ما كلف وأمر به من
تبليغ الرسالة، { وَعَلَيْكُمْ مِمَّا حُمِّلْتُمْ } من الإجابة والطاعة، { وَإِنْ تُطِيعُوهُ
تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } أي: التبليغ البين. قوله عز وجل:
{ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ } قال
أبو العالية في هذه الآية: مكث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الوحي
عشر سنين مع أصحابه، وأمروا بالصبر على أذى الكفار، وكانوا يُضَيِّحُونَ
ويُمسُونَ خائفين، ثم أمروا بالهجرة إلى المدينة، وأمروا بالقتال وهم على
خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه، فقال رجل منهم: يا أيها النبي ما يأتي علينا يوم نأمن فيه
ونضع السلاح؟ فأنزل الله هذه الآية (1) { وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ }

(1) أخرجه الطبري: 18 / 159-160 وعزاه السيوطي: (6 / 215) لعبد بن
حميد وابن أبي حاتم، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص (119-120):
"ووصله الحاكم: 2 / 401، وابن مردويه"، وقال الهيثمي في المجمع (7 /
83): "رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات". وانظر: أسباب النزول
للواحد ص (379)، القرطبي: 12 / 297، الصحيح المسند من أسباب
النزول للوادعي ص (108).

(6/57)

أدخل اللام لجواب اليمين المضمرة، يعني: والله ليستخلفنهم، أي: ليورثنهم
أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكانها، { كَمَا
اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } قرأ أبو بكر عن عاصم: "كما استخلف" بضم التاء
وكسر اللام على ما لم يسم فاعله، وقرأ الآخرون بفتح التاء واللام لقوله
تعالى: "وعد الله". قال قتادة: { كَمَا اسْتَخْلَفَ } داود وسليمان وغيرهما من
الأنبياء. وقيل: "كما استخلف الذين من قبلهم" أي: بني إسرائيل حيث أهلك
الجبارة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم، { وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي
ارْتَضَى لَهُمْ } أي: اختار، قال ابن عباس: يوسع لهم في البلاد حتى يملكوها
ويظهر دينهم على سائر الأديان، { وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ } قرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب
بالتخفيف من الإبدال، وقرأ الآخرون بالتشديد من التبديل، وهما لغتان، وقال

بعضهم: التبديل تغيير حال إلى حال، والإبدال رفع الشيء وجعل غيره مكانه، { مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي { آمين، { لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا { فَأَنْزَلَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وأظهر دينه، ونصر أوليائه، وأبدلهم بعد الخوف أمناً وبسطاً في الأرض. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن الحكم، أخبرنا النضر، أخبرنا إسرائيل، أخبرنا سعيد الطاهري، أخبرنا محمد بن خليفة، عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل، فقال: "يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبتت عنها"، قال: "فإن طالت بك حياة فلتترين الطعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله"، قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد؟، "ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى" قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: "كسرى بن هرمز، لئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب وفضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه، وليلقى الله أحدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم فليقولن له: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالا 43/1 وأفضل عليك؟ فيقول: بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم"، قال عدي: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة"، قال عدي: فرأيت الطعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت ممن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم يخرج ملء كفه (1)

(1) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة: 6 / 610-611، والمصنف في شرح السنة: 15 / 31-33.

(6/58)

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَاهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ (57)

وفي الآية دلالة على خلافة الصديق وإمامة الخلفاء الراشدين. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، أخبرنا علي بن الجعد، أخبرني حماد هو ابن مسلمة بن دينار، عن سعيد بن جمهان، عن سفينة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً". ثم قال: أمسك خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشرًا، وعثمان اثنتا عشر، وعلي ستة. قال علي: قلت لحمام: سفينة، القائل، لسعيد أمسك؟ قال: نعم (1). قوله عز وجل: { وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ } أراد به كفران النعمة، ولم يرد الكفر بالله، { فَأُولَئِكَ هُمُ الْقَاسِقُونَ } العاصون لله. قال أهل التفسير: أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه، فلما قتلوه غير الله ما بهم وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخوانًا.

أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم المعروف بابن أبي نصر، أخبرنا أبو الحسن خيثمة بن سليمان بن حيدرة المعروف بالطرابلسي، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن عباد، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن حميد بن هلال قال: قال عبد الله بن سلام في عثمان: إن الملائكة لم تزل محيطة بمدينتكم هذه منذ قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اليوم، فوالله لئن قتلتموه ليذهبون ثم لا يعودون أبدا، فوالله لا يقتله رجل منكم إلا لقي الله أجذم لا يد له، وإن سيف الله لم يزل مغمودا عنكم، والله لئن قتلتموه ليسلته الله ثم لا يغمده عنكم، إما قال: أبدا، وإما قال: إلى يوم القيامة، فما قتل نبي قط إلا قتل به سبعون ألفا، ولا خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفا (2)

{ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَنَّ الْمَهْصِيرُ (57) } قوله عز وجل: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } أي: افعلوها على رجاء الرحمة. { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } قرأ عامر وحزمة "لا يحسن" بالياء، أي:

(1) أخرجه أبو داود في السنة، باب في الخلفاء: 27 / 7 بلفظ: "ثم يؤتي الله الملك من يشاء.."، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في الخلافة: 6 / 476-477، وقال: "هذا حديث حسن قد رواه غير واحد عن سعيد بن جهمان ولا نعرفه إلا من حديثه". وصححه ابن حبان ص (369) من موارد الظمان، وأخرجه الإمام أحمد في المسند: 5 / 220، والمصنف في شرح السنة: 14 / 75-74.

(2) أخرجه عبد الرزاق في الجامع من "المصنف": 11 / 455، واختصره ابن سعد في الطبقات: 3 / 83.

(6/59)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَصْعُونَ فِيَّابِكُمْ مِنَ الظُّهَيْرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58)

لا يحسن الذين كفروا أنفسهم { مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ } وقرأ الآخرون بالتاء، يقول: لا تحسن يا محمد الذين كفروا معجزين فائتين عنا، { وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَنَّ الْمَهْصِيرُ }

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَصْعُونَ فِيَّابِكُمْ مِنَ الظُّهَيْرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58) } قوله عز وجل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } الآية: قال ابن عباس رضي الله عنهما وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت

الظهيره ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك، فأنزل الله هذه الآية (1) وقال مقاتل: نزلت في أسماء بنت مرثد، كان لها غلام كبير، فدخل عليها في وقت كرهته، فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن خدمنا وغلما نأ يدخلون علينا في حال نكرهها، فأنزل الله تعالى (2) "يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم: اللام لام الأمر. { الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } يعني: العبيد والإماء، { وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ } من الأحرار، ليس المراد منهم الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، بل الذين عرفوا أمر النساء ولكن لم يبلغوا.

{ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ } أي: ليستأذنوا في ثلاث أوقات، { مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَصْعُونَ يَتَابِعُكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ } يريد المقييل، { وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ } وإنما خص هذه الأوقات لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب، وربما يبدو من الإنسان ما لا يحب أن يراه أحد، أمر العبيد والصبيان بالاستئذان في هذه الأوقات، وأما غيرهم فليستأذنوا في جميع الأوقات { ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ } قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: "ثلاث" بنصب التاء بدلا عن قوله: "ثلاث مرات"، وقرأ الآخرون

(1) انظر: أسباب النزول للواحي ص (380)، الكافي الشاف ص (120).
(2) عزاه السيوطي في "الدر": (6 / 217) لابن أبي حاتم، وذكره الواحي في أسباب النزول ص (380). وانظر: الكافي الشاف ص (120)، وابن كثير: 304 / 3.

(6/60)

بالرفع، أي: هذه الأوقات ثلاث عورات لكم، سميت هذه الأوقات عورات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته، { لَيْسَ عَلَيْكُمْ } جناح، { وَلَا عَلَيْهِمْ } يعني: على العبيد والخدم والصبيان، { جُنَاحٌ } في الدخول عليكم من غير استئذان، { بَعْدَهُنَّ } أي: بعد هذه الأوقات الثلاثة، { طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ } أي: العبيد والخدم يطوفون عليكم فيترددون ويدخلون ويخرجون في أشغالهم بغير إذن، { بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ } أي: يطوف، { بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } واختلف العلماء في حكم هذه الآية: فقال قوم: منسوخ (1).

قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يكن للقوم ستور ولا حجاب (2)، فكان الخدم والولائد يدخلون فرما يرون منهم ما لا يحبون، فأمروا بالاستئذان، وقد بسط الله الرزق واتخذ الناس الستور فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان (3) وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة، روى سفيان عن موسى بن أبي عائشة قالت: سألت الشعبي عن هذه الآية: "ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم" أمنسوخة هي؟ قال: لا والله، قلت: إن الناس لا يعملون بها، قال: الله المستعان (4) وقال سعيد بن جبير في هذه الآية: إن ناسًا يقولون نسخت، والله ما نسخت، ولكنها مما تهاون به الناس (5).

(1) حكى ذلك عن سعيد بن المسيب، وحكاه القرطبي أيضا عن سعيد بن جبير، وهو خلاف الرواية عنه. انظر: زاد المسير: 6 / 62، القرطبي: 12 /

- (2) في "الدر المنثور" و"القرطبي": (حجال) جمع (حَجَلَة) وهو بيت كالقبة يستر بالثياب ويكون له أزرار كبار.
- (3) عزاه السيوطي لأبي داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي. وانظر: الدر المنثور: 6 / 219. قال القرطبي: (12 / 303): "هذا متن حسن، وهو يرد قول سعيد وابن جبير، فإنه ليس فيه دليل على نسخ الآية، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان، بل حكمها لليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحاري ونحوها".
- (4) أخرجه الطبري: 18 / 162-163، ونسبه السيوطي: 6 / 319 للفريابي.
- (5) أخرجه الطبري: 18 / 163.

(6/61)

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59)

{ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59) } قوله تعالى: { وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ } أي: الاحتلام، يريد الأحرار الذين بلغوا، { فليستأذنوا } أي: يستأذنون في جميع الأوقات في الدخول عليكم، { كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } الأحرار والكبار.

(6/61)

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ بِمَا مَلَكَتُمْ مَقَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61)

وقيل: يعني الذين كانوا مع إبراهيم وموسى وعيسى. { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ } دلالاته. وقيل: أحكامه، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } بأمور خلقه، { حَكِيمٌ } بما دبر لهم. قال سعيد بن المسيب: يستأذن الرجل على أمه، وإنما أنزلت 43/ب هذه الآية في ذلك (1). وسئل حذيفة: أيستأذن الرجل على والدته؟ قال: نعم، إن لم يفعل رأى منها ما يكره (2).

{ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60) لَيْسَ

عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى
 أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ
 أَوْ بُيُوتِ أَخْوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
 خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ
 أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ
 كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61) {

قوله تعالى: { وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ } يعني اللاتي قعدن عن الولد والحيض من
 الكبر، لا يلدن ولا يحضن، واحدها "قاعد" بلا هاء. وقيل: قعدن عن الأزواج،
 وهذا معنى قوله: { اللاتي لا يَزُجُونَ نِكَاحًا } أي: لا يردن الرجال لكبرهن، قال
 ابن قتيبة: سميت المرأة قاعدًا إذا كبرت، لأنها تكثر القعود (3). وقال ربيعة
 الرأي: هن العُجُز، اللاتي إذا رآهن الرجال استقذروهن، فاما من كانت فيها
 بقية من جمال، وهي محل الشهوة، فلا تدخل في هذه الآية، { قَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ
 جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ } عند الرجال، يعني: يضعن بعض ثيابهن، وهي الجلباب
 والرداء الذي فوق الثياب، والقناع الذي فوق الخمار، فاما الخمار فلا يجوز
 وضعه، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وأبي بن كعب: "أن يضعن من
 ثيابهن"، { عَيْرٌ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ } أي: من غير أن يردن بوضع الجلباب، والرداء
 إظهار زينتهن، والتبرُّج هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تنتزه
 عنه. { وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ } فلا يلقين الجلباب والرداء، { حَيْرٌ لهنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
 عَلِيمٌ } قوله تعالى: { لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا
 عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ } الآية، اختلف العلماء في هذه الآية، فقال ابن عباس رضي
 الله عنهما كما أنزل الله عز وجل قوله: "يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم
 بينكم بالباطل" (النساء-29)، تخرج المسلمون عن مؤاكلة

(1) الطبري: 18 / 165.

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: 4 / 398 وفيه آثار أخرى.
 (3) قال ابن قتيبة في "غريب القرآن" (2 / 43) من "القرطيين" لابن مطرف
 الكناني: ".. ولا أراها تسمت قاعدا إلا بالقعود، لأنها إذا أسنت عجزت عن
 التصرف وكثرة الحركة، وأطالت القعود، فقبل لها: "قاعد" بلا هاء، ليدل
 بحذف الهاء على أنه قعود كبير، كما قالوا: امرأة حامل، بلا هاء، ليدل بحذف
 الهاء على أنه حمل جبل، وقالوا في غير ذلك: قاعدة في بيتها، وحاملة على
 ظهرها".

(6/62)

المرضى والزمنى والعمي والعرج، وقالوا الطعام أفضل الأموال، وقد نهانا الله
 عن أكل المال بالباطل. والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والأعرج لا
 يتمكن من الجلوس، ولا يستطيع المزاحمة على الطعام، والمرضى يضعف عن
 تناول فلا يستوفي الطعام، فأنزل الله هذه الآية (1) وعلى هذا التأويل يكون
 "على" بمعنى "في" أي: ليس في الأعمى، يعني: ليس عليكم في مؤاكلة
 الأعمى والأعرج والمرضى.

وقال سعيد بن جبير والضحاك وغيرهما كان العرجان والعميان والمرضى
 يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء، لأن الناس يتقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم،

ويقول الأعمى: ربما أكل أكثر، ويقول الأعرج: ربما أخذ مكان الاثنين، فنزلت هذه الآية (2) . وقال مجاهد: نزلت الآية ترخيصاً لهؤلاء في الأكل من بيوت من سمى الله في هذه الآية، وذلك أن هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو بعض من سمى الله في هذه الآية، فكان أهل الزمانة يتخرجون من ذلك الطعام ويقولون ذهب بنا إلى بيت غيره؟ فأنزل الله هذه الآية (3) وقال سعيد بن المسيب: كان المسلمون إذا غزوا خلفوا زمناهم ويدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون قد أحللتنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتخرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها

- (1) أخرجه الطبري: 18 / 168، وذكره الواحدي ص (381)، وعزاه السيوطي: (6 / 224) أيضا لابن المنذر، وابن أبي حاتم والبيهقي. وانظر: مشكل القرآن لابن قتيبة ص (333).
- (2) الطبري: 18 / 168، الواحدي ص (381).
- (3) الطبري: 18 / 169، الواحدي ص (381)، وعزاه السيوطي: (6 / 223) لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وإبراهيم، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

(6/63)

وهم عُتَب، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم (1) قال الحسن: نزلت هذه الآية رخصة لهؤلاء في التخلف عن الجهاد. قال: تم الكلام عند قوله: "ولا على المريض حرج"، وقوله تعالى: { وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ } كلام منقطع عما قبله (2) وقيل: لما نزل قوله: "لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل" (النساء-29) ، قالوا: لا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فأنزل الله عز وجل { وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ } (3) أي: لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم. قيل: أراد من أموال عيالكم وأزواجكم وبيت المرأة كبيت الزوج. وقال ابن قتيبة: أراد من بيوت أولادكم، نَسَبَ بيوت الأولاد إلى الآباء (4) كما جاء في الحديث: "أنت ومالك لأبيك" (5) ، { أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُنَّ مَفَاتِحَهُ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: عني بذلك وكيل الرجل وقيمته في ضيعته وماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته، ويشرب من لبن ماشيته، ولا يحمل ولا يدخر. وقال الضحاك: يعني في بيوت عبيدكم ومماليككم، وذلك أن السيد يملك منزل عبده والمفاتيح الخزائن، لقوله تعالى: "وعنده مفاتيح الغيب" (الأنعام-59) ويجوز أن يكون الذي يفتح به. قال عكرمة: إذا ملك الرجل

- (1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص (381-382) وعزاه السيوطي لعبد بن حميد. وأخرجه البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن النجار عن عائشة أيضا، وقال الهيثمي: "رجال البزار رجال الصحيح". انظر: الدر المنثور: 6 / 224، مجمع الزوائد: 7 / 83.
- (2) انظر: الطبري 18 / 169، ولم يعزه للحسن، وإنما عزاه لابن زيد، وذكره

ابن الجوزي في زاد المسير: 6 / 64 عن الحسن وابن زيد.
 (3) عزاه السيوطي لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس. انظر: الدر المنثور: 6 / 224.
 (4) قال ابن قتيبة في "مشكل القرآن" ص (333-334): في الكلام على الآية الكريمة: "أراد: ولا علي أنفسكم أن تأكلوا من أموال عيالكم وأزواجكم". وقال بعضهم: أراد أن تأكلوا من بيوت أولادكم، فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء؛ لأن الأولاد كسبهم، وأموالهم كأموالهم. يدل ذلك على هذا: أن الناس لا يتوقون أن يأكلوا من بيوتهم، وأن الله سبحانه عدد القربات وهم أبعد نسبا من الولد، ولم يذكر الولد".
 (5) أخرجه ابن ماجه عن جابر، في التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، برقم (2291): 2 / 769، قال في الزوائد: "وإسناده صحيح، ورجاله ثقات على شرط البخاري"، والطبراني في الأوسط: 1 / 141، والطحاوي في مشكل الآثار: 2 / 230. ومن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مطولا رواه الإمام أحمد: 2 / 204، وأبو داود في البيوع، وابن ماجه في التجارات وابن الجارود في المنتقى. وانظر: الفتح السماوي للمناوي: 2 / 875-876 مع تعليق المحقق، إرواء الغليل: 3 / 323 و 325، كشف الخفاء: 1 / 239-240.

(6/64)

المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير. وقال السدي: الرجل يولي طعامه غيره يقوم عليه فلا بأس أن يأكل منه وقال قوم: "ما ملكتم مفاتحه" ما خزنتموه عندكم قال مجاهد وقتادة: من بيوت أنفسكم مما أحرزتم ومليكم.
 { أَوْ صَدِيقُكُمْ } الصديق الذي صدقك في المودة. قال ابن عباس: نزلت في الحارث بن عمرو رضي الله عنه، خرج غازيًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهودًا فسأله عن حاله، فقال: تخرجت أن أكل طعامك بغير إذنك فأنزل الله هذه الآية (1). وكان الحسن وقتادة يريان دخول الرجل بيت صديقه والتحريم بطعامه من غير استئذان منه في الأكل بهذه الآية. والمعنى: { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا } من منازل هؤلاء إذا دخلتموها وإن لم يحضروا، من غير أن تتزودوا وتحملوا. قوله: { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا } نزلت في بني ليث بن عمرو، وهم حي من بني كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفًا يأكل معه، فربما قعد الرجل والطعام، بين يديه من الصباح إلى الرواح، وربما كانت معه الإبل الحقل، فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحدًا أكل، هذا قول قتادة والضحاك وابن جريج (2) وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصدافته فيدعوه إلى طعامه، فيقول: والله إنني لأجرح، أي: أخرج أن أكل معك وأنا غني وأنت فقير، فنزلت هذه الآية (3). وقال عكرمة وأبو صالح: نزلت في قوم من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاءوا، جميعًا أو أشتاتًا متفرقين (4).

(1) ذكره السيوطي في الدر المنثور: (6 / 225) من رواية الثعلبي عن ابن

عباس.
(2) انظر: الطبري 18 / 172، أسباب النزول ص (382)، الدر المنثور: 6 / 225.

(3) الطبري: 18 / 172 .

(4) الطبري: 18 / 172، وزاد السيوطي نسبه لابن المنذر، وذكره الواحدي ص (382) عن عكرمة. وقال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله وضع الحرج عن المسلمين أن يأكلوا جميعا معا إذا شاءوا، أو أشتاتا متفرقين إذا أرادوا. وجائز أن يكون ذلك نزل بسبب من كان يتخوف من الأغنياء الأكل مع الفقير، وجائز أن يكون نزل بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا لا يطعمون وحدانا، وبسبب غير ذلك. ولا خير بشيء من ذلك يقطع العذر، ولا دلالة في ظاهر التنزيل على حقيقة شيء منه، والصواب: التسليم لما دل عليه ظاهر التنزيل، والتوقف فيما لم يقم على صحته دليل".

(6/65)

{ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ } أي: يسلم بعضكم على بعض، هذا في دخول الرجل بيت نفسه يسلم على أهله ومن في بيته، وهو قول جابر وطاوس والزهري وقتادة والضحاك وعمرو بن دينار (1) . وقال قتادة: إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهو أحق من سلمت عليه، وإذا دخلت بيتا لا أحد فيه فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. حَدَّثَنَا أَن الْمَلَائِكَةَ تَرَدُّ عَلَيْهِ (2) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن لم يكن في البيت أحد فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام على أهل البيت ورحمة الله. وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس (3) رضي الله عنهما في قوله تعالى: { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ } قال: إذا دخلت المسجد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين (4) { تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ } نصب على المصدر، أي: تحيون أنفسكم تحية، { مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ } وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حسنة جميلة. وقيل: ذكر البركة والطيبة هاهنا لما فيه من الثواب والأجر { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }

(1) انظر: زاد المسير: 6 / 67.

(2) عزاه السيوطي: (6 / 228) لعبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي.
(3) أخرجه الطبري: 18 / 174، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: 2 / 401، وزاد السيوطي نسبه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(4) قال الطبري: (18 / 175): "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال معناه: فإذا دخلتم بيوتا من بيوت المسلمين فليسلم بعضكم على بعض... لأن الله جل ثناؤه قال: "فإذا دخلتم بيوتا" ولم يخصص من ذلك بيتا دون بيت، وقال: "فسلموا على أنفسكم" يعني: بعضكم على بعض، فكان معلوما إذ لم يخصص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنه معني به جميعها، مساجدها وغير مساجدها. ومعنى قوله: "فسلموا على أنفسكم" نظير قوله: "ولا تقتلوا أنفسكم"، وانظر: القرطبي 12 / 318.

(6/66)

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ قَاذَنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرُ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62)

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ قَاذَنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرُ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ (62) }

قوله عز وجل: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ } أي: مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، { عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ } يجمعهم من حرب حضرت، أو صلاة أو جمعة أو عيد أو جماعة

(6/66)

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63)

أو تشاور في أمر نزل، { لَمْ يَذْهَبُوا } يتفرقوا عنه، لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر، { حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ } قال المفسرون: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد، لحاجة أو عذر، لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يراه، فيعرف أنه إنما قام يستأذن، فيأذن لمن شاء منهم. قال مجاهد: وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده (1).

قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن، وإذا استأذن فللإمام إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن، وهذا إذا لم يكن له سبب يمنعه من المقام، فإن حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكون في المسجد فتحيض منهم امرأة، أو يجنب رجل، أو يعرض له مرض، فلا يحتاج إلى الاستئذان. { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ } أي: أمرهم، { قَاذَنُ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ } في الإنصراف، معناه إن شئت فأذن وإن شئت فلا تأذن، { وَاسْتَغْفِرُ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }

{ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) }

{ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا } قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقول احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه، فإن دعاءه موجب لنزول البلاء بكم ليس كدعاء غيره (2) وقال مجاهد وقتادة: لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضًا: يا محمد، يا عبد الله، ولكن قَحْمُوهُ وَشَرَّفُوهُ، فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، في لين وتواضع (3).

{ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ } أي: يخرجون { مِنْكُمْ لَوَادًا } أي: يستتر بعضهم بعضا ويبروغ في خيفة، فيذهب "واللواد" مصدر لاوَدَ يُلَاوِدُ، مُلَاوِدَةٌ، ولوَادًا.

(1) زاد المسير: 6 / 67-68.

(2) انظر: الطبري 17 / 177.

(3) وهو مروى أيضا عن ابن عباس. انظر: الطبري 17 / 177، الدر المنثور: 6 / 230. ونقل ابن كثير القولين في التفسير: 3 / 308. ورجح الطبري قول ابن عباس الأول، لأن الذي قبل ذلك نهى من الله للمؤمنين أن يأتوا من الانصراف عنه في الأمر الذي يجمع جميعهم ما يكرهه، والذي بعده وعيد للمنصرفين بغير إذنه عنه، فالذي بينهما بأن يكون تحذيرا لهم سخطة أن يضطره إلى الدعاء عليهم، أشبه من أن يكون أمرا لهم بما لم يجر له ذكر من تعظيمه وتوقيره بالقول والدعاء".

(6/67)

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ
فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64)

قيل: كان هذا في حفر الخندق، فكان المنافقون ينصرفون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مختفين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لوادًا" أي: يلوذ بعضهم ببعض، وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد في استتار. ومعنى قوله: { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ } للتهديد بالمجازاة. { قَلِيحِدْرَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ } أي: أمره و"عن" صلة. وقيل: معناه يعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير إذنه. { أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ } أي لثلا تصيبهم فتنة، قال مجاهد: بلاء في الدنيا، { أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } وجع في الآخرة. وقيل: عذاب أليم عاجل في الدنيا. ثم عظم نفسه فقال: { أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64) } { أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ملكًا وعبدًا، { قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ } الإيمان والنفاق أي: يعلم، و"قد" صلة { وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ } يعني: يوم البعث، { فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا } الخير والشر، { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه، حدثنا عبد الله بن محمد بن شيبه، حدثنا محمد بن إبراهيم الكرابيسي، حدثنا سليمان بن توبة، حدثنا أبو داود الأنصاري، أخبرنا محمد بن إبراهيم الشامي، حدثنا شعيب بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تنزلوا النساء الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن الغزل، وسورة النور" (1)

(1) أخرجه الحاكم: 2 / 396 وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" فتعقبه الذهبي فقال: بل موضوع، وأفته عبد الوهاب، قال أبو حاتم: كذاب".

وقال الهيثمي في المجمع (4 / 93): "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن إبراهيم الشامي، قال الدارقطني: كذاب". وذكره ابن الجوزي في "العلل المتناهية". ونسبه السيوطي أيضا للبيهقي في شعب الإيمان، وابن مردويه، انظر: الدر المنثور: 6 / 124.

(6/68)

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (2)

سورة الفرقان مكية (1) بسم الله الرحمن الرحيم
{ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (2) }
{ تَبَارَكَ } تفاعل، من البركة. عن ابن عباس: معناه: جاء بكل بركة، دليله قول الحسن: مجيء البركة من قبله. وقال الضحاك: تعظم، { الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ } أي: القرآن، { عَلَى عَبْدِهِ } محمد صلى الله عليه وسلم. { لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا } أي: للجن والإنس. قيل: النذير هو القرآن. وقيل: محمد صلى الله عليه وسلم (2). { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ } مما يطلق عليه صفة المخلوق، { فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا } فسواه وهياه لما يصلح له، لا خلل فيه ولا تفاوت، وقيل: قدر لكل شيء تقديرًا من الأجل والرزق، فجرت المقادير على ما خلق.

(1) وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والجمهور، وحكي عن ابن عباس وقتادة في قول آخر عنهما أنها مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى: "والذين لا يدعون مع الله إلها آخر" إلى قوله: "غفوراً رحيماً" (الفرقان 68-70). وقال الضحاك: مدنية إلا من أولها إلى قوله الآية الثالثة: "ولا نشورا" فهو مكِّي.

وقول الجمهور هو الراجح، ومكية السورة واضحة من موضوعها وأسلوبها، وهذا يتفق مع الرواية الراجحة. والله أعلم انظر: الدر المنثور: 6 / 234، القرطبي: 13 / 1، زاد المسير: 6 / 71، البحر المحيط: 6 / 480، المحرر الوجيز: 12 / 5.

(2) القول الأول حكاه الماوردي، ورجح الطبري أنه النبي صلى الله عليه وسلم، وإن لم يكن في الحقيقة تعارض بين المعنيين، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ينذر به العالمين، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو رسول الله تعالى للعالمين. والله أعلم. انظر: الطبري 19 / 180، زاد المسير: 6 / 72.

(6/69)

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتِرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأُولِينَ اِكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا (6)

{ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتِرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأُولِينَ اِكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا (6) }

قوله عز وجل: { وَاتَّخَذُوا } يعني عبدة الأوثان، { مِنْ دُونِهِ آلِهَةً } يعني: الأصنام، { لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا } أي: دفع ضر ولا جلب نفع، { وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً } أي: إمانته وإحياء، { وَلَا نُشُورًا } أي: بعثا بعد الموت. { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } يعني: المشركين، 44/ب يعني: النضر بن الحارث وأصحابه، { إِنَّ هَذَا } ما هذا القرآن، { إِلَّا إِفْكٌ } كذب، { افْتِرَاهُ } اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم، { وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ } قال مجاهد: يعني اليهود (1). وقال الحسن: هو عبيد بن الخضر الحبشي الكاهن. وقيل: جبر، ويسار، وعداس بن عبيد، كانوا بمكة من أهل الكتاب، فزعم المشركون أن محمدا صلى الله عليه وسلم يأخذ منهم، قال الله تعالى: { فَقَدْ جَاءُوا } يعني قائلني هذه المقالة، { ظُلْمًا وَزُورًا } أي: بظلم وزور. فلما حذف الباء انتصب، يعني جاؤوا شركًا وكذبًا بنسبتهم كلام الله تعالى إلى الإفك والافتراء. { وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأُولِينَ اِكْتَتَبَهَا } يعني النضر بن الحارث كان يقول: إن هذا القرآن ليس من الله وإنما هو مما سطره الأولون مثل حديث رستم واسفنديار (2) "اكتتبتها": انتسخها محمد من جبر، ويسار، وعداس، ومعنى "اكتتب" يعني طلب أن يكتب له، لأنه كان لا يكتب، { فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ } يعني تقرأ عليه ليحفظها لا ليكتبها، { بُكْرَةً وَأَصِيلًا } غدوة وعشيًا. قال الله عز وجل ردًا عليهم: { قُلْ أَنْزَلَهُ } يعني القرآن، { الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ } يعني الغيب، { فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا }

(1) حكاه الطبري، ولم يذكر غيره. وانظر سائر الأقوال في: البحر المحيط: 6 / 481، زاد المسير: 6 / 72-73.

(2) انظر: الطبري: 18 / 182، الدر المنثور: 6 / 236، المحرر الوجيز لابن عطية: 12 / 7.

(6/72)

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكْوِينٌ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْجُورًا (8) انظُرْ كَيْفَ صَرَّبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَصَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا (10)

{ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ تَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْخُورًا (8) انظُرْ كَيْفَ صَرَّبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَصَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُضُورًا (10) }

{ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ } يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم، { يَأْكُلُ الطَّعَامَ } كما نأكل نحن، { وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } يلتمس المعاش كما نمشي، فلا يجوز أن يمتاز عبنا بالنبوة، وكانوا يقولون له: لست أنت بملك ولا بملك، لأنك تأكل والملك لا يأكل، ولست بملك لأن الملك لا يتسوق، وأنت تتسوق وتتبدل. وما قالوه فاسد؛ لأن أكله الطعام لكونه آدميًا، ومشيه في الأسواق لتواضعه، وكان ذلك صفة له، وشيء من ذلك لا ينافي النبوة. { لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ } فيصدقه، { فَيَكُونُ مَعَهُ تَذِيرًا } داعيًا. { أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ } أي: ينزل عليه كنز من السماء ينفقه، فلا يحتاج إلى التردد والتصرف في طلب المعاش، { أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ } بستان، { يَأْكُلُ مِنْهَا } قرأ حمزة والكسائي: "نأكل" بالنون أي: نأكل نحن منها، { وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْخُورًا } مخدوعًا. وقيل: مصروفًا عن الحق. { انظُرْ } يا محمد، { كَيْفَ صَرَّبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ } يعني الأشباه، فقالوا: مسحور، محتاج، وغيره، { فَصَلُّوا } عن الحق، { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا } إلى الهدى ومخرجًا عن الضلالة. { تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ } الذي قالوا، أو أفضل من الكنز والبستان الذي ذكروا، وروى عكرمة عن ابن عباس قال: يعني خيرًا من المشي في الأسواق والتماس المعاش (1). ثم بين ذلك الخير فقال: { جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُضُورًا } بيوتًا مشيدة، والعرب تسمي كل بيت مشيد قصرًا، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم برواية أبي بكر: "ويجعل" برفع اللام، وقرأ الآخرون بجزمها على محل الجزاء في قوله: "إن شاء جعل لك".

(1) ذكر الطبري القولين: (18 / 185) ورجح قول مجاهد الأول، لأن المشركين استعظموا أن لا تكون له جنة يأكل منها، وأن لا يلقي إليه كنز، واستنكروا أن يمشي في الأسواق، وهو لله رسول، فالذي هو أولى بوعد الله إياه أن يكون وعدا بما هو خير ما كان عند المشركين عظيمًا، لا مما كان منكرا عندهم.

(6/73)

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11)

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الكشميهني، أخبرنا أبو طاهر محمد بن الحارث، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن أيوب، حدثني عبد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن أبي عبد الرحمن، عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا، وقال ثلاثًا أو نحو هذا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت

حمدتُك وشكرتُك" (1) .
حدثنا أبو طاهر المُطَهَّرُ بن علي بن عبيد الله الفارسي، أخبرنا أبو ذر محمد بن إبراهيم الصالحاني، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بأبي الشيخ، أخبرنا أبو يعلى، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا أبو معشر عن سعيد يعني المقبري، عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو شئتُ لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملكٌ إن حُجِرْتُهُ لتساوي الكعبة، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئتُ نبيًّا عبدًا، وإن شئتُ نبيًّا ملكًا، فنظرتُ إلى جبريل فأشار إليَّ أن صَعُ نفسك، فقلت: نبيًّا عبدًا" قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا يأكل متكئًا يقول: "أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد" (2) .
{ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11) }

(1) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه: 14 / 7، وقال: "هذا حديث حسن، وعلي بن يزيد يضعف في الحديث ويكنى أبا عبد الملك".
وأخرجه ابن ماجه في الزهد، باب من لا يؤبه له: 2 / 1379، وقال في الزوائد: "إسناده ضعيف لضعف أيوب بن سليمان، وصدقه بن عبد الله متفق على تضعيفه". ورواه الإمام أحمد: 2 / 252 و 5 / 254 وابن سعد في الطبقات: 1 / 381، وأبو نعيم في الحلية: 8 / 133.
(2) قال الهيثمي: (9 / 19): "رواه أبو يعلى وإسناده حسن"، وعبد الرزاق: 10 / 417، وأخرج القطعة الأولى منه الخطيب في تاريخ بغداد: 11/102، والثانية: "إنما أنا عبد.." أخرجه عبد الرزاق في الجامع عن معمر: 10 / 417، والإمام أحمد في الزهد ص (5)، والمصنف في شرح السنة: 13 / 248.

(6/74)

إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَرَفِيرًا (12)

{ إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَرَفِيرًا (12) }
قوله عز وجل: { بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ } بالقيامة، { وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا } نارًا مستعرة. { إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } قال الكلبي والسدي: من مسيرة عام، وقيل: من مسيرة مائة سنة، وقيل: خمسمائة سنة. وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من كذب علي متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا". قالوا: وهل لها من عيين؟ قال: نعم ألم تستمعوا قول الله تعالى: { إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } (1)

(1) عزاه السيوطي: 6 / 238 للطبراني وابن مردويه، وأخرجه الطبري بلفظ: "من يقول علي ما لم أقل.." 18 / 187.

(6/74)

وَإِذَا أَلْفُوا مِنْهَا مَكَانًا صَيِّفًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا
وَاجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14) قُلْ أَدْلِكُمْ حَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ
كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15)

وقيل إذا رأتهم زبانيتهما. { سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا } غليانًا، كالغضبان إذا على صدره
من الغضب. { وَزَفِيرًا } صوتًا. فإن قيل: كيف يسمع التغيظ؟ قيل: معناه رأوا
وعلموا أن لها تغيظًا وسمعوا لها زفيرًا، كما قال الشاعر: ورأيتُ زوجك في
الوَعَى ... مُتَقَلِّدًا سَيِّفًا وَرُمَحًا

أي وحاملًا رمحًا (1). وقيل: سمعوا لها تغيظًا، أي: صوت التغيظ من التلهب
والتوقد، قال عبيد بن عمير: تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملكٌ مُقَرَّبٌ
ولا نبيٌّ مرسلٌ إلا خَرَّ لوجهه.

{ وَإِذَا أَلْفُوا مِنْهَا مَكَانًا صَيِّفًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ
ثُبُورًا وَاجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14) قُلْ أَدْلِكُمْ حَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ
الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) }

{ وَإِذَا أَلْفُوا مِنْهَا مَكَانًا صَيِّفًا } قال ابن عباس: تضيق عليهم كما يضيق النرج (2)
. في الرمح، { مُقَرَّنِينَ } مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في
الأغلال. وقيل: مقرنين مع الشياطين في السلاسل، { دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا } قال
ابن عباس: وبلا. وقال الضحاك: هلاكًا، وفي الحديث: "إن أول من يكسى حلة
من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه، وذريئته من خلفه، وهو
يقول: يا ثوراه، وهم ينادون: يا ثورهم، حتى يقفوا على النار فينادون: يا
ثوراه، وينادي: يا ثورهم، فيقال لهم (3) { لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاجِدًا وَادْعُوا
ثُبُورًا كَثِيرًا } 45/أ قيل: أي هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة، فادعوا
أدعية كثيرة. قوله عز وجل: { قُلْ أَدْلِكُمْ } يعني الذي ذكرته من صفة النار
وأهلها، { حَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً } ثوابًا،
{ وَمَصِيرًا } مرجعًا.

(1) هذا أحد التخريجين، والثاني: تضمين "متقلدا" معنى "متسلحا"، فكذلك
الآية، أي: سمعوا لها ورأوا تغيظًا وزفيرًا، أو ضمن معنى أدركوا، فيشمل
التغيظ والزفير. انظر البحر المحيط: 6 / 485.

(2) النرج: حديدة في أسفل الرمح.

(3) أخرجه الطبري: 18 / 188، وعبد بن حميد في المنتخب ص (368)،
والإمام أحمد في المسند: 3 / 152-153. وفي سنده علي بن زيد، وعزاه
السيوطي لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في "البعث"
بسند صحيح، عن أنس مرفوعًا. انظر: الدر المنثور: 6 / 240، تفسير
القرطبي: 13 / 8، ابن كثير: 3 / 312.

(6/75)

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (16) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ
وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صَلَّوْا السَّبِيلَ
(17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ

وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19)

{ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (16) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قِيْقُولُ أَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19)

{ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا } مطلوبًا، وذلك أن المؤمنين سألوهم في الدنيا حين قالوا: "ربنا وأتينا ما وعدتنا على رسلك" (آل عمران-194)، يقول: كان أعطى الله المؤمنين جنة خلد وعدًا، وعدهم على طاعتهم إياه في الدنيا ومسألتهم إياه ذلك. قال محمد بن كعب القرظي: الطلب من الملائكة للمؤمنين وذلك قولهم: "ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم" (غافر-8). { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ } قرأ ابن كثير، وأبو جعفر، ويعقوب، وحفص: "يحشرهم" بالياء، وقرأ الباقر بالنون، { وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } قال مجاهد: من الملائكة والجن والإنس وعيسى وعزير. وقال عكرمة والضحاك والكلبي: يعني الأصنام، ثم يخاطبهم { قِيْقُولُ } قرأ ابن عامر بالنون والآخرين بالياء، { أَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صَلُّوا السَّبِيلَ } أخطأوا الطريق. { قَالُوا سُبْحَانَكَ } نزهوا الله من أن يكون معه إله، { مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ } يعني: ما كان ينبغي لنا أن نوالي أعداءك، بل أنت ولينا من دونهم. وقيل: ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا ونحن نعبدك. وقرأ أبو جعفر "أَنْ نَتَّخِذَ" بضم النون وفتح الخاء، فتكون "من" الثاني صلة. { وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ } في الدنيا بطول العمر والصحة والنعمة، { حَتَّى تَسْأَلُوا الذِّكْرَ } تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن. وقيل: تركوا ذكرك وغفلوا عنه، { وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا } يعني هلكت عليهم الشقاء والخذلان، رجل يقال له بائر، وقوم بور، وأصله من البوار وهو الكساد والفساد، ومنه بوار السلعة وهو كسادها. وقيل هو اسم مصدر كالزور، يستوي فيه الواحد والاثنتان والجمع والمذكر والمؤنث. { فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ } هذا خطاب مع المشركين، أي: كذبكم المعبودون، { بِمَا تَقُولُونَ } إنهم آلهة، { فَمَا تَسْتَطِيعُونَ } قرأ حفص بالتاء يعني العابدين، وقرأ الآخرون بالياء يعني: الآلهة.

(6/76)

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20)

{ صَرْفًا } يعني: صرفًا من العذاب عن أنفسهم، { وَلَا نَصْرًا } يعني: ولا نصر أنفسهم. وقيل: ولا نصركم أيها العابدون من عذاب الله بدفع العذاب عنكم. وقيل: "الصرف": الحيلة، ومنه قول العرب: إنه ليصرف، أي: يحتال، { وَمَنْ يَظْلِمِ } يشرك، { مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا } { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي

الأسواقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20) {
 قوله عز وجل: { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } يا محمد، { إِلَّا إِنَّهُمْ
 لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ } روى الضحاك عن ابن عباس قال: لما عيّر المشركون
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي
 في الأسواق، أنزل الله عز وجل هذه الآية (1) . يعني: ما أنا إلا رسول وما
 كنتُ يدعًا من الرسل، وهم كانوا بشرًا يأكلون الطعام، { وَيَمْشُونَ فِي
 الْأَسْوَاقِ } وقيل: معناه وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل لهم مثل هذا
 أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كما قال في موضع آخر: "ما يقال
 لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك" (فصلت-43) .
 { وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً } أي بلية، فالغني فتنة للفقير، يقول الفقير: ما
 لي لم أكن مثله؟ والصحيح فتنة للمريض، والشريف فتنة للوضيع. وقال ابن
 عباس: أي جعلت بعضكم بلاءً لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون
 من خلافهم، وتتبعوا الهدى. وقيل: نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع؛ وذلك أن
 الشريف إذا أراد أن يسلم فرأى الوضيع قد أسلم قبله أنف، وقال: أسلم بعده
 فيكون له عليّ السابقة والفضل؟! فيقيم على كفره ويمتنع من الإسلام، فذلك
 افتتان بعضهم ببعض، وهذا قول الكلبي (2) وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل،
 والوليد بن عقبة، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث؛ وذلك أنهم لما رأوا أبا
 ذر، وابن مسعود، وعمرًا، وبلالا وصهيبًا، وعامر بن فهيرة، وذوهم، قالوا:
 نسلم فنكون مثل هؤلاء؟. وقال: نزلت في ابتلاء فقراء المؤمنين بالمستهزئين
 من قريش، كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء

(1) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص (383-384) مطولا، وابن عساكر
 من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس. انظر: الدر المنثور: 6 / 237.
 (2) البحر المحيط: 6 / 491، وقال: والأولى أن قوله: "وجعلنا بعضكم لبعض
 فتنة" يشمل معاني هذه الألفاظ كلها، لأن بين الجميع قدرا مشتركا.

(6/77)

الذين اتبعوا محمداً من موالينا وأرادلنا، فقال الله تعالى لهؤلاء المؤمنين:
 { أَتَصْبِرُونَ } يعني على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى.
 { وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا } بمن صبر وبمن جزع. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي،
 أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا زكريا بن يحيى
 المروزي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة
 يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فَصَّلَ عَلَيْهِ
 فِي الْمَالِ وَالْجِسْمِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ دُونَهُ فِي الْمَالِ وَالْجِسْمِ" (1) .

(1) أخرجه البخاري في الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه: 11 / 322،
 ومسلم في الزهد برقم (2963): 14 / 292، والمصنف في شرح السنة 14 /
 292 .

(6/78)

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ تَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ
لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا (22)

{ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ تَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ
لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا (22) }

قوله عز وجل: { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } أي: لا يخافون البعث، قال
الفراء: "الرجاء" بمعنى الخوف، لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: "ما لكم لا
ترجون لله وقارا" (نوح-13)، أي: لا تخافون لله عظمة. { لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا
الْمَلَائِكَةُ } فتخبرنا أن محمداً صادق، { أَوْ تَرَى رَبَّنَا } فيخبرنا بذلك. { لَقَدِ
اسْتَكْبَرُوا } أي: تعظموا. { فِي أَنْفُسِهِمْ } بهذه المقالة، { وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا }
قال مجاهد: "عتوا" طغوا في القول و"العتو": أشد الكفر وأفحش الظلم،
وعتوهم طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به. { يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ } عند الموت.
وقيل: في القيامة. { لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ } للكافرين، وذلك أن الملائكة
يبشرون المؤمنين يوم القيامة، ويقولون للكفار: لا بشرى لكم، هكذا قال
عطية، وقال بعضهم: معناه أنه لا بشرى يوم القيامة للمجرمين، أي: لا بشارة
لهم بالجنة، كما يبشّر المؤمنون. { وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا } قال عطاء عن
ابن عباس: تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة، إلا من قال لا إله إلا
الله. وقال مقاتل: إذا خرج الكفار من قبورهم قالت لهم الملائكة حراماً محرماً
45/ب عليكم أن يكون لكم البشرية. وقال بعضهم: هذا قول الكفار للملائكة.
قال ابن جريج: كانت العرب إذا نزلت بهم شدة رأوا ما يكرهون، قالوا حجراً
محجوراً، فهم يقولونه إذا عينوا الملائكة.

(6/78)

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ
خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)

قال مجاهد: يعني عوداً معاداً، يستعيدون به من الملائكة (1).
{ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24) }

{ وَقَدِمْنَا } وعمدنا، { إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا } أي: باطلا
لا ثواب له، فهم لم يعملوه لله عز وجل. واختلفوا في "الهباء"، قال علي "هو
ما يرى في الكوة إذا وقع ضوء الشمس فيها كالغبار، ولا يمس بالأيدي، ولا يرى
في الظل، وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد، و"المنثور": المتفرق. وقال ابن
عباس وقتادة وسعيد بن جبير: هو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام
الشجر. وقال مقاتل: هو ما يسطع من حوافر الدواب عند السير. وقيل:
"الهباء المنثور": ما يرى في الكوة، و"الهباء المنبث": هو ما تطيره الرياح من
سنايك الخيل (2). قوله عز وجل: { أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا } أي:
من هؤلاء المشركين المتكبرين، { وَأَحْسَنُ مَقِيلًا } موضع قائلة، يعني: أهل

الجنة لا يمر بهم يوم القيامة إلا قدر النهار من أوله إلى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة. قال ابن مسعود: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وقرأ "ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم" هكذا كان يقرأ (3). وقال ابن عباس في هذه الآية: الحساب ذلك اليوم في أوله، وقال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة.

- (1) ذكر الطبري هذه الأقوال واختار منها أن الملائكة يقولون للمجرمين: حجرا محجورا، حراما محرما عليكم اليوم البشرى أن تكون لكم من الله. انظر: تفسير الطبري: 19 / 2-3.
- (2) انظر هذه الأقوال في الطبري: 19 / 4-5، الدر المنثور: 6 / 246، زاد المسير: 6 / 83. وقال ابن كثير رحمه الله (3 / 315): "وحاصل هذه الأقوال: التنبيه على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها على شيء، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحدا، إذا أنها لا شيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما قال تعالى: "مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح". وقال أيضا: "أخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين - من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم - شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي؛ إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ".
- (3) الطبري: 19 / 5.

(6/79)

وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ
لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ
يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27)

قال الأزهرى: "القيلولة" و"المقيل": الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن مع ذلك نوم، لأن الله تعالى قال: "وأحسن مقيلا"، والجنة لا نوم فيها. ويروى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس (1).

{ وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ
لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ
يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) }

قوله عز وجل: { وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ } أي: عن الغمام، الباء وعن يتعاقبان، كما يقال: رميت عن القوس وبالقوس، وتشقق بمعنى تتشقق، أدغموا إحدى التاءين، وقرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين هاهنا، وفي سورة "ق" بحذف إحدى التاءين، وقرأ الآخرون بالتشديد، أي: تتشق بالغمام، وهو غمام أبيض رقيق مثل الضباب، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم.

{ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا } قرأ ابن كثير: و"نزل" بنونين خفيف ورفع اللام، "الملائكة" نصب، قال ابن عباس: تشقق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر

ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تشقق السماء الثانية فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في السماء الدنيا، ومن الجن والإنس، ثم كذلك حتى تشقق السماء السابعة وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها، ثم ينزل الكروبيون ثم حملة العرش (2) . { الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ } أي: [الملك] (3) الذي هو الملك الحق حقًا ملك الرحمن يوم القيامة. قال ابن عباس: يريد أن يوم القيامة لا ملك يقضى غيره. { وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا } شديدًا، فهذا الخطاب يدل على أنه لا يكون على المؤمن عسيرا، وجاء في الحديث: "أنه يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخف من صلاة مكتوبة صلوها في الدنيا" (4) { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ } أراد بالظالم عقبة بن أبي معيط، وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعامًا فدعا إليه أشرف قومه، وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم فقدم ذات

(1) أخرجه ابن جرير: 5 / 19 عن سعيد الصواف أنه بلغه أن يوم القيامة... إلخ.

(2) انظر: الطبري 19 / 6-7، الدر المنثور: 6 / 248-249، ابن كثير: 3 / 217.

(3) ساقط من "أ".

(4) رواه الإمام أحمد في المسند: 3 / 75، وقال الهيثمي في المجمع: (10 / 337): "رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن على ضعف في رواية". فيه: دراج أبو السمع عن أبي الهيثم، وابن لهيعة، وفيهم ضعف. وانظر: تفسير ابن كثير: 3 / 317.

(6/80)

يَا وَبَلَّتَا لِبَيْتِي لَمْ أَخِذْ فُلَاتًا حَلِيلًا (28) لَقَدْ أَصَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29)

يوم من سفر فصنع طعامًا فدعا الناس ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بأكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأنبي رسول الله" فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه، وكان عقبة صديقًا لأبي بن خلف، فلما أخبر أبي بن خلف قال له: يا عقبة صبات؟ قال: لا والله ما صبات، ولكن دخل علي رجل فابى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم، فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبدًا إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة، فقال عليه السلام: "لا ألقاك خارجًا من مكة إلا علوث رأسك بالسيف" فقتل عقبة يوم بدر صبرًا. وأما أبي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد بيده (1)

وقال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد بزاقه في وجهه فاحترق خداه، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت (2) . وقال الشعبي (3) كان عقبة بن أبي معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة، فقال

أمية: وجهي من وجهك حرام أن بايعت محمدًا، فكفر وارتدَّ، فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "ويوم يعص الظالم" يعني: عقبة بن أبي معيط بن عبد شمس بن مناف "على يديه" ندماً وأسفاً على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالمعصية والكفر بالله بطاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه. قال عطاء: يأكل يديه حتى تبلغ مرفقيه ثم تبتان، ثم يأكل هكذا، كلما نبتت يده أكلها تحسراً على ما فعل. { يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ } في الدنيا، { مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً } ليتني اتبعت محمداً صلى الله عليه وسلم، واتخذت معه سبيلاً إلى الهدى. قرأ أبو عمرو: "يا ليتني اتخذت" بفتح إلباء، والآخرين بإسكانها. { يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29) } { يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً } يعني: أبي بن خلف. { لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ } عن الإيمان والقرآن، { بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي } الذكر مع الرسول، { وَكَانَ الشَّيْطَانُ } وهو كل متمرد عات من الإنس والجن، وكل من صد عن سبيل الله فهو شيطان. { لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } أي: تاركاً يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب، وحكم هذه الآية عام في حق كل متحايين اجتماعاً على معصية الله.

- (1) أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في "الدلائل" بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. الدر المنثور: 6 / 250، الفتح السماوي للمناوي: 2 / 880، أسباب النزول للواحي ص (385).
(2) أسباب النزول للواحي ص (386)، القرطبي: 13 / 26.
(3) أسباب النزول ص (385)، الطبري: 19 / 8 باختصار.

(6/81)

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30)

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن العلاء، أخبرنا أبو أسامة، عن يزيد، عن أبي بردة، عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: 46/1 "مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ إِذَا أَن يُحْذِيكَ وَإِذَا أَن تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِذَا أَن تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِذَا أَن يَحْرِقُ ثِيَابَكَ، وَإِذَا أَن تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً" (1).
أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن حياة بن شريح، أخبرني سالم بن غيلان أن الوليد بن قيس التَّجِيبِي أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ - قَالَ سَالِمٌ: أَوْ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ - أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَا تَصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِي" (2).
أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن كساب النيسابوري، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا حميد بن عياش الرملي، أخبرنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا زهير بن محمد الخراساني، حدثنا موسى بن وردان

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل" (3) .
 { وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) }
 { وَقَالَ الرَّسُولُ } يعني: ويقول الرسول في ذلك اليوم: { يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا } أي: متروكا فأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه. وقيل: جعلوه بمنزلة الهجر وهو الهذيان، والقوي السيء، فزعموا أنه شعر وسحر، وهو قول النخعي ومجاهد.

(1) أخرجه البخاري في الذبائح، باب المسك: 9 / 660، ومسلم في البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، برقم (2628): 4 / 2026، والمصنف في شرح السنة: 13 / 68.
 (2) أخرجه أبو داود في الأدب، باب من يؤمر أن يجالس: 7 / 185، وسكت عليه أبو داود والمنذري، والترمذي في الزهد: 7 / 76، وقال: "هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه"، والدارمي في الأئمة: 2 / 103، وصحه الحاكم: 4 / 128، وابن حبان برقم (2049) من موارد الظمان، وحسنه المصنف في شرح السنة: 13 / 68. وانظر: فيض القدير للمناوي: 6 / 405.
 (3) أخرجه أبو داود في الأدب: 7 / 186، قال المنذري: "وفي إسناده موسى بن وردان، وقد ضعفه بعضهم، وقال بعضهم: لا بأس به، ورجح بعضهم في هذا الحديث الإرسال".
 والترمذي في الزهد: 7 / 49 وقال: "هذا حديث حسن غريب"، وصحه الحاكم: 4 / 171، وأخرجه الإمام أحمد: 2 / 303، وذكره في المشكاة: 3 / 1397 وعزاه أيضا للبيهقي في "شعب الإيمان" وقال النووي: إسناده صحيح. وأخرجه المصنف في شرح السنة: 13 / 70.

(6/82)

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31)
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32)

وقيل: قال الرسول يعني: محمدا صلى الله عليه وسلم يشكوا قومه إلى الله يا رب: إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا فعزاه الله تعالى فقال: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ }
 { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) }
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) }

(6/83)

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسِنَ تَفْسِيرًا (33) الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَصْلٌ سَبِيلًا (34)

{ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) الَّذِينَ يُحْسِرُونَ عَلَىٰ
 وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ سَرًّا مَكَانًا وَأَصْلٌ سَبِيلًا (34) }
 { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا } يعني: كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك كذلك جعلنا، {
 لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ } يعني: المشركين. قال مقاتل: يقول لا يكفرك
 عليك، فإن الأنبياء قبلك قد لقيت هذا من قومهم، فاصبر لأمري كما صبروا،
 فإني ناصرٌ وهاديك، { وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا } { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
 نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على
 عيسى والزبور على داود. قال الله تعالى: { كَذَلِكَ } فَعَلْتُ، { لِنُنَبِّئَ بِهِ
 فُؤَادَكَ } أي: أنزلناه متفرقًا ليقوى به قلبك فتعيه وتحفظه، فإن الكتب أنزلت
 على الأنبياء يكتبون ويقرءون، وأنزل الله القرآن على نبي أمي لا يكتب ولا
 يقرأ، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن
 أمور، ففرقناه ليكون أوعى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأيسر على
 العامل به. { وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا } قال ابن عباس: بيّناه بيانًا، والترتيل: التبيين في
 ترسل وتثبت. وقال السدي: فصلناه تفصيلاً. وقال مجاهد: بعضه في إثر بعض.
 وقال النخعي والحسن وقتادة: فرقناه تفريقًا، آية بعد آية. { وَلَا يَأْتُونَكَ } يا
 محمد يعني: هؤلاء المشركين، { بِمَثَلٍ } يضربونه في إبطال أمرك { إِلَّا
 جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ } يعني بما ترد به ما جاءوا به من المثل وتبطله، فسمي ما
 يوردون من الشبه مثلًا وسمي ما يدفع به الشبه حقًا، { وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } أي:
 بيانًا وتفصيلاً و"التفسير": تفعيلٌ من الفسّر، وهو كشف ما قد غطي. ثم ذكر
 مال هؤلاء المشركين فقال: { الَّذِينَ } { أَيُّ هُمُ الَّذِينَ } (1) { يُحْسِرُونَ عَلَىٰ
 وُجُوهِهِمْ } فيساقون ويجرون، { إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ سَرًّا مَكَانًا } أي: مكانة
 ومنزلة، ويقال: منزلاً ومصيرًا، { وَأَصْلٌ سَبِيلًا } أخطأ طريقًا.
 (1) ساقط من "أ".

(6/83)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَىٰ
 الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36) وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرَّسُولَ
 أَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَ
 وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38)

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَىٰ
 الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36) وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرَّسُولَ
 أَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَ
 وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) }
 { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا } مُعِينًا وَطَهِيرًا .
 { فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَىٰ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } يعني القبط، { فَدَمَّرْنَاهُمْ } فيه
 إضممار، أي: فكذبوهما فدمرناهم، { تَدْمِيرًا } أهلكتناهم إهلاكًا. { وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا
 كَذَّبُوا الرَّسُولَ } أي: الرسول، ومن كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل،
 لذلك ذكر بلفظ الجمع. { أَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً } يعني: لمن بعدهم
 عبرة، { وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ } في الآخرة، { عَذَابًا أَلِيمًا } سوى ما حل به من

عاجل العذاب. { وَعَادًا وَتَمُودَ } أي: وأهلكنا عادًا وتمرود، { وَأَصْحَابَ الرَّسِّ } اختلفوا فيهم، قال وهب بن منبه: كانوا أهل بئر قعودًا عليها، وأصحاب مواشي، يعبدون الأصنام، فوجه الله إليهم شعيبًا يدعوهم إلى الإسلام، فتمادوا في طغيانهم، وفي أذى شعيب عليه السلام، فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت البئر، فخسف بهم وبديارهم ورباعهم، فهلكوا جميعًا. و"الرس": البئر، وكل ركية لم تُطو بالحجارة والآجر فهو رس. وقال قتادة والكلبي: "الرس" بئر بقلج اليمامة، قتلوا نبيهم فأهلكهم الله عز وجل. وقال بعضهم: هم بقية تمرود قوم صالح، وهم أصحاب البئر التي ذكر الله تعالى في قوله: "وبئر معطلية وقصر مشيد" (الحج-45). وقال سعيد بن جبير: كان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله تعالى. وقال كعب ومقاتل والسدي: "الرس": بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار، وهم الذين ذكرهم الله في سورة يس. وقيل: هم أصحاب الأخدود، [والرس هو الأخدود] (1) الذي حفروه. وقال عكرمة: هم قوم رسوا نبيهم في بئر (2). وقيل: الرس المعدن، وجمعه رساس.

(1) ساقط من "أ".

(2) لم يقم على هذه القوال في المعنى بأصحاب الرس دليل ثابت، ورجح الطبري أنهم أصحاب الأخدود، وبعض الأقوال السابقة مردودة بنصوص أخرى، والله أعلم. انظر: الطبري: 19 / 13-15، الدر المنثور: 6 / 256-257، زاد المسير: 6 / 90، البحر المحيط: 6 / 498-495، تفسير ابن كثير: 3 / 319-320.

(6/84)

وَكَلَّا صَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكَلَّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ أَقْلَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40) وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخُدُوكَ إِلَّا هُرُّوْا أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ الْهَيْتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَصَلَّ سَبِيلًا (42) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَقَانَتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا (43)

{ وَفُزُّونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا } أي: وأهلكنا قرونًا كثيرًا بين عاد وأصحاب الرس. { وَكَلَّا صَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكَلَّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ أَقْلَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40) وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخُدُوكَ إِلَّا هُرُّوْا أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ الْهَيْتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَصَلَّ سَبِيلًا (42) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَقَانَتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا (43) } بعد الإنذار { وَكَلَّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا } أي: أهلكنا إهلاكًا. وقال الأخفش: كسرنا تكسيرًا قال الزجاج: كل شيء كسرته وفتته فقد تبترته. { وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ } يعني الحجارة، وهي قريات قوم لوط، وكانت خمس قري، فأهلك الله أربعًا منها، ونجت واحدة، وهي أصغرهما، وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث، { أَقْلَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا } إذ مروا بهم في

أسفارهم فيعتبروا ويتذكروا، لأن مدائن قوم لوط كانت على طريقهم عند ممرهم إلى الشام، { بَلْ كَانُوا لَا يَتَذَكَّرُونَ } 46/ب لا يخافون، { تُشَوِّرًا } بعثًا. قوله عز وجل: { وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَدُّونَكَ } يعني: ما يتخذونك، { إِلَّا هُرُوءًا } أي: مهزوءًا به، نزلت في أبي جهل، كإني إذ مرَّ بأصحابه على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مستهزئًا: { أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا } (1)؟! { إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا } أي: قد قارب أن يضلنا، { عَنِ الْهَيْتَةِ لَوْلَا أَنْ صَبَّرْنَا عَلَيْهَا } أي: لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها، { وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَصَلَ سَبِيلًا } من أخطأ طريقًا. { أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر فإذا رأى حجرًا أحسن منه طرح الأول وأخذ الآخر فعبده. وقال ابن عباس: أ رأيت من ترك عبادة الله وخالفه ثم هوى حجرًا فعبده ما حاله عندي؟ { أَقَانَتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا } أي: حافظًا، يقول: أفانت

(1) ذكره في البحر المحيط: 6 / 500، والآية فيها إخبار عن استهزاء المشركين بالنبي صلى الله عليه وسلم وتنقصهم له، وأبو جهل داخل في عموم أولئك المشركين.

(6/85)

عليه كفيل تحفظه من اتباع هواه وعبادة من يهوى من دون الله؟ أي: لست كذلك. قال الكلبي: نسختها آية القتال.

(6/86)

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَصْلٌ سَبِيلًا (44) أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47)

{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَصْلٌ سَبِيلًا (44) أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) }

{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ } ما تقول سماع طالب الإفهام، { أَوْ يَعْقِلُونَ } ما يعاينون من الحج والإعلام، { إِنَّهُمْ } ما هم، { إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَصْلٌ سَبِيلًا } لأن البهائم تهتدي لمراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها الذين يتعهدونها، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحق، ولا يطيعون ربهم الذي خلقهم ورزقهم، ولأن الأنعام تسجد وتسبح لله وهؤلاء الكفار لا يفعلون. قوله عز وجل: { أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ } معناه ألم تر إلى مدِّ ربك الظل، وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، جعله ممدودًا لأنه ظل لا شمس معه، كما قال: "في ظل الجنة"، "وظل ممدود" (الواقعة-30) إذ لم يكن معه شمس. { وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا } دائمًا ثابتًا لا يزول ولا تذهب الشمس. قال

أبو عبدة: "الظل": ما نسخته الشمس، وهو بالغداة، و"الفيء": ما نسخ الشمس، وهو بعد الزوال، سُمِّيَ فيئًا لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب، { ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا } أي: على الظل. ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف بأضدادها. { ثُمَّ قَبَضْنَاهُ } يعني الظل، { إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا } بالشمس التي تأتي عليه، و"القبض": جمع المنبسط من الشيء، معناه: أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزءًا فجزءًا "قبضا يسيرا"، أي: خفيًا. { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا } أي: سترا تستترون به، يريد أن ظلمته تغطي كل شيء، كاللباس الذي يشتمل على لابس، { وَالنَّوْمَ سُبَاتًا } راحة لأبدانكم وقطعا لعملكم، وأصل "السبت": القطع، والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته. { وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا } أي: يقظة وزماتًا، تنتشرون فيه لابتغاء الرزق، وتنتشرون لأشغالكم.

(6/86)

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48)

{ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا } (48)

{ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } يعني المطر { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا } وهو الطاهر في نفسه المطهر لغيره، فهو اسم لما يتطهر به، كالسَّحُور اسم لما يتسحر به، والقَطُور اسم لما يفطر به، والدليل عليه ما روينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في البحر: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" (1) وأراد به المطهر، فالماء مطهر لأنه يطهر الإنسان من الحَدَث والنجاسة، كما قال في آية أخرى: "ونزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به" (الأنفال-11)، فثبت به أن التطهير يختص بالماء.

وذهب أصحاب الرأي إلى أن "الطهور" هو الطاهر، حتى جوزوا إزالة النجاسة بالمائعات الطاهرة، مثل الخل وماء الورد والمرق ونحوها (2). ولو جاز إزالة النجاسة بها لجاز إزالة الحدث بها. وذهب بعضهم إلى أن "الطهور" ما يتكرر منه التطهير، كالصبور اسم لمن يتكرر منه الصبر، والشكور اسم لمن يتكرر منه الشكر، وهو قول مالك، حتى جَوَّزَ الوضوء بالماء الذي توضع منه مرة (3). وإن وقع في الماء شيء غير طعمه أو لونه أو ريحه هل تزول طهوريته؟ نظر: إن كان الواقع شيئًا لا يمكن صون الماء عنه، كالطين والتراب وأوراق الأشجار، لا تزول، فيجوز الطهارة به كما لو تغير لطول المكث في قراره، وكذلك لو وقع فيه ما لا يخالطه، كالدهن يصب فيه فيتروح الماء

(1) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: 1 / 22، وأبو داود في باب الوضوء بماء البحر: 1 / 80، والترمذي في باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور: 1 / 224-225 وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، والنسائي في الطهارة: 1 / 50، 176، وابن ماجه في الوضوء بماء البحر: 1 / 136، 137، وصححه الحاكم: 1 / 140، وابن حبان برقم (119) وابن خزيمة: 1 / 59. والمصنف في شرح

السنة: 2 / 55.

قال الترمذي: سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا الحديث؟ فقال: هو حديث صحيح. قال البيهقي: وإنما لم يخرج البخاري ومسلم بن الحجاج في الصحيح لأجل اختلاف وقع في اسم سعيد بن سلمة والمغيرة ابن أبي بردة. انظر: تلخيص الحبير: 1 / 9.

(2) قال الجصاص في أحكام القرآن: (5 / 201) "الطهور، على وجه المبالغة في الوصف له بالطهارة وتطهير غيره، فهو طاهر مطهر، كما يقال: رجل ضروب وقتول، أي: يضرب ويقتل، وهو مبالغة في الوصف له بذلك".

(3) في المدونة: (1 / 4) "وقال مالك: لا يتوضأ بماء قد توضئ به مرة، قال: ولا خير فيه... قلت: فلو لم يجد رجل ماء إلا ما قد توضئ به مرة، أيتيمم أم يتوضأ بما قد توضئ به مرة؟ قال: يتوضأ بذلك الماء الذي قد توضئ به مرة أحب إلي إذا كان الذي توضأ به طاهراً".

(6/87)

برائحته يجوز الطهارة به، لأن تغيره للمجاورة لا للمخالطة. وإن كان شيئاً يمكن صون الماء منه وبخالطه كالخل والزعفران ونحوهما تزول [طهوريته فلا يجوز الوضوء به. وإن لم يتغير أحد أوصافه، ينظر: إن كان الواقع فيه شيئاً طاهراً لا تزول] (1) طهوريته، فتجوز الطهارة به، سواء كان الماء قليلاً أو كثيراً، وإن كان الواقع فيه شيئاً نجساً، ينظر: فإن كان الماء قليلاً أقل من القلتين ينجس الماء، وإن كان قدر قلتين فأكثر فهو طاهر يجوز الوضوء به. والقلتان خمس قرب، ووزنه خمسمائة رطل، والدليل عليه ما: أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي، حدثنا عبد الرحيم بن المنيب، أخبرنا جرير عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر، عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الماء يكون في الفلاة وما يَرُدُّه من الدوابِّ والسَّبَاعِ؟ فقال: "إذا كان الماء قُلَّتَيْنِ ليس يحمل الخبث" (2) وهذا قول الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وجماعة من أهل الحديث: أن الماء إذا بلغ هذا الحدَّ لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير أحد أوصافه (3).

وذهب جماعة إلى أن الماء القليل لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير طعمه أو لونه أو ريحه، وهو قول الحسن وعطاء والنخعي والزهري. واحتجوا بما: أخبرنا أبو القاسم بن عبد الله بن محمد الحنفي، أخبرنا أبو الحارث طاهر بن محمد الطاهري، حدثنا أبو محمد الحسن بن محمد بن حكيم، حدثنا أبو الموجه محمد بن عمرو بن الموجه، حدثنا صدقة بن الفضل 47/أ أخبرنا أبو أسامة عن الوليد بن كثير، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن رافع بن خديج، عن أبي سعيد الخدري قال: قيل يا رسول الله أتتوضأ من بئر بضاعة؟ وهي بئر يلقى في الحوض ولحوم الكلاب والنتن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الماء طهور لا ينجسه شيء" (4).

(1) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(2) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب ما ينجس من الماء: 1 / 56، والترمذي في باب الماء لا ينجسه شيء: 1 / 215، والنسائي في باب التوقيت في الماء:

1 / 46، وابن ماجه في مقدار الماء الذي لا ينجس: 1 / 172، والدارمي في
الوضوء: 1 / 187، وابن خزيمة 1 / 49، والشافعي في الأم: 1 / 4، والإمام
أحمد: 2 / 27.

(3) انظر بالتفصيل: الأوسط في السنن والإجماع، لابن المنذر: 1 / 260 وما
بعدها.

(4) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب ما جاء في بئر بضاعة: 1 / 73،
والترمذي في باب ما جاء أن الماء طهور لا ينجسه شيء: 1 / 203-205 وقال
هذا حديث حسن، وقد جرد أبو أسامة هذا الحديث فلم يرو أحد حديث أبي
سعيد في بئر بضاعة أحسن مما روى أبو أسامة، وقد روي هذا الحديث من غير
وجه عن أبي سعيد"، وأخرجه النسائي في باب ذكر بئر بضاعة: 1 / 174، وابن
ماجه: 1 / 173، والشافعي: 1 / 12 من ترتيب المسند، والدارقطني: 1 /
13، والإمام أحمد: 3 / 31، 86، وصححه الحاكم.

(6/88)

لِنُحْيِي بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِيَ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا قَابِي أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50)

{ لِنُحْيِي بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْبِيَ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ
صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا قَابِي أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50) }
قوله عز وجل: { لِنُحْيِي بِهِ } أي: بالمطر، { بَلَدَهُ مَيِّتًا } ولم يقل: "ميتة" لأنه
رجع به إلى الموضع والمكان، { وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا } أي: نسقي من
ذلك الماء أنعامًا، { وَأَنْبِيَ كَثِيرًا } أي: بشرًا كثيرًا، والأناسي: [جمع أنسي،
وقيل] (1) جمع إنسان، وأصله: "أناسين" مثل: بستان وبساتين، فجعل الياء
عوضًا عن النون. { وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ } يعني: المطر، مرة ببلدة ومرة ببلد
آخر. قال ابن عباس: ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه في الأرض،
وقرأ هذه الآية (2). وهذا كما روي مرفوعًا: "ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا
السماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء" (3).

وذكر ابن إسحاق وابن جريج ومقاتل وبلغوا به وابن مسعود يرفعه قال: "ليس
من سنة بأمطر من أخرى، ولكن الله قسم هذه الأرزاق، فجعلها في السماء
الدينا، في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم، وإذا عمل
قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعًا صرف الله ذلك
إلى الفياقي والبحار" (4). وقيل: المراد من تصريف المطر تصريفه وإبلا
وطلا ورذاذًا ونحوها. وقيل: التصريف راجع إلى الريح.

{ لِيَذَكَّرُوا } أي: ليتذكروا ويتفكروا في قدرة الله تعالى، { قَابِي أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا } جحودًا، وكفرانهم هو أنهم إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا. أخبرنا أبو
الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا
أبو مصعب عن مالك بن أنس، عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله
بن عتبة بن مسعود، عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء

(1) ساقط من "أ".

(2) صححه الحاكم في المستدرک: 2 / 403، وأخرجه الطبري: 19 / 22 من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وأخرجه الطبري أيضا من رواية ابن مسعود موقوفا.

قال ابن حجر في الكافي الشاف ص (122): " .. وفي الباب عن ابن مسعود، أخرجه العقيلي من رواية علي بن حميد عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عنه. وقال: لا يتابع على رفعه. ثم أخرجه موقوفا من رواية عمر بن مرزوق عن شعبة، وقال: هذا أولى، وأورده ابن مردويه من وجه آخر عن ابن مسعود مرفوعا". وانظر: الدر المنثور: 6 / 264، تفسير ابن كثير: 3 / 322. (3) صححه الحاكم في المستدرک: 2 / 403، وأخرجه الطبري: 19 / 22 من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وأخرجه الطبري أيضا من رواية ابن مسعود موقوفا.

قال ابن حجر في الكافي الشاف ص (122): " .. وفي الباب عن ابن مسعود، أخرجه العقيلي من رواية علي بن حميد عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عنه. وقال: لا يتابع على رفعه. ثم أخرجه موقوفا من رواية عمر بن مرزوق عن شعبة، وقال: هذا أولى، وأورده ابن مردويه من وجه آخر عن ابن مسعود مرفوعا". وانظر: الدر المنثور: 6 / 264، تفسير ابن كثير: 3 / 322. (4) صححه الحاكم في المستدرک: 2 / 403، وأخرجه الطبري: 19 / 22 من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وأخرجه الطبري أيضا من رواية ابن مسعود موقوفا.

قال ابن حجر في الكافي الشاف ص (122): " .. وفي الباب عن ابن مسعود، أخرجه العقيلي من رواية علي بن حميد عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عنه. وقال: لا يتابع على رفعه. ثم أخرجه موقوفا من رواية عمر بن مرزوق عن شعبة، وقال: هذا أولى، وأورده ابن مردويه من وجه آخر عن ابن مسعود مرفوعا". وانظر: الدر المنثور: 6 / 264، تفسير ابن كثير: 3 / 322.

(6/89)

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54)

كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، وكافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بتوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب" (1)

{ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54) }

قوله عز وجل: { وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا } رسولا يندرهم، ولكن بعثناك إلى القرى كلها، وحملناك ثقل النذارة جميعها، لتستوجب بصبرك عليه

ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة. { فَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ } فيما يدعوونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم. { وَجَاهِدْهُمْ بِهِ } أي: بالقرآن، { جَهَادًا كَبِيرًا } شديدًا. { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ } خلطهما وأفاض أحدهما في الآخر، وقيل: أرسلهما في مجاريهما وخالهما كما يرسل الخيل في المرح، وأصل "المرج": الخلط والإرسال، يقال: مرجت الدابة وأمرجتها إذا أرسلتها في المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء، { هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ } شديد العذوبة، و"الفرات": أعذب المياه، { وَهَذَا مِلْحٌ أَحَاجٌ } شديد الملوحة. وقيل: أحاج أي: مرٌّ { وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا } أي: حاجزًا بقدرته لئلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب، { وَجَجْرًا مَحْجُورًا } أي: سترا ممنوعًا فلا يبغيان، ولا يفسد الملح العذب. { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ } من النطفة، { بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا } أي: جعله ذا نسب وصهر، قيل: "النسب" ما لا يحل نكاحه، و"الصهر": ما يحل نكاحه، فالنسب ما يوجب الحرمة، والصهر ما لا يوجبها، وقيل: -وهو الصحيح-: النسب: من القرابة، والصهر: الخلطة التي تشبه القرابة، وهو السبب المحرم للنكاح، وقد ذكرنا أن الله تعالى حرم بالنسب سبعًا وبالسبب سبعًا، في قوله (2) "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ" (النساء-23)، { وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا }

(1) أخرجه مالك في الاستسقاء، باب الاستمطار بالنجوم: 1 / 192، والبخاري في الاستسقاء، باب قول الله تعالى: "وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون": 2 / 522، وفي الصلاة والمغازي والتوحيد، ومسلم في الإيمان، باب كفر من قال مطرنا بالنوء، برقم (71): 1 / 83-84، والمصنف في شرح السنة: 4 / 419. (2) أخرجه مالك في الاستسقاء، باب الاستمطار بالنجوم: 1 / 192، والبخاري في الاستسقاء، باب قول الله تعالى: "وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون": 2 / 522، وفي الصلاة والمغازي والتوحيد، ومسلم في الإيمان، باب كفر من قال مطرنا بالنوء، برقم (71): 1 / 83-84، والمصنف في شرح السنة: 4 / 419.

(6/90)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا) (55)

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا) (55)

(6/91)

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (57) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ يَدُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (57) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59) }

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ { يعني: هؤلاء المشركين، { مَا لَا يَنْفَعُهُمْ } إن عبدوه، { وَلَا يَضُرُّهُمْ } إن تركوه، { وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا } أي: معيّنًا للشيطان على ربه بالمعاصي. قال الزجاج: أي: يعاون الشيطان على معصية الله لأن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان. وقيل: معناه وكان الكافر على ربه ظهيرًا، أي: هيئًا ذليلاً كما يقال الرجل: جعلني بظهير، أي: جعلني هيئًا. ويقال: ظهرت به، إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه. { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } أي: منذرًا. { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ } على تبليغ الوحي، { مِنْ أَجْرٍ } فتقولوا إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه فلا تتبعه، { إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } هذا من الاستثناء المنقطع، مجازه: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا بالإنفاق من ماله في سبيله فعل ذلك، والمعنى: لا أسألكم لنفسي أجرًا ولكن لا أمانع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته. { وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ } أي: صل له شكرًا على نعمه. وقيل: قل: سبحان الله، والحمد لله. { وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا } عالمًا فيجازيهم بها. { الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا } بالرحمن. قال الكلبي: يقول فاسأل الخبير [بذلك، يعني: بما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش. وقيل: (1) الخطاب للرسول والمراد منه غيره لأنه كان مصدقًا به، والمعنى: أيها الإنسيان لا ترجح في طلب العلم بهذا إلى غيري. وقيل: الباء بمعنى "عن"، أي: فاسأل عنه خبيراً وهو الله عز وجل. وقيل: جبريل عليه السلام.

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(6/91)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62) }

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، كانوا يسمونه رحمن اليمامة. { أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا } قرأ حمزة والكسائي "يا أمرنا" بالياء، أي: لما يأمرنا محمد بالسجود له، وقرأ الآخرون بالتاء، أي: لما تأمرنا أنت يا محمد، { وَزَادَهُمْ } يعني: زادهم قول القائل لهم: "اسجدوا للرحمن" { نُفُورًا } عن الدين

والإيمان. قوله عز وجل 47/ب { تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا } قال الحسن ومجاهد وقتادة: "البروج": هي النجوم الكبار، سميت بروجًا لظهورها، وقال عطية العوفي: "بروجًا" أي: قصورًا فيها الحرس (1) كما قال: "ولو كنتم في بروج مشيدة" (النساء-78). وقال عطاء عن ابن عباس: هي البروج الاثنا عشر التي هي منازل الكواكب السبعة السيارة، وهي الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتا المشتري، والجدي والدلو بيتا زحل، وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات، فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية.

{ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا } يعني الشمس، كما قال: "وجعل الشمس سراجا" (نوح-16)، وقرأ حمزة والكسائي: "سُرْجًا" بالجمع، يعني النجوم. { وَقَمَرًا مُنِيرًا } والقمر قد دخل في "السُّرْج" على قراءة من قرأ بالجمع، غير أنه خصه بالذكر لنوع فضيلة، كما قال: "فيها فاكهة ونخل ورمان" (الرحمن-68)، خص النخل والرمان بالذكر مع دخولهما في الفاكهة. { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً } اختلفوا فيها، قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني خلقًا وعضوًا، يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر.

(1) ذكر القولين الطبري: 19 / 29-30، ورجح أن البروج هي قصور في السماء، لأن ذلك في كلام العرب، كما في قوله تعالى: "ولو كنتم في بروج مشيدة". وقول الأخطلكأنها برج رومي يشيده ... بان بخص وأجر وأحجار يعني بالبرج: القصر.

(6/92)

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63)

قال شقيق: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب، قال فاتتني الصلاة الليلة، فقال: أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله عز وجل جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر (1). [قال مجاهد: يعني جعل كل واحد منهما مخالفاً لصاحبه فجعل هذا أسود وهذا أبيض (2). وقال ابن زيد وغيره] (3) يعني يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر فهما يتعاقبان في الضياء والظلمة والزيادة والنقصان (4). { لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ } قرأ حمزة بتخفيف الذال والكاف وضمها من الذكر، وقرأ الآخرون بتشديدهما أي: يتذكر ويتعظ { أَوْ أَرَادَ شُكُورًا } قال مجاهد: أي: شكر نعمة ربه عليه فيهما. { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) }

قوله عز وجل: { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ } أي: أفاضل العباد. وقيل: هذه الإضافة للتخصيص والتفضيل، وإلا فالخلق كلهم عباد الله. { الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْتًا } أي: بالسكينة والوقار متواضعين غير أشيرين ولا مرحين، ولا متكبرين. وقال الحسن: علماء وحكماء. وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون، وإن سُفِه عليهم حلموا، و"الهون" في اللغة: والرفق واللين (5). { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ } يعني السفهاء بما يكرهون، { قَالُوا سَلَامًا } قال مجاهد: سدادًا من القول (6). وقال مقاتل بن حيان: قولاً يسلمون فيه من الإثم. وقال الحسن: إن جهل عليهم جاهل حلموا ولم يجهلوا، وليس المراد منه السلام المعروف. وروي عن الحسن: معناه سلموا عليهم، دليله قوله عز وجل: "وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ" (القصص-55). قال الكلبي وأبو العالية: هذا قبل أن يؤمر بالقتال، ثم نسختها آية القتال (7). وروي عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: هذا وصف نهارهم، ثم قرأ { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا } قال: هذا وصف ليلهم.

- (1) أخرجه الطبري: 19 / 30، والجصاص في أحكام القرآن: 5 / 212.
- (2) الطبري: 19 / 31، الجصاص: 5 / 212.
- (3) ما بين القوسين ساقط من "أ".
- (4) الطبري: 19 / 31، الجصاص: 5 / 212.
- (5) انظر هذه الأقوال في: الطبري 19 / 33-34.
- (6) ورجحه الطبري: 19 / 34، والأقوال الآتية لا تنافي ذلك.
- (7) ورجحه الطبري: 3 / 32-33.

(6/93)

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)

{ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) } قوله تعالى: { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ } يقال لمن أدرك الليل: بات، نام أو لم ينم، يقال: بات فلان قَلِيًّا، والمعنى: يبيتون لربهم بالليل في الصلاة، { سُجَّدًا } { على وجوههم، { وَقِيَامًا } على أقدامهم. قال ابن عباس: من صلى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدًا وقائمًا (1). أخبرنا أبو جعفر الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا أبو نعيم عن سفيان، عن عثمان بن حكيم، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله" (2) قوله عز وجل: { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ

عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا { أي: مُلِحًا دَائِمًا، لازمًا غير مفارق من عذب به من الكفار، ومنه سمي الغريم لطلبه حقه وإلحاحه على صاحبه وملازمته إياه. قال محمد بن كعب القرظي: سأل الله الكفار ثمن نعمه فلم يؤدوا فأغرهمم فيه، فبقوا في النار. قال الحسن: كل غريم يفارق غريمه إلا جهنم. و"الغرام": الشر اللازم، وقيل: "غرامًا" هلاكًا. { إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } أي: بنس موضع قرار وإقامة. { وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا } قرأ ابن كثير وأهل البصرة "يقتروا" بفتح الياء وكسر التاء، وقرأ أهل المدينة وابن عامر بضم الياء وكسر التاء، وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم التاء، وكلها بلغات صحيحة. يقال: أقترو وقترو بالتشديد، وقترو يُقترو. واختلفوا في معنى الإسراف والإقتار، فقال بعضهم: "الإسراف": النفقة في معصية الله وإن قلت، و"الإقتار": منع حق الله تعالى. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج. وقال الحسن في هذه الآية لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عن فرائض الله (3).

(1) انظر: مجمع الزوائد: 2 / 231.

(2) أخرجه مسلم في المساجد، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة، برقم (656): 1 / 454، والمصنف في شرح السنة: 2 / 231.

(3) انظر: الطبري 19 / 37، الجصاص: 5 / 213، القرظي: 13 / 72-73.

(6/94)

وقال قوم: "الإسراف": مجاوزة الحد في الإنفاق، حتى يدخل في حد التبذير، و"الإقتار": التقصير عمًا لا بد منه، وهذا معنى قول إبراهيم: لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف (1). { وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا } قصداً وسطاً بين الإسراف والإقتار، حسنة بين السبئتين. قال يزيد بن 48/أبي حبيب في هذه الآية: أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم، ومن الثياب ما يستتر عوراتهم ويكفيهم من الحر والقر (2). قال عمر بن الخطاب: كفى سرقة أن لا يشتهي الرجل شيئاً إلا اشتراه فأكله (3)

(1) الطبري: 19 / 37-38، القرظي: 13 / 73، قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك، قول من قال: الإسراف في النفقة الذي عناه الله في هذا الموضوع: ما جاوز الحد الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه، والإقتار: ما قصر عما أمر الله به. والقوام: بين ذلك...".

(2) أخرجه عنه الطبري: 19 / 38، وانظر القرظي: 13 / 73.

(3) أخرجه عبد الرزاق في التفسير عن ابن عيينة عن رجل عن الحسن عن عمر بن الخطاب، وهذا منقطع من طريقه، رواه الثعلبي، وأحمد في الزهد عن إسماعيل عن يونس عن الحسن كذلك، وراه ابن ماجه وأبو يعلى والبيهقي في الشعب من طريق نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً. والأول أصح". انظر: الكافي الشاف لابن حجر ص (122).

(6/95)

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68)

{ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) } قوله عز وجل: { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } الآية. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف بن جريج أخبرهم قال: قال يعلى وهو يعلى بن مسلم، أن سعيد بن جبير، أخبره عن ابن عباس أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة، فنزلت: "والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر" (1). { وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ } ونزل: "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله" (الزمر-53).

(1) أخرجه البخاري في التفسير، سورة الفرقان: 8 / 494، ومسلم في الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله برقم (122): 1 / 113، وفي التفسير، برقم (19): 4 / 2318، وانظر: أسباب النزول للواحد ص (386).

(6/95)

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70)

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جبرير عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عمرو بن شرحبيل قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: "أن تدعو لله ندًا وهو خلقك" قال "ثم أي؟ قال: "أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك"، قال: ثم أي؟ قال: "أن تزاني حليلة جارك"، فأنزل الله تصديقها: "والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلقَ أثامًا" (1) قوله عز وجل: { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ } أي: شيئاً من هذه الأفعال، { يَلْقَ أَثَامًا } قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما يريد جزاء الإثم. وقال أبو عبيدة: "الأثم": العقوبة. وقال مجاهد: "الأثم": واد في جهنم، يروى ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص (2) ويروى في الحديث: "الغي والأثم بئران يسيل فيها صديد أهل النار" (3). { يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) }

{ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا } قرأ ابن عامر وأبو بكر "يُضَاعَفُ" و "يخلدُ" برفع الفاء والdal على الابتداء، وشدد بن عامر:

"يضعف"، وقرأ الآخرون بجزم الفاء والدال على جواب الشرط. { إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا } قال قتادة: إلا من تاب من ذنبه، وأمن بربه، وعمل عملاً صالحاً فيما بينه وبين ربه. أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد بن عبد الله، حدثنا موسى بن محمد، حدثنا موسى بن هارون الحمالي، حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعي، حدثنا عبد الله بن رجاء عن عبيد الله بن عمر، عن علي بن يزيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: قرأناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنتين: { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } الآية، ثم نزلت: { إِلا مَنْ تَابَ } فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فرح بشيء قط كفرحه بها وفرحه بـ: "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" (4) (الفتح 1 - 2)

- (1) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان، باب "والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر": 492 / 8.
- (2) انظر: الطبري 19 / 44-45، وهو أيضاً قول مجاهد وعكرمة، وانظر: الزهد للإمام هناد: 1 / 369 مع تعليق المحقق.
- (3) أخرجه الطبري من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مطولاً: 19 / 44-45.
- (4) قال الهيثمي في المجمع: (7 / 84): "رواه الطبراني من رواية علي بن زيد عن يوسف بن مهران، وقد وثقا وفيهما ضعف، وبقيّة رجاله ثقات، وله حديث في الصحيح غير هذا". وزاد السيوطي نسبه لابن المنذر وابن مردويه. الدر المنثور: 6 / 279.

(6/96)

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71)

{ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } فذهب جماعة إلى أن هذا التبديل في الدنيا؛ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والسدي، والضحاك: يبدلهم الله بقبايح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيماناً، ويقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصاناً (1). وقال قوم: يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في الإسلام حسنات يوم القيامة (2) وهو قول سعيد بن المسيب، ومكحول، يدل عليه ما: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا أبو القاسم علي بن أبي أحمد الخزاعي، أخبرنا الهيثم بن كليب، أخبرنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا أبو عمار الحسين بن خريز، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار، يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال له عملت يوم كذا وكذا وكذا وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: ربّ إنّ لي ذنوباً ما أراها ها هنا، قال أبو ذر: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه (3). وقال بعضهم: إن الله عز وجل يمحو بالندم جميع السيئات، ثم يثبت مكان كل سيئة حسنة.

{ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) }
 قوله عز وجل: { وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا } قال بعض أهل العلم: هذا في
 التوبة عن غير ما سبق ذكره في الآية الأولى من القتل والزنا، يعني: من تاب
 من الشرك وعمل صالحًا، أي: أدى الفرائض ممن لم يقتل ولم يزني، { فَإِنَّهُ
 يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ } أي: يعود إليه بعد الموت، { مَتَابًا } حسنًا يفضل به على غيره
 ممن قتل وزنى، فالتوبة الأولى وهو قوله: "ومن تاب" رجوع عن الشرك،
 والثاني رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

(1) انظر: الطبري: 19 / 46-47.

(2) أخرجه الطبري: 19 / 47 عن سعيد، وقال: "وأولى التأويلين بالصواب
 في ذلك، قول من تأوله: فأولئك يبدل الله سيئاتهم: أعمالهم في الشرك
 حسنات في الإسلام، بنقلهم عما يسخطه الله من الأعمال إلى ما يرضى.. لأن
 الأعمال السيئة قد كانت مضت على ما كانت عليه من القبح، وغير جائز تحويل
 عين قد مضت بصفة إلى خلاف ما كانت عليه إلا بتغييرها عما كانت عليه من
 صفتها في حال أخرى، فيجب -إن فعل ذلك كذلك- أن يصير شرك الكافر الذي
 كان شركا في الكفر بعينه إيمانا يوم القيامة بالإسلام، ومعاصيه كلها طاعة،
 وذلك ما لا يقوله ذو حجا".

(3) أخرجه مسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (190):
 1 / 177، والمصنف في شرح السنة: 15 / 192.

(6/97)

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72)

وقال بعضهم: هذه الآية أيضًا في التوبة عن جميع السيئات ومعناه: ومن أراد
 التوبة وعزم عليها فليتب لوجه الله. وقوله: { يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ } خبر بمعنى
 الأمر، أي: ليتب إلى الله. وقيل: معناه فليعلم أن توبته ومصيره إلى الله.
 { وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) }
 { وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ } قال الضحاك وأكثر المفسرين: يعني الشرك (1)
 . وقال علي بن طلحة: يعني شهادة الزور. وكان عمر بن الخطاب: يجلد شاهد
 الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه، ويطوف به في السوق (2) . وقال ابن
 جريج: يعني الكذب (3) وقال مجاهد: يعني أعياد المشركين (4) . وقيل: النَّوْحُ
 (5) قال قتادة: لا يساعدون أهل الباطل 48/ب على باطلهم (6) . وقال محمد
 بن الحنفية: لا يشهدون الله والغناء (7) . قال ابن مسعود: "الغناء ينبت
 النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع" (8) . وأصل "الزور" تحسين الشيء
 ووصفه بخلاف صفته، فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق (9)

(1) أخرجه الطبري: 19 / 48، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن
 الضحاك. الدر المنثور: 6 / 378.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: 8 / 326 و 327، والبيهقي في السنن:
 10 / 142.

(3) الطبري: 19 / 49، الدر المنثور: 6 / 282.

(4) وهو ما رواه الخطيب عن ابن عباس. الدر المنثور: 282 / 6.
(5) وهو مروى عن الحسن. الدر المنثور: 283 / 6.
(6) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر: 283 / 6.
(7) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر: 283 / 6.
(8) رواه البيهقي في السنن موقوفا على ابن مسعود: 223 / 10، ورواه في الشعب مرفوعا عن جابر، وروى عبد الرزاق القطعة الأولى منه عن إبراهيم في المصنف: 4 / 11. قال ابن حجر في "تلخيص الحبير" (4 / 199): رواه أبو داود بدون التشبيه، والبيهقي من حديث ابن مسعود مرفوعا، وفيه شيخ لم يسم، ورواه البيهقي أيضا موقوفا، وفي الباب عن أبي هريرة رواه ابن عدي، وقال ابن طاهر: أصح الأسانيد في ذلك أنه من قول إبراهيم"، وعزاه الألباني في تعليقه على المشكاة: 3 / 1355 لابن أبي الدنيا في ذم الملاهي بإسناد ضعيف. وانظر: الفوائد المجموعة للشوكاني ص (254)، كشف الخفاء: 2 / 103.

(9) قال الطبري عقب ذلك: (19 / 49): "والشرك قد يدخل في ذلك لأنه محسن لأهله، حتى قد ظنوا أنه حق، وهو باطل. ويدخل فيه الغناء، لأنه أيضا مما يحسنه ترجيع الصوت، حتى يستحلي سامعه سماعه، والكذب أيضا قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه، حتى يظن سامعه أنه حق، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور. فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئا من الباطل، لا شركا، ولا غناء ولا كذبا ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور، لأن الله عم في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل".

(6/98)

وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاتًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)

{ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا } قال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا، وهي رواية ابن أبي نجیح عن مجاهد، نظيره قوله: "وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه" (القصص-55)، قال السدي: وهي منسوخة بآية القتال (1) قال الحسن والكلبي: "اللغو": المعاصي كلها، يعني إذا مروا بمجلس اللغو والباطل مروا كرامًا مسرعين معرضين. يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه (2).

{ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاتًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } (74)

{ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا } لم يقفوا ولم يسقطوا، { عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاتًا } كأنهم صم عمي، بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه. قال القتيبي (3) لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها. { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا } قرأ بغير ألف: أبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر. وقرأ الباقون بالألف على الجمع، { قُرَّةَ أَعْيُنٍ } أي: أولادًا أبرارًا أتقياء، يقولون اجعلهم صالحين فتقر أعيننا بذلك. قال

القرظي: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل. وقاله الحسن، ووَحَّدَ الْقُرَّةَ لأنها مصدر، وأصلها من البرد، لأن العرب تتأذى من الحر وتستروح إلى البرد، وتذكر قرة العين عند السرور، وسخنة العين عند الحزن، ويقال: دمع العين عند السرور بارد، وعند الحزن حار. وقال الأزهري: معنى قرة الأعين: أن يصادف قلبه من يرضاه، فتقر عينه به عن النظر إلى غيره. { وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } أي: أئمة يقتدون في الخير بنا، ولم يقل: أئمة، كقوله تعالى: "إنا رسول رب العالمين" (الشعراء-16)، وقيل: أراد أئمة كقوله: "فإنهم عدو لي" (الشعراء-77)، أي: أعداء، ويقال: أميرنا هؤلاء، أي: أمراءنا. وقيل: لأنه مصدر كالصيام والقيام، يقال: أم إمامًا، كما يقال: قام قيامًا، وصام صيامًا. قال الحسن: نقتدي بالمتقين ويقتدي بنا المتقون. وقال ابن عباس: اجعلنا أئمة هداة، كما قال: "وجعلناهم أئمة يهتدون بأمرنا" (السجدة-24)، ولا تجعلنا أئمة ضلالة كما قال: "وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار" (القصص-41)، وقيل: هذا من المقلوب، يعني: واجعل المتقين لنا إمامًا، واجعلنا مؤتمين مقتدين بهم، وهو قول مجاهد.

- (1) قال الطبري عقب ذلك: 3 / 32-33. "والشرك قد يدخل في ذلك لأنه محسن لأهله، حتى قد ظنوا أنه حق، وهو باطل. ويدخل فيه الغناء، لأنه أيضا مما يحسنه ترجيع الصوت، حتى يستحلي سامعه سماعه، والكذب أيضا قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه، حتى يظن سامعه أنه حق، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور. فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئا من الباطل، لا شركا، ولا غناء ولا كذبا ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور، لأن الله عم في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل".
- (2) انظر تأويل الطبري وترجيحه أيضا: 19 / 50.
- (3) انظر: القرطين لابن مطرف: 2 / 51-52.

(6/99)

أُولَئِكَ يُجْرَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا
حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ
فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)

{ أُولَئِكَ يُجْرَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا
حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ
فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77) }

{ أُولَئِكَ يُجْرَوْنَ } أي: يثابون، { الْعُرْفَةَ } أي: الدرجة الرفيعة في الجنة، و"العرفة": كل بناء مرتفع عال. وقال عطاء: يريد غرف الدر والزبرجد والياقوت في الجنة، { بِمَا صَبَرُوا } على أمر الله تعالى وطاعته، وقيل: على أذى المشركين. وقيل: عن الشهوات { وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا } قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر: بفتح الياء وتخفيف القاف، كما قال: "فسوف يلقون غيا" (مريم-59)، وقرأ الآخرون بضم الياء وتشديد القاف كما قال: "ولقاهم نصره وسرورا" (الإنسان-11)، وقوله: { تَحِيَّةً } أي مُلْكًا، وقيل: بقاءً دائمًا، { وَسَلَامًا } أي:

يسلم بعضهم على بعض. وقال الكلبي: يحيي بعضهم بعضًا بالسلام، ويرسل الرب إليهم بالسلام. وقيل: "سلامًا" أي: سلامة من الآفات. { جَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } أي: موضع قرار وإقامة. { قُلْ مَا يَعْبا بِكُمْ رَبِّي } قال مجاهد وابن زيد: أي: ما يصنع وما يفعل بكم. قال أبو عبيدة يقال: ما عبات به شيئًا أي: لم أعدّه، فوجوده وعدمه سواء، مجازه: أي وزن وأي مقدار لكم عنده، { لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ } إياه، وقيل: لولا إيمانكم، وقيل: لولا عبادتكم، وقيل: لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام، فإذا أمنتكم ظهر لكم قدر. وقال قوم: معناها: قل ما يعبا بخلقكم ربي لولا عبادتكم وطاعتكم إياه يعني إنه خلقكم لعبادته، كما قال: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" (الذاريات-56) وهذا قول ابن عباس ومجاهد. وقال قوم: "قل ما يعبا" ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه الهة، أو ما يفعل بعذابكم لولا شرككم، كما قال الله تعالى: "ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم" (النساء-147). وقيل: ما يعبا بعذابكم لولا دعاؤكم إياه في الشدائد، كما قال: "فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله" (العنكبوت-65)، وقال: "فأخذناهم بالأساء والضراء لعلهم يتضرعون" (الأنعام-42). وقيل: "قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم" يقول: ما خلقتكم ولي إليكم حاجة إلا أن تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم. { فَكَذَّبْتُمْ } أيها الكافرون، يخاطب أهل مكة، يعني: إن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته فقد كذبتكم الرسول ولم تجيبوه. { فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَآمًا } هذا تهديده لهم، أي: يكون تكذيبكم لزامًا، قال ابن عباس: موتًا. وقال أبو عبيدة: هلاكًا وقال ابن زيد: قتالًا. والمعنى: يكون

(6/100)

التكذيب لازمًا لمن كذب، فلا يعطى التوبة حتى يجازى بعمله. وقال ابن جرير (1) عذابًا دائمًا لازمًا وهلاكًا مقيمًا يلحق بعضكم ببعض. واختلفوا فيه، فقال قوم: هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون. وهو قول عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومجاهد ومقاتل، يعني: أنهم قتلوا يوم بدر واتصل بهم عذاب الآخرة، لازمًا لهم. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عمر بن حفص بن غياث، أخبرنا أبي، أخبرنا الأعمش، حدثنا مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والرُّوم، والبَطَشَةُ، واللزام (2) { فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَآمًا } وقيل: اللزام هو عذاب الآخرة.

(1) انظر: تفسير الطبري: 19 / 56-57.

(2) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان، باب: "فسوف يكون لزامًا": 8 / 496، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب الدخان، برقم (2798): 4 / 2157.

(6/101)

طسم (1) تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)

سورة الشعراء

مكية إلا أربع آيات من آخر السورة من قوله { والشعراء يتبعهم الغاوون }
وروي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت طه
والطواسين من [اللوح المحفوظ]"

بسم الله الرحمن الرحيم

{ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) }

{ طسم } قرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر: طسم، وطس، وحم، ويس بكسر
الطاء والياء والحاء، وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر، وقرأ الآخرون بالفتح
على التفخيم، وأظهر النون في يس عند الميم في "طسم": أبو جعفر،
وحمزة، وأخفاها الآخرون. وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال: "طسم"
عجزت العلماء عن تفسيرها. وروى علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس:
أنه قَسَمُ، وهو من أسماء الله تعالى، وقال قتادة: اسم من أسماء القرآن.
وقال مجاهد: اسم للسورة. قال محمد بن كعب القرظي: أقسم الله (1)
بطوله وسنائه وملكه (2) .

(1) لفظ الجلالة ساقط من "أ".

(2) تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، انظر فيما سبق:
1 / 58-59، وساق الحافظ ابن كثير الأقوال في الحروف المقطعة وخلاف
العلماء في تفسيرها والحكمة التي اقتضت إيرادها، واستبعد ما لا يساعده
الدليل، وقال: "وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور
التي ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله،
هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وقد حكى
هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى
القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في كشفه ونصره
أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، وشيخنا
الحافظ أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية". انظر: تفسير ابن كثير:
1 / 36-39.

(6/102)

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنَّ نَسْأَ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً
فَظَلَّتْ أَعْتَابُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4)

{ تِلْكَ } أي: هذه الآيات، { آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ }
{ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنَّ نَسْأَ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً
فَظَلَّتْ أَعْتَابُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) }
{ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ } قاتل نفسك، { أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } أي: إن لم يؤمنوا،
وذلك حين كذبه أهل مكة فشق عليه ذلك، وكان يحرص على إيمانهم، فأنزل
الله هذه الآية. { إِنَّ نَسْأَ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْتَابُهُمْ لَهَا
خَاضِعِينَ } قال قتادة: لو شاء الله لأنزل عليهم آية يذلون بها، فلا يلوي أحد
منهم عنقه إلى معصية الله. وقال ابن جريج: معناه: لو شاء الله لأراهم أمرا
من أمره، لا يعمل أحد منهم بعده معصية.

وقوله عز وجل: { خَاضِعِينَ } ولم يقل خاضعة وهي صفة الأعناق، وفيه أقاويل: أحدها: أراد أصحاب الأعناق، فحذف الأصحاب وأقام الأعناق مقامهم، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون، فجعل الفعل أولا للأعناق، ثم جعل خاضعين للرجال. وقال الأخفش: رد الخضوع على المضمرة الذي أضاف الأعناق إليه. وقال قوم: ذكر الصفة لمجاورتها المذكر، وهو قوله "هم" على عادة العرب في تذكير المؤنث إذا أضافوه إلى مذكر، وتأنيت المذكر إذا أضافوه إلى مؤنث. وقيل: أراد فظلوا خاضعين فعبر بالعنق عن جميع البدن، كقوله: "ذلك بما قدمت يداك" (الحج-10) و"الزمناء طائره في عنقه" (الإسراء-13). وقال مجاهد: أراد بالأعناق الرؤساء والكبراء، أي: فظلت كبارؤهم خاضعين. وقيل: أراد بالأعناق الجماعات، يقال: جاء القوم عنقا عنقا، أي: جماعات وطوائف. وقيل: إنما قال خاضعين على وفاق رؤوس الآي ليكون على نسق واحد (1).

(1) قال أبو جعفر الطبري (19 / 62): "وأولى الأقوال في ذلك وأشبهها بما قال أهل التأويل في ذلك: أن تكون الأعناق هي أعناق الرجال، وأن يكون معنى الكلام: فظلت أعناقهم ذليلة للآية التي ينزلها الله عليهم من السماء. وأن يكون قوله "خاضعين" مذكرا، لأنه خبر عن الهاء والميم في الأعناق، فيكون ذلك نظير قو جرير: أرى مّر السنين أخذن مني ... كما أخذ السرار من الهلال وذلك أن قوله: مر، لو أسقط من الكلام لأدى ما بقي من الكلام عنه لم يفسد سقوطه معنى الكلام عما كان به قبل سقوطه، وكذلك لو أسقطت الأعناق من قوله: "فظلت أعناقهم"، لأدى ما بقي من الكلام عنها، وذلك أن الرجال إذا ذلوا، فقد ذلت رقابهم، وإذا ذلت رقابهم فقد ذلوا".

(6/106)

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6) أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9) وَإِذْ تَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)

{ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6) أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9) وَإِذْ تَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) } وعظ وتذكير، { مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ } أي: محدث إنزاله، فهو محدث في التنزيل. قال الكلبي: كلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول، { إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ } أي: عن الإيمان به. { فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ } أي: فسوف يأتيهم، { أَنْبَاءٌ } أخبار وعواقب، { مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } { أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ } صنف وضرب، { كَرِيمٍ } حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام، يقال: نخلة كريمة إذا طاب حملها، وناقاة كريمة إذا كثر لبنها. قال الشعبي: الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم (1) { إِنَّ فِي }

دَلِكْ { الذي ذكرت، { لآيَةً { دلالة على وجودي وتوحيدي وكمال قدرتي، { وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ { مصدقين، أي: سبق علمي فيهم أن أكثرهم لا يؤمنون. وقال سيبويه: "كان" ها هنا صلة، مجازة: وما أكثرهم مؤمنين. { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ { العزيز بالنقمة من أعدائه، { الرَّحِيمُ { ذو الرحمة بأوليائه. قوله عز وجل: { وَإِذْ تَأْتِي رَبُّكَ مُوسَى { واذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى حين رأى الشجرة والنار، { أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ { يعني: الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب.

(1) أخرجه الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. الدر المنثور: 6 / 289.

(6/107)

قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون (12) وَيَصِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون (14) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) قَاتِلَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17)

{ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون (12) وَيَصِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون (14) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) قَاتِلَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) { قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ { ألا يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته. { قَالَ { يعني موسى، { رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون { وَيَصِيقُ صَدْرِي { من تكذيبهم إياي، { وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي { قال: هذا للعقدة التي كانت على لسانه، قرأ يعقوب "ويصيق"، "ولا ينطلق" ينصب القافيين على معنى وأن يصيق، وقرأ العامة برفعهما ردًا على قوله: "إني أخاف"، { فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ { ليؤازرنى ويظاهرنى على تبليغ الرسالة.

{ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ { أي: دعوى ذنب، وهو قتله القبطي، { فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون { أي: يقتلونني به. { قَالَ { الله تعالى، { كَلَّا { أي: لن يقتلوك، { فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ { سامعون ما يقولون، ذكر "معكم" بلفظ الجمع، وهما أنتان، أجراهما مجرى الجماعة. وقيل: أراد معكما ومع بني إسرائيل نسمع ما يجيبكم فرعون. { قَاتِلَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ { ولم يقل: رسولاً رب العالمين، لأنه أراد الرسالة، أي: أنا ذو رسالة رب العالمين، كما قال كثير: لقد كَذَّبَ الْوَاشُونَ مَا بَحَثُ عِنْدَهُمْ ... بسر ولا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ (1) أي: بالرسالة، وقال أبو عبيدة: يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع، تقول العرب: هذا رسولي ووكلني وهذا وهؤلاء رسولي ووكلني، كما قال الله تعالى: "وهم لكم عدو" (الكهف-50)، وقيل: معناه كل واحد منا رسول رب العالمين (2) { أَنْ أَرْسِلَ { أي: بأن أرسل، { مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ { إلى فلسطين، ولا تستعبدهم، وكان فرعون استعبدهم أربعمئة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة وثلاثين ألفاً، فانطلق موسى إلى مصر وهارون بها فأخبره بذلك.

(1) البيت هذا لكثير عزة، وقد استشهد به الطبري: 19 / 65، وأبو عبيدة: 2 / 84، وابن منظور في اللسان، مادة "رسل".
(2) انظر: البحر المحيط: 7 / 8.

(6/108)

قَالَ أَلَمْ تُرَبِّتْ فِينَا وَلِيدًا وَلَيْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ (18) وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الَّتِي
فَعَلْتَ وَأَنْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ (19)

وفي القصة (1) أن موسى رجع إلى مصر وعليه جبة صوف وفي يده عصا، والمِكْتَلُ معلق في رأس العصا، وفيه زاده، فدخل دار نفسه وأخبر هارون بأن الله أرسلني إلى فرعون وأرسلني إليك حين تدعو فرعون إلى الله، فخرجت أمهما 49/ب وصاحت وقالت: إن فرعون يطلبك ليقتلك فلو ذهبتما إليه قتلكما فلم يمتنع موسى لقولها، وذهبا إلى باب فرعون ليلا ودقًا الباب، ففزع البوابون وقال من الباب؟ وروي أنه اطلع البواب عليهما فقال من أنتما؟ فقال موسى: أنا رسول رب العالمين، فذهب البواب إلى فرعون وقال: إنَّ مجنونًا بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين، فترك حتى أصبح، ثم دعاهما. وروى أنهما انطلقا جميعًا إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البواب فقال لفرعون: ها هنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال فرعون: ائذن له لعلنا نضحك منه، فدخل عليه وأدبًا رسالة الله عز وجل، فعرف فرعون موسى؛ لأنه نشأ في بيته.

{ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّتْ فِينَا وَلِيدًا وَلَيْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ (18) وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ
الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) }

(1) انظر: الدر المنثور: 6 / 292.

(6/109)

قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ (20)

{ قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ (20) }
{ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّتْ فِينَا وَلِيدًا } صبيًا، { وَلَيْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ } وهو ثلاثون سنة. { وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الَّتِي فَعَلْتَ } يعني: قتل القبطي، { وَأَنْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ } قال الحسن والسدي: يعني وأنت من الكافرين بالهك وكنت على ديننا هذا الذي تعيبه. وقال أكثر المفسرين: معنى قوله: "وأنت من الكافرين"، أي: من الجاحدين لنعمتي وحق تربيتي، يقول ريبناك فينا فكافأتنا أن قتلت منا نفسًا، وكفرت بنعمتنا. وهذا رواية العوفي عن ابن عباس، وقال: إن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية (1) { قَالَ } موسى، { فَعَلْتَهَا إِذَا } أي: فعلت ما فعلت حينئذ، { وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ } أي: من الجاهلين، أي كم يأتي من الله شيء (2). وقيل: من الجاهلين بأن ذلك يؤدي إلى قتله. وقيل: من الصالين

عن طريق الصواب من غير تعمد. وقيل: من المخطئين.

- (1) وهو ما رجحه الطبري: 66 / 19، فتأويل الكلام إذن: وقتلت الذي قتلت منا وأنت من الكافرين نعمتنا عليك، وإحساننا إليك في قتلك إياه. وقد قيل: معنى ذلك: وأنت الآن من الكافرين لنعمتي عليك، وتربيتي إياك.
(2) اعتمده الطبري ولم يذكر غيره: 67 / 19.

(6/109)

فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21)
وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)

{ فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21)
وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) }
{ فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ } إلى مدين، { فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا } يعني النبوة، وقال مقاتل: يعني العلم والفهم، { وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ } { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ } اختلفوا في تأويلها: فحملها بعضهم على الإقرار وبعضهم على الإنكار. فمن قال هو إقرار، قال عدها موسى نعمة منه عليه حيث رباه، ولم يقتله كما قتل سائر غلمان بني إسرائيل، ولم يستعبده كما استعبد بني إسرائيل مجازة: بلى وتلك نعمة علي أن عبدت بني إسرائيل، وتركتني فلم تستعبدني. ومن قال: هو إنكار قال قوله: "وتلك نعمة" هو على طريق (1) الاستفهام، أي: أو تلك نعمة؟ حذف ألف الاستفهام، كقوله: "أفهم الخالدون" (الأنبياء-34)؟ قال الشاعر (2) تَرَوْحُ مِنَ الْحَيِّ أَوْ تَبْتَكِرُ ... وماذا بِصُرُّكَ لَوْ تَنْتَظِرُ؟

أي: أتروح من الحي؟ قال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة: لَمْ أُنْسَ يَوْمَ الرَّحِيلِ وَفَقَّيْهَا ... وَطَرَفُهَا فِي دَمَوِعِهَا عَرِقُ
وَقَوْلِهَا وَالرَّكَابُ وَاقِفَةٌ ... تَتْرُكُنِي هَكَذَا وَتَنْطَلِقُ؟
أي: أتركني، يقول: تَمُنُّ عَلَيَّ أَنْ رَبَّيْتَنِي، وتنسى جنايتك على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة؟. أو يريد: كيف تمنُّ عليَّ بالتربية وقد استعبدت قومي، ومن أهين قومه ذل، فتعبيدك بني إسرائيل قد أحبط إحسانك إليَّ.
وقيل معناه تمن علي بالتربية. وقوله: { أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ } أي: باستعبادك بني إسرائيل وقتلك أولادهم، دُفَعْتَ إِلَيْكَ حَتَّى رَبَّيْتَنِي وَكَفَلْتَنِي وَلَوْ لَمْ تَسْتَعْبِدْهُمْ وَتَقْتُلْهُمْ كَانَ لِي مِنْ أَهْلِي مَنْ يَرَبِّبُنِي وَلَمْ يَلْقُونِي فِي الْيَمِّ، فأى نعمة لك علي؟ قوله: { عَبَّدتَّ } أي: اتخذتهم عبيدًا، يقال: عَبَّدتُّ فُلَانًا، وَأَعْبَدْتَهُ، وَتَعْبَدْتَهُ، وَاسْتَعْبَدْتَهُ، أي: اتخذته عبدًا.

(1) ساقط من "ب".

(2) هو امرؤ القيس، والبيت في الطبري: 69 / 16.

(6/110)

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوتَكُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوتَكُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لئن اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ (29) قَالَ أَوْلَوْ جِنَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (30)

{ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوتَكُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوتَكُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لئن اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ (29) قَالَ أَوْلَوْ جِنَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (30) }

{ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } يقول: أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله إلي؟ يستوصفه إلهه الذي أرسله إليه بـ "ما"، وهو سؤال عن جنس الشيء، والله منزّه عن الجنسية، فأجابته موسى عليه السلام بذكر أفعاله التي يعجز عن الإتيان بمثله. { قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوتَكُمْ مُوقِنِينَ } إنه خالقهما. قال أهل المعاني: أي كما توقنون هذه الأشياء التي تعابنونها فأيقنوا أن إله الخلق هو الله عز وجل، فلما قال موسى ذلك تحير فرعون في جواب موسى. { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ } من أشرف قومه. قال ابن عباس: كانوا خمس مائة رجل عليهم الأسورة، قال لهم فرعون استبعادًا لقول موسى: { أَلَا تَسْتَمِعُونَ } وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم ملوكهم. فزادهم موسى في البيان. { قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ } { قَالَ } يعني: فرعون: { إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } يتكلم بكلام لا نعقله ولا نعرف صحته، وكان عندهم أن من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل، فزاد موسى في البيان: { قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوتَكُمْ تَعْقِلُونَ } { قَالَ } فرعون -حين لزمته الحجة وأنقطع عن الجواب- تكبراً عن الحق: { لئن اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ } من المحبوسين، قال الكلبي: كان سجنه أشد من القتل، لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في مكان وحده فردًا لا يسمع ولا يبصر فيه شيئًا، يهوي به في الأرض. { قَالَ } له موسى حين توعدده بالسجن: { أَوْلَوْ جِنَّتِكَ } أي: وإن جنتك، { بِشَيْءٍ مُّبِينٍ } بآية مبينة، ومعنى الآية: أتفعل ذلك وإن أتيتك بحجة بينة؟ وإنما قال ذلك موسى لأن من أخلاق الناس السكون إلى الإنصاف والإجابة إلى الحق بعد البيان.

(6/111)

قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِجَارٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَا ثُؤُوكُ يَكُلُ سِحْرًا عَلِيمٌ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39)

{ قَالَ قَاتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَأِ جَوْلُهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَا تُوَكُّ بَكُلِّ بَسْحَارِ عَلِيمٍ (37) فَجَمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ (39) }

(6/112)

لَعَلْنَا تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْعَالِيِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ (43)

{ لَعَلْنَا تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْعَالِيِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ (43) }

{ قَالَ } له فرعون، { قَاتِ بِهِ } فإننا لن نسجنك حينئذ، { إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } { فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } فقال: وهل غيرها؟

{ وَنَزَعَ } موسى، { يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ } { قَالَ } فرعون { لِلْمَلَأِ جَوْلُهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } { يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } ؟ { قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ } . { يَا تُوَكُّ بَكُلِّ سَحَارِ عَلِيمٍ } . { فَجَمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ } وهو يوم الزينة. وروي عن ابن عباس قال: وافق ذلك اليوم يوم السبت، في أول يوم من السنة، وهو يوم النيروز. { وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ } 50/أ لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان ولمن تكون الغلبة؟ { لَعَلْنَا } لكي، { تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْعَالِيِينَ } لموسى، وقيل: إنما قالوا ذلك على طريق الاستهزاء، وأرادوا بالسحرة موسى وهارون وقومهما. { فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ } . { قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } . { قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْفُونَ } .

(6/112)

فَأَلْقُوا جِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِوَةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ (44) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُّتَّبِعُونَ (52)

{ قَالِقُوا جِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ (44) قَالِقَى مُوسَى عَصَاهُ قَادَا هِي تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) قَالِقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا أَمَّا يَرْبُ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48) قَالَ آمِنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدِنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَاصَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا صَبْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ (52) }

{ قَالِقُوا جِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ } . { قَالِقَى مُوسَى عَصَاهُ قَادَا هِي تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } . { قَالِقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ } . { قَالُوا أَمَّا يَرْبُ الْعَالَمِينَ } . { رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } . { قَالَ آمِنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدِنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَاصَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ } . { قَالُوا لَا صَبْرَ } لا صبر، { إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ } { إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ } من أهل زماننا. { وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ } يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج من مصر.

وروي عن ابن جريج قال: أوحى الله تعالى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل كل أربعة أهل أبيات في بيت، ثم اذبحوا أولاد الضأن، فاضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سأمر الملائكة فلا يدخلوا بيتنا على بابه دم، وسأمرها فتقتل أباك آل فرعون من أنفسهم وأموالهم، ثم اخبزوا خبزًا فطيرًا فإنه أسرع لكم ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر، فباتيك أمري، ففعل ذلك، فلما أصبحوا قال فرعون: هذا عمل موسى وقومه، قتلوا أباكارنا من أنفسنا، وأخذوا أموالنا. فأرسل في أثره ألف ألف وخمسمائة ألف مسور مع كل ملك ألف، وخرج فرعون في الكرسي العظيم (1).

(1) انظر: الطبري: 19 / 76، الدر المنثور: 6 / 294.

(6/113)

قَارَسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَادِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْبُونَ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58)

{ قَارَسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَادِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْبُونَ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) }

{ قَارَسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ } يحشرون الناس يعني: الشرط ليجمعوا السحرة. وقيل: حتى يجمعوا له الجيش، وذكر بعضهم: أنه كان له ألف مدينة واثنان عشرة ألف قرية. وقال لهم: { إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ } عصابة { قَلِيلُونَ } والشردمة القطعة من الناس غير الكثير، وجمعها شرادم. قال أهل التفسير: كانت الشردمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف. وعن ابن مسعود قال: كانوا ستمائة وسبعين ألفا ولا يحصى عدد أصحاب فرعون. (1) . { وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ } يقال: غاظه وأغاظه وغيظه إذا أغضبه، والغيط

والغضب واحد، يقول: أغضبونا بمخالفتهم ديننا وقتلهم أبقارنا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منا. { وَإِنَّا لَجَمِيعُ خَازِنُونَ } قرأ أهل الحجاز والبصرة: "حذرون" و"فرهين" بغير ألف، وقرأ الآخرون "حاذرون" و"فارهين" بالألف فيهما، وهما لغتان. وقال أهل التفسير: حاذرون، أي: مُؤَدُّون ومقوون، أي: ذوو أداة وقوة مستعدون شاكون في السلاح (2) ومعنى "حذرون" أي: خائفون شرهم. وقال الزجاج: "الحاذر": المستعد، و"الحذر": المتيقظ. وقال الفراء: "الحاذر": الذي يحذر الآن، و"الحذر": المخوف. وكذلك لا تلقاه إلا حذرًا، والحذر: اجتناب الشيء خوفًا منه. { فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ } وفي القصة: البساتين كانت ممتدة على حافتي النيل، { وَعُيُونٍ } أنهار جارئة. { وَكُنُوزٍ } يعني الأموال الظاهرة من الذهب والفضة. قال مجاهد: سماها كنوزًا لأنه لم يعط حق الله منها، وما لم يعط حق الله منه فهو كنز وإن كان ظاهرًا، قيل: كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام، كل غلام على فرس عتيق، في عنق كل فرس طوق من ذهب، { وَمَقَامٍ كَرِيمٍ } أي: مجلس حسن، قال المفسرون: أراد مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت تحفها الأتباع. وقال مجاهد، وسعيد

- (1) الطبري: 19 / 76، زاد المسير: 6 / 125، معاني القرآن للنحاس: 5 / 79.
(2) انظر: معاني القرآن للنحاس: 5 / 80.

(6/114)

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60)

بن جبير: هي المنابر (1). وذكر بعضهم: أنه كان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأشراف عليهم الأقبية من الديباج مخصوصة بالذهب.
{ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) }

- (1) معاني القرآن الكريم للنحاس: 5 / 82، الدر المنثور: 6 / 298.

(6/115)

فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اصْرِبْ يَعْصَاكَ الْبَحْرُ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63)

{ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اصْرِبْ يَعْصَاكَ الْبَحْرُ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) }

{ كَذَلِكَ } كما وصفنا، { وَأَوْرَثْنَاهَا } بهلاكهم، { بَنِي إِسْرَائِيلَ } وذلك أن الله

تعالى رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن. { فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ } أي: لحقوهم في وقت إشراق الشمس، وهو إضاءةها، أي: أدرك قوم فرعون موسى وأصحابه وقت شروق الشمس. { فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ } أي: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه، وكسر حمزة الراء من "تراءى" وفتحها الآخرون. { قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ } أي: سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم. { قَالَ } موسى ثقة بوعد الله إياه: { كَلَّا } لن يدركونا، { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } يدلني على طريق النجاة. { فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اصْرِبْ يَعْصَاكَ الْبَحْرُ فَانفَلِقْ } أي: فضربه "فانلق" فانشق، { فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ } قطعة من الماء، { كَالطُّودِ الْعَظِيمِ } كالجبل الضخم، قال ابن جريج وغيره (1) لما انتهى موسى إلى البحر هاجت الرياح، والبحر يرمي بموج مثل الجبال، فقال يوشع: يا مكلم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا؟ قال موسى: هاهنا، فخاض يوشع الماء وجاز البحر، ما يوارى حافر دابته الماء. وقال الذي يكتم إيمانه: يا مكلم الله أين أمرت؟ قال: هاهنا، فكبح فرسه بلجامه حتى طار الرَبْدُ من شذقيه، ثم أقحمه البحر، فارتسب في الماء، وذهب القوم يصنعون مثل ذلك، فلم يقدرُوا، فجعل موسى لا يدري كيف يصنع، فأوحى الله إليه: أن اصرب بعصاك البحر، فضربه فانلق، فإذا الرجل واقف على فرسه لم يبتل سَرْجُه ولا لِبْدُه.

(1) أخرجه الطبري: 19 / 80.

(6/115)

وَأَرْلَفْنَا نَمَّ الْآخِرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَعْرَفْنَا
الْآخِرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68) وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ تِبَّاءَ إِسْرَافِهِمْ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا
تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْزِلُ لَهَا عَافِيَةً (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُصْرُورُونَ (73)

{ وَأَرْلَفْنَا نَمَّ الْآخِرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَعْرَفْنَا
الْآخِرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68) وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ تِبَّاءَ إِسْرَافِهِمْ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا
تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْزِلُ لَهَا عَافِيَةً (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُصْرُورُونَ (73) }

50/ب { وَأَرْلَفْنَا } يعني: وقربنا { نَمَّ الْآخِرِينَ } يعني: قوم فرعون، يقول:
قدمناهم إلى البحر، وقربناهم إلى الهلاك، وقال أبو عبيدة: "وأرلفنا": جمعنا،
ومنه ليلة المزدلفة أي: ليلة الجمع. وفي القصة أن جبريل كان بين بني
إسرائيل وقوم فرعون وكان يسوق بني إسرائيل، ويقولون: ما رأينا أحسن
سياقة من هذا الرجل، وكان يترع قوم فرعون، وكانوا يقولون: ما رأينا أحسن
زعة من هذا (1). { وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ } . { ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ }
فرعون وقومه. وقال سعيد بن جبیر: كان البحر ساكناً قبل ذلك، فلما ضربه
موسى بالعصا اضطرب فجعل يمد ويجزر. { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ { أي: من أهل مصر، قيل: لم يكن آمن من أهل مصر إلا آسية امرأة فرعون وحزيبيل المؤمن، ومريم بنت ناقوسا التي دلت على عظام يوسف عليه السلام. { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } العزيز في الانتقام من أعدائه، الرحيم بالمؤمنين حين أنجاهم. قوله: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ } . قوله: { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ } أي شيء تعبدون؟. { قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلْنَاهَا عَلَيْكَ } أي: نقيم على عبادتها. قال بعض أهل العلم: إنما قال: { فَتَنَّا } لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار، دون الليل، يقال: ظل يفعل كذا إذا فعل بالنهار. { قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم } أي: هل يسمعون دعاءكم، { إِذْ تَدْعُونَ } قال ابن عباس يسمعون لكم. { أَوْ يَنْفَعُونَكُم } قيل بالرزق، { أَوْ يَصُرُونَ } إن تركتم عبادتها.

(1) أخرجه ابن عبد الحكم وعبد بن حميد عن مجاهد: انظر: الدر المنثور: 6 / 304.

(6/116)

قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79)

{ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) }
 { قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } معناها: إنها لا تسمع قولاً ولا تجلب نفعاً، ولا تدفع ضرراً، لكن اقتدينا بأبائنا. فيه إبطال التقليد في الدين. { قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ } الأولون. { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي } أي: أعداء لي، ووحدته على معنى أن كل معبودٍ لكم عدو لي. فإن قيل: كيف وصف الأصنام بالعداوة وهي جمادات؟ قيل: معناها فإنهم عدو لي لو عبدتهم يوم القيامة (1) كما قال تعالى: "سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًا" (مريم- 82). وقال الفراء (2) هو من المقلوب، أراد: فإني عدو لهم، لأن من عاديته فقد عاداك. وقيل: "فإنهم عدو لي" على معنى إني لا أتولاهم ولا أطلب من جهتهم نفعاً، كما لا يتولى العدو، ولا يطلب من جهته النفع.
 قوله: { إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } اختلفوا في هذا الاستثناء، قيل: هو استثناء منقطع، كأنه قال: فإنهم عدو لي لكن رب العالمين وليي (3). وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأصنام مع الله، فقال إبراهيم: كل من تعبدون أعدائي إلا رب العالمين (4). وقيل: إنهم غير معبود لي إلا رب العالمين، فإني أعبده. وقال الحسين بن الفضل: معناها إلا من عبَدَ ربَّ العالمين. ثم وصف معبوده فقال: { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } أي: يرشدني إلى طريق النجاة. { وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } أي: يرزقني ويغذني بالطعام والشراب، فهو رازقي ومن عنده رزقي.

(1) جعله النحاس من أصح ما قيل في معنى الآية. معاني القرآن: 5 / 87،

الطبري: 19 / 84.

- (2) معاني القرآن للفراء: 2 / 281، ورده أبو حيان في البحر: 7 / 24.
(3) وهو قول أكثر النحويين: انظر: البحر المحيط: 7 / 24، معاني القرآن للنحاس: 5 / 86، زاد المسير: 6 / 128.
(4) قاله ابن زيد، زاد المسير: 6 / 128.

(6/117)

وَإِذَا مَرَضْتُ فَهَوَّ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِئْتِي ثُمَّ يُخِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ
يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83)
{ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهَوَّ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِئْتِي ثُمَّ يُخِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ
يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83)
{

(6/118)

وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85)

{ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85)
{ وَإِذَا مَرَضْتُ } أضاف المرض إلى نفسه وإن كان المرض والشفاء كله من الله، استعمالاً لحسن الأدب كما قال الحَضْرُ: "فأردت أن أعيبها" (الكهف-79)، وقال: "فأراد ربك أن يبلغا أشدهما" (الكهف-82). { فَهَوَّ يَشْفِينِ } أي: يبرئني من المرض. { وَالَّذِي يُمِئْتِي ثُمَّ يُخِينِ } أدخل "ثم" هاهنا للتراخي، أي: يميتني في الدنيا ويحييني في الآخرة. { وَالَّذِي أَطْمَعُ } أي: أرجو، { أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } أي: خطاياي يوم الحساب. قال مجاهد: هو قوله: "إني سقيم"، وقوله: "بل فعله كبيرهم هذا"، وقوله لسارة: "هذه أختي"، وزاد الحسن وقوله للكواكب: "هذا ربي". وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسي، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حفص بن غياث، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة قال: قلت يا رسول الله: ابن جدعان، كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المساكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: "لا ينفعه إنه لم يقل يوماً، رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين" (1) وهذا كله احتجاج من إبراهيم علي قومه، وإخبار أنه لا يصلح للإلهية من لا يفعل هذه الأفعال. { رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا } قال ابن عباس: معرفة حدود الله وأحكامه. وقال مقاتل: الفهم والعلم. وقال الكلبي: النبوة (2) { وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يمن قبلي من النبيين في المنزلة والدرجة. { وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ } أي: ثناء حسناً، وذكرًا جميلًا وقبولاً عامًا في الأمم التي تجيء بعدي، فأعطاه الله ذلك، فجعل كل أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه. قال القتيبي: وضع اللسان موضع القول

على الاستعارة لأن القول يكون به. { وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ } أي: ممن تعطيه جنة النعيم.

- (1) أخرجه مسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل، برقم (214): 1 / 196.
- (2) اعتمده الطبري ولم يذكر غيره، وهو مروى أيضا عن ابن عباس وانظر الأقوال في: زاد المسير: 6 / 130.

(6/118)

وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأَزْلَقَتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبَرَزَتْ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ آيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96)

{ وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأَزْلَقَتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبَرَزَتْ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ آيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) }

كما سبق ذكره في سورة التوبة. { وَلَا تُخْزِنِي } لا تفضحني، { يَوْمَ يُبْعَثُونَ } { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } أي: خالص من الشرك والشك (1) فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد، هذا قول أكثر المفسرين. قال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو الصحيح، وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض. قال الله تعالى: "في قلوبهم مرض" (البقرة-10)، قال ابن عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة المظلمة على السنة (2). { وَأَزْلَقَتْ } قربت { الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ } { وَبَرَزَتْ } أظهرت، { الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ } للكافرين. { وَقِيلَ لَهُمْ } يوم القيامة، { آيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ } { مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ } يمنعونكم 51/أ من العذاب، { أَوْ يَنْتَصِرُونَ } لأنفسهم. { فَكَبَّكُوا فِيهَا } قال ابن عباس: جمعوا. وقال مجاهد: دُهِرُوا. وقال مقاتل: قذفوا. وقال الزجاج: طرح بعضهم على بعض. وقال الفتيبي: ألقوا على رؤوسهم. { هُمْ وَالْغَاوُونَ } يعني: الشياطين، قال قتادة، ومقاتل. وقال الكلبي: كفر الجن. { وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ } وهم أتباعه ومن أطاعه من الجن والإنس. ويقال: ذريته. { قَالُوا } أي: قال أتباعه ومن أطاعه من الجن والإنس، { وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ } مع المعبودين ويجادل بعضهم بعضًا.

- (1) انظر: الطبري: 19 / 87، معاني القرآن للنحاس: 5 / 88.
- (2) نقل ذلك كله ابن كثير في تفسيره: 3 / 341. وانظر: زاد المسير: 6 / 130.

تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَصَلْنَا إِلَّا
 الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ
 لَنَا كَرَّةً فَنَتَّكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103)
 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105)

{ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَصَلْنَا
 إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ
 أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَّكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
 مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ }
 (105)

{ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } . { إِذْ نُسَوِّكُمْ } نعدلكم، { بِرَبِّ الْعَالَمِينَ }
 فنعدلكم. { وَمَا أَصَلْنَا } أي: ما دعانا إلى الضلال، { إِلَّا الْمُجْرِمُونَ } قال
 مقاتل: يعني الشياطين. وقال الكلبي: إلا أولونا الذين اقتدينا بهم. وقال أبو
 العالية وعكرمة: يعني: إبليس، وابن آدم الأول، وهو قابيل، لأنه أول من سن
 القتل، وأنواع المعاصي. { فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ } أي: من يشفع لنا من
 الملائكة والنبين والمؤمنين. { وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ } أي: قريب يشفع لنا، يقوله
 الكفار حين تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، والصدیق هو الصادق في
 المودة بشرط الدين. أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي،
 أخبرني الحسين بن محمد بن فنجويه، حدثنا محمد بن الحسين اليقطيني،
 أخبرنا أحمد بن عبد الله يزيد العقيلي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن
 مسلم، حدثنا من سمع أبا الزبير يقول: أشهد لسمعت جابر بن عبد الله يقول:
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الرجل ليقول في الجنة ما
 فعل صديقي فلان، وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه
 إلى الجنة، فيقول من بقي: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم" (1) قال
 الحسن: استكثرنا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعتة يوم القيامة. { فَلَوْ
 أَنَّ لَنَا كَرَّةً } أي: رجعة إلى الدنيا، { فَنَتَّكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } العزيز الذي لا
 يغالِب، فالله عزيز، وهو في وصف عزته رحيم. قوله عز وجل: { كَذَّبَتْ قَوْمُ
 نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد رأيت قوله: { كَذَّبَتْ قَوْمُ
 نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } و { كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ } و { كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ }
 وإنما

(1) ذكر القرطبي في التفسير: 13 / 118، ولم يخرج أحد من أصحاب
 الكتب الستة وغيرها، وساقه المصنف بإسناده من طريق الثعلبي، وفيه جهالة
 من سمع أبا الزبير.

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا النَّبِيَّ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا النَّبِيَّ (110) قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبِعْكَ الْأَرْدَلُونَ (111)

أرسل إليهم رسول واحد؟ قال: إن الآخر جاء بما جاء الأول، فإذا كذبوا واحداً فقد كذبوا الرسل أجمعين.
{ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا النَّبِيَّ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا النَّبِيَّ (110) قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبِعْكَ الْأَرْدَلُونَ (111) }

(6/121)

قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116)

{ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) }

{ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ } { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ } على الوحي. { فَاتَّقُوا اللَّهَ } بطاعته وعبادته، { وَأَطِيعُوا اللَّهَ } فيما أمركم به من الإيمان والتوحيد. { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ } ثوابي، { إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ } . { قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبِعْكَ الْأَرْدَلُونَ } قرأ يعقوب: "وأتباعك الأردلون" السفلة. وعن ابن عباس قال: الصاغة. وقال عكرمة الحاکة والأساكفة. { قَالَ } نوح، { وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } أي: ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، وليس علي من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله، ولي منهم ظاهر أمرهم. { إِنْ حِسَابُهُمْ } ما حسابهم، { إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ } لو تعلمون ذلك ما عبتموهم بصنائعهم. قال الزجاج: الصناعات لا تضر في الديانات. وقيل: معناه: أي: لم أعلم أن الله يهديهم ويضلهم ويفقههم ويخذلكم. { وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ } إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ } . { قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ } عما تقول، { لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ } قال مقاتل والكلبي: من المقتولين بالحجارة. وقال الضحاک: من المشتومين.

(6/121)

قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَانجيناؤه وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَسْحُونِ (119) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122) كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا النَّبِيَّ (126) وَمَا

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128)

{ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُون (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُون (119) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (120) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122) كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) }

{ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُون فَافْتَحْ } فاحكم، { بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا } حكمًا، { وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } { فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُون } { ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ } { أَي: أَعْرَفْنَا بَعْدَ إِنْجَاء نُوحٍ، وَأَهْلِهِ: مَنْ بَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ. } { إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } قوله عز وجل: { كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ } { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ } يعني في النسب لا في الدين، { أَلَا تَتَّقُونَ } { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ } على الرسالة، قال الكلبي: أمين فيكم قبل الرسالة، فكيف تتهموني اليوم؟. { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا } { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } { أَتَبْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ } قال الوالبي عن ابن عباس: أي: بكل شرف. وقال الضحاك ومقاتل والكلبي: بكل طريق، وهو رواية العوفي عن ابن عباس، وعن مجاهد قال: هو الفج بين الجبلين. وعنه أيضا: أنه المنطرة. { آيَةً } أي: علامة، { تَعْبَثُونَ } بمن مر بالطريق، والمعنى: أنهم كانوا يبنون المواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخرها منهم وبعثوا بهم. وعن سعيد بن جبير ومجاهد: هذا في بروج الحمام أنكر عليهم هود اتخاذها، بدليل قوله: { تَعْبَثُونَ } أي: تلعبون، وهم كانوا

(6/122)

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136)

يلعبون بالحمام. وقال أبو عبيدة: الريح: المكان المرتفع (1) { وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136) }

(1) انظر هذه الأقوال في الطبري: 19 / 93-94، زاد المسير: 6 / 135-136، وقال ابن كثير: (3 / 342): "اختلف المفسرون في "الريح" بما حاصله:

أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، بينون هناك بنيانا محكما هائلا باهرا، ولهذا قال: "أبتنون بكل ربع آية" أي: معلما بناء مشهورا، "تعثون" أي: وإنما تفعلون ذلك عبثا، لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك، لأنه تضييع للزمان وإتاعب للأبدان، في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة".

(6/123)

إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137)

{ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) }
 { وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ } قال ابن عباس: أبنية. وقال مجاهد: قصورا مشيدة. وعن الكلبي: أنها الحصون. وقال قتادة: مأخذ الماء، يعني الحياض، واحدها مصنعة (1) { لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ } أي: كأنكم تبقون فيها خالدين. والمعنى: أنهم كانوا يستوثقون المصانع كأنهم لا يموتون. { وَإِذَا بَطَشْتُمْ } أخذتم وسطوتم، { بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } قتلًا بالسيف وضربًا بالسوط، "والجبار" الذي يقتل ويضرب على الغضب. { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا } . { وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ } أي: أعطاكم من الخير ما تعلمون، ثم ذكر ما أعطاهم فقال: { أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ } { وَجَنَّاتٍ وَعَيْونٍ } أي: بساتين وأنهار. 51/ب { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ } قال ابن عباس: إن عصيتموني، { عَدَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } { قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا } أي: مُسْتَوٍ عندنا، { أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ } الوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد. قال الكلبي: نهيتنا أم لم تكن من الناهين لنا. { إِنْ هَذَا } ما هذا، { إِنْ خُلِقَ الْأَوَّلِينَ } قرأ ابن كثير، وأبو جعفر، وأبو عمرو، والكسائي، وبعقوب: "خلق" بفتح الخاء وسكون اللام، أي: اختلاق الأولين وكذبهم دليل هذه القراءة قوله

(1) قال الطبري: (19 / 95-96): "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصورا، وحصونا مشيدة، وجائز أن يكون كان مأخذ للماء، ولا خبر يقطع العذر بأي ذلك كان، ولا هو مما يدرك من جهة العقل. فالصواب أن يقال فيه ما قال الله: إنهم كانوا يتخذون مصانع".

(6/123)

وَمَا تَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَشْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ (147) وَرُوعٍ وَنَخْلِ طَلْعَاهَا هَضِيمٌ (148)

تعالى: "وتخلقون إفكاً" (العنكبوت-17) ، وقرأ الآخرون "خُلِقَ" بضم الخاء واللام، أي: عادة الأولين من قبلنا، وأمرهم أنهم يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب.

{ وَمَا تَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَآ هُنَا أَمِينٌ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَتَحْلٍ طَلُوعَهَا هَضِيمٌ (148) }

{ وَمَا تَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ } { فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } قوله عز وجل: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَآ هُنَا } أي: في الدنيا { أَمِينٌ } من العذاب. { فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَتَحْلٍ طَلُوعَهَا } ثمرها، يريد ما يطلع منها من الثمر، { هَضِيمٌ } قال ابن عباس: لطيف، ومنه: هضم الكشح، إذا كان لطيفاً. وروى عطية عنه: يانع نضيج. وقال عكرمة: هو اللين. وقال الحسن: هو الرخو. وقال مجاهد: متهشم متفتت إذا مُسَّ، وذلك أنه ما دام رطباً فهو هضم، فإذا يبس فهو هشيم. وقال الضحاك ومقاتل: قد ركب بعضه بعضاً [حتى هضم بعضه بعضاً] (1) أي: كسره. وقال أهل اللغة: هو المنضم بعضه إلى بعض في وعائه قبل أن يظهر. وقال الأزهرى: الهضم هو الداخل بعضه في بعض من النضج والنعومة. وقيل: هضم أي: هاضم بهضم الطعام. وكل هذا للطفاته (2) .

(1) ما بين القوسين ساقط من "ب".

(2) ذكر هذه الأقوال؛ الطبري: 19 / 99-100، ابن الجوزي: 6 / 138، القرطبي: 13 / 128، وفي الآية أقوال أخرى، قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: "الهضم": هو المتكسر من لينه ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتقصه وتحيفه، فكذلك الهضم في الطلع، إنما هو التنقص منه من رطوبته ولينه إما بمس الأيدي، وإما بركوب بعضه بعضاً، وأصله مفعول صرف إلى فعيل".

(6/124)

وَتَنْجُوتَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوتًا قَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ (155)

{ وَتَنْجُوتَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوتًا قَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ }

{ (155)

{ وَتَنجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي نُبِئْنَا بِقَارِهِنَّ } وقرئ: "فرهين" قيل: معناهما واحد (1) . وقيل: فرهين أي: حادقين بنحتها، من قولهم فره الرجل فراهة فهو فاره، ومن قرأ "فرهين" قال ابن عباس: أشيرين بطرين (2) . وقال عكرمة: ناعمين. وقال مجاهد: شرهين. قال قتادة: معجبين بصنيعكم، قال السدي: متجبرين. وقال أبو عبيدة: مرحين. وقال الأخفش فرحين. والعرب تعاقب بين الهاء والحاء مثل: مدحته ومدته. قال الضحاك: كَيْسِيْنَ (3) . { قَاتِلُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ } قال ابن عباس: المشركين. وقال مقاتل: هم التسعة الذين عقروا الناقة. { الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ } بالمعاصي، { وَلَا يُضِلُّوْنَ } لا يطيعون الله فيما أمرهم به. { قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ } قال مجاهد وقتادة: من المسحورين المخدوعين، أي: ممن سُجِرَ مرة بعد مرة. وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: أي: من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب، يقال: سحره، أي: علله بالطعام والشراب، يريد: إنك تأكل الطعام والشراب ولست بملك، بل: { مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأَبِئْ عَلَى صِحَّةٍ مَا تَقُولُ، { إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ } أنك رسول الله إلينا. { قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ } حظ ونصيب من الماء، { وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ }

(1) ذهب إليه أبو عبيدة في "مجاز القرآن": 2 / 98.

(2) قال أبو جعفر النحاس في "معاني القرآن": (5 / 97): "وهذا أعرفها في اللغة، وهو قول أبي عمرو، وأبي عبيدة، فكان الهاء مبدلة من حاء، لأنهما من حروف الحلق".

(3) قال الطبري بعد أن عرض الأقوال في تفسير القراءتين: (19 / 101) "والصواب أنهما قراءتان معروفتان، مستفيضة القراءة بكل واحدة منهما، في علماء القراء، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. ومعنى قراءة من قرأ (فارhein): حادقين بنحتها، متخيرين لمواضع نحتها، كيسين، من الفراهة. ومعنى قراءة من قرأ (فارhein): مرحين أشيرين، وقد يجوز أن يكون معنى: فاره وفره، واحدا..".

(6/125)

وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيْمٍ (156) فَعَقَرُوْهَا فَاصْبَحُوا تَادِيْمِيْنَ (157) فَآخَذَهُمُ الْعَذَابُ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَةً وَّمَا كَانَ اَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ (158) وَاِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ (159)

{ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيْمٍ (156) فَعَقَرُوْهَا فَاصْبَحُوا تَادِيْمِيْنَ (157) فَآخَذَهُمُ الْعَذَابُ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَةً وَّمَا كَانَ اَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ (158) وَاِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ (159) }

(6/126)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَتَجَنَّبَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُورًا فِي الْغَابِرِينَ (171)

{ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَتَجَنَّبَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُورًا فِي الْغَابِرِينَ (171) }

{ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ { بعقر، { فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ { } فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا تَادِمِينَ { على عقربها حين رآوا العذاب. { فَاخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ { } وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ { قوله تعالى: { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ { قال مقاتل: يعني جماع الرجال. { مِنَ الْعَالَمِينَ { يعني من بني آدم. { وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ { قال مجاهد: تركتم أقبال النساء إلى أدمار الرجال، { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ { مهتدون، مجاوزون الحلال إلى الحرام. { قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ { من فريتنا. { قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ { المبغضين، ثم دعا فقال: { رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ { من العمل الخبيث. قال الله تعالى: { فَتَجَنَّبَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُورًا فِي الْغَابِرِينَ { وهي امرأة لوط، بقيت في العذاب والهلاك.

(6/126)

ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرَبِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175) كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183)

{ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرَبِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175) كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) }

(177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) }

(6/127)

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ (184)

{ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ (184) }
 { ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِيْنَ } أي: أهلكناكم. { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ } قال وهب بن منبه: الكبريت والنار. { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } قوله عز وجل: { كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ } وهم قوم شعيب عليه السلام، قرأ العراقيون: "الأيكة" ها هنا وفي "ص" بالهمزة وسكون اللام وكسر التاء، وقرأ الآخرون: "ليكة" بفتح اللام والتاء غير مهموز، جعلوها اسم البلد، وهو لا ينصرف، ولم يختلفوا في سورة "الحجر" و"ق" أنهما مهموزان مكسوران، والأيكة: الغيضة من الشجر الملتف. { إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ } ولم يقل أخوهم؛ لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيباً لأنه كان منهم، وكان الله تعالى بعثه إلى قومه أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة. { أَلَا تَتَّقُونَ }
 { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } وإنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لا تفاقهم على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة 52/أ والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة. { أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ } الناقصين لحقوق الناس بالكيل والوزن.

(6/127)

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَمِنَ الْكَادِبِينَ (186) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191) وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)

{ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ } الخليفة، { الأولين } يعني: الأمم المتقدمين، والجبلة: الخلق، يقال: جبل أي: خلق.
 { قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَمِنَ الْكَادِبِينَ (186) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) }

قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191) وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) {

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ فَاسْبِقْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ { أي: من نقصان الكيل والوزن، وهو مجازيكم بأعمالكم، وليس العذاب إلي وما علي إلا الدعوة. { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ } وذلك أنه أخذهم جرّ شديد، فكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حراً فخرجوا، فأطلتهم سحابة، وهي الظلة، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم نازراً فاحترقوا، ذكرناه في سورة هود. { إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } { وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } قوله عز وجل: { وَإِنَّهُ } يعني القرآن. { لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } قرأ أهل الحجاز، وأبو عمرو، وحفص: "نزل" خفيف، "الروح الأمين" برفع الحاء والنون، أي "نزل جبريل بالقرآن. وقرأ الآخرون بتشديد الزاي وفتح الحاء والنون أي: نزل الله به جبريل، لقوله عز وجل: " وإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ". { عَلَى قَلْبِكَ } يا محمد حتى وعيته، { لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ } المخوفين. { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [قال ابن عباس: بلسان قريش ليفهموا ما فيه] (1) .

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(6/128)

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200)

{ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) } { وَإِنَّهُ } أي: ذكر إنزال القرآن، قاله أكثر المفسرين، وقال مقاتل: ذكر محمد صلى الله عليه وسلم ونعته، { لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ } { أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ } [قرأ ابن عامر: "نكن" بالتاء "آية" بالرفع، جعل الآية اسماً وخبره: { أَنْ يَعْلَمَهُ } وقرأ الآخرون بالياء، "آية"] (1) نصب، جعلوا الآية خبر يكن، معناه: أو لم يكن لهؤلاء المنكرين (2) علم بني إسرائيل آية، أي: علامة ودلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن العلماء الذين كانوا من بني إسرائيل، كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم، وهم: عبد الله بن سلام وأصحابه (3) . قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا نجد في التوراة نعته وصفته، فكان ذلك آية على صدقه (4) . قوله تعالى: { أَنْ يَعْلَمَهُ } يعني: يعلم محمد صلى الله عليه وسلم، { عُلَمَاءُ }

بَنِي إِسْرَائِيلَ { قال عطية: كانوا خمسة عبد الله بن سلام، وابن يامين، وثعلبة، وأسد، وأسيد (5) . { وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ { يعني القرآن، { عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ { جمع الأعجمي، وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية وإن كان عربيا في النسب، والعجمي: منسوب إلى العجم، وإن كان فصيحاً. ومعنى الآية: ولو نزلناه على رجل ليس بعربي اللسان. { فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ { بغير لغة العرب، { مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ { وقالوا: ما نفقه قولك، نظيره قوله عز وجل: "ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ" (فصلت-44) ، وقيل: معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفةً من اتباعه. { كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ { قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: أدخلنا الشرك والتكذيب { فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ {

(1) ما بين القوسين من "أ".

(2) في "ب": المتكبرين.

(3) وهو مروى عن مجاهد: انظر: الدر المنثور: 6 / 322، الطبري: 19 / 113.

(4) انظر: زاد المسير 6 / 145.

(5) نسبه السيوطي في الدر (6 / 323) لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.

(6/129)

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَقْبَعَدَانَا يُسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206)

{ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَقْبَعَدَانَا يُسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) }

(6/130)

مَا أَعْتَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (207) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا نَنْزِلُكَ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَبِيحُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُولُونَ (212) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213)

{ مَا أَعْتَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (207) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا نَنْزِلُكَ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَبِيحُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُولُونَ (212) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) }

{ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ { أي: بالقرآن، { حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ { يعني: عند الموت.

{ قَيَّأَيْتَهُمْ } يعني: العذاب، { بَعْتَهُ } فجأة، { وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } به في الدنيا. { قَيَّفُوا هَلْ تَحْنُ مُنْظَرُونَ } أي: لنؤمن ونصدق، يتمنون الرجعة والنظرة. قال مقاتل: لما أوعدهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب، قالوا: إلى متى توعدنا بالعذاب؟ متى هذا العذاب؟ قال الله تعالى: { أَقْبِعْ دَائِبَاتِنَا يَسْتَعْجِلُونَ } أَقْرَأْتِ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ { كثيرة في الدنيا، يعني: كفار مكة، ولم نهلكهم. } ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ { يعني: بالعذاب. } مَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ { به في تلك السنين. والمعنى: أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا فإذا أتاهم العذاب لم يغب عنهم طول التمتع شيئاً، ويكون كأنهم لم يكونوا في نعيم قط. } وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ { رسل ينذرونهم. } { ذَكَرَى } محلها نصب، أي: ينذرونهم، تذكره، وقيل: رفع أي: تلك ذكرى، { وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ } في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعدنا إليهم. { وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ } وذلك أن المشركين كانوا يقولون إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فقال جل ذكره: "وما تنزلت به"، أي: بالقرآن، الشياطين. { وَمَا يَتَّبِعِي لَهُمْ } أن ينزلوا بالقرآن، { وَمَا يَسْتَطِيعُونَ } ذلك. { إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ } أي: عن استراق السمع من السماء، { لَمَعْرُولُونَ } أي: محجوبون بالشهب مرجومون. { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحذر

(6/130)

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)

به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق علي ولو اتخذت إلهاً غيري لعذبتك. { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) } { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } روى محمد بن إسحاق، عن عبد الغفار بن القاسم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، عن عبد الله بن عباس، عن علي بن أبي طالب. قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم: { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا علي إن الله يأمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمْتُ عليها جاءني جبريل، فقال لي: يا محمد إلا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك، فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجلاً شاة، وإملاً لنا عُسّاً من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرتُ به". قال علي رضي الله عنه: ففعلت ما أمرني به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعوتهم له، وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أعمامه 52/ب أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب، فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعته فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم جذبة من اللحم، فشققها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة، ثم قال: "خذوا باسم الله" فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة، وإيْمُ الله إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل مثل ما قدمت لجمعهم، ثم قال: "اسق القوم" فجثتهم بذلك العُسُّ، فشربوا حتى رووا جميعاً، وإيْمُ الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بדרه

أبو لهب فقال: سحركم صاحبكم، فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الغد: "يا علي إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القوم فتفرق القوم قبل أن أكلمهم، فَعُدَّ لنا من الطعام بمثل ما صنعت ثم اجمعهم"، ففعلت ثم جمعتهم فدعاني بالطعام فَقَرَّبْتُهُ، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا بني عبد المطلب إنني قد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأياكم يوازرني على أمري هذا؟ ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فأحجم القوم عنها جميعًا، فقلت -وأنا أحدثهم سنًا- أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه. قال: فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا"، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيع (1).

(1) أخرجه ابن إسحاق في المغازي، والبيهقي في "الدلائل" من طريقه من رواية ابن عباس. وأخرجه البزار وأبو نعيم في الدلائل من طريق عباد بن عبد الله الأسدي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: الكافي الشاف ص (123)، وراجع تفسير ابن كثير: 3 / 315-352 فقد قال: تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبي مريم، وهو متروك كذاب شيعي، اتهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث، وضعفه الأئمة رحمهم الله.

(6/131)

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت: { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } "ورهلك منهم المخلصين" خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف يا صاحبا، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه فقال: "أرايتكم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من صفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟" قالوا: ما جربنا عليك كذبًا قال: "فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" فقال أبو لهب: تبًا لك ما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام: فنزلت "تبت يدا أبي لهب وقد تب" هكذا قرأ الأعمش يومئذ (1). أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثني عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: لما نزلت { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } صَعِدَ النَّبِيُّ عَلَى الصِّفَا فَجَعَلَ ينادي: "يا بني فهر، يا بني عدي -لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولنا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: "فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: "تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه مالك وما كسب" (2)

(1) أخرجه البخاري في تفسير سورة "تبت": 8 / 737، وفي الجناز وفي سورة الشعراء وسبأ، وأخرجه مسلم في الإيمان، باب قوله تعالى: "وانذر عشيرتک الأقرین"، برقم (208): 1 / 193-194، والمصنف في شرح السنة: 13 / 327. قال النووي في شرح صحيح مسلم (3 / 82) عند قوله "ورهطك منهم المخلصين": "هو بفتح اللام، فظاهر هذه العبارة أن قوله: ورهطك منهم المخلصين، كان قرآنا أنزل ثم نسخت تلاوته، ولم تقع هذه الزيادة في روايات البخاري". قلت: بل هي في رواية البخاري في الموضوع السابق من التفسير: 8 / 737 من رواية أبي أسامة عن الأعمش. وقال ابن حجر: "هذه الزيادة وصلها الطبري من وجه آخر عن عمرو بن مرة أنه كان يقرؤها كذلك. قال القرطبي: لعل هذه الزيادة كانت قرآنا فنسخت تلاوتها، ثم استشكل ذلك بأن المراد إنذار الكفار، والمخلص صفة المؤمن؟! والجواب عن ذلك: أنه لا يمتنع عطف الخاص على العام، فقوله: "وانذر عشيرتک" عام فيمن آمن منهم ومن لم يؤمن، ثم عطف عليه الرهط المخلصين تنويها بهم وتأكيدها". انظر: فتح الباري: 8 / 502، تفسير القرطبي: 13 / 143. وأما قراءة "وقد تب" كما في الرواية، فقال عنها ابن حجر في الفتح: (8 / 503): "وليست هذه القراءة فيما نقل القراء عن الأعمش، فالذي يظهر أنه قرأها حاكيا لا قارئاً، ويؤيده قوله في هذا السياق: "يومئذ" فإنه يشعر بأنه كان لا يستمر على قراءتها كذلك، والمحفوظ أنها قراءة ابن مسعود وحده". وقال البدر العيني في عمدة القاري: (20 / 7): وقوله: "ورهطك منهم المخلصين" إما تفسير لقوله: "عشيرتک" وإما قراءة شاذة رواها. قال الإسماعيلي: قرأها ابن عباس".

(2) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء، باب: "وانذر عشيرتک الأقرین": 8 / 501، وفي سورة تبت: 8 / 737، ومسلم في الإيمان: 1 / 194، ولم يذكر الأعمش نزول الآية في الرواية.

(6/132)

وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215)

{ وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) }

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، أنا أي هريرة قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى: { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } فقال: "يا معشر قريش، أو كلمة نحوها، اشتروا أنفسكم لا أعني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أعني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أعني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أعني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سأليني ما شئت من مالي لا أعني عنك من الله شيئاً" (1).

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري، أخبرني جدي أبو سهل بن عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز، أخبرنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن

مطرف بن عبد الله بن الشخير، عن عياض بن حمار المجاشعي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، وإنه قال: إن كل مال تخلته عبادي فهو لهم حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فأنتهم الشياطين فأجتالتم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عرتهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وإن الله تعالى أمرني أن أخوف قريشاً، فقلت: يا رب إنهم إذا يتلغوا رأسي حتى يدعوه حبرة، فقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وقد أنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه في المنام واليقظة، فاغزهم نغزك، وأنفق ننفق عليك، وابعث جيساً نمددك بخمسة أمثالهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، ثم قال: أهل الجنة ثلاثة: إمام مقيسط، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قرى ومسلم، ورجل غني متصدق، وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا دين له، الذين هم فيكم تبع لا يتبعون بذلك أهلاً ولا مالا ورجل إن أصبح أصبح يخادعك عن أهلك ومالك، ورجل لا يخفي له طمع - وإن دق - إلا ذهب به، والشنظير الفاحش. قال: وذكر البخل والكذب" (2). قوله عز وجل: { وَأَخْفِضْ جَتَاكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } .

(1) أخرجه البخاري في تفسير سورة "تبت": 8 / 501-502، وفي الوصايا وفي الأنبياء، ومسلم في الإيمان: 1 / 192-193، والمصنف في شرح السنة: 329 / 13.

(2) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ضمن روايته لكتاب "الجامع" للإمام معمر بن راشد: 11 / 120-121، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، برقم (2865): 4 / 2197-2198، والمصنف في شرح السنة: 14 / 407-408.

(6/133)

فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220)

{ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220) }

{ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } من الكفر وعبادة غير الله .
 { وَتَوَكَّلْ } قرأ أهل المدينة، والشام: "فتوكل" بالفاء، وكذلك هو في مصاحفهم وقرأ الباقر بالواو "وتوكل"، { عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ } ليكفيك كيد الأعداء. { الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ } إلى صلاتك، 53/أ عن أكثر المفسرين. وقال مجاهد: الذي يراك أينما كنت. وقيل: حين تقوم لدعائهم. { وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ } أي: يرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك. وقال عكرمة وعطية عن ابن عباس: في الساجدين أي: في المصلين. وقال مقاتل والكلبي: أي مع المصلين في الجماعة، يقول: يراك حين تقوم

وحدك للصلاة ويراك إذا صليت مع المصلين في الجماعة. وقال مجاهد: يرى قلب بصرک في المصلين، فإنه كان يبصر من خلفه كما يبصر من أمامه. أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "هل ترون قبلي هاهنا، فوالله ما يخفي علي خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري" (1) وقال الحسن: "وتقلبك في الساجدين" أي: تصرفك وذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين. وقال سعيد بن جبیر: يعني وتصرفك في أحوالك، كما كانت الأنبياء من قبلك. والساجدون: هم الأنبياء. وقال عطاء عن ابن عباس: أراد تقلبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة (2). { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } .

(1) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب قصر الصلاة في السفر، باب العمل في الصلاة: 1 / 167، والبخاري في الصلاة، باب عظة الإمام في إتمام الصلاة: 1 / 514، ومسلم في الصلاة، باب الأمر بتحسين الصلاة، برقم (424): 1 / 319، والمصنف في شرح السنة: 13 / 289.
(2) ذكر هذه الأقوال: الطبري: 19 / 123-125، السيوطي: 6 / 331-332، ابن الجوزي: 6 / 148-149. ورجح الطبري أن أولى الأقول في تفسير الآية أنه: يرى تقلبك مع الساجدين في صلاتهم معك، حين تقوم معهم وتركع وتسجد، لأن ذلك هو الظاهر من معناه.

(6/134)

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشَّعْرَاءُ يَبِيعُهُمُ الْعَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225)

{ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشَّعْرَاءُ يَبِيعُهُمُ الْعَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) }

{ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ } أخبركم، { عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ } هذا جواب قولهم: تنزل عليه شيطان، ثم بين فقال: { تَنَزَّلُ } أي: تنزل، { عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ } كذاب، { أَثِيمٍ } فاجر، قال قتادة: هم الكهنة، يسترق الجن السمع ثم يلقون إلى أوليائهم من الإنس. وهو قوله عز وجل: { يُلْقُونَ السَّمْعَ } { يُلْقُونَ السَّمْعَ } أي: يستمعون من الملائكة مستقرين، فيلقون إلى الكهنة، { وَأَكْتَرُهمْ كَاذِبُونَ } لأنهم يخلطون به كذبًا كثيرًا. قوله عز وجل: { وَالشَّعْرَاءُ يَبِيعُهُمُ الْعَاوُونَ } قال أهل التفسير: أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر مقاتل أسماءهم، فقال: منهم عبد الله بن الزبيري السهمي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ومشافع بن عبد مناف. وأبو عزة بن عبد الله الجمحي، وأميه بن أبي الصلت الثقفي، تكلموا بالكذب وبالباطل، وقالوا: نحن نقول مثل ما يقول محمد. وقالوا الشعر، واجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم حين يهجون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويروون

عنهم وذلك (1) . قوله: { وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ } هم الرواة الذين يروون هجاء [النبي صلى الله عليه وسلم و (2) المسلمين. وقال قتادة ومجاهد: الغاوون هم الشياطين. وقال الضحاك: تهاجى رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين، ومع كل واحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء فنزلت هذه الآية. وهي رواية عطية عن ابن عباس (3) . { أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ } [من أودية الكلام] (4) { يَهيمُونَ } جائرون وعن طريق الحق حائدون، والهائم: الذاهب على وجهه لا مقصد له.

(1) انظر: زاد المسير: 6 / 150.

(2) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(3) الطبري: 19 / 127، وعزاه السيوطي أيضا لابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.

(4) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(6/135)

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: في كل لغو يخوضون (1) وقال مجاهد: في كل فن يفتنون. وقال قتادة: يمدحون بالباطل ويستمعون ويهجون بالباطل (2) فالوادي مَثَلٌ لفنون الكلام، كما يقال: أنا في وادٍ وأنت في وادٍ. وقيل: "في كل وادٍ يهيمون" أي: على كل حرف من حروف الهجاء يصوغون القوافي.

{ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227) }

{ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ } أي: يكذبون في شعرهم، يقولون: فعلنا وفعلنا، وهم كذبة. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة عن الأعمش، عن ذكوان، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لأن يمتلئ جوفٌ أحدكم قبيحًا، خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً" (3) ثم استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجيئون شعراء جاهلية، ويهجون شعراء الكفار، وينافحون عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه منهم حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، فقال: { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالح، أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأتما ترمونهم به تصح التبل" (4) .

(1) أخرجه البخاري في الأدب، باب ما يجوز من الشعر: 10 / 537 تعليقا
ووصله الطبري: 19 / 128.

(2) الطبري: 19 / 128.

(3) أخرجه البخاري في الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان
الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن: 10 / 548، ومسلم في كتاب
الشعر برقم (2257): 4 / 1769، والمصنف في شرح السنة: 12 / 380.
(4) أخرجه عبد الرزاق في كتاب الجامع: 11 / 263، وصححه ابن حبان ص (494)
من موارد الظمان، والبيهقي في السنن: 10 / 239، والإمام أحمد في
المسند: 3 / 456، 460، 6 / 387. والمصنف في شرح السنة: 12 / 378،
وعزاه ابن حجر في الكافي الشاف ص (123) والمناوي في الفتح السماوي:
2 / 889 لابن سعد في الطبقات، وعزاه في المطالب العالية: 3 / 354، 355
لأبي يعلى. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (1631).

(6/136)

أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد
الخرزاعي، أخبرنا الهيثم بن كليب، أخبرنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا إسحاق بن
منصور، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت، عن أنس أن
النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين
يديه ويقول: حَلُّوا بَيْنِي الكَفَّارِ عن سَبِيلِهِ ... اليومَ نضربُكم على تنزِيلِهِ
ضربًا يُزيل الهَامَ عن مَقِيلِهِ ... وَيُدْهِلُ الخليلَ عن خَلِيلِهِ
فقال له عمر: يا ابنَ رواحةَ بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي
حَرَمِ الله تقول الشعر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "خلَّ عنه يا عمر،
فلهي أسرع فيهم من تَصْحِ التَّبَلِّ" (1) أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد
بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا
حجاج بن منهال، حدثنا شعبة، أخبرني عدي أنه سمع البراء قال: قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم لحسان: "أهجم أو هاجهم وجبريل معك" (2) .
أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا أبو القاسم الخزازي، أخبرنا
الهيثم بن كليب، حدثنا أبو عيسى، حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري وعلي بن
حجر -المعنى واحد- قالا حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة،
عن أبيه، عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم 53/ب يضع
لحسان بن ثابت منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا يفاخر عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أو ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يُؤَيِّدُ حَسَانَ بروح القدس، ما ينافح
أو يفاخر عن رسول الله" (3) . أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد
الغفار بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن
سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا عبد الملك بن شعيب بن الليث،

(1) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر: 8 / 138-140،

وقال: "هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه، وقد روي عبد الرزاق
هذا الحديث أيضا عن معمر عن الزهري في غير هذا الحديث أن النبي صلى

الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء، وكعب بن مالك بين يديه. وهذا أصح عند بعض أهل الحديث؛ لأن عبد الله بن رواحة قتل يوم مؤتة، وإنما كانت عمرة القضاء بعد ذلك"، وأخرجه أيضا في كتابه المفرد الشمائل المحمدية ص (145)، وأخرجه النسائي في المناسك، باب إنشاد الشعر في الحرم.. 2 / 26-25، وأبو نعيم في الحلية: 6 / 292، والمصنف في شرح السنة: 12 / 374، وانظر: فتح الباري: 7 / 502، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (593).

(2) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة: 6 / 304، وفي المغازي: 7 / 416، وفي الأدب: 10 / 546، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل حسان برقم (2486): 4 / 1933، والمصنف في شرح السنة: 12 / 377.

(3) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر: 8 / 137، وقال: "هذا حديث حسن غريب صحيح"، وأخرجه في الشمائل ص (147)، وصححه الحاكم: 3 / 487، والمصنف في شرح السنة: 12 / 377. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: 3 / 177.

(6/137)

حدثني أبي عن جدي، حدثنا خالد بن زيد، حدثني سعيد بن أبي هلال عن عمارة بن غزية، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي عن سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أهجوًا قريشًا فإنه أشدُّ عليهم من ريشق النبل"، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: "أهَّجُهُمْ"، فهجاهم فلم يُرَضْ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلي حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد أن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأقربيتهم بلساني قري الأديم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تَعَجَّلْ، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسائها، وإن لي فيهم نسبا حتى يخلص لك نسبي"، فأتاه حسان ثم رجع، فقال: يا رسول الله قد خلت لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسئلتك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك، ما نافحت عن الله ورسوله"، وقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "هاجهم حسَّانُ فشفى واشتفى"، قال حسان: هَجَّوتُ محمَّدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ

هَجَّوتُ محمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا ... رسولَ الله شيمتهُ الوفاءُ
فإنَّ أبي ووالدتي وعِرضي ... لِعِرضِ محمدٍ منكم وقاءُ
فَمَنْ يهجو رسولَ الله منكم ... وَيَمْدَحُهُ وينصره سواءُ
وجبريلُ رسولُ الله فينا ... وروحُ القدس ليس له كِفاءُ (1)

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، أخبرني أبو بكر بن عبد الرحمن أن مروان بن الحكم أخبره أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أخبره أن أبي بن كعب أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من الشعر لحكمة" (2) قالت عائشة رضي الله تعالى

عنها: الشعر كلام، فمنه حسنٌ، ومنه قبيح، فخذ الحسنَ ودع القبيح (3) وقال الشعبي: كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه يقول الشعر، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول الشعر، وكان علي رضي الله تعالى عنه أشعر الثلاثة (4) .

- (1) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل حسان برقم (2490): 4 / 1938-1935، والمصنف في شرح السنة: 10 / 25.
- (2) أخرجه البخاري في الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز: 10 / 537، والمصنف في شرح السنة: 12 / 369.
- (3) انظر: تفسير القرطبي: 13 / 150.
- (4) انظر المصنف لابن أبي شيبة: 8 / 698.

(6/138)

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشده؛ فروي أنه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومي فاستنشده القصيدة التي قالها فقال: أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائج فمهجر فأنشده ابن أبي ربيعة القصيدة إلى آخرها، وهي قريبة من سبعين بيتًا، ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعها، وكان حفظها بمرّة واحدة. { وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا } أي: لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله، { وَاتَّصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا } قال مقاتل: انتصروا من المشركين، لأنهم بدءوا بالهجاء. ثم أوعد شعراء المشركين فقال: { وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا } أشركوا وهجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم (1) { أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ } أي مرجع يرجعون بعد الموت. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إلى جهنم والسعير. والله أعلم (2) .

- (1) وقيل المراد بهم أهل مكة، وقيل: الذين ظلموا من المشركين، والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم. انظر: تفسير ابن كثير: 3 / 356.
- (2) قطعة من حديث تقدم تخريجه، أخرجه البخاري في النكاح: 9 / 104، ومسلم في النكاح أيضا: 2 / 1020.

(6/139)

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّائِهِمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (5)

سورة النمل مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

{ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّائِهِمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ

فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (5) { طس } قال ابن عباس: هو اسم من أسماء الله تعالى، وقد سبق الكلام في حروف الهجاء (1). { تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ } أي: هذه آيات القرآن، { وَكِتَابٌ مُبِينٌ } أي: وآيات كتاب مبين. { هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } يعني: هو هدى من الضلالة، وبشرى للمؤمنين المصدقين به بالجنة. { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } (2). { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ } القبيحة حتى رأوها حسنة، { فَهُمْ يَعْمَهُونَ } أي: يترددون فيها متحيرين. { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ } شدة العذاب في الدنيا بالقتل والأسر ببدن، { وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ } لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا إلى النار.

(1) انظر الدر المنثور: 1 / 58-59، والطبري: 1 / 205-224 بتحقيق محمود شاكر، ابن كثير: 1 / 36-39.
(2) انظر الدر المنثور: 1 / 62-63.

(6/140)

وَإِنَّكَ لَلْقَلْبَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِيبِكُمْ مِنْهَا يَحَبِّرُ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)

{ وَإِنَّكَ لَلْقَلْبَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِيبِكُمْ مِنْهَا يَحَبِّرُ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) }
{ وَإِنَّكَ لَلْقَلْبَى الْقُرْآنَ } أي: تؤتى القرآن وتلقن (1) { مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } أي: وحيا من عند الله الحكيم العليم. قوله عز وجل: { إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ } أي: واذكر يا محمد (2) إذ قال موسى لأهله في مسيره من مدين إلى مصر: { إِنِّي آنَسْتُ نَارًا } [أي: أبصرت نارا] (3). { سَاءَتِيبِكُمْ مِنْهَا يَحَبِّرُ } أي: امكثوا مكانكم، سأتيبكم بخبر عن الطريق، وكان قد ترك الطريق، { أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ } قرأ أهل الكوفة: "بشهاب" بالتنوين، جعلوا القبس نعنا للشهاب، وقرأ الآخرون بلا تنوين على الإضافة، وهو إضافة الشيء إلى نفسه، لأن الشهاب والقبس متقاربان في المعنى، وهو العود الذي في أحد طرفيه نار، وليس في الطرف الآخر نار. وقال بعضهم: الشهاب هو شيء ذو نور، مثل العمود، والعرب تسمي كل أبيض ذي نور شهابا، والقبس: القطعة من النار، { لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } تستدفئون من البرد، وكان ذلك في شدة الشتاء. { فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا } أي: بورك على من في النار أو من في النار، والعرب تقول: باركه الله وبارك فيه، وبارك عليه، بمعنى واحد. وقال قوم: البركة راجعة إلى موسى والملائكة، معناه: بورك في من طلب النار، وهو موسى عليه السلام، { وَمَنْ حَوْلَهَا } وهم الملائكة 54/أ الذين حول النار، ومعناه: بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين حول النار، وهذا تحية من عند الله عز وجل لموسى بالبركة، كما حيا إبراهيم على السنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت. ومذهب أكثر المفسرين أن

المراد بالنار النور، ذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه نارا، و"من في النار" هم الملائكة، وذلك أن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتقديس والتسبيح،

(1) ساقط من "ب".

(2) ساقط من "أ".

(3) ساقط من "أ".

(6/144)

يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

و"من حولها" هو موسى لأنه كان بالقرب منها، ولم يكن فيها. وقيل: "من في النار ومن حولها" جميعًا الملائكة. وقيل: "من في النار" موسى و"من حولها" الملائكة، وموسى وإن لم يكن في النار كان قريبًا منها، كما يقال: بلغ فلان المنزل، إذا قرب منه، وإن لم يبلغه بعد. وذهب بعضهم إلى أن البركة راجعة إلى النار. وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: معناه بوركنت النار. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: سمعت أبيًا يقرأ: أن بوركنت النار ومن حولها، و"من" قد تأتي بمعنى ما، كقوله تعالى: "فمنهم من يمشي على بطنه" (النور-45)، و"ما" قد يكون صلة في الكلام، كقوله "جند ما هنالك" (ص-11)، ومعناه: بورك في النار وفيمن حولها، وهم الملائكة وموسى عليهم السلام، وسمي النار مباركة كما سمي البقعة مباركة فقال: "في البقعة المباركة".

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن في قوله: { بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ } يعني قدس من في النار، وهو الله، عنى به نفسه، على معنى أنه نادى موسى منها وأسمعه كلامه من جهتها (1) كما روي: أنه مكتوب في التوراة: "جاء الله من سيناء، وأشرف من ساعين، واستعلى من جبال فاران" (2) فمجيئه من سيناء: بعثة موسى منها، ومن ساعين بعثة المسيح منها، ومن جبال فاران بعثة المصطفى منها، وفاران مكة (3). قيل: كان ذلك نوره عز وجل. قال سعيد بن جبير: كانت النار بعينها، والنار إحدى حجب الله تعالى، كما جاء في الحديث: "حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (4) ثم نزه الله نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب، فقال جل ذكره. { وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }
{ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) }
ثم تعرف إلى موسى بصفاته، فقال: { يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
والهاء في قوله { إِنَّهُ } عماد، وليس بكناية، وقيل: هي

(1) ذكر هذه الأقوال الطبري: 19 / 133-135، وأبو جعفر النحاس في معاني القرآن: 5 / 116، والسيوطي في الدر المنثور: 6 / 341، والقرطبي: 13 / 158-159.

(2) النص في العهد العتيق، سفر التثنية ص (355) طبع الكاثوليكية. ولفظ "ساعير" بدلا من "ساعين" فيه، وفي النصوص التي نقلت عنه.

(3) انظر بالتفصيل هذه البشارة ومدلولها ومطابقتها لما جاء في القرآن الكريم: الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى، تأليف عثمان جمعة ص (81-83) والمراجع المشار إليها.
(4) قطعة من حديث أبي موسى أخرجه مسلم في الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام، برقم (179) 1 / 161، والمصنف في شرح السنة: 1 / 173.

(6/145)

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِيَّايَ لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11)

كناية عن الأمر والشأن، أي: الأمر والشأن، أي: المعبود أنا (1) { وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِيَّايَ لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) }

ثم يرى موسى آية على قدرته، فقال: { وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ } تتحرك، { كَأَنَّهَا جَانٌّ } وهي الحية الصغيرة التي يكثر اضطرابها، { وَلَّى مُدْبِرًا } هرب من الخوف، { وَلَمْ يُعَقِّبْ } لم يرجع، يقال: عقب فلان إذا رجع، وكل راجع معقب. وقال قتادة: ولم يلتفت، فقال الله عز وجل: { يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِيَّايَ لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ } يريد إذا آمنتم لا يخافون، أما الخوف الذي هو شرط الإيمان فلا يفارقهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أخشاكم لله" (2). وقوله: { إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } واختلف في هذا الاستثناء، قيل: هذا إشارة إلى أن موسى حين قتل القبطي خاف من ذلك، ثم تاب فقال: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، فغفر له. قال ابن جريج: قال الله تعالى لموسى: إنما أخفك لقتلك النفس. وقال: معنى الآية: لا يخيف الله الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يتوب، فعلى هذا التأويل يكون الاستثناء صحيحًا وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله: { إِلَّا مَنْ ظَلَمَ } ثم ابتداء الخبر عن حال من ظلم من الناس كافة. وفي الآية متروك استغني عن ذكره بدلالة الكلام عليه، تقديره: فمن ظلم ثم بدّل حسناً بعد سوء فإنني غفور رحيم (3).

وقال بعض العلماء: ليس هذا باستثناء من المرسلين لأنه لا يجوز عليهم الظلم، بل هو استثناء من المتروك في الكلام، معناه: لا يخاف لدي المرسلون، إنما الخوف على غيرهم من الظالمين، إلا من ظلم ثم تاب، وهذا من الاستثناء المنقطع، معناه (4) لكن من ظلم من سائر الناس فإنه يخاف، فإن تاب وبدّل حسناً بعد سوء فإن الله غفور رحيم، يعني يغفر الله له ويزيل الخوف عنه (5).

(1) راجع: التبيان للعكبري: 2 / 1005، زاد المسير: 7 / 156.

(2) قطعة من حديث رواه البخاري في النكاح، باب الترغيب في النكاح 9 / 104، ومسلم في الصيام، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة برقم)

1108) 2 / 779 بلفظ "أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له".
(3) هذا القول هو الذي رجحه الطبري: 137 / 19.
(4) ساقط من "أ".

(5) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله معتمداً هذا القول (3 / 358): "هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيئ ثم أفلح عنه ورجع وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال: (وإني لغفار لمن تاب وأمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)، وقال تعالى: (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه.. الآية). والآيات في هذا كثيرة جداً". وكذلك رجحه أبو حيان في البحر المحيط.

(6/146)

وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ
وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ (13)

وقال بعض النحويين: "إلا" هاهنا بمعنى: "ولا" (1) يعني: لا يخاف لدي المرسلون ولا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء، يقول: لا يخاف لدي المرسلون ولا المذنبون التائبون، كقوله تعالى: "لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم" (البقرة-150)، يعني: ولا الذين ظلموا (2)
{ وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ
وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ (13) }

(1) في الطبري والنحاس وغيرهما: (بمعنى الواو).
(2) وهذا القول حكاه الفراء عن بعض النحويين ولم يرضه، وقال النحاس: "وذا ليس بجيد في العربية"، وقال أبو حيان: "وهذا ليس بشيء؛ لأن معنى "إلا" مباين لمعنى "الواو" مباينة كثيرة، إذ الواو للإدخال و"إلا" للإخراج، فلا يمكن وقوع أحدهما موضع الآخر". انظر: معاني القرآن للنحاس: 5 / 117، البحر المحيط: 7 / 57، زاد المسير: 6 / 157.

(6/147)

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)
وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ
عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15)

{ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ (14) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا
عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) }

ثم أراه الله آية أخرى فقال: { وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ } والجيب حيث جيب من

القميص، أي: قطع، قال أهل التفسير: كانت عليه مدرعة من صوف لا كم لها ولا أزرار، فأدخل يده في جيبه وأخرجها، فإذا هي تبرق مثل البرق، فذلك قوله: { تَخْرُجُ بَيِّضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } من غير برص، { فِي تِسْعِ آيَاتٍ } يقول هذه آية مع تسع آيات أنت مرسل بهن، { إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا قَاسِقِينَ } { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً } بينة واضحة يبصر بها، { قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } ظاهر. { وَجَحَدُوا بِهَا } أي: أنكروا الآيات ولم يقروا أنها من عند الله، { وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ } أي: علموا أنها من عند الله، قوله: { ظَلَمًا وَعُلُوًّا } أي: شركًا وتكبرًا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى، { فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } قوله عز وجل: { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا } أي: علم القضاء ومنطق الطير والدواب وتسخير الشياطين وتسيح الجبال، { وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا } بالنبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والإنس { عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ }

(6/147)

وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)

{ وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) }

{ وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ } 54/ب نبوته وعلمه ومملكه دون سائر أولاده (1) وكان لداود تسعة عشر ابنًا، وأعطى سليمان ما أعطى داود من الملك، وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين. قال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكًا من داود وأقضى منه، وكان داود أشدَّ تعبدًا من سليمان، وكان سليمان شاكراً لنعم الله تعالى

{ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ } سَمَّى صوت الطير منطِقًا لحصول الفهم منه، كما يفهم من كلام الناس. روي عن كعب قال (2) صاح وَرَّشَان عند سليمان عليه السلام، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا قال: إنه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب، وصاحت فاخثة، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا قال: إنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاووس، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا قال: فإنه يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد، فقال: أتدرون ما يقول هذا؟ قالوا: لا قال: فإنه يقول: من لا يرحم لا يرحم، وصاح صرد، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا قال: فإنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين، قال: وصاحت طوطى، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا قال: فإنها تقول: كل حي ميت وكل حديد بال، وصاح خطاف، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا قال: فإنه يقول: قدموا خيرًا تجدوه، وهدرت حمامة، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا قال: فإنها تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قمري، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا قال: فإنه يقول: سبحان ربي الأعلى، قال: والغراب يدعو على العشار، والجذاة تقول: كل شيء هالك إلا الله، والقطة تقول: من سكت سلم، والبيغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه، والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس، والبازي يقول: سبحان ربي وبحمده، والضفدعة تقول: سبحان المذكور بكل لسان. وعن مكحول قال: صاح دراج عند سليمان، فقال: هل

تدرون ما يقول؟ قالوا: لا قال: فإنه يقول: الرحمن على العرش استوى.

(1) وليس المراد وراثته المال، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود.. والأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقه". انظر: تفسير ابن كثير: 3 / 359.

(2) هذه الروايات عن كعب وغيره وهذه التفصيلات في كلام الطير مما ذكره المصنف رحمه الله، متلقاة من أهل الكتاب كرواية كعب هذه، ولا يتوقف فهم الآية عليها، وليس فيها نص صحيح مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والبحث في هذا مما لا طائل تحته. والله أعلم.

(6/148)

وَخَشِيرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهَمْ يُورَعُونَ (17)

وعن فرقد السبخي قال مر سليمان على بلبل فوق شجر يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ فقالوا الله ونبيه أعلم، قال يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء. وروي أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس: إنا سائلوك عن سبعة أشياء فإن أخبرتنا أمنا وصدقنا، قال: سلوا تفقهًا ولا تسألوا تعنتًا، قالوا: أخبرنا ما يقول القنبر في صفيته، والديك في صقيعه، والضفدع في نقيقه، والحمار في نهيقه، والفرس في صهيله، وماذا يقول الزرزور والدراج؟ قال: نعم، أما القنبر فيقول: اللهم العن مبغضي محمد وآل محمد، وأما الديك فيقول: اذكروا الله يا غافلين، وأما الضفدع فيقول: سبحان المعبود في لجج البحار، وأما الحمار فيقول: اللهم العن العشار، وأما الفرس فيقول: إذا التقى الصفان سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وأما الزرزور فيقول: اللهم إني أسألك قوت يوم بيوم يا رازق، وأما الدراج فيقول: الرحمن على العرش استوى، قال: فأسلم اليهود وحسن إسلامهم.

وروي عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن علي قال: إذا صاح النسور قال: يا ابن آدم، عش ما شئت آخره الموت، وإذا صاح العقاب قال: في البعد من الناس أنس، وإذا صاح القنبر قال: إلهي العن مبغضي آل محمد، وإذا صاح الخطاف، قرأ: الحمد لله رب العالمين، ويمد الصالين كما يمد القارئ. قوله تعالى: { وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } يؤتى الأنبياء والملوك، قال ابن عباس: من أمر الدنيا والآخرة. وقال مقاتل: يعني النبوة والملك وتسخير الجن والشياطين والرياح، { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } الزيادة الظاهرة على ما أعطى غيرنا. وروي أن سليمان عليه السلام أعطي مشارق الأرض ومغاربها، فملك سبعمئة سنة وستة أشهر، ملك جميع أهل الدنيا من الجن والإنس والدواب والطيور والسباع (1) وأعطى على ذلك منطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع العجيبة (2).

{ وَخَشِيرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهَمْ يُورَعُونَ (17) } قوله عز وجل: { وَخَشِيرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ } في مسيره له، { فَهَمْ يُورَعُونَ } فهم يكفون. قال قتادة: كان على كل صف من جنوده وزعة ترد [أولها على آخرها] (3) لئلا يتقدموا في المسير، والوازع

الحابس، وهو النقيب. وقال مقاتل: يوزعون يساقون،

(1) في هامش نسخة "أ": قوله: ملك جميع أهل الدنيا.. فيه نظر، لأنه عليه السلام ما علم بلقيس ولا ملكها إلا من الهدهد بعدما أخبره به، إلا أن نقول: ملك بعد ذلك الزمان والله أعلم.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک: 2 / 588، عن جعفر بن محمد، وقال الذهبي: هذا باطل.

(3) في "ب": أولها على آخرها.

(6/149)

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتُمْ لَهُمْ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطِمْكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18)

وقال السدي: يوقفون. وقيل: يجمعون. وأصل الوزع الكف والمنع. قال محمد بن كعب القرظي: كان معسكر سليمان مائة فرسخ، خمسة وعشرون منها للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلثمائة صريخة (1) وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه، ويأمر الرخاء فتسير به، وأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إني قد زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت به الريح، فأخبرتك (2).

{ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتُمْ لَهُمْ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطِمْكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) }

قوله عز وجل: { حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ } روي عن وهب بن منبه عن كعب قال: كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه، وقد اتخذ مطابخ ومخابز (3) يحمل فيها تنابير الحديد وقدور عظام، يسع كل قدر عشر جزائر وقد اتخذ ميادين للدواب أمامه، فيطبخ الطباخون، ويخبز الخبازون، وتجري الدواب بين يديه بين السماء والأرض، والريح تهوي بهم، فسار من اصطخر إلى اليمن فسلك مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سليمان: هذه دار هجرة نبي في آخر الزمان، طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه، ورأى حول البيت أصنامًا تعبد من دون الله فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت، 55/أ فأوحى الله إلى البيت ما يبكيك؟ فقال: يا رب أبكاني أن هذا نبي من أنبيائك وقوم من أوليائك مروا علي فلم يهبطوا ولم يصلوا عندي، والأصنام تُعبد حولي من دونك فأوحى الله إليه أن لا تبك، فإني سوف أملؤك وجوهًا سُجَّدًا، وأنزل فيك قرآنًا جديدًا وأبعث منك نبيًا في آخر الزمان أحب أنبيائي إلي، وأجعل فيك عمارة من خلقي يعبدونني، وأفرض على عبادي فريضة يذفون إليك ذفيف النسور إلى وكرها، ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضتها، وأطهرك من الأوثان وعبدة الشياطين (4) ثم مضى سليمان حتى مر بوادي السدير واد من الطائف، فأتى على وادي النمل، هكذا قال كعب: إنه واد بالطائف. وقال قتادة ومقاتل: هو أرض بالشام. وقيل: واد كان يسكنه الجن، وأولئك النمل مراكبهم (5)

- (1) بمعنى منكوحة.
(2) أخرجه الحاكم في المستدرک عن محمد بن كعب قال: بلغنا أن سليمان..
589 / 2 وهو ضعيف.
(3) ساقط من "أ".
(4) هذه الرواية وأمثالها من الإسرائيليات التي كان يحدث بها وهب وكعب،
وليس في ذلك نص صحيح تقوم به الحجة.
(5) قال الحافظ ابن كثير: (3 / 360): "ومن قال من المفسرين إن هذا
الوادي كان بأرض الشام أو غيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب،
أو غير ذلك من الأقاويل فلا حاصل لها".

(6/150)

فَتَبَسَّمَ صَاحِجًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ
وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)

وقال نوف الحميري: كان نمل ذلك الوادي أمثال الذباب (1) . وقيل:
كالبخاتي. والمشهور: أنه النمل الصغير. وقال الشعبي: كانت تلك النملة ذات
جناحين. وقيل: كانت نملة عرجاء فنادت: { قَالَتْ تَمَلُّ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا
مَسَاكِنَكُمْ } ولم تقل: ادخلن، لأنه لما جعل لهم قولاً كالآدميين خوطبوا بخطاب
الآدميين، { لَا يَخْطِئَنَّكُمْ } لا يكسرنكم، { سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ } والحطم الكسر،
{ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } فسمع سليمان قولها، وكان لا يتكلم خلق إلا حملت الريح
ذلك فألقته في مسامع سليمان. قال مقاتل: سمع سليمان كلامها من ثلاثة
أميال. قال الضحاك: كان اسم تلك النملة طاحية، قال مقاتل: كان اسمها
جرمى (2) . فإن قيل: كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح
تحمل سليمان وجنوده علي بساط بين السماء والأرض؟ قيل: كان جنوده
ركباً وفيهم مشاة على الأرض تطوى لهم. وقيل: يحتمل أن يكون هذا قبل
تسخير الله الريح لسليمان. قال أهل التفسير: علم النمل أن سليمان نبي
ليس فيه جبرية ولا ظلم. ومعنى الآية: أنكم لو لم تدخلوا مساكنكم وطؤوكم
ولم يشعروا بكم. ويروى أن سليمان لما بلغ وادي النمل حبس جنوده حتى
دخل النمل بيوتهم.

{ فَتَبَسَّمَ صَاحِجًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ (19) }

قوله عز وجل: { فَتَبَسَّمَ صَاحِجًا مِّنْ قَوْلِهَا } قال الزجاج: أكثر ضحك الأنبياء
التبسم. وقوله { صَاحِجًا } أي: متبسماً. قيل: كان أوله التبسم وآخره
الضحك. أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا
محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن سليمان، حدثني
ابن وهب، أخبرنا عمرو، هو ابن الحارث، أخبرنا النضر،

(1) قال ابن كثير في الموضع نفسه: "هكذا رأيت مضبوطاً بالياء المثناة من
تحت، وإنما هو بالياء الموحدة، وذلك تصحيف، والله أعلم. والغرض: أن

سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكا من ذلك، وهذا أمر عظيم جدا. (2) لا طائل من البحث في صفات هذه النملة واسمها، ولا خير في ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم يصار إليه، وحسبنا ما أخبرنا الله تعالى به من كلام النملة وفهم سليمان له وما في ذلك من دلالة. والله أعلم. وانظر: البداية والنهاية لابن كثير: 2 / 19.

(6/151)

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20)

حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهوآته، إنما كان يتبسم (1). أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا أبو القاسم الخزازي، أخبرنا الهيثم بن كليب، حدثنا أبو عيسى، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن المغيرة عن عبد الله بن الحارث بن جَزء قال: ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم (2).

قال مقاتل: كان ضحك سليمان من قول النملة تعجبا، لأن الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به تعجب وضحك، ثم حمد سليمان ربه على ما أنعم عليه. { وَقَالَ رَبِّ أَوْرِعْنِي { أَلْهَمْنِي، { أَنْ أَشْكُرَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ { أي: أدخلني في جملتهم، وأثبت اسمي مع أسمائهم واحشرنني في زميرتهم، قال ابن عباس: يريد مع إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومن بعدهم من النبيين.

وقيل: أدخلني الجنة برحمتك من عبادك الصالحين. { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) } قوله عز وجل: { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ { أي: طلبها وبحث عنها، والتفقد: طلب ما فُقد، ومعنى الآية: طلب ما فقد من الطير، { فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ { أي: ما للهدهد لا أراه؟. تقول العرب: ما لي أراك كئيبا؟ أي: مالك؟ والهدهد: طائر معروف. وكان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه، قيل: إخلاله بالنوبة، وذلك أن سليمان كان إذا نزل منزلا يظله وجنده الطير من الشمس، فأصابته الشمس من موضع الهدهد، فنظر فراه خاليا.

وروي عن ابن عباس: أن الهدهد كان دليل سليمان على الماء وكان يعرف موضع الماء ويرى الماء تحت الأرض، كما يرى في الزجاج، ويعرف قربه وبعده فينقر الأرض، ثم تجيء الشياطين فيسلخونه ويستخرجون الماء. قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن الأزرق: يا وصال انظر ما تقول، إن الصبي منا يضع الفخ ويحثو عليه التراب، فيجيء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه،

- (1) أخرجه البخاري في التفسير، باب: "فلما رواه عارضا مستقبلا أوديتهم": 8 / 578، ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح، برقم (899): 2 / 617-616، وذكره المصنف في مصابيح السنة: 1 / 1073.
- (2) أخرجه الترمذي في المناقب، باب في بشاشة النبي صلى الله عليه وسلم: 10 / 124، وقال: "هذا حديث غريب". وقد روي عن يزيد ابن أبي

حبيب عن عبد الله بن الحارث بن جزء مثل هذا". واخرجه الإمام أحمد في المسند: 4 / 190، وذكره المصنف في مصابيح السنة برقم (3686).

(6/152)

لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21)

فقال له ابن عباس: ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر. وفي رواية: إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمي البصر (1). فنزل سليمان منزلا فاحتاج إلى الماء فطلبوا فلم يجدوا، فتفقد الهدد ليدل على الماء، فقال: ما لي لا أرى الهدد، على تقرير أنه مع جنوده، وهو لا يراه، ثم أدركه الشك في غيبته، فقال: { أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ } يعني أكان من الغائبين؟ والميم صلة، وقيل: "أم" بمعنى "بل"، ثم أوعده على غيبته، فقال: { لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا } { لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21) } { لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا } واختلفوا في العذاب الذي أوعده به، فأظهر الأقاويل أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطا، لا يمتنع من النمل ولا من هوام الأرض (2). وقال مقاتل وابن حيان: لأطليته بالقطران ولأشمسته. وقيل: لأودعته القفص. وقيل: لأفرق بينه وبين إلهه. وقيل: لأحبسه مع ضده. { أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ } لأقطعن حلقه، { أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } بحجة بينة في غيبته، وعذر ظاهر، قرأ ابن كثير: " ليأتييني " بنونين، الأولى 55/ب مشددة، وقرأ الآخرون بنون واحدة مشددة. وكان سبب غيبة الهدد على ما ذكره العلماء (3) أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم، فتجهز للمسير، واستصحب من الجن والإنس والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ معسكره مائة فرسخ، فحملهم الريح، فلما وافي الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم، وكان ينحر كل يوم بمقامه بمكة خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة (4) وقال لمن حضره من أشراف قومه: إن هذا مكان يخرج منه نبي عربي صفته كذا وكذا، يعطي النصر على جميع من ناواه، وتبلغ هيئته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده في الحق سواء، لا تأخذه في الله لومة لائم. قالوا فبأي دين يدين يا نبي الله؟ قال: يدين بدين الحنيفية، فطوبى لمن أدركه وأمن به، فقالوا: كم بيننا وبين خروجه يا نبي الله؟ قال مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل، قال: فأقام بمكة حتى قضى نسكه، ثم خرج من مكة صباحًا، وسار نحو اليمن فوافي صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضًا حسناء تزهو خضرتها فأحب

- (1) أخرجه الحاكم: 2 / 405-406 وصححه على شرط الشيخين، والطبري: 19 / 144، وعزاه السيوطي لابن أبي شيبه، وعبد ابن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وانظر: الدر المنثور: 6 / 348.
- (2) اعتمد الطبري هذا القول ولم يذكر غيره: 19 / 146، وانظر: الدر المنثور: 6 / 349-350، تفسير ابن كثير: 3 / 361.
- (3) ما ذكره المصنف عن العلماء ظاهر أنه من الأخبار التي لا سند لها وهي

بهذه التفصيلات غريبة.
(4) في "ب": كبش.

(6/153)

فَمَكَتَ عَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يَمِينًا (22)

النزول بها ليصلي ويتغدى، فلما نزل قال الهدهد: إن سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء فانظر إلى طول الدنيا وعرضها، ففعل ذلك، فنظر يمينًا وشمالًا فرأى بستانًا بلقيس، فمال إلى الخصرة فوقع فيه فإذا هو بهدهد فهبط عليه، وكان اسم هدهد سليمان "يعفور" واسم هدهد اليمن "عنفير"، فقال عنفير اليمن ليعفور سليمان: من أين أقبلت وأين تريد؟ قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود. فقال: ومن سليمان؟ قال ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والرياح، فمن أين أنت؟ قال: أنا من هذه البلاد، قال: ومن ملكها؟ قال: امرأة يقال لها بلقيس، وإن لصاحبكم ملكًا عظيمًا ولكن ليس ملك بلقيس دونه، فإنها ملكة اليمن كلها، وتحت يدها اثنا عشر ألف (1) قائد، تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل، فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها؟ قال: أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء، قال الهدهد اليماني: إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة، فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها، وما رجع إلى سليمان إلا في وقت العصر. قال: فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت الصلاة وكان نزل على غير ماء، فسأل الإنس والجن والشياطين عن الماء فلم يعلموا، فتفقد الطير، ففقد الهدهد، فدعا عريف الطير -وهو النسر- فسأله عن الهدهد، فقال: أصلح الله الملك، ما أدري أين هو، وما أرسلته مكاتًا، فغضب عند ذلك سليمان، وقال: { لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا } الآية. ثم دعا العقاب سيد الطير فقال: علي بالهدهد الساعة، فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التزق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصة بين يدي أحدكم ثم التفت يمينًا وشمالًا فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن، فانقض العقاب نحوه يريده، فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء فناشده، فقال: بحق الله الذي قواك وأقدرك علي إلا رحمتي ولم تتعرض لي بسوء، قال: فولى عنه العقاب، وقال له: ويلك ثكلتك أمك، إن نبي الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك، ثم طارا متوجهين نحو سليمان، فلما انتهيا إلى المعسكر تلقاه النسر والطير، فقالوا له: ويلك أين غبت في يومك هذا؟ ولقد توعدك نبي الله، وأخبراه بما قال، فقال الهدهد: أوما استثنى رسول الله؟ قالوا: بلى، قال: "أو ليأتيني بسلطان مبين"، قال: فنجوت إدا، ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعدًا على كرسيه، فقال العقاب قد أتيتك به يا نبي الله، فلما قرب الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه بجرهما على الأرض تواضعًا لسليمان، فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه وقال: أين كنت؟ لأعذبك عذابًا شديدًا، فقال الهدهد: يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه، ثم سأله فقال: ما الذي أبطأ بك عني؟ فقال الهدهد ما أخبر الله عنه في قوله: { فَمَكَتَ عَيْرَ بَعِيدٍ } { فَمَكَتَ عَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يَمِينًا } (22)

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23)

{ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) }
{ فَمَكَتْ عَيْرَ بَعِيدٍ } قرأ عاصم ويعقوب: { فَمَكَتْ } بفتح الكاف، وقرأ
الآخرون بضمها وهما لغتان، { عَيْرَ بَعِيدٍ } أي: غير طويل، { فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا
لَمْ نَحِطُ بِهِ } والإحاطة: العلم بالشيء من جميع جهاته، يقول: علمت ما لم
تعلم، وبلغت ما لم تبلغه أنت ولا جنودك، { وَحِثُّكَ مِنْ سَبَا } قرأ أبو عمرو،
والبزي عن ابن كثير من "سبا" [و"لسبا" في سورة سبأ، مَفْتُوحَة الهمزة، وقرأ
القواص عن ابن كثير] (1) ساكنة بلا همزة، وقرأ الآخرون بالإجراء، فمن لم
يجره جعله اسم البلد، ومن أجره جعله اسم رجل، فقد جاء في الحديث أن
النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن سبأ فقال: "كان رجلا له عشرة من
البنين تَيَّامَنَ منهم ستة وتشاءم أربعة" (2). { بَنِيَّ } بخبر، { يَقِينِ } فقال
سليمان: وما ذاك؟ قال: { إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ } { إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً
تَمْلِكُهُمْ } وكان اسمها بلقيس بنت شراحيل، من نسل يعرب بن قحطان،
وكان أبوها ملكاً عظيماً الشأن، قد ولد له أربعون ملكاً هو آخرهم، وكان يملك
أرض اليمن كلها، وكان يقول لملوك الأطراف: ليس أحد منكم كفوًّا لي، وأبى
أن يتزوج فيهم، فزوجوه امرأة من الجن يقال لها ریحانة بنت السكن، فولدت
له بلقيس، [ولم يكن له ولد غيرها، وجاء في الحديث: إن إحدى أبوي بلقيس
كان جنياً (3). فلما مات أبو بلقيس] (4) طمعت في الملك فطلبت من قومها
أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها قوم آخرون، فملكوا عليهم رجلا وافترقوا
فرقتين، كل فرقة استولت على طرف من أرض اليمن، ثم إن الرجل الذي
ملكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته ويفجر
بهن، فأراد قومه خلعه فلم يقدرُوا عليه، فلما رأت ذلك بلقيس

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(2) أخرجه الترمذي في تفسير سورة سبأ: 9 / 88-89، وقال: هذا حديث
غريب حسن، واختصره أبو داود في الحروف والقراءات: 6 / 8، عن فروة بن
مسيك، وأخرجه الطبري في التفسير: 22 / 76-77، والإمام أحمد في
المسند: 1 / 317، وأخرجه أيضا ابن أبي حاتم والحاكم وصححه من حديث ابن
عباس، وله روايات في بعضها ضعف ينجر بتعدد الطرق. انظر: فتح الباري:
8 / 535، مجمع الزوائد: 7 / 94، تفسير ابن كثير: 3 / 531-532، والإصابة
في تمييز الصحابة لابن حجر، ترجمة "فروة بن مسيك": 5 / 369 حيث أشار
إلى الحديث وقال: "أخرجه ابن سعد، وأبو داود والترمذي، وابن السكن مطولا
ومختصرا"، زاد المسير: 6 / 165 مع حاشية المحقق.

(3) أخرجه ابن جرير، وأبو الشيخ في "العظمة"، وابن مردويه، وابن عساكر،
عن أبي هريرة مرفوعا. قال ابن كثير: "هذا حديث غريب وفي سنده ضعف"،

انظر: الدر المنثور: 6 / 351، البداية والنهاية لابن كثير: 2 / 21.
(4) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(6/155)

وَجَدُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّهِمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) قَالَ سَتَنْظُرُونَ أَصَدَقْتُمْ مَمْ كُنْتُمْ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27)

أدركتها الغيرة فأرسلت إليه 56/أ تعرض نفسها عليه، فأجابها الملك، وقال: ما
منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك، فقالت لا أرغب عنك، كفؤ كريم،
فاجمع رجال قومي واخطبني إليهم، فجمعهم وخطبها إليهم، فقالوا: لا نراها
تفعل هذا، فقال لهم: إنها ابتدأتني فأنا أحب أن تسمعوا قولها فجاؤوها، فذكروا
لها، فقالت: نعم أحببت الولد. فزوجوها منه، فلما زفت إليه خرجت في أناس
كثير من حشمها، فلما جاءت سقته الخمر حتى سكر، ثم جرت رأسه وانصرفت
من الليل إلى منزلها، فلما أصبح الناس رأوا الملك قتيلاً ورأسه منصوب على
باب دارها، فعلموا أن تلك المناكحة كانت مكرًا وخديعة منها، فاجتمعوا إليها
وقالوا: أنت بهذا الملك أحق من غيرك، فملكوها (1).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن
يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عثمان بن الهيثم، أخبرنا عوف، عن
الحسن، عن أبي بكره رضي الله عنه قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه
وسلم أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم
امرأة" (2). قوله تعالى: { وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } يحتاج إليه الملوك من
الآلة والعدة، { وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } سرير ضخم كان مضروبًا من الذهب مكللا
بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وقوائمه من الياقوت والزمرد، وعليه
سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق. قال ابن عباس: كان عرش بلقيس ثلاثين
ذراعًا في ثلاثين ذراعًا؛ وطوله في السماء ثلاثون ذراعًا. وقال مقاتل: كان
طوله ثمانين ذراعًا وطوله في السماء (3) ثمانين ذراعًا. وقيل: كان طوله
ثمانين ذراعًا وعرضه أربعين ذراعًا وارتفاعه ثلاثين ذراعًا.

{ وَجَدُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّهِمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ 24 أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) قَالَ سَتَنْظُرُونَ أَصَدَقْتُمْ مَمْ كُنْتُمْ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) }

(1) أشار الحافظ ابن كثير إلى هذه القصة وعزاها للثعلبي وغيره. انظر:
البداية والنهاية: 2 / 21.

(2) أخرجه البخاري في المغازي، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى
كسرى وقيصر: 8 / 126، والمصنف في شرح السنة: 10 / 76. وقال:
"اتفقوا على أن المرأة لا تصلح أن تكون إمام ولا قاضيا، لأن الإمام يحتاج إلى
الخروج لإقامة أمر الجهاد، والقيام بأمور المسلمين، والقاضي يحتاج إلى
البروز لفصل الخصومات، والمرأة عورة لا تصلح للبروز، وتعجز لضعفها عن

القيام بأكثر الأمور، ولأن المرأة ناقصة، والإمامة والقضاء من كمال الولايات، فلا يصلح لها إلا الكامل من الرجال..".
(3) في "ب": الهواء.

(6/156)

{ أَلَا يَسْجُدُوا } قرأ أبو جعفر والكسائي: "ألا يسجدوا" بالتخفيف، وإذا وقفوا يقفون "ألا يا": ألا يا ثم يتدئون: "اسجدوا"، على معنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا، وجعلوه أمراً من عند الله مستأنفاً، وحذفوا هؤلاء اكتفاءً بدلالة "يا" عليها، وذكر بعضهم سماعاً من العرب: ألا يا ارحمونا، يريدون ألا يا قوم، وقال الأخطل: ألا يا اسلمي يا هندُ هندُ بني بكر... وإن كانَ حَيَاتًا عِدًّا آخِرَ الدَّهْرِ (1) يريد: ألا يا اسلمي يا هند، وعلى هذا يكون قوله "ألا" كلاماً معترضاً من غير القصة، إما من الهدهد، وإما من سليمان. قال أبو عبيدة: هذا أمر من الله مستأنف يعني: يا أيها الناس اسجدوا. وقرأ الآخرون: "ألا يسجدوا" بالتحديد، بمعنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا، { لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ } أي: الخفي المخبأ، { فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ } أي: ما خبأت. قال أكثر المفسرين: خبء السماء: المطر، وخبء الأرض: النبات. وفي قراءة عبد الله: "يخرج الخبء من السموات والأرض"، و"من" و"في" يتعاقبان، تقول العرب: لأستخرجن العلم فيكم، يريد: منكم. وقيل: معنى "الخبء" الغيب، يريد: يعلم غيب السموات والأرض. { وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } قرأ الكسائي، وحفص، عن عاصم: بالتاء فيهما، لأن أول الآية خطاب على قراءة الكسائي بتخفيف ألا وقرأ الآخرون بالياء. { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } أي: هو المستحق للعبادة والسجود لا غيره. وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيمًا فهو صغير حقير في جنب عرشه عز وجل، ثم هاهنا كلام الهدهد، فلما فرغ الهدهد من كلامه. { قَالَ } سليمان للهدهد: { سَتَنْظُرُ أَصَدَقْتَ } فيما أخبرت، { أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } ؟ فدلهم الهدهد على الماء، فاحتفروا الركايا (2) وروي الناس والدواب، ثم كتب سليمان كتاباً: من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى،

(1) البيت في لسان العرب مادة (عدا)، واستشهد به الطبري أيضاً: 19 / 149.

(2) الركايا: جمع ركية، وهي البئر.

(6/157)

إِذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا قَالَقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَإِي الْقِي إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29)

أما بعد: فلا تعلوا علي واتوني مسلمين. قال ابن جريج لم يزد سليمان على ما قص الله في كتابه. وقال قتادة: وكذلك الأنبياء كانت تكتب جُملاً لا يطيلون ولا

يكترون. فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه. فقال للهدهد { اذْهَبْ بِيَّتَابِي هَذَا قَالِقِهِ إِلَيْهِمْ } {

{ اذْهَبْ بِيَّتَابِي هَذَا قَالِقِهِ إِلَيْهِمْ } ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَإِيَّ الْقِيَّ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) {

({ اذْهَبْ بِيَّتَابِي هَذَا قَالِقِهِ إِلَيْهِمْ } قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة: ساكنة الهاء، ويخلسها أبو جعفر، ويعقوب وقالون كسرًا، [والآخرون بالإشباع كسرًا]، { ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ } تَنَحَّ عَنْهُمْ فَكُنْ قَرِيبًا مِنْهُمْ، { قَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } يَرُدُّونَ مِنَ الْجَوَابِ. وقال ابن زيد: في الآية تقديم وتأخير مجازها: اذْهَبْ بِيَّتَابِي هَذَا قَالِقِهِ إِلَيْهِمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ، ثم تولى عنهم، أي: انصرف إليَّ، فأخذ الهدهد الكتاب فأتى به إلى بلقيس، وكانت يارض يقال لها "مأرب" من صنعاء على ثلاثة أيام، فوافها في قصرها وقد غلقت الأبواب، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها، فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها، فألقى الكتاب على نحرها، هذا قول قتادة. وقال مقاتل: حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه، حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في جحرها.

وقال ابن منه، وابن زيد: كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع الشمس فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها سجدت لها، فجاء الهدهد الكوة فسدها بجناحيه فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر، فرمى بالصحيفة إليها، فأخذت بلقيس الكتاب، وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم أرعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان في خاتمه، وعرفت أن الذي أرسل الكتاب إليها أعظم مُلْكًا منها، فقرأت الكتاب، وتأخر الهدهد غير بعيد، فجاءت حتى قعدت على سرير مملكتها وجمعت الملاء من قومها، وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد مائة ألف مقاتل. وعن ابن عباس قال: كان مع بلقيس مائة ألف [قيل، مع كل قيل مائة ألف] والقيل الملك دون الملك الأعظم، وقال قتادة ومقاتل: كان أهل 56/ب مشورتها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف، قال: فجاءوا وأخذوا مجالسهم (1). { قَالَتْ } هم بلقيس: { يَا أَيُّهَا الْمَلَأَإِيَّ } وهم أشرف الناس وكبرأؤهم { إِلَيَّ الْقِيَّ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } {

(1) انظر الأقوال السالفة في الدر المنثور: 6 / 353-354.

(6/158)

إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُنُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَإِيَّ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ (32) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْبَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَبَ أَهْلِهَا أِذْلَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34)

قال عطاء والضحاك: سمته كريمًا لأنه كان محتومًا. وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كرامة الكتاب ختمه" (1) وقال قتادة ومقاتل: "كتاب كريم" أي: حسن، وهو اختيار الزجاج، وقال: حسن

ما فيه، وروي عن ابن عباس: "كريم"، أي: شريف لشرف صاحبه، وقيل: سمته كريماً لأنه كان مصدرًا بيسم الله الرحمن الرحيم (2) ثم بينت ممن الكتاب فقالت: { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ } { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَعْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون (32) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) }

{ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ } وبيئت المكتوب فقالت: { وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } { أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ } قال ابن عباس: أي: لا تتكبروا علي. وقيل: لا تتعظموا ولا تترفعوا علي. معناه: لا تمنعوا من الإجابة، فإن ترك الإجابة من العلو والتكبر، { وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ } مؤمنين طائعين. قيل: هو من الإسلام، وقيل: هو من الاستسلام. { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَعْتُونِي فِي أَمْرِي } أشيروا علي فيما عرض لي، وأجيبوني فيما أشاوركم فيه، { مَا كُنْتُ قَاطِعَةً } قاضية وفاصلة، { أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون } [أي: تحضرون] (3). { قَالُوا } مجيبين لها: { نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ } في القتال، { وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ } عند الحرب، قال مقاتل: أرادوا بالقوة كثرة العدد، وبالباأس الشديد الشجاعة، وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك، ثم قالوا: { وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ } أيتها الملكة في القتال وتركه، { فَانظُرِي } من الرأي، { مَاذَا تَأْمُرِينَ } تحدينا لأمرك مطيعين. { قَالَتْ } بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال: { إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً } عنوة،

- (1) رواه الطبراني في "الأوسط" من رواية محمد بن مروان، وهو السدي الصغير، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، وأخرجه القضاعي في مسند البيهقي. ومحمد بن مروان متروك. انظر: الكافي الشاف ص (125)، مجمع الزوائد: 8 / 99.
- (2) أخرج هذه الأقوال الطبري في التفسير: 19 / 153.
- (3) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(6/159)

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35)

{ أَفْسَدُوهَا } خربوها، { وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً } أي: أهانوا أشرافها وكبراءها، كي يستقيم لهم الأمر، تحذّرهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم، وتناهى الخبر عنها ها هنا، فصدق الله قولها فقال: { وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } أي: كما قالت هي يفعلون.

{ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) } ثم قالت: { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ } والهدية هي: العطية على طريق الملاطفة. وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة قد سيست وسابست، فقالت للملأ من قومها: إني مرسلّة إليهم، أي: إلى سليمان وقومه، بهدية أصانعه بها عن ملكي وأختبره بها أملك هو أم نبي؟ فإن يكن ملكاً قبل الهدية وانصرف، وإن كان نبياً لم يقبل الهدية ولم يُرْضِهْ مَتَا إِلَّا أَنْ تَنْبَعَهُ عَلَى دِينِهِ، فذلك قوله تعالى:

{ فَتَاطَرَهُ يَمَّ يَزِجُ الْمُزْسَلُونَ } [فأهدت إليه] (1) ووصفاء ووصائف، قال ابن عباس (2) ألبستهم لباسًا واحدًا كي لا يُعرف ذكر من أنشئ. وقال مجاهد: ألبس الغلمان لباس الجواري وألبس الجواري لباس الغلمان. واختلفوا في عددهم، فقال ابن عباس: مائة وصيف ومائة وصيفة (3) وقال مجاهد: [ومقاتل] (4) مائتا غلام ومائتا جارية. وقال قتادة، وسعيد بن جبير: أرسلت إليه بلبنة من ذهب في حرير وديباج. وقال ثابت البناني: أهدت إليه صفائح من الذهب في أوعية الديباج. وقيل: كانت أربع لبنات من ذهب. وقال وهب وغيره: عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الغلمان لباس الجواري، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقا من ذهب وفي آذانهم أقرطا وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر، وألبست الجواري لباس الغلمان؛ الأقبية والمناطق، وحملت الجواري على خمسمائة رمكة (5) والغلمان على خمسمائة بردون، على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر وغواشيها من الديباج الملون، وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة،

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(2) بعد أن عرض ابن كثير لهذه الروايات التي ساقها البغوي قال: (3 / 364) "والله أعلم أكان ذلك أم لا؟ وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات"، وقال الشيخ محمد أبو شهبه ص (252): وأي ملك في الدنيا يتسع لفريش تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة؟! وفي رواية وهب ما يدل على الأصل الذي جاءت منه هذه المرويات، وأن من روى ذلك من السف فإنما أخذه عن مسلمة أهل الكتاب وما كان أجدر كتب التفسير أن تنزه عن مثل هذا اللغو والخرافات التي تدسست إلى الرواية الإسلامية فأساءت إليها.

(3) الوصيفة: الجارية.

(4) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(5) أنشئ البغال.

(6/160)

وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع، وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود الألنجوج، وعمدت إلى حقه فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معوجة الثقب، ودعت رجلا من أشرف قومها يقال له المنذر بن عمرو، وضمت إليه، رجلا من قومها أصحاب رأي وعقل، وكتبت معه كتابًا بنسخة الهدية، وقالت فيه: إن كنت نبيًّا فميِّز بين الوصائف والوصفاء، وأخبر بما في الحققة قبل أن تفتحها، واتقب الدر ثقبًا مستويًا، وأدخل خيطًا في الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس ولا جنّ. وأمرت بلقيس الغلمان، فقالت: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء، وأمرت الجواري أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال.

ثم قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك ولا يهولنك منظره، فإنّا أعزّ منه، وإن رأيت الرجل بشاشًا لطيفًا فاعلم أنه نبي مرسل فتفهّم قوله، ورد الجواب. فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعًا إلى سليمان فأخبره الخبر كله، فأمر سليمان الجنّ أن

يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ففعلوا، ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى تسعة فراسخ ميدانًا واحدًا بلبنات الذهب والفضة، وأن يجعلوا حول الميدان حائطًا، شُرِّفها من الذهب والفضة، ثم قال: أي الدوابِّ أحسن مما رأيتم في البر والبحر؟ قالوا: يا نبي الله إنا رأينا دوابًّا في بحر كذا وكذا منطقة مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص، فقال: عليّ بها الساعة، فأتوا بها، فقال: شدُّوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة، وألقوا لها علوقتها فيها، ثم قال للجن: عليّ بأولادكم، فاجتمع خلق كثير، فأقامهم عليّ يمين الميدان ويساره، ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره، ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفًا فراسخ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ وأمر الوحوش والسباع والهوام والطيور، فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره. فلما دنا القوم من الميدان 57/أ ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها تروث على لبنات الذهب والفضة، تقاصرت أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا، وفي بعض الروايات [أن سليمان] (1) لما أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعًا على قدر موضع اللبنة التي معهم، فلما رأى الرسل موضع اللبنة خاليًا وكل الأرض مفروشة خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلما رأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب، ففرعوا، فقالت لهم الشياطين: جُوزوا فلا بأس عليكم، فكانوا

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(6/161)

يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطيور والهوام والسباع والوحوش، حتى وقفوا بين يدي سليمان، فنظر إليهم سليمان نظرًا حسنًا بوجه طلق، وقال: ما وراءكم؟ فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا له، وأعطاه كتاب الملكة، فنظر فيه، ثم قال: أين الحقّة؟ فأتى بها فحركها، وجاء جبريل فأخبره بما في الحقّة، فقال: إن فيها درة ثمينة غير مثقوبة، وجزعة مثقوبة معوجة الثقب، فقال الرسول: صدقت، فاثقب الدرة، وأدخل الخيط في الخرزة، فقال سليمان: من لي بثقبها فسأل سليمان الإنس ثم الجن، فلم يكن عندهم علم ذلك، ثم سأل الشياطين، فقالوا: نرسل إلى الأرضة فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ فقالت: تصير رزقي في الشجرة، فقال لك ذلك. وروي أنه جاءت دودة تكون في الصفصاف فقالت: أنا أدخل الخيط في الثقب على أن يكون رزقي في الصفصاف، فجعل لها ذلك، فأخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب وخرجت من الجانب الآخر. ثم قال: من لهذه الخرزة فيسلكها في الخيط؟ فقالت دودة بيضاء أنا لها يا رسول الله فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال سليمان: ما حاجتك؟ فقالت: تجعل رزقي في الفواكه، قال: لك ذلك، ثم ميز بين الجوّاري والغلمان، بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فجعلت الجارية تأخذ الماء من الأنية بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه، والغلام كما يأخذه

من الآنية يضرب به وجهه، وكانت الجارية تصب الماء على بطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد، وكانت الجارية تصب الماء صبا وكان الغلام يحدر الماء على يديه حدراً، فميّز بينهم بذلك، ثم ردّ سليمان الهدية، كما قال الله تعالى: { فَلَمَّا جَاءَ سُليْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ }

(6/162)

فَلَمَّا جَاءَ سُليْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ
بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36)

{ فَلَمَّا جَاءَ سُليْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ
بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) }
{ فَلَمَّا جَاءَ سُليْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ } قرأ حمزة، ويعقوب: " أتمدوني "
بنون واحدة مشددة وإثبات الياء، وقرأ الآخرون: بنونين خفيفين، ويثبت الياء
أهل الحجاز والبصرة، والآخرون يحذفونها، { فَمَا آتَانِي اللَّهُ } أعطاني الله من
النبوة والدين والحكمة والملك، { خَيْرٌ } أفضل، { مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ } لأنكم أهل مفاخرة في الدنيا ومكاثرة بها، تفرحون بإهداء بعضكم
لبعض، فأما أنا فلا أفرح بها، وليست الدنيا من حاجتي، لأن الله تعالى قد
مكنني فيها وأعطاني منها ما لم يعط أحدا، ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوة، ثم
قال للمنذر بن عمرو وأمير الوفد: { اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ }

(6/162)

اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلِنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلِنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ)
(37) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَيْكُمْ يَا تَيْبِي بَعْرَشِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38)

{ اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلِنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلِنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ
(37) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَيْكُمْ يَا تَيْبِي بَعْرَشِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) }
{ اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ } بالهدية، { فَلِنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ } لإطاعة لهم، { بِهَا
وَلِنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا } أي: من أرضهم وبلادهم وهي سبأ، { أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ }
ذليلون إن لم يأتوني مسلمين. قال وهب وغيره من أهل الكتب: فلما رجعت
رسل بلقيس إليها من عند سليمان، قالت: قد عرفت -والله- ما هذا بملك وما
لنا به طاقة، فبعثت إلى سليمان إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما
أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم أمرت بعرضها فجعل في آخر سبعة أبيات
بعضها في بعض في آخر قصر من سبعة قصور لها، ثم أغلقت دونه الأبواب،
ووكلت به حراساً يحفظونه، ثم قالت لمن خلفت علي سلطانها: احتفظ بما
قبلك وسرير ملكي، لا يخلص إليه أحد ولا يربته حتى آتيك، ثم أمرت منادياً
ينادي في أهل مملكتها يؤذنها بالرحيل، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر
ألف قيل من ملوك اليمن، تحت يدي كل قيل ألوف كثيرة. قال ابن عباس:
وكان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فخرج
يوماً فجلس على سرير ملكه، فرأى رهجاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ قالوا:

بلقيس وقد نزلت منا بهذا المكان، وكان على مسيرة فرسخ من سليمان، قال ابن عباس: وكان بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ، فأقبل سليمان حينئذ على جنوده. { قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } أي: مؤمنين، وقال ابن عباس: طائعين. واختلفوا في السبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار عرشها، فقال أكثرهم: لأن سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها، فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذها بإسلامها (1). وقيل: ليربها قدرة الله عز وجل وعظم سلطانه في معجزة يأتي بها في عرشها (2).

(1) رواه الطبري (19 / 160) عن قتادة.

(2) وهو ما رجحه الطبري: (19 / 161) قال: ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته، ويعرفها بذلك قدرة الله وعظيم شأنه، أنها خلفته في بيت في جوف أبيات، بعضها في جوف بعض، مغلق مقفل عليها، فأخرجه الله من ذلك كله بغير فتح أغلاق وأقفال، حتى أوصله إلى وليه من خلقه، وسلمه إليه، فكان لها في ذلك أعظم حجة، على حقيقة ما دعاها إليه سليمان، وعلى صدق سليمان فيما أعلمها من نبوته". وانظر: القرطبي: 13 / 202، ابن كثير: 3 / 364، زاد المسير: 6 / 173.

(6/163)

قَالَ عَفْرِيثٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)

وقال قتادة: لأنه أعجبه صفته لما وصفه الهدهد، فأحب أن يراه (1). قال ابن زيد: أراد أن يأمر بتكبيره وتغييره ليختبر بذلك عقلها (2).

{ قَالَ عَفْرِيثٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) }

{ قَالَ عَفْرِيثٌ مِنَ الْجِنِّ } وهو المارد القوي، قال وهب: اسمه كوزى (3) وقيل: ذكوان، قال ابن عباس: العفريت الداهية. وقال الضحاك: هو الخبيث.

وقال الربيع: الغليظ، قال الفراء: القوي الشديد، وقيل: هو صخرة الجنى، وكان بمنزلة جبل يضع قدمه عند منتهى طرفه، { أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ } أي: من مجلسك الذي تقضي فيه، [قال ابن عباس: وكان له كل

غداة مجلس يقضي فيه] (4) إلى منتهى النهار، { وَإِنِّي عَلَيْهِ } أي: على

حملة، { لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } على ما فيه من الجواهر، فقال سليمان: أريد أسرع من هذا. ف { قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ } 57/ب واختلفوا فيه فقال بعضهم

(5) هو جبريل. وقيل: هو ملك من الملائكة أيد الله به نبيه سليمان عليه السلام. وقال أكثر المفسرين: هو أصف بن برخيا، وكان صديقا يعلم اسم الله

الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى. وروى جويبر، ومقاتل، عن

الضحاك عن ابن عباس قال: إن آصف قال لسليمان حين صلى: مد عينيك حتى ينتهي طرفك، فمد سليمان عينيه، فنظر نحو اليمين، ودعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يحدون به خدا حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان.

- (1) ذكره القرطبي عن قتادة أيضا، انظر: 203 / 13.
- (2) أخرجه الطبري: 19 / 160-161، وانظر: القرطبي: 203 / 13، زاد المسير: 6 / 173، وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضا.
- (3) في الطبري عن وهب قال: اسمه كوزن، وليس في ذلك خبر صحيح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ولا فائدة من البحث في معرفة هذا الاسم والله أعلم.
- (4) ما بين القوسين ساقط من "أ".
- (5) انظر هذه الأقوال في: الطبري: 19 / 162-163، الدر المنثور: 6 / 360-361، زاد المسير: 6 / 175، ابن كثير: 3 / 365.

(6/164)

قَالَ تَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا تَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41)

وقال الكلبي: خر آصف ساجدا ودعا باسم الله الأعظم فغاب عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان. وقيل: كانت المسافة مقدار شهرين. واختلفوا في الدعاء [الذي دعا به] (1) آصف، فقال مجاهد، ومقاتل: يا ذا الجلال والإكرام. وقال الكلبي: يا حي يا قيوم. وروى ذلك عن عائشة. وروى عن الزهري قال: دعاء الذي عنده علم من الكتاب: يا إلهنا وإله كل شيء إلهنا واحدا لا إله إلا أنت ائتني بعرشها. وقال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان، قال له عالم من بني إسرائيل أتاه الله علما وفهما: { أَتَا أَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } قال سليمان: هات، قال: أنت النبي ابن النبي، وليس أحد أوجه عند الله منك، فإن دعوت الله وطلبت إليه كان عندك، فقال: صدقت، ففعل ذلك، فجيء بالعرش في الوقت.

وقوله تعالى: { قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } قال سعيد بن جبير: يعني: من قبل أن يرجع إليك أقصى من ترى، وهو أن يصل إليك من كان منك على مد بصرك. قال قتادة: قبل أن يأتيك الشخص من مد البصر. وقال مجاهد: يعني إدامة النظر حتى يرتد الطرف خاسئا. وقال وهب: تمد عينيك فلا ينتهي طرفك إلى مداه، حتى أمثله بين يديك، { فَلَمَّا رَأَهُ } يعني: رأى (2) سليمان العرش، { مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ } محمولا إليه من مأرب إلى (3) الشام في قدر ارتداد (4) الطرف، { قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ } نعمته، { أَمْ أَكْفُرُ } [فلا أشكرها] (5) { وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ } أي: يعود نفع شكره إليه، وهو أن يستوجب به تمام النعمة ودوامها، لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة، { وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ } عن شكره، { كَرِيمٌ } بإفضال على من يكفر نعمه.

{ قَالَ تَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا تَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) } قوله تعالى: { قَالَ تَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا } يقول: غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا

رأته، قال قتادة ومقاتل: هو أن يزداد فيه وينقص، وروى أنه جعل أسفله أعلاه وأعلىه أسفله، وجعل مكان الجوهرة الأحمر أخضر ومكان الأخضر أحمر { تَنْظُرُ أَتَهْتَدِي } إلى عرشها فتعرفه، { أَمْ تَكُونُ مِنَ } الجاهلين، { الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ } إليه، وإنما حمل سليمان على ذلك كما ذكره وهب ومحمد بن كعب

(1) ساقط من "ب".

(2) ساقط من "أ".

(3) ساقط من "أ".

(4) في "أ": إمداد.

(5) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(6/165)

فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43)

وغيرهما: أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشى إليه أسرار الجن وذلك أن أمها كانت جنية، وإذا ولدت له ولدا لا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده، فأسأوا الثناء عليها ليزهدوه فيها، وقالوا: إن في عقلها شيئا وإن رجلها كحافر الحمار وأنها شعراء الساقين فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتكبير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء الصرح (1).

{ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43) }

{ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ } قال مقاتل: عرفته لكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها. وقال عكرمة: كانت حكيمة لم تقل: نعم، خوفا من أن تكذب، ولم تقل: لا خوفا من التكذيب، قالت: كأنه هو، فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر. وقيل اشتبه عليها أمر العرش، لأنها تركته في بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها، وقيل لها: فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب، فقال: { وَأُوتِينَا الْعِلْمَ } بصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدية والرسول، { مِنْ قَبْلِهَا } من قبل الآية في العرش { وَكُنَّا مُسْلِمِينَ } منقادين طائعين لأمر سليمان. وقيل قوله: "وأوتينا العلم من قبلها" قاله سليمان، يقول: وأوتينا العلم بالله وبقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة، وكنا مسلمين، هذا قول مجاهد (2). وقيل: معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين لله عز وجل. قوله عز وجل: { وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ } أي: منعها ما كانت تعبد من دون الله، وهو الشمس، أن تعبد الله، أي: صدها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله، فعلى هذا التأويل يكون " ما " في محل الرفع (3).

(1) هذه الروايات من الإسرائيليات المكذوبة على أنبياء الله تعالى، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله، بعد أن ذكر بعض المرويات في ذلك (3 / 367):

"والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة".

(2) أخرجه الطبري: 19 / 167 وهو قول سعيد بن جبير، واستحسنه ابن كثير: 3 / 366، وأيده بأنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح.

(3) انظر: الطبري 19 / 167، الدر المنثور: 6 / 362.

(6/166)

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

وقيل: معناه [صددها عن عبادة الله لا نقصان عقلها كما قالت الجن: إن في عقلها شيئا، بل كانت تعبد من دون الله] (1). وقيل: معناه وصددها سليمان ما كانت تعبد من دون الله، أي: منعها ذلك وحال بينها وبينه، فيكون محل "ما" نصبا. { إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ } هذا استئناف، أخبر الله تعالى أنها كانت من قوم يعبدون الشمس، فنشأت بينهم ولم تعرف إلا عبادة الشمس.

{ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44) }

قوله عز وجل: { قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ } الآية، وذلك أن سليمان أراد أن ينظر إلى قدميها وساقها من غير أن يسألها كشفها، لما قالت الشياطين: إن رجليها كحافر الحمار، وهي شعراء الساقين، أمر الشياطين فبنوا له صرحا أي: قصرا من زجاج، وقيل بيتا من زجاج كأنه الماء بيضا، وقيل: الصرح صحن الدار، وأجرى تحته الماء، وألقى فيه كل شيء من دواب البحر السمك والضفادع وغيرهما، ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس. وقيل: اتخذ صحنا من قوارير وجعل تحته تماثيل من الحيتان والضفادع، فكان الواحد إذا رآه ظنه ماء. وقيل: إنما بنى الصرح ليختبر فهمها كما فعلت هي بالوصفاء والوصائف (2) فلما جلس على السرير دعا بلقيس، فلما جاءت قيل لها ادخلي الصرح.

(1) جاءت العبارة في "ب" هكذا: وصددها هذا عن عبادة الله ما كانت تعبد من دون الله.

(2) راجع ما نقلناه عن ابن كثير تعليقا على هذه الروايات آنفا. وقال الطبري: (19 / 169): "وجائز عندي أن يكون سليمان أمر باتخاذ الصرح للأمرين؛ الذي قاله وهب، والذي قاله محمد بن كعب القرظي، ليختبر عقلها وينظر إلى ساقها وقدمها، ليعرف صحة ما قيل فيها".

والحق أن سليمان -عليه الصلاة والسلام- أراد بنائه الصرح: أن يريها عظمة ملكه وسلطانه، وأن الله -سبحانه وتعالى- أعطاه من الملك، ومن أسباب العمران والحضارة ما لم يعطها، فضلا عن النبوة التي هي فوق الملك، والتي

دونها أية نعمة، وحاشا لسليمان -عليه السلام- وهو الذي سأل الله أن يعطيه حكما يوافق حكمه -أي الله، فأوتيه- أن يتحایل هذا التحایل، حتى ينظر إلى ما حرم الله عليه، وهما ساقاها، وهو أجل من ذلك وأسمى.

ولولا أنها رأت من سليمان ما كان عليه من الدين المتين، والخلق الرفيع، لما أذعنت إليه لما دعاها إلى الله الواحد الحق، ولما ندمت على ما قرط منها من عبادة الكواكب والشمس، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين. انظر: الإسرائيليات والموضوعات للشيخ محمد أبو شهبه ص: 249-250.

(6/167)

{ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً } 58/أ وهي معظم الماء، { وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا } لتخوضه إلى سليمان، فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس قدما وساقا إلا أنها كانت شعراء الساقين، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنه وناداه (1) { قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ } مملس مستو، { مِنْ قَوَارِيرَ } وليس بماء، ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام، وكانت قد رأت حال العرش والصرح فأجابت، و { قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي } بالكفر. وقال مقاتل: لما رأت السرير والصرح علمت أن ملك سليمان من الله فقالت: رب إنني ظلمت نفسي بعبادة غيرك، { وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } أي: أخلصت له التوحيد. وقيل: إنها لما بلغت الصرح وظننته لجة، قالت في نفسها: إن سليمان يريد أن يغرقني، وكان القتل علي أهون من هذا، فقولها: "ظلمت نفسي" تعني بذلك الظن.

واختلفوا في أمرها بعد إسلامها، قال عون بن عبد الله: سأل رجل عبد الله بن عتبة: هل تزوجها سليمان؟ قال: انتهى أمرها إلى قولها: أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، يعني: لا علم لنا وراء ذلك. وقال بعضهم: تزوجها، ولما أراد أن يتزوجها كره ما رأى من كثرة شعر ساقها، فسأل الإنس: ما يذهب هذا؟ قالوا: الموسى، فقالت المرأة: لم تمسني حديدة قط، فكره سليمان الموسى، وقال: إنها تقطع ساقها، فسأل الجن فقالوا: لا ندري، ثم سأل الشياطين فقالوا: إنا نحتال لك حيلة حتى تكون كالفضة البيضاء، فاتخذوا النورة والحمام، فكانت النورة والحمامات من يومئذ (2) فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا، وأقرها على ملكها، وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا، وهي: سلحين، وبينون، وعمدان. ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها ويقيم عندها ثلاثة أيام، يتكر من الشام إلى اليمن، ومن اليمن إلى الشام، وولدت له فيما ذكر وروي عن وهب قال: زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان: اختاري رجلا من قومك أزوجه، قالت: ومثلي يا نبي الله تنكح الرجال وقد كان لي في قومي من الملك والسلطان ما كان؟ قال: نعم، إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك، ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله لك، فقالت: زوجني إن كان لا بد من ذلك ذا تبع ملك همذان فزوجه إياها، ثم ردها إلى اليمن، وسلط زوجها ذا تبع على اليمن، ودعا زوبعة أمير جن اليمن، فقال: اعمل لذي تبع ما

(1) ساقط من "أ".

(2) هذا وأمثاله من مفتريات يهود الذين يصورون الأنبياء وكأنهم لا هم لهم إلا

اللذة والاحتيال لإزالة شعر الساقين إظهارا للمحاسن وإرواء للشهوة. وقد روى ابن أبي شيبة أثرا في ذلك، قال عنه ابن كثير: (3 / 367) "هو منكر غريب جدا، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم، والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم..".

(6/168)

استعملك فيه، فلم يزل بها ملكا يعمل له فيها ما أراد حتى مات سليمان، فلما أن حال الحول، وتبينت الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته: يا معشر الجن إن الملك سليمان قد مات، فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا، وانقضى ملك ذي تبع، وملك بلقيس مع ملك سليمان (1). وقيل: إن الملك وصل إلى سليمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.

(1) انظر ما سبق نقلا عن الحافظ ابن كثير رحمه الله تعليقا على هذه المرويات.

(6/169)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتِنُونَ (47)

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يُفْتِنُونَ (47) }

قوله عز وجل: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) } وحده، { فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ } [مؤمن وكافر] (2) { يَخْتَصِمُونَ } في الدين، قال مقاتل: واختصامهم ما ذكر في سورة الأعراف: "قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم"، إلى قوله: "يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين" (الأعراف-75-77). ف { قَالَ } لهم صالح، { يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ } بالهلاء والعقوبة، { قَبْلَ الْحَسَنَةِ } العافية والرحمة، { لَوْلَا } هلا { تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ } بالتوبة من كفركم، { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } { قَالُوا اطَّيَّرْنَا } أي: تشاءمنا، وأصله: تطيرنا، { بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ } قيل: إنما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم. وقيل: لأنه أمسك عنهم المطر في ذلك الوقت وقحطوا، فقالوا: أصابنا هذا الضر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك. { قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ } أي: ما يصيبكم من الخير والشر عند الله بأمره، وهو مكتوب عليكم، سمي طائرا لسرعة نزوله بالإنسان، فإنه

لا شيء أسرع من قضاء محتوم. قال ابن عباس: الشؤم أتاكم من عند الله لكفركم. وقيل: طائركم أي: عملكم عند الله، سمي طائرا لسرعة صعوده إلى السماء. { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ } قال ابن عباس: تختبرون بالخير والشر، نظيره قوله تعالى: "ونبلوكم بالشر والخير فتنة" (الأنبياء-35)، وقال محمد بن كعب القرظي: تعذبون.

- (1) ما بين القوسين ساقط من "أ".
(2) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(6/169)

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا
تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ
(49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْتَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَنِلَّكَ بِبُيُوتِهِمْ حَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنْ
فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53) وَلَوْطَا
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً
مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)

{ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا
تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ
(49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْتَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) }
قوله تعالى: { وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ } يعني: مدينة ثمود، وهي الحجر، { تِسْعَةُ
رَهْطٍ } من أبناء أشرافهم، { يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ } وهم الذين
انفقوا على عقر الناقة، وهم غواة قوم صالح، ورأسهم قدار بن يبالف، وهو
الذي تولى عقرها، كانوا يعملون بالمعاصي. قالوا { تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ } تحالفوا،
يقول بعضهم لبعض: أي: احلفوا بالله أيها القوم. وموضع "تقاسموا" جزم على
الأمر، وقال قوم: محله نصب على الفعل الماضي، يعني: أنهم تحالفوا
وتواثقوا، تقديره: قالوا متقاسمين بالله، { لَنُبَيِّتَنَّهُ } أي: لنقتله بيانا أي: ليلا {
وَأَهْلَهُ } أي: وقومه الذين أسلموا معه، وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي
"لنبيته" و"لتقولن" بالتاء فيهما وضم لام الفعل على الخطاب، وقرأ الآخرون
بالنون فيهما وفتح لام الفعل، { ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ } أي: لولي دمه، { مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِ } أي: إهلاكهم، ولا ندري من قتله، ومن فتح الميم
فمعناه هلاك أهله، { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } في قولنا ما شهدنا ذلك. { وَمَكَرُوا مَكْرًا
} غدروا غدرا حين قصدوا تبييت صالح والفتك به، { وَمَكَرْنَا مَكْرًا } جزيناهم
على مكرهم بتعجيل عقوبتهم، { وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } { فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
مَكْرِهِمْ أَنَا } قرأ أهل الكوفة "أنا" بفتح الألف ردا على العاقبة، أي: كانت
العاقبة أنا دمرناهم، وقرأ الآخرون: 58/ب "إنا" بالكسر على الاستئناف،
{ دَمَرْتَاهُمْ } أي: أهلكناهم التسعة. واختلّفوا في كيفية هلاكهم، قال ابن
عباس رضي الله عنهما: أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح
بحرسونه، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة

من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة، فقتلهم. قال مقاتل: نزلوا في سفح جبل ينظر بعضهم بعضا ليأتوا دار صالح، فحتم عليهم الجبل فأهلكهم. { وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ } أهلكهم الله بالصيحة. { قَتَلَكُ بُيُوتَهُمْ خَاوِبَةً بَمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا بِنُفُوسِهِمْ (53) وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْقَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ { (55)

(6/170)

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِئُوهَا (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا هَا مِنْ الغَائِبِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ (58) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59)

{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِئُوهَا (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا هَا مِنْ الغَائِبِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ (58) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) }
 { قَتَلَكُ بُيُوتَهُمْ خَاوِبَةً } نصب على الحال أي: خالية، { بَمَا ظَلَمُوا } أي: بظلمهم وكفرهم،

(6/170)

أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِرًا أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61)

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً } لعبرة، { لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } قدرنا. { وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا بِنُفُوسِهِمْ } يقال: كان الناجون منهم أربعة آلاف. قوله تعالى: { وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْقَاحِشَةَ } وهي الفعلة القبيحة، { وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ } أي: تعلمون أنها فاحشة. وقيل: معناه يرى بعضكم بعضا وكانوا لا يستترون عُتُوهَا منهم. { أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِئُوهَا } من أدبار الرجال. { فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا هَا } قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا، { مِنْ الغَائِبِينَ } أي: الباقين في العذاب. { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا } وهو الحجارة، { فَسَاءَ } فبئس، { مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ } قوله تعالى: { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ } هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يحمد الله على هلاك كفار الأمم الخالية. وقيل: على جميع نعمه. { وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } قال مقاتل: هم الأنبياء والمرسلون (1) دليله

قوله عز وجل: "وسلام على المرسلين".
 وقال ابن عباس في رواية أبي مالك هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (2) . وقال الكلبي: هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم (3) . وقيل: هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين (4) { أَلَلُّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ } قرأ أهل البصرة وعاصم: { يُشْرِكُونَ } بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، يخاطب أهل مكة، وفيه إلام الحجة على المشركين بعد هلاك الكفار، يقول: الله خير لمن عبده، أم الأصنام لمن عبدها؟ والمعنى: أن الله نجى من عبده من الهلاك، والأصنام لم تُغن شيئا عن عابديها عند نزول العذاب.

{ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاتٍ بَهْجَةً مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَلُّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِرًا أَلَلُّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) }
 { أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ } معناه ألهمتكم خير أم الذي خلق السموات والأرض، { وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } يعني المطر، { فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ } ؟ بساتين جمع حديقة، قال الفراء: الحديقة البستان المحاط عليه، فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة، { دَاتٍ بَهْجَةً } أي: منظر حسن، والبهجة: الحسن ينتهج به من يراه، { مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا } أي: ما ينبغي لكم، لأنكم لا تقدرون عليها. { أَلَلُّهُ مَعَ اللَّهِ } استفهام على طريق الإنكار، أي: هل معه معبود سواه أعانه على صنعه؟ بل ليس معه إله. { بَلْ هُمْ قَوْمٌ } يعني كفار مكة، { يَعْدِلُونَ } يشركون. { أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا } لا تميد بأهلها، { وَجَعَلَ خِلَالَهَا } وسطها (5) { أَنْهَارًا } تتردد بالمياه، { وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا } جبالا ثوابت، { وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ } العذب والمالح، { حَاجِرًا }

- (1) وهو مروى عن عبد الرحمن بن زيد، ورواه أبو صالح عن ابن عباس. انظر: زاد المسير: 6 / 184، ابن كثير: 3 / 370.
 (2) رواه الطبري عن ابن عباس وسفيان الثوري وهو رواية السدي. قال ابن كثير: ولا منافاة بينهما، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمده على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار. انظر: الطبري: 20 / 2، زاد المسير: 6 / 185، الدر المنثور: 6 / 370 تفسير ابن كثير: 3 / 370، معاني القرآن للنحاس: 5 / 143.
 (3) انظر: زاد المسير: 6 / 185 فقد عزاه لابن السائب.
 (4) فيما روى عطاء عن ابن عباس: أنهم الذين وحدوا الله وآمنوا به. انظر: زاد المسير: 6 / 185.
 (5) ساقط من "أ".

أَمْ مَنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَنْلَهُ مَعَ
اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ
الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَنْلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)

مانعا لئلا يختلط أحدهما بالآخر، { أَلِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } توحيد
ربه وسلطانه.

{ أَمْ مَنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلِلَهُ
مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ
يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }
(63)

(6/173)

أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ
هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)

{ أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ
هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) }
{ أَمَّنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ } المكروب المجهود، { إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ }
الضر (1) { وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ } سكانها يهلك قرنا وينشئ آخر. وقيل:
يجعل أولادكم خلفاءكم وقيل: جعلكم خلفاء الجن في الأرض. { أَلِلَهُ مَعَ اللَّهِ
قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } قرأ أبو عمرو بالياء والآخرين بالتاء (2). { أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي
ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } إذا سافرتهم، { وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ
} أي: قدام المطر، { أَلِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } { أَمَّنْ يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } بعد الموت، { وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } أي: من
السماء المطر ومن الأرض النبات. { أَلِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } حجتكم
على قولكم أن مع الله إليها آخر. { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } { قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ } نزلت في المشركين حيث سألوا النبي
صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة (3) { وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ }
{

(1) يئبه الله تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال
تعالى: "وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه"، وقال تعالى: "ثم
إذا مسكم الضر فإليه تجارون" وهكذا قال هاهنا: "أمن يجب المضطر إذا
دعاه"، أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر
المضروبين سواه؟! انظر: تفسير ابن كثير: (3 / 371-372) وقد ساق جملة
أحاديث في هذا المعنى.

(2) أي: أله مع الله بقدر على ذلك؟ أو أله مع الله بعد هذا؟ وقد علم أن الله
هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شرك له؟ "قليلًا ما تذكرون"، أي: ما أقل
تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم. انظر:

تفسير ابن كثير: 3 / 372.
(3) راجع تفسير ابن كثير: 3 / 373-374، عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي تأليف عثمان جمعة ضميرية ص (78-81) و(86-91).

(6/173)

بَلِ إِدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلٌ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66)
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيَّدَا كُنَّا تُرَابًا وَأَبَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ
وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)

{ بَلِ إِدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلٌ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66)
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيَّدَا كُنَّا تُرَابًا وَأَبَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ
وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68) }

{ بَلِ إِدْرَاكَ عِلْمُهُمْ } قرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عمرو: "أدرك" على وزن
أفعل أي: بلغ ولحق، كما يقال: أدركه علمي إذا لحقه وبلغه، يريد: ما جهلوا في
الدنيا وسقط علمه عنهم علموه في الآخرة. قال مجاهد: يدرك علمهم، { فِي
الْآخِرَةِ } ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم. قال مقاتل: بل علموا
في الآخرة حين عاينوها ما شكوا وعموا عنه في الدنيا وهو قوله: { بَلِ هُمْ فِي
شَكٍّ مِنْهَا } يعني: هم اليوم في شك من الساعة، وقرأ الآخرون: "بل أدراك"
موصولا مشددا مع ألف بعد الدال المشددة، أي: تدارك وتتابع علمهم في
الآخرة وتلاحق. وقيل: معناه اجتمع علمهم في الآخرة أنها كائنة، وهم في شك
في وقتهم، فيكون بمعنى الأول. وقيل: هو على طريق الاستفهام، معناه: هل
تدارك وتتابع علمهم بذلك في الآخرة؟ أي: لم يتتابع وضل وغاب علمهم به فلم
يلغوه ولم يدركوه، لأن في الاستفهام ضربا من الجحد يدل عليه. قراءة ابن
عباس "بلى" بإثبات الياء، "أدراك" بفتح الألف على الاستفهام، أي: لم يدرك،
وفي حرف أبي "أم تدرك علمهم"، والعرب تضع "بل" موضع "أم" و"أم"
موضع "بل" (1) وجملة القول فيه: أن الله أخبر أنهم إذا بعثوا يوم القيامة
يستوي علمهم في الآخرة وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب، وإن كانت
علومهم مختلفة في الدنيا. وذكر علي بن عيسى أن معنى "بل" "هاهنا: "لو"
ومعناه: لو أدركوا في الدنيا ما أدركوا في الآخرة 59/أ لم يشكوا.
قوله عز وجل: { بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا } بل هم اليوم في الدنيا في شك من
الساعة. { بَلِ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ } جمع عم، وهو الأعمى القلب. قال الكلبي:
يقول هم جهلة بها. { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } يعني مشركي مكة، { أَيَّدَا كُنَّا تُرَابًا
وَأَبَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجُونَ } من قبورنا أحياء، قرأ أهل المدينة: "إذا" غير مستفهم،
"أنا" بالاستفهام، وقرأ ابن عامر، والكسائي: "إذا" بهمزتين، ["أنا" بنونين،
وقرأ الآخرون باستفهامها. { لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا } أي: هذا البعث، (2) { نَحْنُ
وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ } أي: من قبل محمد،

(1) انظر في المعاني والقراءات السابقة. الطبري: 20 / 6-8.

(2) ما بين القوسين من "أ".

(6/174)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76)

وليس ذلك بشيء { إِنَّ هَذَا } ما هذا، { إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها.

{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) }

{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } { وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } على تكذيبهم إياك وإعراضهم عنك، { وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة. { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } { قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ } أي: دنا وقرب، { لَكُمْ } وقيل: تبعكم، والمعنى: ردفكم، أدخل اللام كما أدخل في قوله "لربهم يرهبون" (الأعراف-154)، قال الفراء: اللام صلة زائدة، كما تقول: نقدته مائة، ونقدت له { بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ } من العذاب، فجل بهم ذلك يوم بدر. { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } قال مقاتل: على أهل مكة حيث لم يعجل عليهم العذاب، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ } ذلك. { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ } ما تخفي (1) { صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } { وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ } أي: جملة غائبة من مكتوم سر، وخفي أمر، وشيء غائب، { فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } أي: في اللوح المحفوظ. { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ } أي: يبين لهم، { أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } من أمر الدين، قال الكلبي: إن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزابا يطعن بعضهم على (1) ساقط من "أ".

(6/175)

بعض، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه.

(6/176)

وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ
 وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ (80) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن
 صَلَاتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

{ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ
 وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ (80) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن
 صَلَاتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81) }
 { وَإِنَّهُ } يعني القرآن، { لَهُدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ } { إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي } يفصل
 (1) { بَيْنَهُمْ } أي: بين المختلفين في الدين يوم القيامة، { بِحُكْمِهِ } الحق، {
 وَهُوَ الْعَزِيزُ } المنيع فلا يرد له أمر، { الْعَلِيمُ } بأحوالهم فلا يخفى عليه شيء.
 { فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } البين. { إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ }
 يعني الكفار، { وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ } قرأ ابن كثير: "لا يسمع" بالياء وفتحها
 وفتح الميم "الصُّمُّ" رفع، وكذلك في سورة الروم، وقرأ الباقون بالتاء وضمها
 وكسر الميم، "الصُّمُّ" نصب. { إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ } معرضين. فإن قيل ما معنى
 قوله: { وَلُوا مَدِيرِينَ } وإذا كانوا صما لا يسمعون (2) سواء ولوا أو لم يولوا؟.
 قيل ذكره: عل سبيل التأكيد والمبالغة. وقيل: الأصم إذا كان حاضرا فقد يسمع
 برفع الصوت ويفهم بالإشارة، فإذا ولي لم يسمع ولم يفهم. قال قتادة: الأصم
 إذا ولي مدبرا ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من
 الإيمان. ومعنى الآية: أنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت الذي لا
 سبيل إلى إسماعه، والأصم الذي لا يسمع. { وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ } قرأ
 الأعمش، وحمزة: "تهدي" بالتاء وفتحها على الفعل "العمي" بنصب الياء هاهنا
 وفي الروم. وقرأ الآخرون بهادي بالياء على الاسم، "العمي" بكسر الياء،
 { عَن صَلَاتِهِمْ } أي: ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلب
 عن الإيمان، { إِنْ تُسْمِعُ } ما تسمع، { إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا } إلا من يصدق
 بالقرآن أنه من الله، { فَهُمْ مُسْلِمُونَ } مخلصون.

(1) ساقط من "أ".

(2) ساقط من "أ".

(6/176)

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا
 لَا يُوقِنُونَ (82)

{ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا
 بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) }
 قوله تعالى: { وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ } وجب العذاب عليهم، وقال قتادة: إذا
 غضب الله عليهم، { أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ } واختلفوا في
 كلامها، فقال السدي: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام. وقال بعضهم:
 كلامها أن تقول لواحد: هذا مؤمن، وتقول لآخر: هذا كافر (1). وقيل كلامها ما

قال الله تعالى: { أِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ } قال مقاتل تكلمهم بالعربية، فتقول: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، تخبر الناس أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن والبعث.

قرأ أهل الكوفة: "أن الناس" بفتح الألف، أي: بأن الناس، وقرأ الباقر بالكسر على الاستئناف، أي: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل خروجها. قال ابن عمر: وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر (2). وقرأ سعيد بن جبير، وعاصم الجحدري، وأبو رجاء العطاردي: "تكلمهم" بفتح التاء وتخفيف اللام من "الكلم" وهو إلجرح. قال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية: "تَكَلَّمُهم أَوْ تَكَلِّمُهم"؟ قال: كل ذلك تفعل، تَكَلَّمُ المؤمن، وتَكَلِّمُ الكافر (3). أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى، أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، وخاصة أحدكم، وأمر العامة" (4). أخبرنا إسماعيل بن عبد الله، أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسي، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أخبرنا مسلم بن الحجاج، أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة، أخبرنا

- (1) ذكر أبو حيان القولين في البحر المحيط: 97 / 7.
- (2) الطبري: 14 / 20، الدر المنثور: 377 / 6 موقوفًا، وروي مرفوعًا عند ابن مردويه.
- (3) واستحسنه ابن كثير: (3 / 375) قال: وهو قول حسن ولا منافاة والله أعلم. وانظر: الدر المنثور: 6 / 378.
- (4) أخرجه مسلم في الفتن، باب في بقية أحاديث الدجال، برقم (2947): 4 / 2267، والمصنف في شرح السنة: 44 / 15.

(6/177)

محمد بن بشر، عن أبي حيان، عن أبي زرعة، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبها فالأخرى على أثرها قريباً" (1).

وأخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن فنجويه، أخبرنا أبو بكر بن خزيمة، أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي، أخبرنا هشيم بن حماد، أخبرنا عمرو بن محمد العبقرى، عن طلحة بن عمرو، عن عبد الله بن عمير الليثي، عن أبي سريحة الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يكون للدابة ثلاث خراجات من الدهر، فتخرج خروجا بأقصى اليمن فيفشو ذكرها بالبادية 59/ب ولا يدخل ذكرها القرية"، يعني مكة، "ثم تمكث زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى قريبا من مكة، فيفشو ذكرها بالبادية، ويدخل ذكرها القرية -يعني مكة- فبينما الناس يوما في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله عز وجل -يعني

المسجد الحرام- لم يرعهم إلا وهي في ناحية المسجد تدنو وتدنو" كذا قال ابن عمر، وما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط من ذلك فإرض الناس عنها وثبتت لها عصاة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فحلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكوكب الدرية، ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب، حتى أن الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان الآن تصلي؟ فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه، فيتجاوز الناس في ديارهم، ويصطحبون في أسفارهم، ويشتركون في الأموال، يعرف الكافر من المؤمن، فيقال للمؤمن: يا مؤمن، ويقال للكافر: يا كافر" (2)

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسن بن محمد، أخبرنا أبو بكر بن مالك القطيعي، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، أخبرنا أبي، حدثنا بهز، حدثنا حماد، هو بن أبي سلمة، أخبرنا علي بن زيد، عن أوس بن خالد، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تخرج الدابة ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم (3) أنف الكافر

(1) أخرجه مسلم في الفتن، باب خروج الدجال (2941): 4 / 2260، والمصنف في شرح السنة: 15 / 93.

(2) أخرجه الطبري في التفسير 20 / 14-15 موقوفا، ورفع الحاكم: 4 / 484، قال الذهبي: "وفيه طلحة بن عمرو، ضعفه وتركه أحمد"، وقال في الميزان: (2 / 340-342): "ضعفه ابن معين وغيره، وقال البخاري وابن المديني: ليس بشيء". وأخرجه الطيالسي في المسند ص (144)، وعزاه الهيثمي في المجمع (8 / 7) للطبراني، وزاد السيوطي في الدر (6 / 381) نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في "البعث"، وانظر: الفتح السماوي، 2 / 891-892.

(3) في "أ" تختم.

(6/178)

بالخاتم، حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر" (1). وروي عن علي قال: ليست بدابة لها ذنب، ولكن لها لحية، كأنه يشير إلى أنه رجل (2) والأكثر عن علي أنها دابة. وروي ابن جريج عن أبي الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر (3) وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعا، ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان، فلا يبقى مؤمن إلا نكته في مسجده بعضا موسى نكته بيضاء يضيء بها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نكته وجهه بخاتم سليمان فيسود بها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق: بكم يا مؤمن؟ بكم يا كافر؟ ثم تقول لهم الدابة: يا فلان أنت من أهل الجنة، وبيا فلان أنت من أهل النار، فذلك قوله عز وجل: { وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ } الآية (4).

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني عقيل بن محمد

الجرجاني الفقيه، أخبرنا أبو الفرج المعافى بن زكريا البغدادي، أخبرنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، أخبرنا أبو كريب، أخبرنا الأشجعي، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن ابن عمر قال: تخرج الدابة من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثها (5). وبه عن محمد بن جرير الطبري قال: حدثني [عصام بن داود] (6) بن الجراح، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن سعيد، أخبرنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة، قلت: يا رسول الله من أين تخرج؟ قال: "من أعظم المساجد حرمة على الله، بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضرب الأرض تحتهم، وتنشق الصفا مما يلي المشعر، وتخرج الدابة من الصفا أول ما يبدر منها رأسها ملمعة ذات وبر وربش، لن يدركها

- (1) أخرجه الترمذي في تفسير سورة النمل: 9 / 44 وقال: "هذا حديث حسن"، وابن ماجه في الفتن، باب دابة الأرض: 2 / 1351-1352 والحاكم في المستدرک: 4 / 485-486 وسكت عنه الذهبي، ورواه الإمام أحمد: 2 / 295، والطبري في التفسير: 20 / 16. وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.
- (2) انظر: ابن كثير 3 / 377، القرطبي: 13 / 236 وروي عنه غير هذا، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن النزال بن سبرة قال: قيل لعلي بن أبي طالب: إن ناسا يزعمون أنك دابة الأرض، فقال: والله إن لدابة الأرض ريشا وزغبًا، ومالي ريش ولا زغب، وإن لها لحافر، ومالي من حافر. انظر: الدر المنثور: 6 / 382.
- (3) في "أ": بقر.
- (4) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه، انظر: الدر المنثور 6 / 383.
- (5) أخرجه الطبري: 20 / 14، وعزاه السيوطي (6 / 382) لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم وابن المنذر.
- (6) في "أ": عاصم بن رواد.

(6/179)

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ قَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَادَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84)

طالب ولن يفوتها هارب، تسمى الناس مؤمنا وكافرا، أما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن، وأما الكافر فتتكت بين عينيه نكتة سوداء، وتكتب بين عينيه كافرا" (1). وروي عن ابن عباس: أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم، وقال: إن الدابة لتسمع قرع عصاي هذه. وعن عبد الله بن عمر، قال: تخرج الدابة من شعب فيمس رأسها في السحاب ورجلاها في الأرض ما خرجنا، فتمر بالإنسان يصلي فنقول: ما الصلاة من حاجتك، فتخطمه (2).

وعن ابن عمر قال: تخرج الدابة ليلة جمع، والناس يسبرون إلى منى. وعن سهيل بن صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بئس الشعب شعب أحياد"، مرتين أو ثلاثا، قيل: ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: "تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعا من بين الخافقين" (3) وقال

وهب: وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير، فتخبر من رآها أن أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون (4) .
 { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ قَوْمًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا فَهُمْ يُورَعُونَ (83) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84) }
 قوله تعالى: { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ قَوْمًا } أي: من كل قرن جماعة،
 { مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا } وليس "من" هاهنا للتبعيض، لأن جميع المكذبين يحشرون، { فَهُمْ يُورَعُونَ } يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقون إلى النار. { حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا } يوم القيامة، { قَالَ } الله لهم: { أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا } ولم تعرفوها حق معرفتها، { أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } حين لم تفكروا فيها. ومعنى الآية: أكذبتهم

(1) أخرجه الطبري: 15 / 20، وقد تقدم الحديث نفسه من رواية حذيفة بن أسيد، قال الحافظ ابن كثير: (3 / 376): "رواه ابن جرير من طريقين عن حذيفة بن أسيد موقوفا، والله أعلم. ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعا، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم وهو يطوف. ولكن إسناده لا يصح". وانظر: مجمع الزوائد: 7 / 8.

(2) أخرجه الطبري: 16 / 20، وعزاه السيوطي (6 / 383) لنعيم بن حماد في "الفتن" عن عمرو بن العاص.

(3) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: 15 / 181، وابن مردويه، والبيهقي في "البعث" والطبراني في "الأوسط". وفيه رباح بن عبيد الله بن عمر، وهو ضعيف. انظر: الدر المنثور: 6 / 382، مجمع الزوائد: 7 / 8.

(4) ويلاحظ في الروايات الآتفة أن فيها تعارضا واختلافا وضعفا في كثير منها، ولذلك قال أبو حيان في "البحر المحيط" (6 / 96-97): "واختلفوا في ماهيتها -الدابة- وشكلها، ومحل خروجها، وعدد خروجها، ومقدار ما تخرج منها، وما تفعل بالناس، وما الذي تخرج به اختلافا مضطربا معارضا بعضه بعضا، ويكذب بعضه بعضا، ويكذب بعضه بعضا، فأطرحنا ذكره، لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح وتضييع لزمان نقله".

(6/180)

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَرْعٌ مِّنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87)

آياتي غير عالمين بها، ولم تفكروا في صحتها بل كذبتهم بها جاهلين؟
 { وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَرْعٌ مِّنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87) }

{ وَوَقَعَ الْقَوْلُ } وجب العذاب، { عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا } بما أشركوا، { فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ } قال قتادة: كيف ينطقون ولا حجة لهم، نظيره قوله تعالى: "هذا

يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون" (المرسلات-36) ، وقيل: لا ينطقون لأن أفواههم مختومة. قوله عز وجل: { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا { خَلَقْنَا (1) } اللَّيْلَ لَيْسَكُنْوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا } مضيا (2) يبصر فيه، { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يصدقون فيعتبرون. قوله تعالى: { وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَفَرَعٌ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } والصور قرن ينفخ فيه 60/أ إسرائيل، وقال الحسن: الصور هي القرن، وأول بعضهم كلامه أن الأرواح تجمع في القرن ثم ينفخ فيه فتذهب الأرواح إلى الأجساد فتحيا الأجساد. وقوله: { قَفَرَعٌ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } أي: فصعق، كما قال في آية أخرى: "فصعق من في السماوات ومن في الأرض" (الزمر-68) ، أي: ماتوا، والمعنى أنهم يلقي عليهم الفرع إلى أن يموتوا. وقيل: ينفخ إسرائيل [في الصور] (3) . ثلاث نفخات: نفخة الفرع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين (4) . قوله: { إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ } اختلفوا في هذا الاستثناء، روي عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل جبريل عن قوله: { إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ } قال: هم الشهداء متقلدون أسياهم حول العرش (5) .

وروى سعيد بن جبیر، وعطاء عن ابن عباس: هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل

(1) ساقط من "أ".

(2) ساقط من "أ".

(3) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(4) روى الطبري في ذلك حديثا مطولا مرفوعا: 19 / 20 .

(5) عزاه السيوطي في الدر (7 / 249) لأبي يعلى، والدارقطني في "الأفراد"، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في "البعث".

(6/181)

الفرع إليهم (1) . وفي بعض الآثار: "الشهداء ثنية الله عز وجل" (2) أي: الذين استثناهم الله تعالى. وقال الكلبي، ومقاتل: يعني جبريل، وميكائيل، وإسرائيل، وملك الموت، فلا يبقى بعد النفخة إلا هؤلاء الأربعة، ثم يقبض الله روح ميكائيل، ثم روح إسرائيل، ثم روح ملك الموت، ثم روح جبريل فيكون آخرهم موتاً جبريل عليه السلام. (3) .

ويروى أن الله تعالى يقول لملك الموت: خذ نفس إسرائيل، ثم يقول: من بقي يا ملك الموت؟ فيقول: سبحانك ربي تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، بقي جبريل وميكائيل وملك الموت، فيقول: خذ نفس ميكائيل، فيأخذ نفسه، فيقع كالطود العظيم، فيقول: من بقي؟ فيقول: سبحانك ربي تباركت وتعاليت، بقي جبريل وملك الموت، فيقول: مت يا ملك الموت، فيموت، فيقول: يا جبريل من بقي؟ فيقول: تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام وجهك الباقي الدائم وجبريل الميت الفاني، قال: فيقول يا جبريل لا بد من موتك، فيقع ساجداً يخفق بجناحيه فيروى أن فضل خلقه على فضل ميكائيل كالطود العظيم على ظرب من الظراب (4) . ويروى أنه يبقى مع هؤلاء الأربعة حملة العرش (5) فيقبض روح جبريل وميكائيل، ثم أرواح حملة العرش، ثم روح إسرائيل، ثم روح ملك الموت.

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى، أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن علي الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، أخبرنا علي بن حجر، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرنا محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يرفع رأسه، فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان من استثنى الله عز وجل أم رفع رأسه قبلي؟ ومن قال أنا خير من يونس بن مئى فقد كذب" (6)

- (1) انظر: الدر المنثور: 250 / 7، زاد المسير: 195 / 6.
(2) عزاه السيوطي (250 / 7) لسعيد بن منصور وعبد بن حميد، عن أبي هريرة موقوفاً. وهو مروى أيضاً عن سعيد بن جبير، انظر أيضاً: معاني القرآن للنحاس: 149 / 5.
(3) انظر: زاد المسير: 195 / 6، الدر المنثور: 250 / 7.
(4) رواه الفريابي، وعبد بن حميد، وأبو نصر السجزي في "الإبانة" وابن مردويه عن أنس. انظر: الدر المنثور: 250 / 7.
(5) استثناء حملة العرش مروى عن عكرمة في الدر المنثور: 251 / 7.
(6) أخرجه البخاري في مواضع كثيرة منها، تفسير سورة الزمر، وفي الأنبياء، ومسلم في الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام، برقم (2373): 4 / 1843-1844، والمصنف في شرح السنة: 105 / 15. وقال: "هذا حديث متفق على صحته، أخرجاه من أوجه عن أبي هريرة".

(6/182)

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُغِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88)

قال الضحاك: هم رضوان، والخور، ومالك، والزبانية. وقيل: عقارب النار وحياتها (1). قوله عز وجل: { وَكُلُّ { أَي: الذين أحيوا بعد الموت، { أَتَوْهُ { قرأ الأعمش، وحمزة، وحفص: "أتوه" مقصوراً بفتح التاء على الفعل، أي: جاءوه، وقرأ الآخرون بالمد وضم التاء كقوله تعالى: "وكلهم آتية يوم القيامة فرداً" (مريم-95)، { دَاخِرِينَ { صاغرين.
{ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُغِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88) {

- (1) ذكره ابن الجوزي في "زاد المسير": 195 / 6 عن ابن شاقلا من الحنابلة، ونقل القرطبي: (241 / 13) وأبو حيان: (100 / 7) عن بعض العلماء أن الصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل، والله أعلم. والذي اعتمده الطبري وابن كثير أن المراد بهم الشهداء، لأحاديث أخرى وردت في ذلك، إذ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

(6/183)

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ قَرَعِ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ (89)

{ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ قَرَعِ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ (89) }
قوله عز وجل: { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً } قائمة (1) واقفة، { وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ } أي: تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض. فتستوي بها وذلك أن كل شيء عظيم وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرتهم وبعد ما بين أطرافه فهو في حساب الناظر واقف وهو سائر، كذلك سير الجبال لا يرى يوم القيامة لعظمتها، كما أن سير السحاب لا يرى لعظمته وهو سائر، { صُنِعَ اللَّهُ } نصب على المصدر، { الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ } أي: أحكم، { إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ } قرأ ابن كثير، وأهل البصرة: بالياء والباقون بالتاء. { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ } بكلمة الإخلاص، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، قال أبو معشر: كان إبراهيم يحلف ولا يستثنى: أن الحسنة لا إله إلا الله. وقال قتادة: بالإخلاص. وقيل: هل كل طاعة (2) { فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا } قال ابن عباس: فمنها يصل الخير إليه، يعني: له من تلك الحسنة خير يوم القيامة، وهو الثواب (3) والأمن من العذاب، أما أن يكون له شيء خير من الإيمان فلا لأنه ليس شيء خيراً من قوله لا إله إلا الله. وقيل: فله خير منها يعني: رضوان الله، قال تعالى: "ورضوان من الله أكبر" (التوبة-72)، وقال محمد بن كعب، وعبد الرحمن بن زيد: "فله خير منها" يعني:

(1) ساقط من "أ".

(2) انظر: الطبري: 20 / 22-23. ولا تنافي بين هذه الأقوال فإن كلمة التوحيد "شهادة أن لا إله إلا الله" هي كلمة الإخلاص، ولا طاعة إلا بإخلاص. والله أعلم.

(3) ساقط من "أ".

(6/183)

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتٌ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْرَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (90)
إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَلْتَوِ الْقُرْآنَ فَمِنْ أُمَّتِي قَائِمًا يَهْتَدِي لِنَفْسِي وَمَنْ ضَلَّ
فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَبْرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا
رَبُّكَ بِعَافِيٍّ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

الأضعاف، أعطاه الله تعالى بالواحدة عشرًا فصاعدًا (1) وهذا حسن لأن للأضعاف خصائص، منها: أن العبد يسأل عن عمله ولا يسأل عن الأضعاف، ومنها: أن للشيطان سبيلاً إلى عمله وليس له سبيل إلى الأضعاف، ولا مطمع للخصوم في الأضعاف، ولأن الحسنة على استحقاق العبد والتضعيف كما يليق بكرم الرب تبارك وتعالى. { وَهُمْ مِنْ قَرَعِ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ } قرأ أهل الكوفة: "من فزع" بالتنوين "يومئذ" بفتح الميم، وقرأ الآخرون بالإضافة لأنه أعم فإنه يقتضي الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وبالتنوين كأنه فزع دون فزع، ويفتح أهل المدينة الميم من يومئذ.

{ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبِيَّةِ فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } (90) إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبِدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِعَافِيٍّ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93) }

{ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبِيَّةِ } يعني الشرك، { فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ } يعني ألقوا على وجوههم، يقال: كَبَّتُ الرَّجُلَ: إذا ألقى على وجهه، فانكَبَّ وأكَبَّ، وتقول لهم خزنة جهنم: { هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } في الدنيا من الشرك. قوله تعالى: { إِنَّمَا أَمْرُهُ } يقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم قل إنما أمرت، { أَنْ أُعْبِدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ } يعني: مكة، { الَّذِي حَرَّمَهَا } جعلها الله حرماً آمناً، لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد صيدها، ولا 60/ب يختلى خلاها، { وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ } خَلَقًا وَمَلَكًا، { وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } لله. { وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ } يعني: وأمرت أن أتلو القرآن، { فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } أي: نفع اهتدائه يرجع إليه، { وَمَنْ ضَلَّ } عن الإيمان وأخطأ عن طريق الهدى، { فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ } من المخوفين فليس علي إلا البلاغ. نسختها آية القتال (2). { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ } على نعمه، { سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ } يعني: يوم بدر، من القتل والسبي وضرب

(1) راجع فيما سبق تفسير سورة الأنعام: 3 / 210-211.

(2) راجع فيما سبق: 1 / 32-33 تعليق (1).

(6/184)

طيسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبُّ أُنْبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

الملائكة وجوههم وأديارهم، نظيره قوله عز وجل: [سأريكم آياتي فلا تستعجلون] (الأنبياء-37)، وقال مجاهد [1] سيريكم آياته في السماء والأرض وفي أنفسكم، كما قال: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم" (فصلت-53)، { فَتَعْرِفُونَهَا } يعني: تعرفون الآيات والدلالات، { وَمَا رَبُّكَ بِعَافِيٍّ عَمَّا تَعْمَلُونَ } وعدهم بالجزاء على أعمالهم. سورة القصص مكية إلا قوله عز وجل: { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } إلى قوله: { لَا تَتَّبِعِي الْجَاهِلِينَ } وفيها آية نزلت بين مكة والمدينة، وهي قوله عز وجل: { إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ } (2). بسم الله الرحمن الرحيم { طيسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبُّ أُنْبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) }

{ طيسم }

{ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } { تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ }

بالصدق { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يصدقون بالقرآن.
 { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا } استكبر وتَجَبَّرَ وتعظم { فِي الْأَرْضِ } أرض مصر { وَجَعَلَ
 أَهْلَهَا بَنِيًّا } فِرْقًا وَأَصْنَافًا فِي الْخِدْمَةِ وَالتَّسْخِيرِ { يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ }
 أراد بالطائفة: بني إسرائيل ثم فسّر الاستضعاف فقال: { يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ
 وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ } سَمَّى هَذَا اسْتِضْعَافًا لِأَنَّهُمْ عَجَزُوا وَضَعُفُوا عَنْ دَفْعِهِ عَنْ
 أَنْفُسِهِمْ { إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(2) انظر: الدر المنثور: 6 / 389، زاد المسير: 6 / 200.

(6/185)

وَيُرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ
 الْوَارِثِينَ (5)

{ وَيُرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ
 الْوَارِثِينَ (5) }

(6/190)

وَتُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ
 (6) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ قَالِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا
 تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)

{ وَتُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَحْذَرُونَ (6) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ قَالِيهِ فِي الْيَمِّ
 وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) }
 { وَيُرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ } يعني: بني إسرائيل،
 { وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً } قادة في الخير يقتدى بهم. وقال قتادة: ولاة وملوكا، دليله:
 قوله عز وجل: "وجعلكم ملوكًا" (المائدة-20)، وقال مجاهد: دعاة إلى الخير.
 { وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ } يعني: أملاك فرعون وقومه يخلفونهم في مساكنهم.
 { وَتُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ } نوطن لهم في أرض مصر والشام، ونجعلها لهم
 مكاتبًا يستقرون فيه، { وَتُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا } قرأ الأعمش،
 وحمزة، والكسائي: "ويرى" بالياء وفتحها، { فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا }
 مرفوعات على أن الفعل لهم، وقرأ الآخرون بالنون وضمها، وكسر الراء،
 ونصب الياء ونصب ما بعده، بوقوع الفعل عليه، { مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ }
 والحذر هو التوقي من الضرر، وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من
 بني إسرائيل فكانوا على وجلٍ منه، فأراهم الله ما كانوا يحذرون.
 { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ } وحي إلهام لا وحي نبوة، قال قتادة: قذفنا في قلبها
 (1)، وأم موسى يوحابد بنت لاوي بن يعقوب، { أَنْ أَرْضِعِيهِ } واختلفوا في
 مدة الرضاع، قيل: ثمانية أشهر. وقيل: أربعة أشهر. وقيل: ثلاثة أشهر كانت

ترضعه في حجرها، وهو لا يبكي ولا يتحرك (2) ، { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ } يعني: من الذبح، { قَالَقِيهِ فِي الْيَمِّ } واليم: البحر، وأراد هاهنا النيل، { وَلَا تَخَافِي } قيل: لا تخافي عليه من الغرق، وقيل: من الضيعة، { وَلَا تَحْزَنِي } على فراقه، { إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } روى عطاء عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال (3) .

(1) انظر: الطبري: 20 / 29-30.

(2) قال الإمام الطبري (20 / 30): "وأولى قيل قيل في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر أم موسى أن ترضعه، فإذا خافت عليه من عدو الله فرعون وجنده أن تلقيه في اليم، وجائز أن تكون خافتهم عليه بعد أشهر من ولادها إياه، وأي ذلك كان، فقد فعلت ما أوحى الله إليها فيه، ولا خبر قامت به حجة، ولا فطرة في العقل لبيان أي ذلك كان من أي، فأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال جل ثناؤه. واليم الذي أمرت أن تلقيه فيه هو النيل." (3) رواية الضحاك عن ابن عباس منقطعة، لأنه لم يسمع من ابن عباس شيئاً.

(6/190)

إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر، استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوههم إلى أن أنجاهم على يد نبيه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أم موسى لما تقاربت ولادتها، وكانت قابلةً من القوايل التي وكلهن فرعون بحبالي بني إسرائيل مصافية لأم موسى، فلما ضرب بها الطلق أرسلت إليها فقالت: قد نزل بي ما نزل، فلينفعني حبك إياي اليوم، قالت: فعالجت قبالتها، فلما أن وقع موسى بالأرض هالها نورٌ بين عيني موسى، فارتعش كل مفصل منها، ودخل حب موسى قلبها. ثم قالت لها: يا هذا ما جئت إليك حين دعوتني إلا ومن رأيي قتل مولودك، ولكن وجدت لابنك هذا حباً ما وجدت حب شيء مثل حبه، فاحفظي ابنك فإني أراه هو عدونا، فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون، فجاءوا إلي بابها ليدخلوا على أم موسى، فقالت أخته يا أمه هذا الحرس (1) بالباب، فلفقت موسى في خرقة، فوضعت في التنور وهو مسجور، وطاش عقلها، فلم تعقل ما تصنع.

قال: فدخلوا فإذا التنور مسجور، ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن، فقالوا لها: ما أدخل عليك القابلة؟ قالت: هي مصافية لي فدخلت علي زائرة، فخرجوا من عندها، فرجع إليها عقلها فقالت لأخت موسى: فأين الصبي؟ قالت لا أدري، فسمعت بكاء الصبي من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله سبحانه وتعالى النار عليه بردًا وسلامًا، فاحتملته (2) قال: ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها، فقذف الله في نفسها أن تتخذ له تابوتًا ثم تقذف التابوت في اليم وهو النيل، فانطلقت إلى رجل نجار من قوم فرعون فاشتريت منه تابوتًا صغيرًا، فقال لها النجار: ما تصنعين بهذا التابوت؟ قالت: ابن لي أخيه في التابوت، وكرهت الكذب، قال ولم تقل: أخشى عليه كيد فرعون، فلما اشتريت التابوت وحملته وانطلقت به انطلق النجار إلى الذابحين ليخبرهم بأمر أم موسى، فلما هم بالكلام أمسك الله لسانه فلم يطق الكلام، وجعل يشير بيده فلم يدر الأمناء ما يقول، فلما

أعيانهم أمره قال كبيرهم: اضربوه فاضربوه وأخرجوه، فلما انتهى النجار إلى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم، فانطلق أيضاً يريد الأمان فأتاهم ليخبرهم فأخذ الله لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئاً، فاضربوه وأخرجوه، فوقع في واد يهوى فيه حيران، فجعل الله عليه إن رد لسانه وبصره أن لا يدل عليه وأن يكون معه يحفظه حيث 61/أ ما كان، فعرف الله منه الصدق فردّ عليه لسانه وبصره فخر لله (3)

(1) في "أ": الحارس.

(2) ذكره القرطبي أيضاً عن وهب، وهو فيما يظهر متلقى عن أخبار أهل الكتاب، فإن وهبا أدخل في التفسير كثيراً من مروياتهم كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله.

(3) ساقط من "أ".

(6/191)

ساجداً، فقال: يا رب دلّني على هذا العبد الصالح، فدله الله عليه، فخرج من الوادي فأمن به وصدقه، وعلم أن ذلك من الله عز وجل. وقال وهب بن منبه: لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها جميع الناس، فلم يطلع على حبلها أحد من خلق الله، وذلك شيء ستره الله لما أراد أن يمن به على بني إسرائيل، فلما كانت السنة التي يولد فيها بعث فرعون القوابل وتقدم إليهن ففتشن النساء تفتيشاً لم يفتشن قبل ذلك مثله (1)، وحملت أم موسى بموسى (2) فلم يمتأ بطنها، ولم يتغير لونها، ولم يظهر لبنها، وكانت القوابل لا تتعرض لها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة، ولم يطلع عليها أحد إلا أخته مريم، فأوحى الله إليها "أن أرضعيه، فإذا خفت عليه" الآية، فكتمته أمه ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها، لا يبكي ولا يتحرك، فلما خافت عليه عملت تابوتا له مطبقاً ثم ألقته في البحر ليلاً.

قال ابن عباس وغيره: وكان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها، وكانت من أكرم الناس عليه، وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى فرعون، وكان بها برص شديد، وكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسحرة فنظروا في أمرها، فقالوا له: أيها الملك لا تبرأ إلا من قبل البحر، يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك، وذلك في يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس، فلما كان يوم الاثنين غدا فرعون إلى مجلس كان على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم، وأقبلت ابنة فرعون في جواربها حتى جلست على شاطئ النيل مع جواربها تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن، إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج، فقال فرعون: إن هذا لشيء في البحر قد تعلق بالشجرة ايتوني به، فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه، فعالجوا فتح الباب فلم يقدرُوا عليه وعالجوا كسره فلم يقدرُوا عليه، فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نورا لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فإذا هي بصبي صغير في مهده، وإذا نور بين عينيه، وقد جعل الله رزقه في إبهامه يمصه لبناً، فألقى الله لموسى المحبة في قلب آسية، وأحبه فرعون وعطف عليه، وأقبلت بنت فرعون، فلما أخرجوا الصبي من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها

فبرأت، فقبلته وضمته إلى صدرها، فقال الغواة من قوم فرعون: أيها الملك إنا نظن أن ذلك المولود الذي تحذر منه بني إسرائيل هو هذا، رمي به في البحر فرقا منك فاقتله، فهم فرعون بقتله، قالت آسية: قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا، وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها، وقال فرعون أما أنا فلا حاجة لي فيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو قال فرعون يومئذ هو قرّة عين لي كما هو

(1) ساقط من "أ".

(2) ساقط من "أ".

(6/192)

قَالَتْ قَطْطَهُ أَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ (9)

لك لهداه الله كما هداها" (1) ، ف قيل لآسية سميه فقالت: سميته موسى لأننا وجدناه في الماء والشجر فمو هو الماء، وسى هو الشجر (2) ، فذلك قوله عز وجل: { قَالَتْ قَطْطَهُ أَلُ فِرْعَوْنَ }
 { قَالَتْ قَطْطَهُ أَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ (9) }
 { قَالَتْ قَطْطَهُ أَلُ فِرْعَوْنَ } والالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب، { لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا } وهذه اللام تسمى لام العاقبة ولام الصيرورة، لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا ولكن صار عاقبة أمرهم إلى ذلك، قرأ حمزة والكسائي: "حَزَنًا" بضم الحاء وسكون الزاي، وقرأ الآخرون بفتح الحاء والزاي، وهما لغتان، { إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } عاصين (3) . أئمين.

قوله تعالى: { وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ } قال وهب: لما وضع التابوت بين يدي فرعون فتحوه فوجد فيه موسى فلما نظر إليه قال عبراني من الأعداء فعاظه ذلك، وقال: كيف أخطأ هذا الغلام الذبح؟ وكان فرعون قد استنكح امرأة من بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء ومن بنات الأنبياء وكانت أما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم وتعطيهم، قالت لفرعون وهي قاعده إلى جنبه: هذا الوليد أكبر من ابن سنة وإنما أمرت أن يذبح الولدان لهذه السنة فدعه يكون قرّة عين لي وذلك، { لَا تَقْتُلُوهُ } يروي أنها قالت له: إنه أتانا من أرض أخرى ليس من بني إسرائيل { عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ } أن هلاكهم على يديه، فاستحياه فرعون، وألقى الله عليه محبته وقال لامرأته: عسى أن ينفعك فأما أنا فلا أريد نفعه، قال وهب قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية: عسى أن ينفعنا، لنفعه الله، ولكنه أبقى، للشقاء الذي كتبه الله عليه (4) .

- (1) انظر: الطبري: 20 / 32، مجمع الزوائد: 7 / 56 وما بعدها وقد تقدم
تخريج حديث الفتون في تفسير سورة طه. وهذا قطعة منه.
(2) في "أ": البحر.
(3) ساقط من "أ".
(4) انظر: الطبري: 20 / 34.

(6/193)

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ (11)

{ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا
لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا
يَسْعُرُونَ (11) }

وقوله تعالى: { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَارِعًا } أي: خاليا من كل شيء إلا من
ذكر موسى وهمه، وهذا قول أكثر المفسرين (1). وقال الحسن: "فارغا" أي:
ناسيا للوحي الذي أوحى الله إليها حين أمرها أن تلقيه في البحر ولا تخاف ولا
تحزن، والعهد الذي عهد أن يرده إليها وبجعله من المرسلين، فجاءها الشيطان
فقال: كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله
فألقيته في البحر، وأغرقته، ولما أتاه الخبر بأن فرعون أصابه في النيل قالت:
إنه وقع في يد عدوه الذي فررت منه، فأنساها عظيم البلاء ما كان من عهد الله
إليها. وقال أبو عبيدة: "فارغا" أي: فارغا من الحزن، لعلمها بصدق وعد الله
تعالى، وأنكر القتيبي هذا، وقال: كيف يكون هذا والله تعالى يقول: "إن كادت
لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها"؟ والأول أصح.

قول الله عز وجل: { إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ } قيل الهاء في "به" راجعة إلى
موسى، أي: كادت لتبدي به أنه ابنها من شدة 61/ب وجدها. وقال عكرمة عن
ابن عباس: كادت تقول: وإبناه. وقال مقاتل: لما رأت التابوت يرفعه موج
ويضعه آخر خشيت عليه العرق فكادت تصيح من شفتها. وقال الكلبي: كادت
تظهر أنه ابنها، وذلك حين سمعت الناس يقولون لموسى بعدما شب: موسى
بن فرعون، فشق عليها فكادت تقول: بل هو ابني. وقال بعضهم: الهاء عائدة
إلى الوحي أي: كادت تبدي بالوحي الذي أوحى الله إليها أن يرده إليها (2).
{ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا } بالعصمة والصبر والتثبيت، { لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }
{ الْمَصْدِقِينَ لَوْعَدَ اللَّهُ حِينَ قَالَ لَهَا: { إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ }
{ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ } أي: لمريم أخت موسى: { قُصِّيهِ } اتبعي أثره حتى تعلمي
خبره، { فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ } أي: عن بعد، وفي القصة أنها كانت تمشي
جانبا وتنتظر اختلاسا تري أنها لا تنتظره،

- (1) انظر الدر المنثور: 6 / 394-395، وهو ما رجحه الطبري: 20 / 37.
(2) ذكر هذه الأقوال الطبري: 20 / 37-38، ثم قال: "والصواب من القول
في ذلك ما قاله الذين ذكرنا قولهم أنهم قالوا: إن كادت لتقول: يا بنياه!
لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، وأنه عقيب قوله: "وأصبح فؤاد أم

موسى فارغا" فلأن يكون لو لم يكن ممن ذكرنا في ذلك إجماع على ذلك من ذكر موسى، لقربه منه، أشبه من أن يكون من ذكر الوحي..".

(6/194)

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

{ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } أنها أخته وأنها ترقبه، قال ابن عباس: إن امرأة فرعون كل همها من الدنيا أن تجد له مرضعة، فكلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها، فذلك قوله عز وجل: { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ }
{ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) }

(6/195)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) }
{ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ } والمراد من التحريم المنع، والمراضع: جمع المرضع، { مِنْ قَبْلُ } أي: من قبل مجيء أم موسى، فلما رأت أخت موسى التي أرسلتها أمه في طلبه ذلك قالت لهم: هل أدلكم؟ وفي القصة أن موسى مكث ثمان ليال لا يقبل ثديا ويصيح وهم في طلب مرضعة له.
{ فَقَالَتْ } يعني أخت موسى، { هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ } أي: يضمونه (1) { لَكُمْ } وبرضعونه، وهي امرأة قد قتل ولدها فأحب شيء إليها أن تجد صغيرا ترضعه، { وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ } والنصح ضد الغش، وهو تصفية العمل من شوائب الفساد، قالوا: نعم فأتينا بها. قال ابن جريج والسدي: لما قالت أخت موسى: "وهم له ناصحون" أخذوها وقالوا: إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله. فقالت: ما أعرفه، وقلت هم للملك ناصحون. وقيل: إنها قالت: إنما قلت هذا رغبة في سرور الملك واتصالنا به. وقيل إنها لما قالت: "هل أدلكم على أهل بيت" قالوا لها: من؟ قالت: أمي قالوا: ولأمك ابن؟ قالت: نعم هارون، وكان هارون ولد في سنة لا يقتل فيها، قالوا: صدقت، فأتينا بها، فانطلقت إلى أمها وأخبرتها بحال ابنها، وجاءت بها إليهم، فلما وجد الصبي ربح أمه قبل ثديها، وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه ريبًا. قال السدي: كانوا يعطونها كل يوم ديناراً فذلك قوله تعالى: { فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا }
{ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا } { وَلَا تَحْزَنَ } أي: ولئلا تحزن، { وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ } برده إليها، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } أن الله وعدها برده إليها.
{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ } قال الكلبي: الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوُّ مُضِلٌ مُبِينٌ (15)

وغيره: ثلاث وثلثون سنة، { وَاسْتَوَى } أي: بلغ أربعين سنة [(1) ، ورواه (2) سعيد بن جبیر عن ابن عباس، وقيل: استوى انتهى شبابه { أَتَيْتَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا } أي: الفقه والعقل والعلم في الدين، فعلم موسى وحكم قبل أن يبعث نبيا، { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ }

{ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوُّ مُضِلٌ مُبِينٌ (15) } قوله تعالى: { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ } يعني: دخل موسى المدينة. قال السدي: هي مدينة "منف" من أرض مصر. وقال مقاتل: كانت قرية "حابين" على رأس فرسخين من مصر. وقيل: مدينة "عين الشمس" (3) ، { عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا } وقت القائلة واشتغال الناس بالقلولة. وقال محمد بن كعب القرظي: دخلها فيما بين المغرب والعشاء. واختلفوا في السبب الذي من أجله دخل المدينة في هذا الوقت؛ قال السدي: وذلك أن موسى عليه السلام كان يسمى ابن فرعون، فكان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه، فركب فرعون يوما وليس عنده موسى، فلما جاء موسى قيل له: إن فرعون قد ركب، فركب في أثره فأدركه المقيط بأرض "منف" فدخلها نصف النهار، وليس في طرفها أحد، فذلك قوله عز وجل: { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا } قال ابن إسحاق: كان لموسى شيعه من بني إسرائيل يستمعون منه ويقفون به، فلما عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه، فخالفهم في دينه حتى ذكر ذلك منه وخافوه وخافهم، فكان لا يدخل قرية إلا خائفا مستخيفا، فدخلها يوما على حين غفلة من أهلها. وقال ابن زيد: لما علا موسى فرعون بالعصا في صغره، فاراد فرعون قتله، قالت امرأته: هو صغير، فترك قتله وأمر بإخراجه من مدينته، فلم يدخل عليهم إلا بعد أن كبر وبلغ أشده فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها، يعني: عن ذكر موسى، أي: من بعد نسيانهم خبره وأمره لبعدهم به (4) .

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(2) في "ب": وهذه رواية.

(3) في "أ": عين شمس.

(4) أخرج هذه الأقوال الطبري: 20 / 43-44، ثم قال: "وأولى الأقوال في الصحة بذلك أن يقال كما قال جل ثناؤه: (ولما بلغ أشده واستوى.. ودخل

المدينة على حين غفلة من أهلها): " أي حسبنا هذا، إذ لم يرد نص صحيح في سبب دخوله عليه السلام المدينة على حين غفلة من أهلها.

(6/196)

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17)

وروي عن علي في قوله: "حين غفلة" كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم. { فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ } يختصمان ويتنازعان، { هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ } بني إسرائيل، { وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ } من القبط، قيل: الذي كان من شيعته السامري، والذي من عدوه من القبط، قيل: طباح فرعون اسمه فليثون. وقيل: "هذا من شيعته. وهذا من عدوه" أي: هذا مؤمن وهذا كافر، وكان القبطي يسخر الإسرائيلي ليحمل الحطب إلى المطبخ. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع، وكان بنو إسرائيل قد عزوا بمكان موسى، لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم، فوجد موسى رجلاً يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من آل فرعون، { فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ } فاستعأته الإسرائيلي على الفرعوني، والاستعانة: طلب الغوث، فغضب موسى واشتد غضبه؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم، ولا يعلم الناس إلا أنه من قبل الرضاعة من أم موسى، فقال للفرعوني: خل سبيله، فقال: إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك، فنارعه، فقال الفرعوني 1/62 لقد هممت أن أحمله عليك، وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في القوة والبطش، { فَوَكَرَهُ مُوسَى } وقرأ ابن مسعود: "فلكره موسى"، ومعناها واحد، وهو الضرب بجمع الكف. وقيل: "الوكز" الضرب في الصدر و"اللكز" في الظهر. وقال الفراء: معناهما واحد، وهو الدفع، قال أبو عبيدة: الوكز الدفع بأطراف الأصابع، وفي بعض التفاسير: عقد موسى ثلاثاً وثمانين وضربه في صدره، { فَقَصَى عَلَيْهِ } أي: فقتله وفرغ من أمره، وكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه، فندم موسى عليه السلام، ولم يكن قصده القتل، فدفنه في الرمل، { قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ } أي: بين الضلالة. { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) } { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي } بقتل القبطي من غير أمر، { فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ } { قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ } بالمغفرة، { فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا } عوناً، { لِلْمُجْرِمِينَ } قال

(6/197)

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)

ابن عباس: للكافرين، وهذا يدل على أن الإسرائيليين الذي أعانه موسى كان كافرا، وهو قول مقاتل، قال قتادة: لن أعين بعدها على خطيئة، قال ابن عباس: لم يستن فابتلي به في اليوم الثاني.

{ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) }

{ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ } أي: في المدينة التي قتل فيها القبطي، { خَائِفًا } من قتله القبطي، { يَتَرَقَّبُ } ينتظر سوءا، والترقب: انتظار المكروه، قال الكلبي: ينتظر متى يؤخذ به، { فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ } يستغيثه ويصيح به من بُعد. قال ابن عباس: أتى فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا منا رجلا فخذ لنا بحقنا، فقال: ابغوا لي قاتله ومن يشهد عليه، فلا يستقيم أن يقضي بغير بينة، فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيليين يقاتل فرعونيا فاستغاثه على الفرعوني فصادف موسى، وقد ندم على ما كان منه بالأمس من قتل القبطي، { قَالَ لَهُ مُوسَى } للإسرائيلي: { إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ } ظاهر الغواية قاتلت بالأمس رجلا فقتلته بسببك، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه؟ وقيل: إنما قال موسى للفرعوني: إنك لغوي مبين بظلمك، والأول أصوب، وعليه الأكثرون أنه قال ذلك للإسرائيلي.

{ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا } وذلك أن موسى أدركته الرقة (1) بالإسرائيلي فمد يده ليبطش بالفرعوني، فظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به لما رأى من غضبه وسمع قوله: إنك لغوي مبين، { قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ } ما تريد، { إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ } بالقتل ظلما، { وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ } فلما سمع القبطي ما قال الإسرائيلي علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني، فانطلق إلى فرعون وأخبره بذلك، وأمر فرعون بقتل موسى. قال ابن عباس: فلما أرسل فرعون الذباحين لقتل موسى أخذوا الطريق الأعظم.

{ وَجَاءَ رَجُلٌ } من شيعة موسى، { مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ } أي: من آخرها، قال أكثر أهل التأويل: اسمه "حزيبيل" مؤمن من آل فرعون، وقيل: اسمه "شمعون"، وقيل: "شمعان"، { يَسْعَى } (1) في "أ": الرأفة.

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

أي: يسرع في مشيه، فأخذ طريقا قريبا حتى سبق إلى موسى فأخبره وأذروه حتى أخذ طريقا آخر، { قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ } يعني: أشرف قوم فرعون يتشاورون فيك، { لِيَقْتُلُوكَ } قال الزجاج: يأمر بعضهم بعضا بقتلك، { فَأَخْرُجُ } من المدينة، { إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ } في الأمر لك بالخروج.
{ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) }

(6/199)

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُوتَا شَيْخَ كَبِيرٌ (23)

{ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُوتَا شَيْخَ كَبِيرٌ (23) }

{ فَخَرَجَ مِنْهَا } موسى، { خَائِفًا يَتَرَقَّبُ } أي: ينتظر الطلب، { قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } الكافرين، وفي القصة: أن فرعون بعث في طلبه حين أخبر بهربه فقال اركبوا ثنيات الطريق فإنه لا يعرف الطريق.
{ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ } أي: قصد نحوها ماضيا إليها، يقال: داره تلقاء دار فلان، إذا كانت محاذيتها، وأصله من اللقاء، قال الزجاج: يعني سلك الطريق الذي تلقاء مدين فيها، ومدين هو مدين بن إبراهيم، سميت البلدة باسمه، وكان موسى قد خرج خائفا بلا ظهر ولا جذاء ولا زاد، وكانت مدين على مسيرة ثمانية أيام من مصر، { قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ } أي: قصد الطريق إلى مدين، قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريق إليها قبل، فلما دعا جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به إلى مدين. قال المفسرون: خرج موسى من مصر ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر والبقل، حتى يرى خضرته في بطنه، وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه. قال ابن عباس: وهو أول ابتلاء من الله عز وجل لموسى عليه السلام.

{ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ } وهو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم، { وَجِدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ } جماعة { مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ } مواشيهم، { وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ } يعني: سوى الجماعة، { امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ } يعني: تحبسان وتمنعان أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتخلو لهم البئر، قال الحسن: تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس، وقال قتادة: تكفان الناس عن أغنامهما. وقيل: تمنعان أغنامهما

(6/199)

عن أن تشذ وتذهب. والقول الأول أصوبها، لما بعده، وهو قوله: { قَالَ } يعني: موسى للمراتين، { مَا حَطُّكُمَا } ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس؟ { قَالَتَا لَا تَسْقِي } أغنامنا، { حَتَّى يُصَدِّرَ الرَّعَاءُ } قرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، وابن عامر: "يصدر" بفتح الياء وضم الدال على اللزوم، أي: حتى يرجع الرعاء عن الماء، وقرأ الآخرون: بضم الياء وكسر الدال، أي: حتى يصرفوا هم مواشيهم عن الماء، و"الرعاء" جمع راع، مثل: تاجر وتجار. ومعنى الآية: لا نسقي مواشينا حتى يصدر الرعاء، لأننا امرأتان لا نطبق أن نسقي، ولا نستطيع أن نزاحم الرجال، فإذا صدروا سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم في الحوض. { وَأَبُوتَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } لا يقدر أن يسقي مواشيه، فلذلك احتجنا نحن إلى سقي الغنم. واختلفوا في اسم أبيهما، فقال مجاهد، والضحاك، والسدي 62/ب والحسن: هو شعيب النبي عليه السلام. وقال وهب بن منبه، وسعيد بن جبير: هو يثرون (1) بن أخي شعيب، وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعدما كف بصره، فدفن بين المقام وزمزم. وقيل: رجل ممن آمن بشعيب (2) قالوا: فلما سمع موسى قولهما رحمهما فاقتلع صخرة من رأس بئر أخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها إلا جماعة من الناس.

(1) قال ابن كثير: إن هذا موجود في كتب بني إسرائيل.
(2) قال الطبري رحمه الله (20 / 62): "وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخير، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه..". وبعد أن ذكر ابن كثير الآراء السالفة قال: (3 / 385-386): "وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه: (وما قوم لوط منكم ببعيد) وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة، كما ذكره غير واحد. وما قيل إن شعيبا عاش مدة طويلة إنما هو -والله أعلم- احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب: أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده".

ولذلك قال الأستاذ سيد قطب في "الظلال" (5 / 2687) تعليق (1) -طبعة دار الشروق- "... وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو -شعيب- وإنما هو شيخ آخر من مدين. والذي يحمل على هذا الترجيح: أن هذا الرجل شيخ كبير. وشعيب شهد مهلك قومه، المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب -النبي- بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل بنتي نبينهم الشيخ الكبير. فليس هذا سلوك قوم مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل!. يضاف إلى هذا: أن القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لموسى صهره، ولو كان شعيبا النبي سمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات".

(6/200)

فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا

سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ (25)

وقال ابن إسحاق: إن موسى زاحم القوم ونحاهم عن رأس البئر، فسقى غنم
المرأتين. ويروى: أن القوم لما رجعوا بأغنامهم غطوا رأس البئر بحجر لا
يرفعه إلا عشرة نفر، فجاء موسى ورفع الحجر وحده، وسقى غنم المرأتين.
ويقال: إنه نزع ذنوبا واحدا ودعا فيه بالبركة، فروى منه جميع الغنم (1)، فذلك
قوله: { فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ }
{ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ }
(24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا
سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ (25)

{ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ } ظل شجرة، فجلس في ظلها من شدة
الحر وهو جائع، { فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ } طعام، { فَسَقَى }
قال أهل اللغة اللام بمعنى "ألى"، يقال: هو فقير له، وفقير إليه، يقول: إنني
لما أنزلت إلي من خير، أي: طعام، فقير محتاج، كان يطلب الطعام لجوعه.
قال ابن عباس: سأل الله تعالى فلقه خبز يقيم بها صلبه. قال الباقر: لقد قالها
وإنه لمحتاج إلى شق تمر. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: لقد قال
موسى: { رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } وهو أكرم خلقه عليه، ولقد
افتقر إلى شق تمر. وقال مجاهد: ما سأله إلا الخبز (2). قالوا: فلما رجعتا
إلى أبيهما سريعا قبل الناس وأغنامهما حُقِل بطنان، قال لهما: ما أعجلكما؟
قالتا: وجدنا رجلا صالحا رحما فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحدهما: اذهبي
فادعيه لي.

قال الله تعالى: { فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ } قال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه: ليست بسلفع من النساء (3) حَرَّاجَةٌ وِلاجَةٌ، ولكن
جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء، { قَالَتْ إِنَّ أَبِي
يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا } قال أبو حازم سلمة بن

(1) أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في "المصنف"، وعبد بن حميد وابن
المنذر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم -وصححه- عن عمر ابن الخطاب
رضي عنه أثرا في ذلك، وسأقه ابن كثير مختصرا. انظر: المصنف: 11 /
530-531، المستدرک: 2 / 407، الطبري: 20 / 64، الدر المنثور: 6 / 405،
وابن كثير: 3 / 385، وليس في شيء من الروايات التي ساقها المفسرون
أي: حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم في دلائل قوة موسى عليه
السلام، كرفع الحجر الذي يغطي البئر، وكان لا يرفعه -فيما قالوا- إلا عشرون
أو أربعون أو أكثر أو أقل... إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم موسى وسقى
للمرأتين أو سقى لهما مع الرعاء.

ولا حاجة لما رواه كثير من المفسرين عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشي
خلفي ودليني على الطريق خوف أن يراها.. فهذا كله تكلف لا داعي له، ودفع
لريبة لا وجود لها، وموسى -عليه السلام- عفيف النظر، نظيف الحس، وهي
كذلك، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف، فالعفة تنضح في التصرف
العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع!. انظر: في ظلال القرآن: 5 / 2687-
2688.

(2) انظر هذه الروايات في الدر المنثور: 6 / 406-407، والله أعلم بهذا كله،

فليس في شيء منها خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم.
(3) السلفع من النساء: الجريئة على الرجال، السليطة.

(6/201)

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ
إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمَسَّكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَانِي جَجَّ فَإِنْ أُنْمَمْتَ
عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ سَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ
(27)

دينار: لما سمع ذلك موسى أراد أن لا يذهب، ولكن كان جائعًا فلم يجد بُدًّا من
الذهاب، فمشيت المرأة ومشى موسى خلفها، فكانت الريح تضرب ثوبها
فتصف ردفها، فكره موسى أن يرى ذلك منها، فقال لها: امشي خلفي ودليني
على الطريق إن أخطأت، ففعلت ذلك، فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء
مهيا، فقال: اجلس يا شاب فتعش، فقال موسى: أعود بالله، فقال شعيب:
ولم ذاك ألسنت بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضا لما سقيت
لهما، وأنا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضا من الدنيا،
فقال له شعيب: لا والله يا شاب، ولكنها عادتني وعادة آبائي، نقرى الضيف،
ونطعم الطعام، فجلس موسى وأكل (1).

{ قَلَمًا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ } يعني: أمره أجمع من قتله القبطي وقصد
فرعون قتله، { قَالَ لَا تَخَفْ تَجَوَّتْ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } يعني: فرعون
وقومه، وإنما قال هذا لأنه لم يكن لفرعون سلطان على مدين.

{ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)
قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمَسَّكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَانِي جَجَّ فَإِنْ
أُنْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ سَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّالِحِينَ (27) }

{ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ } اتخذها أجيرًا ليرعى أغنامنا، { إِنَّ خَيْرَ مَنِ
اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } يعني: خير من استعملت من قوي على العمل وأدى
الأمانة، فقال لها أبوها: وما علمك بقوته وأمانته؟ قالت: أما قوته: فإنه رفع
حجرا من رأس البئر لا يرفعه إلا عشرة. وقيل: إلا أربعون رجلا وأما أمانته:
فإنه قال لي امشي خلفي حتى لا يتصف الريح بدنك.

{ قَالَ } شعيب عند ذلك: { إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمَسَّكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ } واسمها
"صفورة" و"ليا" في قول شعيب الجبائي، وقال ابن إسحاق: "صفورة"
و"شرفا" وقال غيرهما: الكبرى "صفراء" والصغرى "صفيراء". وقيل زوجته
الكبرى. وذهب أكثرهم إلى أنه زوجه الصغرى منهما واسمها

(1) عزاه السيوطي في الدر (6 / 407) لابن عساكر عن أبي حازم، وما انفرد
به ابن عساكر من الرواية فهو ضعيف، قال السيوطي في مقدمة زوائد الجامع
الصغير: كل ما عزي لابن عدي في الكامل والخطيب في التاريخ والعقيلي في
الضعفاء وابن عساكر.. فهو ضعيف.

(6/202)

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَصَيْتُ فَلَا عُذْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا تَقُولُ
وَكَيْلُ (28)

"صفورة"، وهي التي ذهبت لطلب موسى (1) ، { عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَانِي حِجِّ }
{ يعني: أن تكون أجيرًا لي ثمان سنين، قال الفراء: يعني: تجعل ثوابي من
تزويجها أن ترعى غنمي ثمانى حجج، تقول العرب: أجرك الله بأجرك أي:
أثابك، والحجج: السنون، واحدها حجة، { فَإِنْ أْتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ } أي:
إن أتممت عشر سنين فذلك تفضل منك وتبرع، ليس بواجب عليك، { وَمَا لِي بِرَبِّ
أَنْ أَسْأَلَكَ } أي: ألزمتك تمام العشر إلا أن تتبرع { سَتَجِدُنِي إِنْ سَاءَ اللَّهُ
مِنَ الصَّالِحِينَ } قال عمر: يعني: في حسن الصحبة والوفاء بما قلت.
{ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَصَيْتُ فَلَا عُذْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا تَقُولُ
وَكَيْلُ (28) }

{ قَالَ } موسى، { ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ } يعني: هذا الشرط بيني وبينك، فما
شرطت عليّ فلك وما شرطت من تزويج إحداهما فلي (2) ، والأمر بيننا، تم
الكلام، ثم قال: { أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَصَيْتُ } يعني: أي الأجلين: و"ما" صلة،
"قصيت": أتممت وفرغت منه، الثمان أو العشر، { فَلَا عُذْوَانَ عَلَيَّ } لا ظلم
عليّ بأن أطالب بأكثر منهما، { وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا تَقُولُ وَكَيْلُ } قال ابن عباس
ومقاتل: شهيد فيما بيني وبينك. وقيل: حفيظ. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد
المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا
محمد بن إسماعيل، أخبرنا محمد بن عبد الرحيم، أخبرنا سعيد بن سليمان،
أخبرنا مروان بن شجاع، عن سالم الأبطس، عن سعيد بن جبير، قال: سألتني
يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم
على خير العرب (3) فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس قال: قضى أكثرهما
وأطيبهما، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال فعل (4) وروي عن أبي
ذرٍّ مرفوعًا: إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأبرهما، وإذا
سئلت: فأبي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت، فقالت يا
أبت استأجره، فتزوج أصغرهما وقضى أوقاهما (5) .

(1) انظر: الدر المنثور 6 / 408، زاد المسير: 6 / 216-217، ابن كثير: 3 /
386، وليس في شيء من الأحاديث تعيين اسم الصغرى والكبرى. وسيأتي
حديث أبي ذر مرفوعا في أنه تزوج الصغرى.

(2) في "أ": علي.

(3) في البخاري: خبر العرب.

(4) أخرجه البخاري في الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد: 5 / 289-290.
والمراد بقوله: رسول الله صلى الله عليه وسلم: من اتصف بذلك ولم يرد
شخصا بعينه.

(5) أخرجه الطبراني في الأوسط: 2 / 19، والخطيب في تاريخ بغداد: 2 /
128.

قال الهيثمي: (8 / 203): "رواه الطبراني في الصغير والأوسط، والبخاري
باختصار، وفي إسناد الطبراني عويد بن أبي عمران الجوني ضعفه ابن معين
وغيره، ووثقه ابن حبان، وبقية رجال الطبراني ثقات" وانظر: 7 / 88 أيضا
وسأله ابن كثير (3 / 387) من رواية البزار الذي قال: "لا نعلم يروى عن أبي

ذر إلا بهذا الإسناد" وفي إسناده "عويده.." ومن حديثه رواه ابن أبي حاتم وفيه زيادة غريبة.

(6/203)

وقال وهب: أنكحه الكبرى (1) . وروي عن شداد بن أوس مرفوعًا: بكى شعيب النبي صلى الله عليه وسلم [من حب الله عز وجل] (2) حتى عمي فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، فقال الله: ما هذا البكاء؟ أشوقًا إلى الجنة أم خوفًا من النار؟ قال: لا يا رب، ولكن شوقًا إلى لقائك، فأوحى الله إليه 63/أ إن يكن ذلك فهنيئًا لك لقائي [يا شعيب] (3) ، لذلك أخدمتك موسى كليمي (4) . ولما تعاقدا هذا العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه، واختلفوا في تلك العصا؛ قال عكرمة: خرج بها آدم من الجنة فأخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلا فدفعها إليه (5) . وقال آخرون: كانت من آس الجنة، حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء، وكان لا يأخذها غير نبي إلا أكلته، فصارت من آدم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم حتى وصلت إلى شعيب، فكانت عصا الأنبياء عنده فأعطاها موسى. وقال السدي: كانت تلك العصا استودعها إياه مَلَكٌ في صورة رجل، فأمر ابنته أن تأتبه بعصا فدخلت فأخذت العصا فأتته بها، فلما رآها شعيب قال لها: ردي هذه العصا، وأتبه بغيرها، فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلا يقع في يدها إلا هي، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات فأعطاها موسى

(1) لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث في أيهما تزوج، الصغرى أم الكبرى، وحسبنا ما جاء في كتاب الله تعالى من أنه أراد أن ينكح إحدى ابنتيه، ولو كان في معرفة اسمها فائدة لسماها الله تعالى في كتابه. والله أعلم.
(2) ليست في المخطوطتين، وأثبتها من "تاريخ بغداد" حيث ساق الخطيب بسنده عن شداد بن أوس مرفوعًا.
(3) ما بين القوسين ساقط من "أ".
(4) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: 6 / 315. وعزاه المتقي في كنز العمال: 11 / 498-499 للخطيب وابن عساكر عن شداد بن أوس، وقال: "وفيه إسماعيل بن علي بن الحسن بن بendar بن المثني الإسترابادي الواعظ، أبو سعيد، قال الخطيب: لم يكن موثوقًا به في الرواية، والحديث منكر. وقال الذهبي في الميزان (1 / 329): هذا حديث باطل لا أصل له. وقال ابن عساكر: رواه الواحدي عن ابن الفتح محمد بن علي الكوفي عن علي بن الحسن بن بendar كما رواه ابنه إسماعيل عنه، فقد برئ من عهدته، والخطيب إنما ذكره لأنه حمل فيه علي إسماعيل". وذكره ابن الجوزي في "العلل المتناهية": (1 / 49)، والألباني في "الضعيفة": (2 / 425) وقال: "ضعيف جدا".
(5) أخرجه الطبري عن عكرمة: 20 / 67.

(6/204)

فأخرجها موسى معه، ثم إن الشيخ ندم وقال: كانت وديعة، فذهب في أثره، وطلب أن يرد العصا فأبى موسى أن يعطيه. وقال: هي عصاي، فرضيا أن يجعل بينهما أول رجل يلقاهما، فلقيهما ملك في صورة رجل فحكم أن يطرح العصا فمن حملها فهي له، فطرح موسى العصا فعالجها الشيخ ليأخذها فلم يطقها، فأخذها موسى بيده فرفعها فتركها له الشيخ (1).

ثم إن موسى لما أتم الأجل وسلم شعيب، ابنته إليه، قال موسى للمرأة: اطلبي من أهلك أن يجعل لنا بعض الغنم، فطلبت من أبيها، فقال شعيب: لكما كل ما ولدت هذا العام على غير شيتها (2). وقيل: أراد شعيب أن يجازي موسى على حسن رعيته إكرامًا له وصلّة لابنته، فقال له إني قد وهبت لك من الجدايا التي تضعها أغنامي هذه السنة كل أبلق وبلقاء، فأوحى الله إلى موسى في المنام أن اضرب بعصاك الماء الذي في مستقى الأغنام قال: فضرب موسى بعصاه الماء ثم سقى الأغنام منه فما أخطأت واحدة منها إلا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله عز وجل إلى موسى وامرأته فوفى له شرطه وسلم الأغنام إليه (3).

(1) أخرجه الطبري عن السدي: 20 / 66-67. وليس في شيء من الروايات خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم في بيان هذه العصا، ولا فائدة من البحث في مثل هذه الأمور.

(2) ذكر الهيثمي في ذلك حديثا رواه البراز والطبراني وقال: في إسناده ابن لهيعة وفيه ضعف، وقد يحسن حديثه. انظر: مجمع الزوائد: 7 / 87-88، تفسير ابن كثير: 3 / 387-388 وقال: منار هذا الحديث على ابن لهيعة المصري، وفي حفظه سوء، وأخشى أن يكون رفعه خطأ، والله أعلم.

(3) ذكر الهيثمي في ذلك حديثا رواه البراز والطبراني وقال: في إسناده ابن لهيعة وفيه ضعف، وقد يحسن حديثه. انظر: مجمع الزوائد: 7 / 87-88، تفسير ابن كثير: 3 / 387-388 وقال: منار هذا الحديث على ابن لهيعة المصري، وفي حفظه سوء، وأخشى أن يكون رفعه خطأ، والله أعلم.

(6/205)

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)

{ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } (29)

قوله عز وجل: { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ } يعني أتمه وفرغ منه، { وَسَارَ بِأَهْلِهِ } قال مجاهد: لما قضى موسى الأجل مكث بعد ذلك عند صهره عشرًا آخر فأقام عنده عشرين سنة (1)، ثم استأذنه في العود إلى مصر، فأذن له، فخرج بأهله إلى جانب مصر، { آنَسَ } يعني: أبصر، { مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا }

وكان في البرية في ليلة مظلمة، شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق، { قَالَ لِأَهْلِهِ
امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ {

(1) قال الحافظ ابن كثير: (3 / 388): "وهذا القول لم أراه لغيره، وقد حكاه
عنه ابن أبي حاتم وابن جرير، فالله أعلم". وانظر الطبري: 20 / 69، الدر
المنثور: 6 / 411.

(6/205)

فَلَمَّا آتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا
مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ
وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ (31) اسْأَلْكَ يَدَكَ
فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاصْصُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ
بُرْهَاتَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32)

عن الطريق، لأنه كان قد أخطأ الطريق، { أَوْ جَدْوَةٌ مِنَ النَّارِ } يعني: قطعة
وشعلة من النار. وفيها ثلاث لغات، قرأ عاصم: "جدوة" بفتح الجيم، وقرأ
حمزة بضمها، وقرأ الآخرون بكسرهما، قال قتادة ومقاتل: هي العود الذي قد
احترق بعضه، وجمعها "جدى" (1) { لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } تستدفئون.
{ فَلَمَّا آتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ
أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَانٌ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ (31)
اسْأَلْكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاصْصُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ
فَذَانِكَ بُرْهَاتَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) }
{ فَلَمَّا آتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ } من جانب الوادي الذي عن يمين
موسى، { فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ } لموسى، جعلها الله مباركة لأن الله كلم
موسى هناك وبعثه نبيا. وقال عطاء: يريد المقدسة، { مِنَ الشَّجَرَةِ } من
ناحية الشجرة، قال ابن مسعود: كانت سمرة خضراء تيرق (2)، وقال قتادة
ومقاتل والكلبي: كانت عَوْسَجَةٌ (3). قال وهب من العُلَيْقِ (4)، وعن ابن
عباس رضي الله عنهما: أنها العنَّاب (5)، { أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ }
{ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ } تتحرك، { كَأَنَّهَا جَانٌ } وهي الحية الصغيرة
من سرعة حركتها، { وَلَّى مُدْبِرًا } هاربا منها، { وَلَمْ يُعَقِّبْ } لم يرجع،
فنودي: { يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ }
{ اسْأَلْكَ } أدخل { يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } برص، فخرجت
ولها شعاع كضوء الشمس، { وَاصْصُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ } قرأ أهل
الكوفة، والشام: بضم الراء وسكون الهاء، ويفتح الراء حفص، وقرأ الآخرون
بفتحهما، وكلها لغات بمعنى الخوف

(1) وانظر: لسان العرب، مادة (جذا)، الطبري: 20 / 69-70.
(2) في الطبري: شجرة سمراء خضراء ترف. والسمرة: شجرة من العصاه،
جيد الخشب.

- (3) شجرة من فصيلة الباذنجيات، شائكة الأغصان.
(4) نبات شائك معرش من فصيلة الورديات، ثمره أحمر وربما كان أصفر، وله نوى صلب مستدير.
(5) وكان تحديد جنس الشجرة مأخوذ من أهل الكتاب. انظر: الطبري: 20 / 71، ابن كثير: 389 / 3.

(6/206)

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34)

ومعنى الآية: إذا هلك أمر يدك وما ترى من شعاعها فأدخلها في جيبك تعد إلى حالتها الأولى. "والجناح": اليد كلها. وقيل: هو العضد. وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهم: أمره الله أن يضم يده إلى صدره (1) فيذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية، وقال: ما من خائف بعد موسى إلا إذا وضع يده على صدره زال خوفه. قال مجاهد: كل من فزع فضم جناحيه إليه ذهب عنه الفزع. وقيل: المراد من ضم الجناح: السكون، أي: سكن روعك واخفض عليك جانبك، لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه، ومثله قوله: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة" (الإسراء-24)، يريد الرفق، وقوله: "واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين" (الشعراء-215)، أي: ارفق بهم وألن جانبك لهم.

قال الفراء: أراد بالجناح العصا، معناه: اضمم إليك عصاك. وقيل: "الرَّهْبُ" الكم بلغة حمير، قال الأصمعي: سمعت بعض الأعراب يقول: أعطني ما في رهبك، أي: في كمك، معناه: اضمم إليك يدك وأخرجها من الكم، لأنه تناول العصا ويده في كمه. { قَدَانِكَ } يعني: العصا، واليد البيضاء، { بُرْهَاتَانِ } آيتان، { مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُنَّ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } { قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) } { قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا } وإنما قال ذلك للعقدة التي كانت في لسانه من وضع الجمره في فيه (2)، { فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا } عوثًا، يقال رداته أي: أعنته، قرأ نافع { رِدًا } بفتح الدال

(1) في "أ" عضده.

(2) تقدم ذلك في حديث الفتون في سورة (طه)، وفي هذه السورة، وهو في الدر المنثور: 569-579 / 5، وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: 1 / 307-300 وقال: هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي، وأخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون. والأشبه -والله أعلم- أنه موقوف، وكونه مرفوعا فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات، وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر، ونكارة، والأغلب أنه كلام كعب الأحبار. وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك. والله أعلم.

قَالَ سَتَشِدُّ عَصَدَكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا
وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ (35)

من غير همز طلبًا للخفة، وقرأ الباقر بسكون الدال مهموزًا، { يُصَدِّقُنِي }
قرأ عاصم، وحمزة: برفع القاف على الحال، أي: رداءً مصدقًا، وقرأ الآخرون
بالجزم على جواب الدعاء والتصديق لهارون في قول الجميع، قال مقاتل: لكي
يصدقني 63/ب فرعون، { إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكْذِبُونَ } يعني فرعون وقومه.
{ قَالَ سَتَشِدُّ عَصَدَكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا
وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ (35) }

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا
فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (36) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ
تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا
عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا
لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا
فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (36) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ
تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا
عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا
لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) }

{ قَالَ سَتَشِدُّ عَصَدَكَ بِأَخِيكَ } أي: نقوبك بأخيك، وكان هارون يومئذ بمصر،
{ وَتَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا } حجة وبرهانا، { فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا } أي: لا
يصلون إليكما بقتل ولا سوء لمكان آياتنا، وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره:
ونجعل لكم سلطانًا بآياتنا بما نعطيكم من المعجزات فلا يصلون إليكما،
{ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ } أي: لكم ولأتباعكم الغلبة على فرعون
وقومه.

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ } وواضحات، { قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى
{ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا } والذي تدعونا إليه، { فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ }
{ وَقَالَ مُوسَى } قرأ أهل مكة بغير واو، وكذلك هو في مصاحفهم، { رَبِّي
أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ } بالمحق من المبطل، { وَهِيَ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ
الدَّارِ } العقبى المحمودة في الدار الآخرة، { إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } أي:
الكَافِرُونَ.

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى
الطين } فاطبخ لي الآجر، وقيل: إنه أول من اتخذ من الآجر وبنى به، { فَاجْعَلْ
لِي صَرْحًا } قصرًا عاليًا، وقيل: منارة، قال أهل التفسير (1) لما أمر فرعون
وزيره هامان ببناء الصرح، جمع هامان العمال والفعلة

وَإِسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)
فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ قَبَذَاتَهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)
وَجَعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَا هُمْ فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء، ومن يطبخ الآجر والجص وينجر الخشب ويضرب المسامير، فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، أراد الله عز وجل أن يفتنهم فيه، فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه وأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت إليه وهي ملطخة دما، فقال قد قتلت إله موسى، وكان فرعون يصعد على البراذين، فبعث الله جبريل جنح غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منها على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف ألف رجل، ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب، ولم يبق أحد ممن عهد فيه بشيء إلا هلك (1)، فذلك قوله تعالى: { فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى } أنظر إليه وأقف على حاله، { وَإِنِّي لَأظنُّهُ } يعني موسى، { مِنْ الْكَاذِبِينَ } في زعمه أن للأرض والخلق إليها غيري، وأنه رسوله.

{ وَإِسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)
فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ قَبَذَاتَهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)
وَجَعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَا هُمْ فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42) }

{ وَإِسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ } قرأ نافع، وحمزة، والكسائي ويعقوب: "يُرْجَعُونَ" بفتح الياء وكسر الجيم،
[والهياقون بضم الياء وفتح الجيم] (2).

{ فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ قَبَذَاتَهُمْ } فالقيناهم، { فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الظَّالِمِينَ }
{ وَجَعَلْنَا هُمْ أُمَّةً } قادة ورؤساء، { يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ }
لا يمنعون من العذاب.
{ وَأَتْبَعْنَا هُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً } خزيًا وعذابًا، { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ
الْمَقْبُوحِينَ } المبعدين (3) الملعونين، وقال أبو عبيدة: من المهلكين. وعن
ابن عباس رضي الله عنهما قال: من

(1) ذكره الطبري مختصرا عن السدي: 20 / 78، والقرطبي: 13 / 289
وقال مشيرا إلى تضعيف هذا القول: "والله أعلم بصحة ذلك".
(2) ما بين القوسين ساقط من "أ".
(3) في "أ": المعذبين.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)

المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون، يقال: قَبَحَهُ اللهُ وَقَبَّحَهُ: إذا جعله
قبيحًا، ويقال: قبحه قبيحًا، وقبوحًا، إذا أبعدَهُ من كل خير.
{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) }

(6/210)

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)
وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45)

{ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)
وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) }

قوله تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى }
يعني: قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم كانوا قبل موسى، { بَصَائِرَ لِلنَّاسِ } أي:
ليبصروا بذلك الكتاب ويهتدوا به، { وَهُدًى } الضلالة لمن عمل به، { وَرَحْمَةً }
لمن آمن به، { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } بما فيه من المواعظ والبصائر.
{ وَمَا كُنْتَ } يا محمد (1)، { بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ } يعني: بجانب الجبل الغربي،
قاله قتادة والسدي، وقال الكلبي: بجانب الوادي الغربي. قال ابن عباس رضي
الله عنهما: يريد حيث ناجى موسى ربه، { إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ } يعني
عهدنا إليه وأحكنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه، { وَمَا كُنْتَ مِنَ
الشَّاهِدِينَ } الحاضرين ذلك المقام فتذكره من ذات نفسك.
{ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا } خلقنا أمما بعد موسى عليه السلام، { فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
الْعُمُرُ } أي: طال عليهم المهلة فنسوا عهد الله وتركوا أمره، وذلك أن الله
تعالى قد عهد إلى موسى وقومه عهودا في محمد صلى الله عليه وسلم
والإيمان به، فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك
العهود وتركوا الوفاء بها. { وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا } مقيما، { فِي أَهْلِ مَدْيَنَ } كمقام
موسى وشعيب فيهم، { تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } تذكرهم بالوعد والوعيد، قال
مقاتل: يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم، { وَلَكِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ } أي: أرسلناك رسولا وأنزلنا عليك كتابا فيه هذه الأخبار، فتتلوها
عليهم ولولا ذلك لما علمتها ولم تخبرهم بها.

(1) ساقط من "أ".

(6/210)

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ
تَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا قَتَلْنَا بِأَيْدِينَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47)

{ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ
تَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا قَتَلْنَا بِأَيْدِينَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) }
{ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ } بناحية الجبل الذي كلم الله عليه موسى، { إِذْ
نَادَيْنَا } قيل: إِذْ نَادَيْنَا موسى: خذ الكتاب بقوة (1). وقال وهب: قال موسى:
يا رب أرني محمدا، قال: إنك لن تصل إلى ذلك، وإن شئت ناديت أمته
وأسمعتك صوتهم، قال: بلى يا رب، قال الله تعالى: يا أمة محمد فأجابوه من
أصلا بآبائهم (2) وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير: ونادى يا أمة محمد قد
أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني (3).
وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما -ورفعه بعضهم-، قال الله: يا أمة محمد،
فأجابوه من أصلا بآباء وأرحام الأمهات: لبيك اللهم لبيك، إن الحمد والنعمة
لك والملك، لا شريك لك. قال الله تعالى: يا أمة محمد إن رحمتي سبقت
غضبي وعفوي سبق عقابي، قد أعطيتكم من قبل أن تسألوني وقد أجبتكم من
قبل أن تدعوني، وقد غفرت لكم من قبل أن تعصوني، من جاءني يوم القيامة
بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبدي ورسولي دخل الجنة، وإن كانت
ذنوبه أكثر من زبد البحر (4). قوله تعالى: { وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ } أي:
ولكن رحمتك رحمة بإرسالك والوحي إليك وإطلاعك على الأخبار الغائبة عنك
64/أ، { لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ تَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ } يعني: أهل مكة، { لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ }
{ وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ } عقوبة ونقمة، { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } الكفر
والمعصية،

(1) قال ابن الجوزي في زاد المسير: (إذ نادينا) موسى وكلمناه، هذا قول
الأكثرين. (6 / 226).

(2) ذكره القرطبي: 13 / 292، وتقدم في موضع سابق أن هذا من الأخبار
المتلقاة عن أهل الكتاب مما أدخله وهب وغيره في مرويات التفسير، والله
أعلم.

(3) أخرجه النسائي في التفسير من سننه عن أبي زرعة عن أبي هريرة. قال
ابن كثير: (3 / 392): "وهكذا رواه ابن جرير: (20 / 81) وابن أبي حاتم من
حديث جماعة عن حمزة، وهو ابن حبيب الزيات، عن الأعمش، ورواه ابن جرير
(20 / 81) من حديث وكيع ويحيى بن عيسى عن الأعمش عن علي بن مدرك
عن أبي زرعة وهو ابن عمرو بن جرير أنه قال ذلك من كلامه. والله أعلم".
وزاد السيوطي في الدر (6 / 418) نسبه للفريابي والحاكم -وصححه-، وابن
مردويه، وأبي نعيم والبيهقي معا في الدلائل عن أبي هريرة.

(4) عزاه السيوطي لابن مردويه عن ابن عباس. انظر: الدر المنثور 6 / 418.

(6/211)

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (48) قُلْ قَاتُوا بِكِتَابِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

{ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا { هلا { أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ { وجواب "لولا" محذوف، أي: لعاجلناهم بالعقوبة، يعني: لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم. وقيل: معناه لما بعثناك إليهم رسولا ولكن بعثناك إليهم لئلا يكون للناسي على الله حجة بعد الرسل. } قَلِمًا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (48) قُلْ قَاتُوا بِكِتَابِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50) }

{ قَلِمًا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا { يعني محمداً صلى الله عليه وسلم، { قَالُوا { يعني: كفار مكة، { لَوْلَا { هلا { أُوتِيَ { محمد، { مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ { [من الآيات كاليد البيضاء والعصا وقيل: مثل ما أُوتِيَ موسى] (1) كتاباً جملة واحدة. قال الله تعالى: { أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ { أي: فقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد { قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا { قرأ أهل الكوفة: "سحران"، أي: التوراة والقرآن: "تظاهرا" يعني: كل سحر يقوي الآخر، نسب التظاهر إلى السحرين على الاتساع، قال الكلبي: كانت مقاتلتهم تلك حين بعثوا إلى رءوس اليهود بالمدينة، فسألوهم عن محمد فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة، فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا: سِحْرَانِ تَظَاهَرَا. وقرأ الآخرون: "ساحران" يعنون محمداً وموسى عليه السلام، لأن معنى التظاهر بالناس هو أفعالهم أشبه منه بالكتب، { وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ { قُلْ { يا محمد، { قَاتُوا بِكِتَابِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا { يعني: من التوراة والقرآن، { أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ { أي: لم يأتوا بما طلبت، { فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {

(1) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(6/212)

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52)

{ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) { قال ابن عباس رضي الله عنهما: بينا. قال الفراء: أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضاً. قال قتادة: وصل لهم القول في هذا

القرآن، يعني كيف صنع بمن مضى. قال مقاتل: بينا لكفار مكة بما في القرآن من أخبار الأمم الخالية كيف عذبوا (1) بتكذيبهم. وقال ابن زيد: وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة (2) حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا، { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ } من قبل محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم. وقيل: من قبل القرآن، { هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ } نزلت في مؤمني أهل الكتاب؛ عبد الله بن سلام وأصحابه (3). وقال مقاتل: بل هم أهل الإنجيل الذين قدموا من الحبشة وأمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم (4). [وقال سعيد بن جبيرة: هم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر من الحبشة على النبي صلى الله عليه وسلم] (5)، فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة قالوا: يا نبي الله إن لنا أموالاً [فإن أذنت لنا أنصرفنا] (6) وجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها [فأذن لهم، فأنصرفوا فاتوا بأموالهم، فواسوا بها للمسلمين] (7)، فنزل فيهم: { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } إلى قوله تعالى: { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } (8). وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب، أربعون من نجران، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من الشام (9). ثم وصفهم الله فقال: { وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ }

- (1) في "أ": كيف عدوا.
- (2) في "ب": خير الدنيا بخير الآخرة.
- (3) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي. انظر: الدر المنثور: 6 / 426، زاد المسير: 6 / 229، البحر المحيط: 7 / 125.
- (4) انظر الدر المنثور: 2 / 87.
- (5) ما بين القوسين ساقط من "أ".
- (6) ما بين القوسين ساقط من "أ".
- (7) ما بين القوسين ساقط من "أ".
- (8) أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة، انظر: الدر المنثور: 6 / 427.
- وأخرج الطبراني نحوه مطولاً عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند فيه من لا يعرف. انظر: أسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين ص (721) في أسباب نزول سورة الحديد.
- (9) انظر: زاد المسير 6 / 229، تفسير ابن كثير: 3 / 394-395، وراجع فيما سبق: 2 / 85-87. والله أعلم أي ذلك كان. "وأياً كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع، يعلمونه ولا ينكرونه، كي يقفهم وجهاً لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن، وتطمئن إليه، وترى فيه الحق، وتعلم مطابقتها لما بين أيديها من الكتاب. ولا يصدها عنه صاد من هوى ولا من كبرياء، وتحتل في سبيل الحق الذي أمنت به ما يصيبها من أذى وتناول من الجهلاء، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء". انظر: في ظلال القرآن: 5 / 2700-2701.

(6/213)

وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53)
أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبَدَرُوا بِالْحَسَنَةِ الَّتِي كَانُوا يَسْتَوُونَ بِهَا لَكِنَّا كُنَّا نَقُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

يُنْفِقُونَ (54) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55)

{ وَإِذَا بُنِيَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53)
أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبَدَرُوا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ (54) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55) }

{ وَإِذَا بُنِيَ عَلَيْهِمْ } يعني القرآن، { قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا } وذلك أن
ذكر النبي صلى الله عليه وسلم كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، { إِنَّا
كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ } أي: من قبل القرآن مسلمين مخلصين لله بالتوحيد
مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه نبي حق.

{ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ } لإيمانهم بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، { بِمَا
صَبَرُوا } على دينهم. قال مجاهد: نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا
فأوذوا (1) أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا أبو علي زاهر
بن أحمد، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن حفص الجويني، أخبرنا أحمد بن سعيد
الدارمي، أخبرنا عثمان، أخبرنا شعبة، عن صالح، عن الشعبي، عن أبي بردة،
عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاثة
يؤتون أجرهم مرتين: رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها
وتزوجها، ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وأمن بمحمد صلى الله عليه
وسلم، وعبد أحسن عبادة الله ونصح سيده" (2). قوله عز وجل: { وَبَدَرُوا
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } قال ابن عباس رضي الله عنهما: يدفعون بشهادة أن لا إله
إلا الله الشرك، قال مقاتل: يدفعون ما سمعوا من الأذى والشتم من
المشركين بالصفح والعتق (3)، { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } في الطاعة.
{ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ } القبيح من القول، { أَعْرَضُوا عَنْهُ } وذلك أن المشركين
كانوا يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون: تبا لكم تركتم دينكم، فيعرضون
عنهم ولا يردون عليهم،

(1) عزاه السيوطي في الدر: 6 / 427 لابن أبي شيبة وابن المنذر.
(2) أخرجه البخاري في العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله: 1 / 90، ومسلم
في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع
الناس، برقم (97): 1 / 134، والمصنف في شرح السنة: 1 / 53.
(3) انظر فيما سبق: سورة الرعد، الآية (22).

(6/214)

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)
وَقَالُوا إِن تَبِعَ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَى
إِلَيْهِ تَمَرَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57)

{ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ } لنا ديننا ولكم دينكم، { سَلَامٌ عَلَيْكُمْ }
ليس المراد منه سلام التحية، ولكنه سلام المتاركة، معناه: سلمتم منا لا
نعارضكم بالشتم والقبيح من القول، { لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } أي: دين الجاهلين،

يعني: لا نحب دينكم الذي أنتم عليه. وقيل: لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه، وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال (1).
 { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56) }
 وَقَالُوا إِنَّ تَبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ تُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى
 إِلَيْهِ تَمَرَاتٌ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) }
 قوله تعالى: { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } أي: أحببت هدايته. وقيل: أحببته
 لقرايته، { وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } قال مجاهد،
 ومقاتل: لمن قدر له الهدى، نزلت في أبي طالب قال له النبي صلى الله عليه
 وسلم: قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة، قال: لولا أن تعيرني
 قريش، يقولون: إنما حملة على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله
 تعالى هذه الآية (2).

{ وَقَالُوا إِنَّ تَبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ تُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا } مكة، نزلت في الحرث بن
 عثمان بن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا
 لنعلم أن الذي تقول حق، ولكننا إن اتبعناك علي دينك خفنا أن نُخرجنا العرب
 من أرضنا مكة (3). وهو معنى قوله: { تُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا } 64/ب،
 والاختطاف: الانتزاع بسرعة. قال الله تعالى: { أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا }
 وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم
 بعضًا، وأهل مكة آمنون حيث كانوا، لحرمة الحرم، ومن المعروف أنه كان يأمن
 فيه الأطباء من الذناب والحمام من الحداة، { يُجْبَى } قرأ أهل المدينة
 ويعقوب: "تجى" بالتاء لأجل الثمرات، والآخرون بالياء للحائل بين الاسم
 المؤنث والفعل، أي: يجلب ويجمع، { إِلَيْهِ } يقال: جبيت الماء في الحوض أي:
 جمعته، قال مقاتل: يحمل إلى الحرم، { تَمَرَاتٌ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } أن ما يقوله حق.

- (1) راجع فيما سبق: 3 / 32 تعليق (1).
 (2) أخرجه مسلم في الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره
 الموت... برقم (24): 1 / 55، وأخرجه البخاري مطولاً بلفظ آخر في التفسير:
 8 / 506. وانظر: الدر المنثور 6 / 428، أسباب النزول للواحدي ص (390).
 (3) عزاه السيوطي في الدر (6 / 430) للنسائي وابن المنذر، عن ابن عباس
 رضي الله عنهما: وانظر: المحرر الوجيز: 12 / 177.

(6/215)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا
 قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ
 رُسُلًا يَأْتُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59)

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا
 قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ
 رُسُلًا يَأْتُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59) }

(6/216)

وَمَا أوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَقْلًا
تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدَّتَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

{ وَمَا أوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَقْلًا
تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدَّتَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61) }

قوله عز وجل: { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ } { أي من أهل قرية } (1) ، { بَطِرَتْ
مَعِيشَتَهَا } أي: في معيشتها، أي: أشرفت وطغت، قال عطاء: عاشوا في البطر
فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام، { قَتَلْنَا مَسَاكِينَهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا
قَلِيلًا } قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يسكنها إلا المسافرون وما
الطريق يومًا أو ساعة، معناه: لم تسكن من بعدهم إلا سكونًا قليلًا. وقيل:
معناه: لم يعمر منها إلا أهلها وأكثرها خراب، { وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ } "إنا نحن
نرث الأرض ومن عليها" (مريم-40) .

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى } أي: القرى الكافر أهلها، { حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ
رَسُولًا } يعني: في أكبرها وأعظمها رسولا يذرهم، وخص الأعظم ببعثه
الرسول فيها، لأن الرسول يبعث إلى الأشراف، والأشراف يسكنون المدائن،
والمواضع التي هي أم ما حولها، { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } قال مقاتل: يخبرهم
الرسول أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا، { وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا
ظَالِمُونَ } مشركون، يريد: أهلكتهم بظلمهم.

{ وَمَا أوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا } تتمتعون بها أيام حياتكم ثم
هي إلى فناء وانقضاء، { وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَقْلًا تَعْقِلُونَ } أن الباقي خير
من الفاني. قرأ عامة القراء: "تعقلون" بالتاء وأبو عمرو بالخيار بين التاء
والياء.

{ أَفَمَنْ وَعَدَّتَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا } أي الجنة { فَهُوَ لَاقِيهِ } مصيبه ومدركه وصائر
إليه { كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } ويزول عن قريب { ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
مِنَ الْمُحْضَرِينَ } النار، قال

(1) ساقط من "أ".

(6/216)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ
عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِبْرَائِيًا
يَعْبُدُونَ (63) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ
لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65)

قتادة: يعني المؤمن والكافر، قال مجاهد: نزلت في النبي صلى الله عليه
وسلم وأبي جهل (1) . وقال محمد بن كعب: نزلت في حمزة وعلي، وأبي
جهل (2) . وقال السدي: نزلت في عمار والوليد بن المغيرة (3) .
{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُتَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) { وَيَوْمَ يُتَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرَعُمُونَ } في الدنيا أنهم

شركائِي. { قَالَ الَّذِينَ جَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ } وجب عليهم العذاب وهم رعوس الضلالة، { رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا } أي: دعوناهم إلى الغي، وهم الأتباع، { أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا } أضللناهم كما ضللنا، { تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ } منهم { مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ } برئ بعضهم من بعض وصاروا أعداء، كما قال تعالى: "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو" (الزخرف-67).

{ وَقِيلَ } للكفار: { ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ } أي: الأصنام لتخلصكم من العذاب، { فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ } يحييهم، { وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } وجواب "لو" محذوف على تقدير: لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما رأوا العذاب.

{ وَيَوْمَ يُتَادِيهِمْ } أي: يسأل الله الكفار، { فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ }

- (1) أخرجه الطبري: 20 / 97، وذكره الواحدي في الأسباب ص (391) دون سند ولم ينسبه لأحد، المحرر الوجيز: 12 / 178.
(2) أخرجه الطبري: 20 / 97، والواحدي (391) عن مجاهد.
(3) أسباب النزول للواحدي ص (391). ونقل القرطبي عن القشيري قال: والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم. وقال الثعلبي: وبالجملة فإنها نزلت في كل كافر متع في الدنيا بالعافية والغنى، وله في الآخرة النار، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله، وله في الآخرة الجنة".
تفسير القرطبي: 13 / 303. وكذلك ذهب ابن كثير (3 / 397) إلى أنها عامة، وهذا كقوله تعالى إخبارا عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو في الدرجات، وذاك في الدرجات فقال: "ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين" وقال تعالى: "ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون".

(6/217)

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

{ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ } (66) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ } (67) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (70) { فَعَمِيَتْ } خفيت واشتهت { عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ } أي: الأخبار والأعداء، وقال

مجاهد: الحجج، { يَوْمِيذ } فلا يكون لهم عذر ولا حجة، { فَهَمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ } لا يجيبون، وقال قتادة: لا يحتجون، وقيل: يسكتون لا يسأل بعضهم بعضا. { فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ } السعداء الناجين.

قوله تعالى: { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ } نزلت هذه الآية جوابا للمشركين حين قالوا: "لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم"، يعني: الوليد بن المغيرة، أو عروة بن مسعود الثقفي (1)، أخير الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم. قوله عز وجل: { مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ } قيل: "ما" للإثبات، معناه: ويختار الله ما كان لهم الخيرة، أي: يختار ما هو الأصلح والخير (2). وقيل: هو للنفي (3) أي: ليس إليهم الاختيار، وليس لهم أن يختاروا على الله، كما قال تعالى: "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة" (الأحزاب-36)، "والخيرة": اسم من الاختيار يقام مقام المصدر، وهي اسم للمختار أيضا كما يقال: محمد خيرة الله من خلقه. ثم نزه نفسه فقال: { سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } { وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ } يظهرون. { وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ } يحمده أولياؤه في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة في الجنة، { وَلَهُ الْحُكْمُ } فصل القضاء بين الخلق. قال ابن عباس رضي الله عنهما:

(1) انظر أسباب النزول للسيوطي بهامش الجلالين ص (288-289).
(2) وهو ترجيح الطبري: 20 / 100-101، وانظر: البحر المحيط: 7 / 129.
(3) ورجح هذا: النحاس في معاني القرآن: 5 / 194، قال الحافظ ابن كثير: (398 / 3): "والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره أيضا. فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: "سبحان الله وتعالى عما يشركون" أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئا".

(6/218)

حكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاء، { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }

(6/219)

فُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِنُورٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ (71) فُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَتَرَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ بَصِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (73) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (74) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (75) {

قوله عز وجل: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ } أخبروني (1) يا أهل مكة { إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا } دائما، { إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } لا نهار معه، { مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَصِيَاءٍ } بنهار تطلبون فيه المعيشة، { أَفَلَا تَسْمَعُونَ } سماع فهم

وقبول: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } لا دليل فيه، { مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } ما أنتم عليه من الخطأ.

{ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ } أي: في الليل، { وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } بالنهار، { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } نعم الله عز وجل. { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } كرر ذكر النداء للمشركين لزيادة التقرير والتوبيخ.

{ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا } يعني: رسولهم الذي أرسل إليهم، كما قال: " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد" (النساء-41) ، { فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } حجتكم بأن معي شريكا. { فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ } التوحيد، { لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } في الدنيا.

(1) ساقط من "أ".